

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية

الحالة الاجتماعية في العراق وفارس في
القرن الرابع الهجري وأثرها في أدب
التيمة للثعالبي

رسالة

مقدمة إلى كلية اللغة العربية (جامعة الأزهر)
لتين درجة العالمية (الدكتوراه) في الأدب والنقد

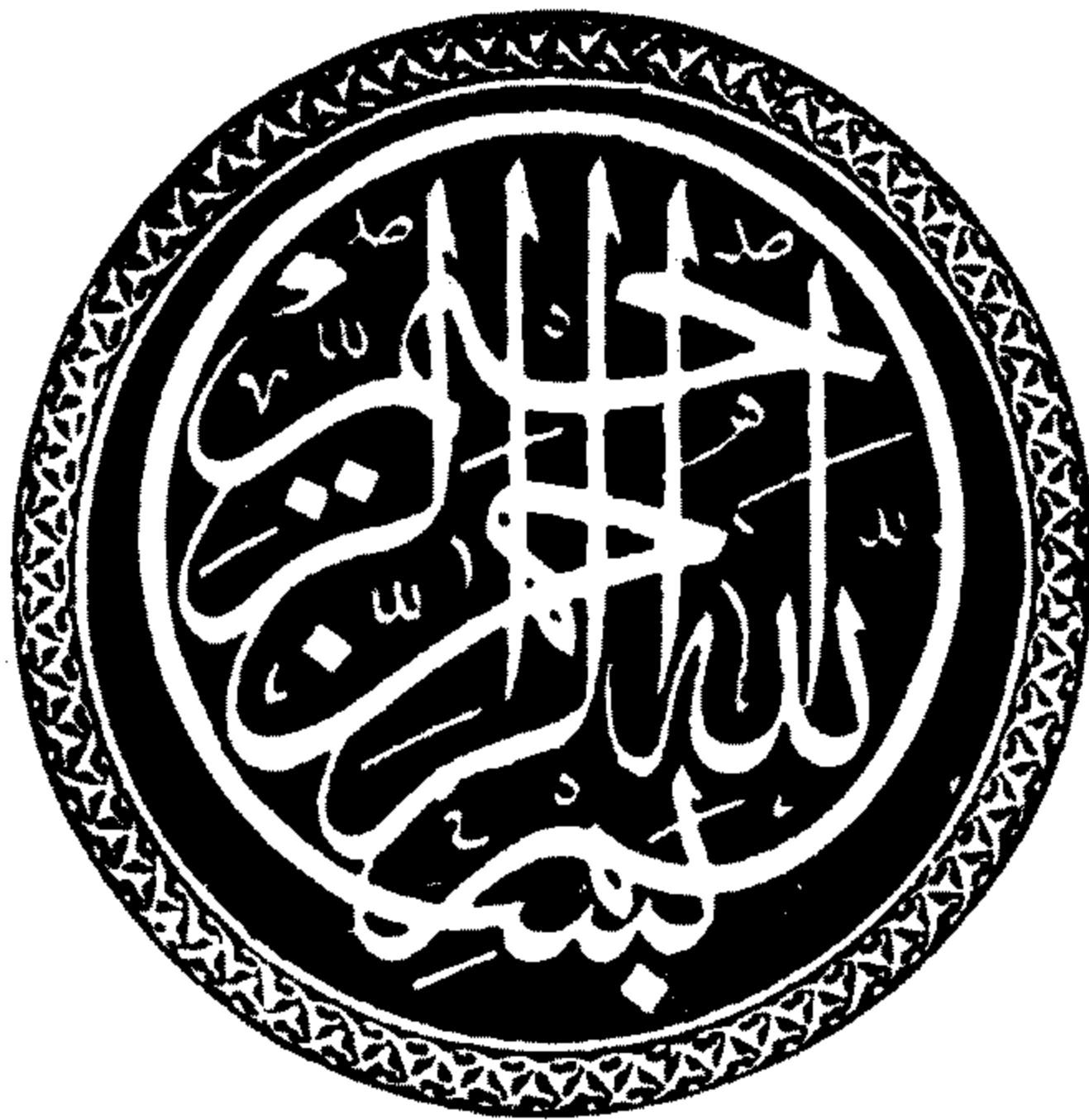
إعداد

عبدالله محمد الرضا

أشرف

الدكتور عبد السلام

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م



نسخ و طبع و تجلید
الجریسی
ت ۹۰۵۰ من ۶ لک ۲۹

الحمد لله على ما أفاض من سوابغ نعمه ، وأغدق من بحور فضله
وكرمه ، أحمدده - تعالى - حمد الشاكرين ، وأثنى عليه ثناء المارفين ،
وأسأله - جل شأنه - السداد والتوفيق ، والهداية لإقوم طريق " رُبَّنَا
لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ
الْوَهَّابُ " .

وأصلى وأسلم على واسطة هُدى الأنبياء ، وأشرف المرسلين والأصفياء
سيدنا محمد خير من أظلت الخضر ، وأكرم من أقلت الفبر ، وعلى
آله وصحبه الراشدين ، الى يوم البعث والدين .

" وممد " فلقد أتاحت لي دراستي الجامعية في كلية اللغة
المربية ، أن أتعرف الى كتب التراث الأدبي والنقدى خاصة تلك التي
ألفت في عصر النهضة الإسلامية ، تحت ظلال الدولة المباسية .

ولقد لمست أنه تراث فكري ضخم ، جامع لكثير من المختارات
الشعرية والنثرية حافل بشتى الموضوعات الأدبية والنقدية ، زاخر
بمختلف الاتجاهات الموضوعية والفنية .

ولقد كان من بين هذه الموسوعات الأدبية موسوعة شدت أعصابي
وأثارت إعجابي وهي كتاب " يتيمة الدهر في محاسن أهل المصـر " ^{٢٢}
لأبي منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ، وهو كتاب أدبي ضخم استطاع
الثعالبي أن يجمع فيه نتاج أدباء القرن الرابع الهجري شمراً ونشراً ، وأن
يترجم لكثير من الشعراء والكتاب في الدولة الإسلامية المترامية الأطراف
- آنذاك - وأن يسلط الضوء على نتاجهم الأدبي بالدراسة الواعية ، والنقد
المنهجي ، والتحليل العليم ، فكان كتابه موسوعة أدبية ، نقدية ، حضارية
نادرة ، ولقد راعى أن هذا السفر الخالد - على نفاسته ، وعظم قيمته -
يكاد يكون مجهولاً لدى معظم الناشئين ، والمتأدبين ، وأنه أصبح غير معروف

أو مسموع به إلا عند قلة من الباحثين الذين اهتموا بالدراسات الأدبية
والنقدية ، والتاريخية . . .

ومما زاد في دهشتي - كذلك - أنني وجدت كثيرا من كتب
التراث الأدبي والنقدى - التى تقل عنه قيمة ومنزلة - أكثر منه شهرة ، وأبعد
صيتا وأعظم انتشارا .

ومن هنا اتجهت الى أن أجعل من أدب " اليتيمة " موضوعا
لرسالة " الدكتوراه " إذا ما أتيت لي تلك الدراسة المنهجية الواسعة ،
حتى يتبوأ الكتاب - بعد دراسته - مكانة لا تفتقر بين كتب التراث . .

ومن هنا جعلت موضوع رسالتي " أدب اليتيمة واتجاهاته " لا تُعرف
من خلال دراستي لذلك الأدب إلى التيارات الفكرية ، والفنية لأدب القرن
الرابع الهجرى فى الدولة الإسلامية .

ولكننى بعد أن تقدمت فى البحث ، وقطعت شوطا بعيدا فيه
تبين أن هذا موضوع واسع لا يمكن استكناؤه فى رسالة واحدة . .

ذلك أن دراسة الأدب العربى فى قرن كامل كالقرن الرابع الهجرى
وفى رقعة من الأرض واسعة ، هى الدولة الإسلامية بحدودها من خراسان
وما وراء النهر شرقا ، إلى بلاد المغرب والأندلس غربا يحتاج إلى عدة
رسائل ، حتى يمكن الإحاطة به ، والوصول إلى غاية مؤملة فيه .

ولما كان الأدب العربى ظلا لأحوال المجتمع السائدة فيه ، وصورة
صادقة لحياة الأفراد والجماعات . . رأيت أن أعدل عنوان البحث وأجمله
قاصرا على دراسة " الحالة الاجتماعية فى المراق وفارس فى القرن الرابع
الهجرى وأثرها فى أدب اليتيمة " .

وقد تمت الموافقة - بحمد الله وتوفيقه - على هذا التعديل لأن
أدب اليتيمة عن هذين الإقليمين يمد ظلا للحياة الاجتماعية السائدة فيهما

آنذاك .. إذ فيه نعيم المترفين ، وشقاء المحرومين ، كما أن فيه صورا من مجون المابئين ، وزهد المابدين ، وهو كما ترى موضوع ذو شقين :-

الشق الأول : هو الحالة الاجتماعية في إقليم المراق وفارس في القرن الرابع الهجرى .

والشق الثانى : هو أثر هذه الحياة في أدب اليتيمة ..

ولما كانت دراسة الحالة الاجتماعية لاية بيئة من البيئات يمكن أن تمكس بصورة واضحة مدى نهضة هذه البيئة وتقدمها ، أو خمودها - وركودها - عدت الى تسجيل الظواهر الاجتماعية في هذين الاقليمين - تسجيلا شاملا يحيط بكل عناصرها في دقة وأمانة حتى أتمكن من إعطاء صورة حقيقية واضحة عن مركز وحضارة هذين الإقليمين في القرن الرابع .. ولقد حاولت في هذه الدراسة أن أستعين بكتب التاريخ التقليدية أمثال " مروج الذهب " للمصمودي و " الكامل في التاريخ " لابن الأثير و " الفخرى في الآداب السلطانية " لابن طباطبا ، وغيرها من مراجع التاريخ المعروفة ، ولكننى وجدت بها شحيرة في ذكر الوقائع والظواهر - التى تمكس الحالة الاجتماعية السائدة - آنذاك - لأنها كانت تركز على الجوانب السياسية والعسكرية ، وتهتم بسير الملوك والحكام ، وما جرى لهم من أحداث ، وما وقع بينهم من حروب ، وقلما كانت تشير الى أخبار الومعة أو تهتم بأحوالهم الاجتماعية ، والاقتصادية ، والحضارية

على أن ذلك لم يثنى عن المضى فى البحث ، ومواصلة الدراسة ، فقد آليت أن أتجه الى مصادر المعرفة المختلفة التى يمكن أن تعيننى على تحقيق تلك الغاية فاستممت بكتب الحضارة ، والاجتماع ، والاقتصاد ، والجغرافية والأدب والنقد وغيرها من العلوم الانسانية

وان نظرة واحدة الى المراجع المسجلة فى ذيل هذا البحث لكفيلة بأن تعطى صورة صادقة للجهد الذى بذلته فى هذا السبيل

ومن أهم المراجع التي أفادتني في هذا الأمر ، وأنارت لي طريق
البحث وساعدتني على المضي في الدراسة ، المؤلفات الآتية :-

١ - كتاب " الامتاع والمؤانسة " لأبي حيان التوحيدي وهو كتاب ضخم
يقع في ثلاثة أجزاء ، يتعرض فيه مؤلفه لكثير من الشؤون الاجتماعية
التي كانت سائدة في العراق وفارس في ذلك العصر ، فيصف
مجالس الأمراء والوزراء ، ويذكر محاسنهم ، ومساوئهم ، ويتحدث عن
العلماء والأدباء ، ويحلل شخصياتهم ، وما يدور في مجالسهم من
جدال ، ومناظرة ، وخصومة ، وما كانوا يلاقونه أحيانا من مسرارة
الميش ، وقسوة الحياة

٢ - كتاب " الديارات " لأبي الحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي
وهو - وإن كان يتحدث عن ديارات النصارى ، ويبين مواقفهم -
ويصف جمال منظرها ، وطيب هوائها ، وغذوبة مائها ، وحسن
شرابها ، وما يجري فيها من لهو ومجون - كتاب مفيد ذو جوانب
ثقافية متعددة ، فهو كتاب بلدان ، وتاريخ ، وتراجم ، وأدب ،
وحضارة ، كما أن فيه تصورا للجانب الماثب من حياة المجتمع في
تلك العصور

٣ - كتاب " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " للمقدسي ، وهو كتاب
نافع في دراسة الحالة الاجتماعية حيث يتحدث فيه صاحبه عن
معظم البلاد التي زارها ، وطاف بها ، ويصف عادات أهلها
وتقاليدهم ، ويتعرض - أحيانا - لذكر أخلاقهم وعقائدهم ودياناتهم .

ولعل أوجه القصور في هذه الكتب - جميعا - أن المادة العلمية
فيها ليست مرتبة ولا منظمة ، كما أنها لا تقتصر على دراسة الحالة الاجتماعية
وحدها وإنما تتحدث عن مختلف العلوم والفنون - كما هو الشأن في معظم
كتب التراث - . . . ومن ثم كانت معلوماتها الاجتماعية والحضارية تحتاج إلى

كثير من الإحاطة والشمول ..

وأما المراجع الحديثة التي أفادتني كذلك في تلك الدراسة فأهمها :-

١ - كتاب " الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى " للمستشرق الألماني " آدم مئتر " الذي تميز فيه لدراسة كثير من ظواهر الحياة الاجتماعية في ذلك العصر ..

٢ - كتاب " ظهر الاسلام " للأستاذ أحمد أمين وهو يشبه كتاب " الحضارة الاسلامية " المؤلف الذكر من حيث غايته بالنهضة الاسلامية وتصوير الحياة الاجتماعية تصويرا شاملا ودقيقا ..

هذا فيما يتعلق بالشطر الأول من الرسالة وهو الحالة الاجتماعية في القرن الرابع الهجرى ..

أما ما يتعلق بالشطر الثاني من الموضوع وهو أثر الحالة الاجتماعية في أدب " اليتيمة " فقد كان كتاب " اليتيمة " هو المصدر الوحيد لكل الشواهد الأدبية عنه شمرا ، ونثرا فقد شفى وكفى ، وبالحق فأوفى كما يقول الثعالبي ...

وما أظن أن باحثا آخر قد سبقني الى دراسة هذا الموضوع بمثل هذا الاتساع والشمول ، وكل ما ألفت في هذا السبيل يتعلق ببحوث جزئية تتناول جانبها من جوانبه ، أو تمالج زاوية من زواياه .. وأذكر منها على سبيل المثال :-

١ - رسالة " ماجستير " للباحث مصطفى محمد الحلوقدمها لكلية دار العلوم وموضوعها " أبو منصور الثعالبي وآثاره الأدبية " وهي تهتم بجمع تراث الثعالبي شعرا ونثرا وإلقاء الضوء عليه ..

٢ - رسالة " ماجستير " أخرى للباحث على محمد موسى قدمها لكلية اللغة العربية وموضوعها " ثقافة الشمالي وأثرها في نقده للمتنبي " وهي كما ترى بميدة عن موضوع دراستي التي تهتم بالتيارات الأدبية في إقليم العراق وفارس على ضوء الحياة الاجتماعية . . .

٣ - وأخيرا هناك كتاب " الأدب في ظل بني بويه " لمحمود غزاوي الزهيري الذي تعرض لدراسة الأدب في عهد بني بويه على ضوء الحالة الطبيعية والسياسية والاجتماعية في أقاليم الدولة البويهية بصورة عامة ولم يركز اهتمامه على الحالة الاجتماعية - وحدها - وبيان أثرها في الأدب كما هو الحال في معالجتى لهذا الموضوع ولذا كانت دراسته لهذه الناحية تحتاج الى كثير من الاستقصاء والشمول . . .

وليس في هذا استهانة بجهود هؤلاء الباحثين أو تقليل من شأنهم فلهم فضل السبق على كل حال ، ولا أنكر أن بحوثهم كانت علامات مضيئة على الطريق ساعدتني على المضي في البحث والوصول الى النتائج التي رجوتها فيه . . .

ولا أريد في هذا المقام أن أتحدث عن المناصب التي واجهتني والتي قد يحلو لبعض الباحثين أن يضاغوا الحديث عنها في مقدمات رسائلهم فإله وحده يعلم مدى الجهد الذي بذلته ، والمعاناة التي قاسيتها فسي هذا السبيل .

ولا يفوتني - هنا - من باب العرفان بالجميل ، أن أنوه بالجهد الجبار الذي بذله فضيلة الاستاذ الدكتور : " عبدالسلام سرحان " المشرف على الرسالة فلقد أثار لي الطريق ، وسهّل لي السبيل ، وذلّل لي الصعاب ، وأمدني بزيادة من علمه الواسع ، وفضله السابغ ، وفتح لي صدره ويتّسع ،

وأرشدني بالتوجيه الصائب ، والفكر الثاقب ، والرأى السديد ، فجزاه الله
عن طلابه خير الجزاء . . .

* * *

والموضوع يتكون من أربعة أبواب ، ينقسم كل منها إلى أربعة ^{فصول} فصول
فكل فصول هذا البحث تصل إلى عشرين فصلا :

أما الباب الأول فممنوانه " المجتمعان المراقى والفارسى فى القرن
الرابع الهجرى " وقد تحدثت فى الفصل الأول منه عن الأجناس البشرية
فى ذلك المجتمع الذى كان يتكون من العرب ، والفارس ، والترك ، والرقيقى ،
وسدى ما وصلت اليه الحياة على أيديهم من فوضى واضطراب وتناقض فى
صورها المختلفة . . .

وفى الفصل الثانى تحدثت عن التفاوت الطبقي بين الحكام والمحكومين
وأثر ذلك فى ضعف المجتمع ، وتفسخه ، وانحلاله . . .

أما الفصل الثالث فقد أفردته للطوائف الدينية التى كانت تعيش
فى المراقى وفارس . آنذاك - وهى الشيعة ، وأهل السنة ، واليهود
والنصارى والصابئة ، وتكلمت عن العلاقات التى تربط بينها ، ودور كل منها
فى الناحية العملية ، وأثرها فى الحياة الاجتماعية . . .

وخصصت الفصل الرابع للحديث عن أعياد المسلمين ، والفارس ،
وأهل الذمة ومواسمهم ، ومواكب الخلفاء الدينية والرسية ، وأثر ذلك كله فى
الحياة الاجتماعية . . .

وتحدثت فى الفصل الخامس عن الفناء والموسيقى فى المجتمع
وذكرت نبذة تاريخية عن أطوارهما عند العرب ، وبينت عوامل ازدهارهما فى

العصر المباني ، وأثرهما في الحياة الاجتماعية في القرن الرابع

وأفردت الباب الثاني " لأبي منصور الثعالبي وكتابته اليتيمة " وقسمت
بتقسيمه الى خمسة فصول على غرار ما فعلت في الباب الأول وقد تحدثت في
الفصل الأول عن نشأة الثعالبي وحرصه وأخلاقه ومكانته العلمية والأدبية
وآراء النقاد فيه . . .

وفي الفصل الثاني تحدثت عن مصادر إلهامه ، وشيوخه ، وثقافته
وآثاره ومؤلفاته . .

أما الفصل الثالث فقد تحدثت فيه عن " اليتيمة " وقت بالتمحيص
بها والدافع إلى تأليفها ومنهج الثعالبي فيها ، وخصائص المنهج . .

وفي الفصل الرابع تحدثت عن مدى تمثيل اليتيمة لأدب القرن
الرابع الهجري ، وتأثيرها بالمؤلفات السابقة ، وأثرها في اللاحقة .

وأفردت الفصل الخامس لليتيمة في ميزان النقد ، فذكرت آراء النقاد
فيها قديما وحديثا ، وقت بعرض هذه الآراء ومناقشتها ، والرد عليها . .

أما الباب الثالث فمنوانه " آثار الأجناس البشرية ، والطوائف الدينية
في أدب اليتيمة " وقسمته كذلك الى خمسة فصول على نحو ما فعلت في البابين
الأول والثاني وقد تحدثت في الفصل الأول منه عن " الروح الفارسية وأثرها
في أدب اليتيمة " وسلطت الضوء على تأثير المجتمع في ذلك الحين بالمعادات
الفارسية القديمة التي عادت الى الظهور من جديد بعد سيطرة بني بويه
على إقليم فارس والمراق ، وبينت بأسهاب أثر ذلك كله في أدب اليتيمة . .

وتحدثت في الفصل الثاني عن " أثر الحياة العربية في أدب اليتيمة
فشرحت موقف العرب في فارس والمراق من المعادات الفارسية وثورتهم عليها ،
وتشبههم بالتقاليد العربية الأصيلة ، وذكرت صدى ذلك في أدب اليتيمة . .

وفي الفصل الثالث تحدث عن " الرقيق وآثاره في أدب اليتيمة " وتناولت قضية الغزل بالمذكر بالدراسة والتحليل وخرجت منها بنتائج جديدة .

أما الفصل الرابع فقد أفردته للحديث عن " التشيع " وآثاره في الأدب " فتناولت هذه الظاهرة بالدراسة والتحليل ، وتحدثت عن أقطاب أدباء الشيعة في فارس والمراق وبينت الخصائص الموضوعية واللفظية لأدب الشيعة في القرن الرابع .

وأفردت الفصل الخامس للحديث عن " آثار أهل الذمة في أدب اليتيمة " فتكلمت عن النصارى وأعيادهم وأديرتهم وما كان فيها من خمر معتقة وحوار حسان ، وعلمان ذوى صباحة وملاحة ، وصدى ذلك في أدب اليتيمة .

وبالباب الرابع والآخر عنوانه " التفاوت الطبقي وآثاره في أدب اليتيمة " وقسمته الى خمسة فصول كما فعلت في الأبواب الثلاثة الماضية ، وقد تحدثت في الفصل الأول عن " موقف الحكام من الأدب " ، وذكرت أن الحكام في المراق وفارس قاموا بدور كبير في تشجيع الشعراء والكتاب بالمال والصلات وتنافسوا في ذلك تنافساً عجيباً مما كان له أكبر الأثر في رقي الأدب ، وازدهاره في تلك الحقبة . .

وفي الفصل الثاني تحدثت عن " ترف الحكام وآثاره في أدب اليتيمة " وقد تجلّى ذلك الأثر في وصف ألوان الطعام والفاكهة ومظاهر الحضارة كما تجلّى في التأنيق في الأسلوب ، والزخرفة اللفظية ، وكثرة المحسنات البديعية . .

أما الفصل الثالث فقد تحدثت فيه عن " أثر الفناء والموسيقى في الأدب " فذكرت أن الفناء والموسيقى كان لهما أثر كبير في وصف الشعراء للمفنيين والمفنيات وفي وصف مجالس الطرب وأدوات الموسيقى ، وفي نمو مقطوعات الشعر الفنائى ، كما كان لهما أثر في موسيقى الشعر الداخلية والخارجية على حد سواء . . .

وأما الفصل الرابع فقد تحدث فيه عن المجون وآثاره في " اليتيمة " فتكلمت عن المجون وأسباب انتشاره في المجتمع وآثاره في أدب (اليتيمسة) وتحدثت بالتفصيل عن أكبر شاعرين من شعراء المجون في ذلك العصر وهما ابن حجاج ، وابن سكرة الهاشمي .

وفي الفصل الخامس والأخير تحدثت عن " مظاهر الفقر والحرمان في أدب اليتيمة " فذكرت أن انتشار الفقر في المجتمع كان لها مآثرا في ظهور لونين من الأدب في ذلك العصر أحدهما أدب الكدية والاستجداء أو " الأدب الساساني " والآخر أدب الثورة والحرمان .. وقد تكلمت عن هذين اللونين بالتفصيل في موضعهما من الرسالة ..

وبعد ذلك وضعت خاتمة للبحث أتممتها بذكر المصادر والمراجع وخرجت من هذه الدراسة الواسعة بنتائج هامة معجزة في ثنايا البحث كما أشرت إليها في الخاتمة ..

" وبعد " فهذا بحث أتقدم به الى كلية اللغة العربية المريضة لنيل درجة " الدكتوراه " في الأدب والنقد ، فان كنت قد أصبت وأهتديت الى وجه الحقيقة فيه فله تعالى الفضل والمن - وان كنت قد قصرت أو جانبني الصواب ، فالكمال المطلق لله وحده ، وحسبي أنني مجتهد .. والمجتهد اذا أخطأ فله أجر ، واذا أصاب فله أجران ..

" وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب " .

حمدان عبدالرحمن أحمد

:: الباب الأول ::

المجتمعان المراقى والفارسى
فى
القرن الرابع الهجرى

١ - الفصل الأول :

" مكان فارس والمراقى "

٢ - الفصل الثانى :

" طبقات المجتمع "

٣ - الفصل الثالث :

" الطوائف الدينية "

٤ - الفصل الرابع :

" الأعياد والموااسم "

٥ - الفصل الخامس :

" الغناء والموسيقى "

:: الفصل الأول ::
~~~~~

" حكان فارس والممراق "

كان المجتمع الإسلامى فى العراق وفارس يتكون فى ذلك العصر من عناصر مختلفة وألوان متعددة من البشر ، وكان منها العرب والفرس والسترك والروم والزنج وغيرهم .

وكان لكل منها عاداته وتقاليده وتراثه وتاريخه ، وخصائصه ومميزات وعلاقاته الاجتماعية ودوره فى الدولة الإسلامية .

وعلى الرغم من أن الجميع كانوا يمتصون - إسلاميا - بحبل الله ، ويرتبطون برباط الدين الإسلامى ويخضعون لسلطان الخليفة ، كان الصراع بينهم على أشده حول النفوذ والجاه والحق إلى السلطة ، ومحاولة السيطرة على الطوائف الأخرى .

وسأحاول فى هذا الفصل أن أسلط الضوء على هذه العناصر ، حسب أهميتها السياسية ، وتأثيرها فى الحياة الاجتماعية .

وسأبدأ بالعنصر العربى لأنه الذى حمل لواء الدين ، ودعا إليه ، وفتح البلدان وأزال الممالك من أجل نشره وإعلاء شأنه .

وهو الذى أقام هذه الدولة الواسعة ، وأرسى بنيانها ، ورفع أعمدتها وجعلها مرهوبة الجانب ، مخشية البأس ، نافذة الكلمة ، قوية الشكيلة .

وأخيرا : لأن الخلفاء منذ وفاة الرسول طيه السلام وحتى ذلك الحين كانوا جميعا من العرب .

أولا : العنصر العربى

عاش العرب قبل الإسلام زمنا طويلا ، محصورين فى شبه الجزيرة ... قبائل متفرقة ، متناحرة ، لا تردعهم أحكام مساوية ، ولا تزجرهم قوانين دينية ، ولا تربطهم جامعة خلقية ، ففلبت طيهم الوثنية ، وسيطر عليهم الجهل ، وألجأهم الفقر إلى المراك الدائم ، والحروب المستمرة . .

— ٢ —
وكان شمراؤهم ينشدون أهازيجهم على ألحان العصبية ، فيشعلون
نيران المداوة ، ويلهبون جذوة الفحشاء والبغضاء .

وكانت لهم إلى جانب ذلك صفات حميدة ، أفادوها من حياتهم
الفطرية الطليقة كالشجاعة والجود والمروءة ونجدة المستغيث .

ولقد كان ظهور الإسلام حدثاً تاريخياً هاماً في حياة هؤلاء العرب
فبدّل رجسهم بطهر ، وفسادهم بصالح ، وأقام بهم ولهم دولة عربية إسلامية
قوية . . وتحول العرب بفضل الإسلام إلى خلفاء وأمرأ وقادة ورادة على
درجة كبيرة من الكفاءة والمقدرة . . وأتيح لهم في حقبة قصيرة ، أن يحتلوا
على ممالك كسرى وقيصر ، وبلاد المغرب والأندلس . . وعاش الجميع تحت
راية الإسلام أخوة متحابين ، وصحبة بنور الحق مهتدين ، على اختلاف
قومياتهم وطبقاتهم الاجتماعية .

وعلى الرغم من تعدد النعرات البهيمية ، في الدولة الإسلامية ، استأثر
العرب وحدهم بحكم البلاد ، وإدارة شؤونها ، وكان منهم الخلفاء والسوزراء
والقادة والسادة ، وظلوا كذلك طوآل العصور الراعدي والأموي . . وكان
بنو أمية على وجه الخصوص يتمصبون لبنى جلدتهم ، ويفضلونهم على غيرهم
وينظرون إلى الموالى من فرس وترك ، وروم نظرة ملوها التعالى والكبرياء
ثم لا يشركونهم في تدبير الأمور حتى ولو كانوا مسلمين .

فلما دالت دولتهم ، وحلت محلها الدولة العباسية التي قامت على
أكثاف الفرس ، وتحت ظلال سيوفهم . تراجع المنتصر العربي إلى الوراء وفقد
الكثير من امتيازاته السابقة ، وأقصى أبناؤه عن بعض مناصب الدولة والجيش
وحل الفرس محلهم خاصة بعد أن اتخذ بنو العباس بغداد حاضرة للخلافة
وجعلوها عاصمة للدولة الإسلامية كلها .

وكان أبو جعفر المنصور ومن جاء بعده ، من خلفاء بني العباس يتقنون
في بعض الفرس ، ومن ثم ضعف نفوذ العرب وتضعف سلطانتهم ولكنهم على

الرغم من ذلك كله كانوا متمسكين فلم يلتزموا جانب الصمت أمام خلفاء بني
المباس كما أنهم ظلوا يحقدون على المنصر الفارسي الجديد .

وفي مستهل القرن الثالث الهجري أحس المنصر العربي أنه يفقد
مكانته تدريجيا حيث ظهر المنصر التركي لأول مرة في عهد المعتصم ، وما
لبث أن زاد نفوذه ، وعظمت سلطته وأصبح هصرا فعالا في المجتمع فثار
العرب واشتد سخطهم على المعتصم وكان على رأس الثائرين القائد العربي
عجيف بن عبيدة ^(١) الذي أبعد المعتصم مع عدد من قواد العرب عن
الجيش ، وأحل الأتراك محلهم فاشتدت نفقة العرب على الدولة وتمردت
بعض قبائلهم في أطراف الجزيرة العربية ^(٢) وفي عهد المعتضد تمرد
الأعراب في شمال العراق ^(٣) .

وفي القرن الرابع هاجرت عدة قبائل عربية الى العراق وكانت تشكل
خطرا كبيرا على الحكم المركزي ^(٤) .

وقد ظل العرب في العراق وفارس محافظين على عاداتهم وتقاليدهم
على الرغم من اختلاطهم بالفرس وغيرهم ، كما تآزرهم بالبداءة ، واحتقارهم لأهل
الحضر ، حتى إن قزواشاً المقيلي صاحب الموصل في الدولة العقيلية قال
مرة :

” ما في رقبتي غير خيمة أو سدة من البادية وأما الحاضرة فلا يعبأ
الله بهم ” ^(٥) .

-
- | | |
|-----|--|
| (١) | تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧ : ٢٢٥) . |
| (٢) | المصدر السابق (٧ : ٣٢٤) . |
| (٣) | تاريخ مختصر الدول لابن العبري ص ٢٦١ . |
| (٤) | الأوراق للصولي ص ٢١٥ . |
| (٥) | ظهر الاسلام (١ : ٥٨) . |

وأهم الدويلات العربية التي تجلت فيها المصيبة العربية ، دولتنا
بنى حمدان في الموصل ، وحلب ، فقد عظم نفوذهما ، وحاولتا الاستيلاء
على بغداد في القرن الرابع الهجري ، وطرد النفوذ التركي والفارسي ،
وجرت في ذلك سلسلة حروب طويلة .

فالخليفة المتقي بالله احتسب بناصر الدولة بن حمدان وقلده امرة
الامراء وخلع عليه ، وعلى أخيه سيف الدولة ودخل ناصر الدولة بغداد في
احتفال عظيم ، ولكن ثورة الاثراك وعلى رأسهم " توزون " تغلبت على ابن
حمدان وولى الخليفة امرة الامراء لتوزون .

واستمر العداء بين المرب - وعلى رأسهم ابن حمدان - والترك
وعلى رأسهم " توزون " .

فلما استولى البويهيون - وهم من الفرس - على بغداد لم ينقطع
الخلاى والقتال بين الحمدانيين وبينهم .

ولما رأى ناصر الدولة الحمداني أن ممر الدولة البويهى استولى
على بغداد وسلب جميع حقوق الخليفة جهز جيشاً لقتاله وتقدم الحمدانيون
إلى بغداد واحتلوا جانبها الشرقى ولكنهم انهزموا في النهاية وطاد ناصر
الدولة إلى مفره ، وكذلك اشتبك الحمدانيون في قتال مع البويهيين أيام
عز الدولة فهزم الحمدانيون أيضاً (١) .

وقد قام المنصر المربى في المراق وفارس بدور كبير في تلويين
الحياة الاجتماعية وكانوا نوعين :

النوع الأول :

البدو الذين نزحوا إلى هذه البلاد من الجزيرة العربية ، وهؤلاء

(١) ظهر الاسلام (١ : ٥٩) .

كانوا يحملون ریح البداوة ، ويتمصبون لقبائلهم ويتقلون من مكان إلى آخر حسب أموائهم • ويحافظون على عاداتهم وتقاليدهم •

ومن أشهرهم قبائل شيان والمنفك في جنوب العراق وقبائل بنى عقيل وفزارة وغيرهم من البدو الرحل (١) •

وكان أثر هؤلاء في الحياة الاجتماعية شيئاً جداً • • حيث كانوا ينشرون الرب والفزع في قلوب السكان عن طريق الاغارات على المدن وتخريبها وإلحاق أمدح الخسائر بها (٢) •

أما النوع الثاني :

فهم العرب المتحضرون الذين كانوا يسكنون المدن وهؤلاء كانوا يشكلون شق الدولة الحمدانية التي كانت في الموصل • • وكان لهم الفضل في بقاء المنصر العربي في المجتمع العباسي الذي كاد يصطبغ بالصبغة الفارسية الخالصة •

وعلى الرغم من ضعف نفوذ المنصر العربي في القرن الرابع ظل محافظاً على التقاليد العربية الأصيلة وكون أفرادها سدا حائلاً أمام تفكيس الشاد في المجتمع كما ظلت المرأة العربية محافظة على شرفها وغطها ومكانتها السابقة ولم تتحدروا إلى مستوى الجوارى الأجنبية •

كما أن علماء الإسلام من العرب وقفوا موقفاً معادياً للفساد وكان جميعاً أن تندفع بعض المتصوفات المرييات - في حماس وقوة - للدعوة التي التمسك بمبادئ الدين الحنيف (٣) •

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٧ : ١١) •

(٢) الرحلة لابن جبير ص ٢١١ •

(٣) المنتظم لابن الجوزي ص ٣١٥ •

وفضلاً عن ذلك وقف المنصر العربي في وجه الزندقة والإلحاد ،
والشمسية التي كانت تشكل خطراً داهماً على العرب وعلى الإسلام .

وكان لطبقة الأشراف دور كبير في المجتمع العراقي والفارسي ،
وهؤلاء كانوا من المباسيين والطلابيين ، وإليهم يرجع الفضل في بقايا
المصيبة العربية في المجتمع العباسي خلال القرن الرابع الهجري وذلك
على الرغم من طغيان المنصرين الفارسي والتركي .

ولعل الشاعر العربي الكبير الشريف الرضي نقيب الأشراف العلويين
في القرن الرابع هو خير صورة لذلك ، فقد كان مثالا طيبا للعرب الشهم
الفيور على دينه وعرويته ، وعاداته الأصيلة المتوارثة ولم يتحدر في شعره
أو في سلوكه تحدر شعراء العراق الآخرين أمثال : ابن حجلج وابن سكرة
وابن لنكك وغيرهم

ثانياً : المنصر الفارسي

قامت الدولة المباسية أول ما قامت على أكتاف الفرس ، وانتصرت
على الأمويين بعد سيوفهم ، فكافأهم المباسيون على هذا المون واتخذوا
منهم الوزراء والأعوان والقادة وفتحوا أمامهم الطريق إلى أعلى المناصب ،
فأنطلقت أيديهم في تدبير هذا الملك المريض وتصرف شؤونه وشعروا لأول
مرة - منذ استولى العرب على بلادهم - بكيانهم ، وأحسوا بوجودهم ،
وصاروا قوة يخشى بأسها ، وأخذوا يتطاولون أحياناً على العرب - ولكن
قوة الخلفاء الأوائل في صدر الدولة المباسية كانت لهم بالمرصاد - فإذا
ما أحس الخليفة بخطرهم سارع إلى القضاء عليهم والقضاء بهم بها كانت
مكاتبتهم في نفسه ، أو منزلتهم في قلبه .

صنع ذلك السفاح بأبي سلمة الخلال وهو الذي أوصله إلى الخلافة

بسيوف قومه ٠٠ وصنع ذلك المنصور ٠٠ بأبي مسلم الخراساني ٠٠ وهو الذي وطد له الملك وثبت له أركانه وحدث مثل ذلك من الرشيد بالبرامكة ومن المأمون بالفضل من سهل حفاظا على هيئة الخلافة وجلال المنصب ٠

وعلى الرغم من ذلك ظلوا يحلمون بإعادة مجدهم القديم ٠ وهزمهم التليد ٠ ولم ينسوا أبدا أن العرب هزمهم في ميدان القتال ٠ واستولوا على بلادهم ٠ وأزالوا ملك أجدادهم ٠ فأخذوا يتحينون الفرص للاستيلاء على الحكم وإسقاط دولة العرب ٠ والسيطرة على الخلفاء ٠ فلما أوجس المحتشم منهم خيفة ٠ واعتمد على العنصر التركي في الجيش والدولة - أخذ النفوذ الفارسي يتراجع ٠ وحل الأتراك محلهم في المناصب العليا ٠ وسيطروا على جهاز الدولة طوآل القرن الثالث وصدور القرن الرابع ٠ ولكن الفرس لم يهدأ لهم بال ٠ ولم يستقر لهم حال ٠ وأخذ الصراع يشتد بينهم وبين المنصرين العرب والتركي ولعبت العصبة الفارسية ببرءهم فأخذوا يدبرون المؤامرات ويدسون الدسائس ٠ ويحصنون أنفسهم بالمسالك والسلاح ٠ ويرمون إلى اقتطاع البلاد والاستيلاء عليها ٠ خاصة بلادهم الفارسية البعيدة ٠ فاذا ما سنحت لهم الفرصة للاستيلاء على بغداد نفسها فليفعلوا ٠٠

وأخيرا تحقق لهم هذا الحلم بقيام الدولة البويهية (٣٢٠ هـ :

٤٤٧ هـ) التي سيطرت على فارس ثم على العراق ٠

ففي سنة ٣٣٤ هـ سار معز الدولة بن بويه من الأهواز إلى بغداد في خلافة المستكفي فاستولى عليها فلقبه المستكفي بمعز الدولة ٠ ولقب أخاه ركن الدولة ٠ ولقب أخاه الثاني عباد الدولة ٠ وأمر أن تضرب ألقابهم على الدينار والدراهم (١) ٠

(١) ظهر الاسلام (١ : ٥١) ٠

وما إن استتب الأمر لمعز الدولة ببغداد وقوى شأنه حتى ضيق الخناق على الخليفة المستكفي ، وحجر عليه وقدر له كل يوم خمسة آلاف درهم لنفقته (١) .

وأوجس معز الدولة خيفة من المستكفي فدخل عليه ، فوقف والناس وقوف على مراتبهم وقبل الأرض بين يديه ، ثم قبل يده ، ووقف بين يديه يحدثه ثم جلس على كرسى فتقدم اثنان من الديلم ومدّا أيديهما إلى المستكفي وعلا صوتهما بالفارسية ، فظن أنهما يريدان تقبيل يده فصدّهما إليهما فجذباه بها ، وطرحاه على الأرض ووضعاه عامته في هقه وجزّاه فنهض معز الدولة واضطرب الناس وارتفعت الأصوات ، واقتتلت دار السلطان ، وضربت الأبواق وساق الديلميان المستكفي ماشيا إلى دار معز الدولة ، حيث خلع وسلت عيناه ، وأقيم مكانه المطيع خليفة (٢) .

ولما مات معز الدولة سنة ٣٥٦ هـ أقيم ابنه بختيار الملقب عز الدولة مكانه فكان مع المطيع كأبيه وزاد عنه أن صادر أموال المطيع وشدّد عليه حتى باع قماشه وأخذ منه أربعمائة ألف درهم ٠٠ وأخيرا خلع المطيع نفسه وولى ابنه الطائع (٣٦٣ : ٣٨١ هـ) ثم خلع في عهد بها الدولة ونهبت داره وتنازل للبوهميين عن كل شيء (٣) .

ثم اشتدت شوكة البوهميين ، وعظم نفوذهم حتى تمكنوا من إقامة إمارة وراثية لهم في حاضرة الخلافة المباسية وأصبحت الأمور بأيديهم حتى صاروا يمينون كاتباً للخليفة يشرف على ضياعه وأملكه .

« « «

أما أثر الفرس في الحياة الاجتماعية فقد كان واسما وعميقا وقد تجلّى

-
- (١) تجارب الأمم لابن مسكويه (٦ : ٨٦) .
(٢) تجارب الأمم (٦ : ٨٦) والفخرى في الآداب السلطانية ص ٢٥٨ .
(٣) ظهير الاسلام (١ : ٥٣) .

في عدة أمور منها : بناء القصور ، وابتكار الأزياء وتمدد ألوان الطعام وإدخال جميع وسائل البذخ والترف في المجتمع الاسلامي . .

وعلى الرغم من سيطرة الأتراك على جهاز الدولة في القرن الثالث وصدر القرن الرابع وتراجع النفوذ الفارسي آنذاك . كانت آثارهم على الحياة الاجتماعية واضحة ومستمرة . فصظم الخلفاء كانوا يمشون في بذخ وترف على الطريقة الفارسية خاصة في بناء القصور وزخرفتها وتأثيثها بأفخر الأثاث . . كما تجلى التأثير الفارسي في إحياء مجالس النساء والطرب واللهو . . وفي تنوع أدوات الطعام التي كانت في النالب - مصنوعة من الذهب والفضة والبلور . . وفي ملابس الرجال كالقلانس والاقبية والسراويل والجوارب وغيرها من الألبسة الفارسية التي انتقلت إلى العراق في القرن الثاني منذ عهد المنصور (١) .

وكان التأثير الفارسي ظاهرا أيضا في ملابس النساء وتحليهن بألوان الحلوى والمجوهرات والاحزمة والنقش على الأردية والمصائب (٢) ، وكان للجسوارى الفارسيات - كذلك - تأثير كبير في المجتمع المباسي فنشرن أنواعا من الحركات والأغنيات وصنوا من ألوان الزينة التي لم تكن معروفة من قبل .

وكان للمنصر الفارسي أثر كبير - أيضا - في اهتمام خلفاء بني المباس ورجال دولتهم بالاحتفال بعيدى " النيروز " والمهرجان " وهما من الأعياد الفارسية القديمة (٣) .

وكان لبني بويه - وهم فرس - تأثير كبير في المجتمع الاسلامي خاصة فيما يتعلق بالاحتفالات ببعض الذكريات ، ذلك أنهم كانوا من الشيعة الزيدية ، فحرصوا

-
- (١) احياء علوم الدين (٢ : ١٦) للفرالى .
(٢) المقد الفريد لابن عبدربه (٨ : ٢٣٥) .
(٣) صبح الاغنى (٢ : ٤٢) .

على إظهار تشييمهم في بعض المناسبات كمقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما في العاشر من المحرم ، فكانوا يَحْدُثُونَ ذلك اليوم يوم خزن عام تعطل فيه الأسواق بينما كانوا يقيمون الأفراح في عيد " غدير خُطْم " الذي يوافق الثامن عشر من ذي الحجة ^(١) ، وبسبب تلك الاحتفالات كانت بعض الفتن والاضطرابات تحدث في المجتمع خاصة تلك التي مصدرها الخلاف بين الشيعة وأهل السنة هذا وقد جنى كل من العرب والفرس ثمرات عديدة من جراء اختلاطهم وامتزاجهم ببعض ، فأخذ العرب عن الفرس النظم الادارية والسياسية ، وبعض العلوم والفنون ، وتأثروا ببعض عاداتهم وتقاليدهم ..

أما الفرس فقد أقبلوا على تعلم العربية ، ونهضوا فيها ، وتفوقوا أحيانا على العرب في قرض الشعر وفنون القول .

وكان لبنى بويه أعظم الفضل في نشر العلوم ، وازدهار الآداب فشجعوا العلماء والأدباء وأغدقوا عليهم الأموال والصَّالَت ، كما عرف غير واحد من بنى بويه بحبه للأدب وقرضه للشعر كعضد الدولة وهر الدولة وتاج الدولة وغيرهم . كما اشتهر وزراءهم بحب الأدب وقرض الشعر كابن الحميد والصاحب والمهلبى وعبد العزيز بن يوسف وغيرهم ..

ثالثا: العنصر التركي

ظهر الأتراك لأول مرة في المجتمع المباسي في أوائل القرن الثالث الهجري . ذلك أن المعتصم الذي تولى الخلافة المباسية سنة ٢١٨ هـ استقدم سنة ٢٢٠ هـ قوما من بخارى و سَمَرْقَنْدَ و فرغانة وأُشْرُوسَنَ وغيرها من البلاد التي نسميها تركستان وما وراء النهر ^(٢) .

(١) المنتظم لابن الجوزي (٦ : ٧) .

(٢) ظهر الاسلام (١ : ٤) .

وقد أمعن المعتصم في شراء غلمانهم وبذل فيهم الأموال الطائلة والبهم أنواع الديباج ، ومناطق الذهب حتى بلغت عدتهم ثمانية آلاف مملوك ، وقبيل ثمانية عشر ألفا (١) .

ومنذ ذلك الحين أخذ نفوذهم يزداد ، وأخذت قوتهم في النماء حتى سيطروا على أجهزة الدولة ، وبرز منهم قواد عظاما ، ، اشتبهوا بالشجاعة وقوة الشكبة أمثال : الأقيسين وأشناس وبنفا ووصيف واهتاج وسواهم (٢) .

وهناك أصحاب دفعت المعتصم الى استخدام الترك والاعتماد عليهم منها : عدم ثقته في الفرس ، وتخوفه منهم منذ بداية عهده .

فقد حدث أن تمردوا ضده في البداية وشغبوا عليه لأنهم كانوا يريدون مبايعة المباس بن المأمون خليفة بدلا منه . . . لولا أن بعث المعتصم في طلبه وأخذ البيعة عنه فسكتوا .

ولذلك لم يكد الأمر يستتب له حتى فكر في الاعتماد على عنصر جديد . يستعين به على الفرس ، فهده تفكيره الى الترك ، والاستكثار منهم ، حيث كون جيشا قويا كسر به شوكة الفرس ، وأضعف نفوذهم .

وهناك عامل آخر جعل المعتصم يثق في الترك ويعتمد عليهم - هو أن أمه كانت تركية من بلاد السغد ، وتسمى ماردة (٣) ، فضلا عن ذلك كان في طباع كثير من طباع الترك من الخفونة والشجاعة ، والاعتماد بالقوة البدنية فقد كان يجعل زائد الرجل بين أصمعية فيكمرة (٤) . وقد وصف الجاحظ الترك بأنهم بدو المعجم (٥) .

(١) النجوم الزاهرة (٢ : ٢٣٢) .

(٢) البلدان للحموي ص ٢٣ .

(٣) (١ : ٤) .

(٤) رسائل الجاحظ ص ٦٢ .

ولم يكن المنصر التركي على وفاق مع العناصر الأخرى في المجتمع بل كان النزاع قائما بينه وبين الفرس والعرب مما أدى إلى حدوث بعض الاضطرابات في الدولة ، وأظهر أهالي بغداد استيائهم من الترك لأنهم كانوا كما وصفهم الطبري " عجا جفاة يركبون الدواب فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها فيصدون الرجل والمرأة ويطأون الصبي فشكا الناس ذلك إلى المعتصم وتأنت بهم العامة ^(١) ، فاضطر المعتصم إلى إنشاء " سامراء " أو " سرمن رأى " ، واتخذها حاضرة لخلافته ، وجعل الأتراك يقيمون فيها ، وحرم عليهم الاختلاط بالناس واشترى لهم جوارى من بنى جنسهم ، وزوجهم بهن حفاظا على دمائهم التركية وأجرى لهم رواتب خاصة ^(٢) .

وقد مكن المعتصم لهم في الأرض فأصبحوا قوة يخشى بأسها ، وبسببهم كان انتصار المعتصم على الروم في وقعة " حورية " الشهيرة سنة ٢٢٣ هـ فكانت القيادة العليا لهم وعلى رأسهم القائد التركي أشناس ^(٣) ، ولكنهم لم يلبثوا أن طغوا وغيروا وعاثوا في الأرض الفساد وثاروا على الدولة حتى اضطر الخليفة المتوكل إلى الرحيل بهم من حاضرة خلافته سامراء إلى دمشق ^(٤) .

وقد فكر المتوكل في حيلة للقضاء عليهم ، والفك بهم ، والخلع من شروهم ولكنهم قطنوا إلى تدهيره ، وفسحوا بما يحاك لهم ، فهاجموا عليه - بقيادة ابنه المنتصر - وقتلوه وقتلوا معه وزيره الفتح بن خاقان .

ولقد شهد البحتري مقتل المتوكل وكان نديمه وجليسه فشق عليه ذلك وأدركه الجزع ، وتملكه الحزن والفرح ، ووصف - قتله في قصيدته الرائية المشهورة التي يقول فيها ..

(١) تاريخ الامم والملوك (٧ : ٢٣٢)

(٢) البلدان للمعقوس ص ٢٣

(٣) ظهير الاسلام (١ : ٥)

(٤) تاريخ الامم والملوك للطبري (٧ : ٣٨١)

وَلَمْ أَنْسَ وَحْشَ الْقَصْرِ إِذْ رَجَعَ بِشَرِّهِ
وَإِذْ ذَعُرْتُ أَطْلَافَهُ وَجِلَّادَهُ
وَإِذْ صَبَحَ فِيهِ بِالرَّحِيلِ فَهَتَّكَتْ
عَلَى عَجَلٍ أَسْتَأْذِرُهُ وَخَائِرُهُ

الى أن يقول :

ولو كان سيفي ساعة الفلك في يدي
دَرَى الْفَاتِكُ الْعِجْلَانُ كَيْفَ أَسَاوَرُهُ
حَرَامٌ عَلَى الرَّاحِ بِمَحْدَكَ أَوْ أَرَى
تَمَّأَ بِدَمٍ يَجْرِي عَلَى الْأَرْضِ مِائِرُهُ (١)

ولقد كان قتل المتوكل بأيدي الأتراك أول حادث أهدأ على الخلفاء
المباسبين منذ قامت دولتهم وكان هذا الحادث الأثم نقطة تحول في حياة
الخلفاء الذين أصبحوا أعمى في يد الأتراك يخلعونهم ويقتلونهم ويحرقونهم
سواء المذاب عندما يريدون ..

وهذا الحادث البشع صار للأتراك الحكم المطلق فعاثوا في الأرض
فسادا . واستبد بهم التزق والطيش فكثرت شهورهم وآثامهم ، وكان لذلك المنصر
تأثير بالغ في أحوال الدولة الداخلية .. فصادرة أموال الناس ازدادت فسى
مهدهم ، ومن صور ذلك في عهد المتوكل مصادرة أموال الوزير "محمد بن عبد الملك
الزيات" وغيره من كبار رجال الدولة ، ومنذ ذلك الحين صارت المصادرات مصدرا
يعول عليه وقت الحاجة (٢) .

وكان جند الأتراك يحاولون جمع المال عن طريق آخر غير المصادرات ، وهو
مطالبتهم الخلفاء بزيادة أرزاقهم وقد أدت تلك الحالة الى حدوث كثير من
الاضطرابات في الدولة (٣) .

-
- (١) ظهير الاسلام (١ : ١٢) .
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٧ : ٧) .
(٣) الأوراق للصولي ص ١٢٠ .

وكثيرا ما كان الأتراك يشيرون النزاع الطائفي بين الشيعة وأهل السنة
فقد تمصبوا لأهل السنة بينما كان الديالمة يتمصبون للشيعة مما أدى إلى
حدوث مصادمات بين الطرفين (١) .

وقد كان للجواري التركيات تأثير بالغ في الحياة الاجتماعية بما عسرف
هن من جمال وظرف ونظافة فامتلات بهن قصور الخلفاء ، والأمراء حتى صرن
أمهات لبعض الخلفاء في ذلك العصر كالمعتصم والمتوكل والمكثف والمقتدر ...
وكان لهؤلاء الجواري التركيات الفضل في نشر فن التجميل ، وابتكار الأزياء في
المجتمع فضلا عن اهتمامهن بالتأنق في الطيبس والطعام والشراب والاحشاء
بالنظام واللياقة (٢) .

وقد نهغ بعض الأتراك في بعض الملوك والآداب وإن كانوا دون الفرس
في ذلك لأنهم كانوا بدوا ليست لهم حضارة الفرس ولا عراقتهم ، ومن أدبائهم
وطوائهم الفتح بن خاقان وزير المتوكل ... وكان كما وصفه ابن النديم - نسي
نهاية الذكاء والفظنة وحسن الأدب (٣) . ومنهم اسماعيل بن حماد الجوهري
صاحب كتاب الصحاح الذي يعد من أهم كتب اللغة وأصولها ، والجوهري
أول من فكر في اختراع الطائرة ورمى لذلك بالجنون ، ومن فلاسفتهم الممدوديس
أبو نصر الفارابي الفيلسوف الاسلامي الكبير وهو من فاراب إحدى مدن الترك وكان
نهوغة فيهم مفخرة كبيرة لهم ...

والى جانب هذه العناصر البشرية السابقة - من العرب والفرس والترك -
وجد عنصران آخران كان لهما بعض الأثر في الحياة الاجتماعية وهما : الهم والزيج
ولما كان معظم هذين العنصرين من الرقيق ، فمنوف أتحدث عنهما ضمن حديثي
عن المنصر الأخير وهو عنصر الرقيق .

(١) تاريخ بغداد (١ : ١٩) .

(٢) العوشى ص ١٦٢ .

(٣) ظهير الاسلام (١ : ٤٦) .

رابعاً : حصر الرقيق

من العناصر التي كان لها تأثير كبير في الحياة الاجتماعية حصر الرقيق فقد نشطت تجارته ، وراجت رواجاً عظيماً في هذا العصر . . . وكان بعض الرقيق يقد إلى المراق وفارس عن طريق الحروب ، فمنذ الفتح الاسلامي لمصر والشام والحروب قائمة بين العرب والروم . . . وفي عهد المحتشم حدثت وقعة " عوريس " وفيها تم أسر عدد كبير من الروم واسترقاقهم . . .

يقول ابن الأثير : أقبل الناس بالأسرى والسبي من كل وجه فأمر المحتشم أن يعزل منهم أهل الشرف وقتل من سواهم وأمر ببيع المخانم في عدة مواضع ، وكان لا ينادى على شيء أكثر من ثلاثة أصوات ثم يوجب بيعه طلباً للسرعة .

وكان الرقيق ينادى عليهم خمسة خمسة - أو عشرة عشرة - طلباً للسرعة^(١) وأخذت الحروب تتوالى بين المسلمين والروم ففي سنة ٢٥٢ هـ تقدم المسلمون إلى " رمطة " وفتحوها هوة وسبوا الحرم والصنار وغنموا ما فيها وكان ثمةا كـثـيـراً عظيماً^(٢) .

وفي سنة ٢٤٣ هـ غزا سيف الدولة بلاد الروم فقتل وأسرو سبي وغنم وقبض على صهر المستق " وابن ابنته وكثير من بطارقه^(٣) ، ومن ثم كثر الرقيق الرومي من جوار وغلمان ، وانتشر في الدولة الاسلامية انتشاراً عظيماً ، خاصة في مدن المراق وفارس ، واكتظت بهم قصور الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة . . .

وقد وصف ابن بطلان الجوارى الوميات فقال " الوميات بيض شقـر سباط الشعور ، زرق الميون ، عبيد طاعة ، وموافقة ، وخدمة ، ومناصحة ، ووفاء ،

(١) الكامل في التاريخ (٦ : ١٨) .

(٢) المصدر السابق (٨ : ٢٠٠) .

(٣) المرجع السابق (٨ : ١٨٣) .

وأمانة ، وحافضة ، يصلح للخن ، لضبطهن وقلة سماحتهم لا يخلو أن يكون
بأفهن صنائع دقيقة ^(١) . وكما كثر الرقيق الأبيض من ترك ، وروم ، وفارس ،
كثر كذلك الرقيق الأسود من الزنج ، وكانوا يجلبون الى العراق عن طريق مصر
وشمال افريقية اللتين كانتا مركزين هامين لتجارة الرقيق الأسود في ذلك العصر .

وقد عرف العرب الزنج منذ الجاهلية فأعطى سليم كانت له زوجة زنجية
هى دنانير بنت كعوب الزنجى ، وقد تزوج الفرزدق أم مكبة الزنجية ، وتترك
من عنده من النساء من أجلها .

وفى القرن الرابع كثر الرقيق الأسود كثرة هائلة ، وكان لهم تأثير كبير
فى المجتمع حتى إن بعضهم قد وصل إلى مقاعد الحكم مثل ، كافور الإخشيدي
الذى ملك مصر والشام ، وكان عبداً أسود أتى به الإخشيدي من السودان واشتراه
بثمانية عشر ديناراً ^(٢) .

وقد وصف ابن بطران الجوارى السود فقال : " الزنجيات مساوئهن كثيرة .
وكلما زاد سوادهن قبحت صورهن ، وتحدت أسنانهن ، وقل الانتفاع بهن ،
وخيفت المضرة منهن ، وكان الغالب فيهن سوء الأخلاق ، وكثرة الهرب ، وليس
فى خلقهن الفهم وكان يقال : لو وقع الزنجى من السماء إلى الأرض ما وقع إلا
بالإيقاع ، وهم أنقى الناس ثغوراً لكثرة الرقيق ، وكثرة الرقيق لفساد الهضم ،
وفيهن جلد على الكد ، فالزنجى — إذا شبع صب العذاب عليه صبا لا يتألم له ،
وليس فيه من متعة لصنانهن ، وخشونة أجسامهن ^(٣) .

وعلى الرغم من مساوئ الزنجيات اللاتى تحدث ههن ابن بطران هام
بعض الشعراء وجدوا بهن ، حتى إن ابن حنكة الهاشمى الشاعر الماجن كان

(١) ظهر الاسلام (١ : ٦٦) .

(٢) ظهر الاسلام (١ : ٧٣) .

(٣) المصدر السابق (١ : ٧٤) .

يعشق قبيلة سوداء تسمى "خقرة" قال فيها أكثر من عشرة آلاف بيت من الشعر (١) .

وكان هناك أنواع أخرى من الرقيق من صقالبة وترك وهنود وبلغار وأيون وغير هؤلاء ، وأولئك ، وكان لكل نوع منها ميزة يعرفها أهل العصر فكانت الصقلبيات مثلاً : أغلى الجوارى شئنا لفرط جمالهن ، وشدة ذكائهن (٢) .

كذلك اشتهر رقيق ماوراء النهر بالجمال والذكاء (٣) . وكان الرقيق يجلب إلى بغداد من ثلاثة طرق هي : الطريق الآسيوي الغربي ، والطريق الآسيوي الشرقي ، وطريق إفريقية (٤) .

ولأهمية الرقيق وكثرته أنشئت له أسواق كبرى في مدن العراق يفسر عليها تجار كبار يعترفون بالخصاسين ، وكان في بغداد شارع يعرف باسم دار الرقيق (٥) .

كما كان هناك باب في بغداد أطلق عليه باب النحاسين (٦) . وكان "بسامراء" سوق لبيع الرقيق تتخلله طرق متشعبة ، وبه عدة حجرات للبيع فيها (٧) .

وأحياناً كان الرقيق يباع في البيوت الخاصة أو بوساطة التجار (٨) .

وقد تحدث ابن بطالان في رسالته "عثرى الرقيق" عن ألاميب النحاسين

-
- | | |
|-----|---|
| (١) | الهيئة (٣ : ٣) . |
| (٢) | بديع الزمان الهمداني للمكفة ص ١٢ . |
| (٣) | صورة الأرض لابن حوقل ص ٤٠٢ . |
| (٤) | الحضارة الإسلامية في القرن الرابع لميتز (١ : ٢٨٣) . |
| (٥) | الأغاني (١ : ٩٥) . |
| (٦) | البلدان للمعقبي ص ١٣ . |
| (٧) | الأغاني (١ : ٩٥) . |
| (٨) | التعدن الإسلامي (٥ : ٢٣) . |

في تشيير الوجه والجسم فقال : إنهم كانوا يستخدمون الأصباغ والدهسون ،
والروائح في تشيير ملاح الوجه وجعله جميلا ومن هنا كان ينصح المشترى
بالحذر من الأعيب النخاسين ، كما حذر الكاتب والشعراء من التقرب لأمثالهن
ومنحهن الثقة (١) .

أما الأعمال التي كان الرقيق يقوم بها في المجتمع فهي كثيرة ومتنوعة
فمنها : الخدمة في البيوت والقصور ، ومنها العمل في المزارع والحقول ، ومنها
الانخراط في صفوف الجيش والجندية .

أما الخصيان من الرقيق فكانوا يقومون بحراسة النساء وخدمتهن ، ومنهم
من كان يقوم بحراسة القصور ويطلق عليهم لفظ " الفراشون " وكانوا يتخذون من
بينهم رئيسا عليهم (٢) .

وكان بعض الجوارى يشتغلن بالغناء ، ويعرفن بإجادة الألحان .
وقد لمت أساء لجوارى اشتهرن برخامة الصوت وبراعة التوقيع ، وجودة العزف ،
مثل : قنوة البصرية ودرة " ، وعلوة ، وروعة ، ونهاية ، وقلم ، وسندس ، وسوغيرهن
- وأخذ الناس يفاضلون بينهن ، فهذه أحسنهن اذا تدلكت ، وتلك أجملهن
اذا تثنت ، والآخرى أملح اذا رججت ، وهكذا (٣) .

وقد علا شأن بعض الجوارى بعد أن تزوج بهن الخلفاء ، وقمن بسدور
مظهر في الحياة السياسية والاجتماعية " كالحيزران " والسيدة أم المقتدر ، وقبيحة
زوج المتوكل وغيرهن .

وكانت الجوارى اللواتي يمشن في قصور الخلفاء ، والأمراء ، أحسن حالا
من غيرهن ، إذ كن يلبسن الحرير المزركش ، والثياب الفاخرة والسراويل الموشاة (٤) .

(١) شري الرقيق وتقليب المبيد ص ٣٧٩ .

(٢) رسوم دار الخلافة ص ٩ لهلال بن المحسن بن ابراهيم الصابي ت ٤٤٨ هـ .

(٣) ظهير الاسلام (١ : ١٢٩) .

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٤ : ٣٢) .

أما أثر الرقيق في الحياة الاجتماعية فقد كان خطيرا وسيئا للغاية
ذلك أن التوسع في اقتناء الجوارى أدى إلى فساد الأخلاق العامة ، وساعد
على الانحلال ، وشيوع المجون ، وضعف الثقة بين الأزواج ، حيث عرفت بعض
الجوارى بالخلاعة والتبيع وعدم الاكتراث بالقيم والمبادئ الإسلامية ، كما أن
بعضهن اتخذن في بغداد بيوتا للتسرية ، والترفيه ، يأوى إليها ذوو الخلاعة
والمجانة وأصحاب العفن والأفن .

يقول أبو حيان التوحيدي " وقد أحصينا - ونحن جماعة - في الكسرى
أربعمائة وستين جارية من الجانبين ، ومائة وعشرين حرة وخمسا وتسعين من
الصبيان البدور الذين يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة ، وهذا
سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لمزته وحرصه ورقبائه ^(١) ، مما كان له أبلغ
الأثر في انتشار الفساد وتفسخ الأخلاق ، وكما اهتم القوم بالقيان ، اهتموا
كذلك بالفلماں ، وأنردوا لهم المجالس الطوال ، وأخذوا يفتنون في اختيار
الأسماء الملائمة لهم مثل فاتن ، ونسيم ، ورائق ، ووصيف ، وشرى ، وغيرها ^(٢) ،
وكان من آفة ذلك المصر حب الفلماں ، والميل اليهم ، والتفضل فيهم ، وإظهار
محاسنهم في الشعر بأقبح الألفاظ وأوقع الكلمات ، وأصرح العبارات .

وإذا كان أبو نواس وصحبه من الماجنين في صدر العصر العباسي قد
طرقوا هذا الباب في خوف وتستر ، فإن شعرا هذا العصر ، قد خاضوا فيه بلا
تحشم ولا خجل ولا حياء ، مما كان له أسوأ الأثر في الحياة الاجتماعية ، والنزول
بها إلى درك جدد محقق .

(١) الامتاع والموانسة (٢ : ١٨٣) . * الصواب : ستين واربعمائة وعشرين ومائة
(٢) ظهر الاسام (١ : ٣٢) . د / سرحان .

ٖٖ الفصل الثاني ٖٖ

~~~~~

• طبقات المجتمع •

~~~~~

كان المجتمع المراقى الفارسى فى القرن الرابع ينقسم إلى طبقتين متباينتين نتيجة للظلم الاجتماعى وفساد الأحوال الاقتصادية ..

أما الطبقة الأولى فهى طبقة الحكم وكانت تتكون من الخلفاء والأسياد والوزراء ، وهؤلاء كانوا يعيشون فى ترف وندخ ورفاهية ، وينعمون بما لذ وطاب من ثمرات الدنيا وخضرائها ، ويحيون حياة عابثة لاهية غير مكترثة بمصير الرعية ، ومقدرات الشعب الكثير العدد الى حد بعيد ..

وكانت الطبقة الثانية تتكون من معظم أفراد الشعب من صناع وتجسار وعلماء وعولم وكانت على النقيض من الطبقة الأولى - تحيا حياة بائسة تامة لا تكاد تجد معها القوت الضرورى الذى يحفظ الرمق ويخفف آلام الحياة ، حيث أثقلت كواهلها بالضرائب ، وأنهكتها الكوارث والحروب .

وكان معظم الخلفاء يتشبهون بالأكاسرة ويوهمون الشعب أنهم ظل الله فى الأرض ، ويعيشون فى قصور مشيدة ، ويحيطون أنفسهم بالخدم والحشم والمبيد ومظاهر العظمة والأبهة ..

ويروى الأستاذ أحمد أمين " أن رسولا من ملك الروم زار الخليفة المقتدر فوجد عنده أحد عشر ألف جرد خصى ، ورأى شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم عليها طيور مصنوعة من الفضة تصفر من تلقاء نفسها بطريقة خاصة ، وشاهد ثمانية وثلاثين ألف ستر من الديباج المذهب ، ثم أدخل الرسول دار الخيمل ، فرأى فيها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب من ذهب وفضة ، ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الديباج بالهراقع الطوال ..

ثم يعرض رسول الروم الى تصور الخلافة المختلفة فيشاهد فيها من ألوان الترف ، وصنوف النعم ، ما يذهب باللب ، ويحير العقل حتى وصل الى حضرة الخليفة المقتدر بالله وهو جالس فى التاج ، وقد لبس ملابس الحرير المطرزة

بالذهب ، وعلى يمينه تعمة عقود مثل السبع معلقة ، وعلى يساره مثلها من أنفخر
الجواهر ، وأعظمها قيمة (١) .

هذه صورة كاملة لأحد قصور الخلفاء — آنذاك — وهى — وان كان فيها
كثير من المبالغة والتوهيل — بل والخيال — تكاد تعطى صورة عن حياة الخلفاء
المترفة فى ذلك العصر (٢) .

ومن القصور المشهورة التى تدل على البذخ قصر " الثريا " الذى بنىاه
ال خليفة المعتضد ، والذى كان تحفة فنية رائعة حتى قال فيه ابن المعتز : —

حَلَلْتُ " الثَّرِيَّأ " خَيْرَ دَارٍ وَمَنْزِلٍ

فَلَا زَالَ مَعْمُورًا وَبُورِكَ مِنْ قَصْرِ

فَلَيْسَ لَهُ قِيَمَاتِنِ النَّاسِ مَثْوًى

وَلَا مَا بَنَاهُ الْجَنُّ فِي سَائِلِ الدَّهْرِ

يَجْنَانُ وَأَشْجَارُ تَلَاثَتْ عُصُونُهَا

فَأَوْرَقْنَ بِالْأَشَارِ وَالْوَزْقِ وَالْخُضْرِ

ترى الطير فى أغصانها هوائياً * تنقل من وكبر لهن إلى وكبر (٣)
وعرف الخليفة الراضى كذلك بحبه للبناء ، وأسرافه فيه وهو التواخى

• أن أبا بكر الصولى حكى عن أبيه حكاية تدل على بذخ الراضى وإسرافه فيه قال :

(١) ظهر الاسلام (١ : ١٠٠) .

(٢) واضح أن الخيال افتن فى صنع هذا الخبر الذى يشبه أحاديث ألف ليلة
وليلة ، والا فكيف يتاح لرسول دولة أجنبيه أن يحمى من الخصيان ١١ ألفا
أو يزن شجرة من الفضة وزنها ٥٠٠ ألف درهم ، أو يعد ٣٨ ألف ستارة ؟؟
اننا نشم من هذه الأخبار روائح الخرافات والترهات والخزعبلات الستى
امثلاث بها كتب جمع بالباطيل والاكاذيب . د / عبدالمالم سرحان
(٣) ظهر الاسلام (١ : ٧٨) .

• دخلت يوما على الراضى مع جماعة من الندماء ، وكان مشغولا بالنساء ،
جالسا على آجرة حبال الصنّاع فطلب منا الجلوس ، فجلس كل واحد منا على آجرة ،
واتفق أن جلست على آجرتين ملتزمتين ، فلما قمنا أمر بأن توزن آجرة كل واحد
ويدفع اليه وزنها دراهم ، أو دنانير (١) .

ومن مظاهر الترف والبنخ عند الطبقة الحاكمة حرص الخلفاء على اقتناء
الجواهر الثمينة ، بأنواعها المختلفة . . . وقد عرف الخليفة المقتدر بالله أنه كان
يملك كمية كبيرة منها كالدرة الثمينة التي كان وزنها يزيد على ثلاثة مثاقيل ، -
وكالمسبحة التي أهداها لزيدان القهرمان (٢) .

وهناك مظهر آخر من مظاهر الثراء والبنخ - آنذاك - لدى الخلفاء ،
وهو الملابس الثمينة ، فقد أخذوا عن الفرس أنواعا مختلفة منها وتفننوا فى
حياكتها وتطريزها وتزيينها بالذهب والجواهر . . . وكان للملابس أصول وقواعد
من حيث أنواعها وألوانها ، وأوقات لبسها .

ومن الألبسة التي أخذوها عن الفرس القلانس ، فوضموا العمائم فوقها
وزينوها بجوهر غالية (٣) .

وكان الخلفاء - وحدهم - دون سائر أفراد المجتمع يلبسون الخفاف الحمر
فى القرن الرابع الهجرى (٤) .

أما فى الموكب والاحتفالات فقد كان للخلفاء زى خاص يشتمل على العمامة
السوداء أو الرصافية ويرده الرحول عليه السلام (٥) .

-
- (١) نشوار المحاضرة للتنوخى (١ : ٢٤٥) ، وواضح أن هذا أيضا حديث
خرافسة . د / مرجان .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٥٤ .
(٣) الحضارة الاسلامية لسيد أمير على ص ٣٨٢ .
(٤) أخبار الثراف لابن الجوزى ص ٤٨ .
(٥) رسوم دار الخلافة للصايب ص ١٠ .

وكانت المرأة في قصور الخلفاء تتفنن في اختيار ألوان ثيابها وتفصيلها
فوضعن فيها الزنابير وخيوط الإبريم^(١) كما كانت تتفنن في ألبة الرأس
ووضع الجواهر الفالية ، والأحجار الكريمة على المعائب السود ، وعسلى
البرانس^(٢) .

أما لباس الأقدام فكان يشتمل على النعال والخفاف والجوارب ، وقصد
اتخذت السيدة زبيدة النعال المرصعة بالجواهر ، ولبست السيدة أم المقتدر
النعال المصنوعة من ثياب دبيقية^(٣) .

أما أدوات الزينة فقد اهتمت بها نساء القصور اهتماما كبيرا وكانت عبارة
عن قلائد وأكاليل ، وتيجان توضع فوق الرؤوس ، ومناطق من الذهب المرصع
بالجواهر ، وخلخل تلبس في الأرجل ، الى غير ذلك من أدوات الزينة^(٤) .

وإذا ما تركنا حياة الخلفاء بما فيها من ترف وبذخ ونعيم ، وانتقلنا
الى حياة الأشراف والوزراء ، وجدناهم يمشون عيشة فارسية خالصة ويفرقون أنفسهم
في الكماليات التي تدل على الترف القاتل ، والاسراف المفرط والبذخ المشين ،
فلقد كانت قصورهم لا تقل روعة ولا فخامة عن قصور الخلفاء خاصة في عهد
بنى بويه .

فمصر الدولة البويهية مثلا : كان يقيم في قصر فخم يمتد أساسه فسي
الأرض تحمة وثلاثين ذراعا^(٥) وقد ألحق بهذا القصر اسطبلات وميدان واسع

-
- (١) الأغاني (٢ : ٣٠٢) .
(٢) الحضارة الاسلامية (سيد أمير على) ص ٣٩٨ .
(٣) نشوار المحاضرة للتنوخى (١ : ١٤٢) .
(٤) مقامات الهمداني ص ٩٧ .
(٥) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٦ .

يطل على دجلة ، ويصل ما بين القصر والبستان ، وقد بنى فى محلة الشماسية (١)
وقد أنفق عليه ثلاثة عشر ألف ألف درهم (٢) .

أما ضد الدولة فقد بنى بشيراز قصراً منيفاً يفوق قصر معز الدولة
حيث كان مكوناً من ستين وثلاثمائة حجرة ليجلس كل يوم فى واحدة الى تمام
الحول (٣) .

وقد شاهد المقدسى الرحالة المشهور فى القرن الرابع هذه السداره
ووصفها بقوله " وبنى - يعنى ضد الدولة - بشيراز داراً لم أر فى شرق الأرض
ولا غربها مثلاً ، ما دخلها على الافتتن بها ، ولا عارف الا استدل بها على
نعمة الجنة وطيبها ، أجرى فيها الأنهار ونصب عليها القباب وأحاطها
بالسماتين والأشجار ، وحفر فيها الحياض ، وجمع فيها المرافق والمسدده
وسمى مت رئيس الفراهين يقول " فيها ثلاثمائة وستون حجرة (٤) كان مجلسه كل
يوم فى واحدة الى تمام الحول ، وهى سفلى وعلو ، وطففت فيها فرأيت الأنهار
تطرد فى البيوت والأروقة وأتانه بناها على ما سمع من أخبار الجنة " (٥) .

وعرف فخر الدولة البويهى بحبه لجمع الأموال والجواهر ، وكان ذلك
يتم عن طريق مصادراته لأموال وزرائه وأصحابهم حتى بلغت تركته بعد وفاته
أربعة وثمانين ومائتى دينار وخمسة وسبعين وثمانمائة وألف ألف دينار
(١٨٢٥م ١٨٢٤) .

فضلاً عن مقادير هائلة من الذهب والفضة والجواهر والحلى بأنواعها

-
- (١) نهار الحاضرة للتونجى (١ : ٧٠) .
(٢) البداية والنهاية لمعاد الدين الدمشقى (١١ : ٢٧٣) .
(٣) الفن ومذاهبه فى الشعر لشوقي ضيف ص ١٦٨ .
(٤) أسلوب خطأ والصواب : ستون وثلاثمائة حجرة : د / سرحان .
(٥) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ١٤٩ .

المختلفة (١) .

ولقد بلغ من ترف الوزير أبي محمد المهلبى أنه كان إذا أراد أكل شىء يلمقه كالآرز واللبن وقف عن جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين معلقة من الزجاج المجرود فيأخذ منه معلقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة ثم يأخذ أخرى فيفعل بها ما فعل بالأولى حتى ينال الكفاية لتلاعيد المعلقة إلى فيه دفعة ثانية (٢) .

أما ابن طا هر وزير الدولة البويهى فقد كان له راتب من الثلج يقدر بألف رطل كل يوم (٣) .

وهناك لون آخر من مظاهر الترف عند الأمراء وهو كثرة النفقات فى حفلات الزواج والختان والأعياد ، فلقد روى : أن أمير الأمراء محمد بن رائق الخزرى أنفق فى حفل زواجه خمسة عشر ألف دينار كما عرف بتجكم التركى - الذى تقلد امرة الأمراء فى عهد الخليفة الراضى - بعيله الى الاسراف وكثرة الانفاق فى حفلات الأعياد حتى ان احتفاله بعيد "المهرجانات" كان أعظم وأفخم من حفلات الخليفة الراضى (٤) .

تلك كانت حالة الخلفاء والأمراء والوزراء فى المجتمع . . ترف جاوز الحد وإسراف لا نظير له ، وحياة فارغة لاهية ، وانعزال كامل عن الرعية التى كانت تترجح تحت نير الظلم والاستبداد والحكم المطلق .

- | | |
|-----|---|
| (١) | الكامل فى التاريخ لابن الأثير (٧ : ١٨٥) . |
| (٢) | معجم الأدباء (٥ : ١٥٣) . |
| (٣) | ظهر الاسلام (١ : ١٠٤) . |
| (٤) | مروج الذهب للمصمودى (٤ : ٢٦٢) . |

وكان بنو بويه حكام العراق وفارس في ذلك العصر ، يظلمون الرعية ولا يهتمون بمصالح المجتمع ، وقد غلبت عليهم الانانية والآثرة ، وسيطر عليهم الطمع ، وحب المال ، وبدلاً من أن يتفردوا للإصلاح الداخلي في البلاد ، ورفع مستوى الحياة الاجتماعية ، انغمسوا في الحروب الخارجية والداخلية مع جيرانهم الحمدانيين ، والسامانيين ، والزياريين ، فضلاً عن حروبهم الداخلية من أجل النفوذ ، والتسلط ، فصرفتهم هذه الحروب عن مصالح الرعية وحملتهم على الانقياد لرغبات الجند فبالفوا في مداراتهم تارة ، وإرضائهم بالمال تارة أخرى ، حتى نفذ المال ، وخربت البلاد ، فاضطروا آخر الأمر إلى استخراج الأموال من غشير وجوهها ، وإلى مصادرة أموال العامة أو الاقتراض من الخاصة أو الاحتيال على من يتهم بيسار كائناً من كان ^(١) .

وكان معز الدولة أمير العراق لا يأبه بحقوق الرعية ، فلما شغب عليه الديلم شغباً عظيماً وطالبوه بالأموال اضطروا إلى ظلم الناس ، واستخراج الأموال من غير وجوهها ، وأتطع قواده ، وخواصه ، وأتراكه ضباع الملطان وغيرها ، وكان يسامح الوزراء والاقطاعيين ويقبل منهم الرشوة ، واتسع الخرق حتى صار الرسم جارياً بأن يخرّب الجند اقطاعاتهم ، ويمتاضوا عنها بما يختارون وبذلك يتوصلون إلى الحصول على الفضل ، والفوز بالريح ، حتى فسدت المشارب وأهملت المصالح فمن مظلوم لا يُنصَف ، ومُسَلَّم ضيعة إلى المقطع ليأمن شره فتوقفت العمارة ، وانحلت الدواوين ، وامحى أثر الكتابة والعمالة ^(٢) ، وكان معز الدولة يختار بن معز الدولة يحب أن يقضى وقته في الصيد ، والأكل والشرب والسماع ، واللهو ، واللعب ، بالنرد وتحريش الكلاب والديكة فإذا توقفت أموره قبض على وزيره واستبدل به سواه ^(٣) .

-
- (١) تجارب الأمم (١ : ٢٨) .
 (٢) المصدر السابق (٦ : ٩٦) .
 (٣) المصدر السابق (٦ : ٢٢٢) .

وهذا الظلم من جانب "بختيار" جعل أبا اسحاق الصابي يصفه
في بعض رسائله بقوله "فما زال بختيار يسعى الاختيار، ويتنكب الصواب،
ويتجنب الإصلاح، ويبدد الأموال، ويعرض الدولة للزوال، ويهين الأولياء،
أشد الإهتراج، ويحملهم على أعوج المنهاج، ويخرب الأوطان، ويعتد الأقران
ويقتل الكفاة، ويستكفي الفؤاة، إلى أن بلغ من فاسد سيرته، وضلال
طريقته أن استكتب محمد بن بقية المحيط بكل خلة دنية (١) .

وقد عرف الحكام من بني بويه كذلك بالفدر بالوزراء والعمال متى
استطاعوا إلى ذلك سبيلا ٠٠٠ حتى صارت المصادرات هدم سنة متبعة،
وطريقة معروفة، وكانوا لا يرفعون للميت حرمة ولا نعمة مهما بالغ في خدمتهم
وقت حياته ٠٠

فعمز الدولة مثلا استولى على أموال الوزير المهلبى بعد وفاته وقبض
على أهله وحاشيته وأصحابه وحبسهم فاستعظم الناس ذلك واستقبحوه،
وفعل مثل ذلك فخر الدولة بأهل الصاحب بن عباد بعد وفاته فقد أقام
حراسة على ماله وداره ونقل جميع ما فيها إلى قصره ٠ قال ابن الأثير بعد
أن روى هذه الحوادث "فَقَبَّحَ اللَّهُ خِدْمَةَ الْمُلُوكِ" (٢) هذا فعلهم مع من
نصح لهم فكيف مع غيرهم ؟ (٣) .

وكانت الطبقة العاملة وأغلبها من صغار الصناع والتجار والفلاحين
ترزح تحت نير الظلم والاستبداد، وتعيش في فقر مدقع، وبؤس شديد حيث
أثقلت كواهلها الضرائب، وأنهكتها الحروب، ونقص عليها حياتها أهل العبث
والفساد من لصوص وقطاع طرق وعمَّالين وشطارٍ مما أدى إلى تعطيل الأعمال
وخراب البلاد، ونضوب الموارد ٠

(١) ظهر الاسلام (٢ : ٢١٢) ٠

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢ : ١٦١) ٠

فكثرت الشكوى من الحكام ، واشتد اليأس من عدلهم وصلاح حالهم
يقول أبو بكر الخوارزمي في وصف سيرة حاكم مستبد " فما زال يفتح علينا أبواب
المظالم ، ويحتلب فينا ضرع الدنانير والدراهم ، ويسير في بلادنا سيرة
لا يسيرها التنوّر مع الفأر ولا يستجيرها المسلمون مع الكفار حتى افتقر الأغنياء
وانكشف الفقراء ، وحتى نشف الزرع والضرع ، وهلك الحرث والنسل " .

ثم يقول " والله !! ما الذئب في الثمن بالقياس إليه إلا من المصلحين
ولا السوس في الخز في الصيف عنده إلا من المحسنين (١) .

وصف بديع الزمان أحد القضاة فيقول " يا للرجال ، وأين الرجال ؟ " .
ولي القضاء من لا يملك من آلاته غير القبال ، ولا يعرف من أدواته غير
الاختزال ، وما رأيك في سوس لا يقع إلا في صوف الأيتام وجرايد لا يحسب
إلا على الزرع الحرام ، ولص لا ينقب إلا خزائن الأوقاف وكردى لا يغير إلا
على الضماف ، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود (٢) .

ونتيجة لهذا الذالم الواقع على الرعية من جانب الحكام سادت الحالة
الاقتصادية ، وكثرت الفتن وصت الفوضى ، وانتشرت اللصوصية وفي بغداد
ظهر لص خطير يدعى " ابن حمدي " وقد أمسى السلطان أمره فكان
يغير على منازل المدينة بموافقة ابن " شيرازد " كاتب القائد التركي المسمى
" توزون " فكان أمر الحكومة في يديه ، ومضى على الناس في أيام ابن حمدي
وقت تحارسوا فيه باليوقات في الليل ، وامتنع عليهم النوم خوفا من كيمات
ابن حمدي وأصحابه ، وخلت منازل بغداد من أهلها ، وصار الناس
يطلبون من يمكن الدار بأجرة يتقاضاها ليحفظها ، وأغلقت عدة حمامات

(١) رسائل الخوارزمي ص ٦٦ .

(٢) رسائل الهمداني ص ١٦١ .

وتعطلت أسواق ومساجد (١) .

وإذا ما انتقلنا إلى الأدباء والعلماء في إقليم العراق وفارس وجدنا
أنهم - آنذاك - فريقان :

فريق أسعد، الحظ فاستطاع أن يتصل بالخلفاء ، والأمراء والوزراء
ويمدحهم أو يخدم في بلاطهم ومن هؤلاء :
* ابن العميد ، والصاحب ، والمهلبى ، والصابى ، والخوارزمى ،
والهمداني ، والعتبي ، والشمالي ، وغيرهم ، هؤلاء عاشوا في بحبوحة
من العيش ، وسعة من الرزق ، ونعموا بالحياة الهانئة في ظل الحكام
وأصبحوا سيفاً مسلطاً في يد السلطان يمدحونه ويهالفون في وصفه ، وقلماً
يدافعون عن الطبقة الكادحة .

وفريق آخر من الأدباء لم يوفق في اصطناع أمير ، أو مداينة وزير ،
أو التقرب إلى حاكم . . فعاش عيشة تمعة ، وذاق مرارة العيش ، وتجرع
ألم الحرمان ، وكان هؤلاء كثيرين ، وكان منهم الأديب والعالم ، والفيلسوف
فهذا أبو حيان التوحيدى صاحب الأفكار العميقة ، والآراء الصائبة ، والفلسفة
الواسعة ، والأدب الجم والملم الفزير ، يذكر أنه اضطر إلى التكسّف
الفاضع عند الخاصة والعامة . . وإلى بيع الدين والعروة ، وإلى تعاطى
الرياء بالسدّة والنفاق وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح
في قلب صاحبه الألم (٢) .

وهذا أبو سليمان المنطقى الفيلسوف العالم كان في حاجة ماسة
إلى رزق ، وقد عجز بحوله وقوته عن توفير أجر مسكنه ، وعن تدبير وجبتى
غذائه وعشائه . .

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى (١ : ١٣) لآدم ميتز .

(٢) المرجع السابق (١ : ٤٤٨) .

وهذا أبو علي القالي صاحب "الأمالي" المشهور ضاقت به الحال قبل
أن يرحل إلى الأندلس حتى اضطر إلى بيع كتبه ، وهي أعر ما يملك ..

وهذا أبو العباس المعروف بابن الخبار الموصلي كان من كبار
النحويين والأدباء .. وقال في مقدمة كتابه " الفريدة في شرح القصيدة " : " من
علم حقيقة حالي عذرتني إذا قصرت فإن عندي من الهمم ما يزعج الإنسان
من حفظه ، ويكف اللسان عن لفظه ..

وغير هؤلاء كثيرون عددهم صاحب " ظهر الاسلام " رحمه الله (١) ،
ولقد كان للتفاوت الطبقي وسوء الأوضاع الاقتصادية واختفاء العدالة الاجتماعية
أثره في ظهور بعض المفاصد والخرافات في المجتمع ، فقد انتشر الدجل
والشعوذة ، والتعلق بالأسباب الموهومة في الحصول على الفنى ، والاعتقاد
في الطوابع التي تسعد الناس ، والانصراف إلى الكيمياء التي تقلب النحاس
والقصدير ذهباً ، والالتجاء إلى قيور الأولياء ، والاعتقاد في السحر والبحث
عن الكنوز المخبوءة وغير ذلك (٢) .

وكان للتفاوت الطبقي - كذلك - أثره الواضح في فساد الأخلاق
والجري وراء المال بالوسائل المشروعة ، وغير المشروعة ، فاتخذت طائفة من
المجنيين بيوتاً للدعارة تعرض فيها وسائل اللذة !!! كما تعرض السلع
في الأسواق .

يقول أبو حيان : وقد أحصينا ونحن جماعة في الكرخ ستين وأربعمائة
جارية من الجانبين وعشرين ومائة حرة وخمسا وتسعين من الصبيان البسودور
الذين يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة .. وهذا سوى من كنا
لا نظفر به ولا نصل إليه لمزته وحرمة ورقبائه (٣)

(١) انظر ظهر الاسلام (١ : ١١٢) وما بعدها ط . بيروت .

(٢) المصدر السابق (١ : ١٢٢) .

(٣) في الاصل : أربعمائة وستين و " مائة وعشرين " والصواب ما أثبتناه . د / سرحان

(٣) الامتاع والموانسة (٢ : ١٨٣) .

وكان للتفاوت الطبقي — أثره في ظهور طائفة من الناس أراقت ماء وجهها واتخذت من التمول والتكدى وسيلة للارتزاق وهم الذين أطلق عليهم في ذلك العصر " بنو صاسان " وكان منهم الشعراء ، والكاتب ، والخطباء ، والأشراف ..

وكانوا يطوفون في البلاد ، ويحتالون على الناس من أجل الحصول على القوت وابتزاز الأموال .

وكان للتفاوت الطبقي والظلم الاجتماعي — كذلك — أثره في ظهور طائفة من أفراد المجتمع انعزلت عن الدنيا ، وعاشت على هامش الحياة ، وأشاعت فيها نغمة حزينة قائمة ، لأنهم يمشوا من مباهج الحياة ، وكان شعراهم " صم عن الدنيا تظفره بالآخرة " (١) .

وأخيرا كان للتفاوت الطبقي أثره الواضح في انتشار الخلاعة والمجون ، والانكباب على الميزات ، والتهاكك على الشهوات عند أصحاب الثروة والجاه في المجتمع ، حيث كان هؤلاء مهذبين في كل لحظة بالعزل أو المصادرة أو زوال النعمة مما جعلهم فريسة سهلة للقلق النفسى ، والخوف من المستقبل ، فانكبوا على اللذات وانغمسوا في الشهوات ، وكانهم كانوا مع زوال النعمة ، وحلول النعمة على ميعاد ..

ولقد نتج عن هذه الظاهرة — ظاهرة الخلاعة والمجون — ظهور شاعرين من شعراء " اليتيمة " يمثلانها أصدق تمثيل وهما ابن حجاج وابن سكرة الهاشمى .

" وما يؤسف له أن العلماء في ذلك العصر قد انطوا على أنفسهم وتركوا الظالمين يستبدون من غير أن يقفوا في سبيلهم .. والأدباء الذين ارتفع صوتهم لم يرقحوا إلا بمدح الظالم لا بردعه ، وبتهريضه لا بقمصه ولم يكن لديهم

(١) الاعجاز والايجاز للشمالين ص ١٢٩ .

شعور بالمسئولية .. بل كانوا يمدحون إذا أُعْطُوا ويهجون إذا حُرِّمُوا ، وَقَلَّ
أن يمدحوا أميرا بالعدل أو يهجونه بالظلم ..

والصوفية الذين كانوا مظنة الجهر بالحق ، انطوا على أنفسهم
كذلك ، وغسلوا أيديهم من هذا العالم ، وعاشوا في عزلة كاملة ..

والوعاظ الذين كانوا يحذون الناس .. كانوا يحظونهم بالصبر على
الظلم ، ولا يحظون الحاكم بالارتداع عن الظلم (١) . وعلى الرغم من أن لبذخ
الحكام واسرافهم ترك كل هذه الآثار السلبية الخطيرة .. كان له بعض
التأثيرات الحضارية الايجابية التي نذكر منها على سبيل المثال مايلي :-

أولا : بناء القصور المشيدة والمساجد الفخمة - وإن كان قد كلف
الدولة أموالا طائلة - إلا أن ذلك يُعَدُّ مظهرا من مظاهر تقدم
الممران والهندسة .. فالقصور التي بناها الرشيد والمعتضد
والمتوكل وقصور الوزراء والأمراء تُعَدُّ دليلا ماديا على مدى تقدم
فن العمارة في ذلك العصر ..

ثانيا : كان لبذخ الخلفاء والأمراء وسيلهم إلى حب الظهور والفخفة أثره
في تقدم صناعة الخز والوشن والسجاد ، والأواني الزجاجية
والخزفية والنقش على الذهب والفضة ، وغير ذلك من أنواع الملابس
وأدوات الزينة .

وأخيرا : كان لذلك الترف - أيضا - أثره في رقي الأدب وتقدم
فنى الغناء والموسيقى ، ذلك أن أنظار الأدباء والمفكرين كانت موجهة إلى قصور

(١) ظهرا الاسلام (١ : ٢٦١) وما بعدها .

الخلفاء والأمراء ليعرضوا عليهم تتاجهم الأنبيى والفنى طمعا فسى
المال والنوال ، وحرصا على الخلع والهدايا - وكان الحكام - بدورهم -
يهدمون الأدب والفناء ، ويصدقون على الأدباء والمفتين ، الأموال الطائلة
ويقدمون لهم الهدايا والصّلات ما كان له أكبر الاثر فى رقى الآداب والفنون
فى المجتمع المراقى الفارسى فى ذلك العصر ..

:: الفصل الثالث ::

· الطوائف الدينية ·

كان المجتمع المباسى فى تلك الايام يتكون من : المسلمين ، وأهل
الذمة ، والصائفة ، وكان المسلمون بدورهم يتكونون من الشيعة وأهل
السنة . . . وأهل الذمة كانوا يتكونون من اليهود والنصارى . . . أما الصائفة
فكانوا ينقسمون الى : صائفة العراق ، وصائفة حوران . . .

ولست — الآن — بصدد دراسة هذه الطوائف من حيث صحة
الدين وسلامة العقيدة فذلك مرجعه علم " الملل والنحل " ولكنى أريد أن
أتحدث عن كل طائفة منها من حيث كيانها السياسى ، ووضعها الاجتماعى
وعلاقتها بالآخرين . . ومدى تأثيرها فى الحياة الاجتماعية . .

وسأبدأ بالحديث عن الشيعة وأهل السنة لأنهم كانوا مسلمين يمثلون
معظم الحكام ، ولأن الخلفاء والأمراء والوزراء ، وقادة الجيوش كانوا منهم .
ولأن تأثيرهم فى الحياة الاجتماعية كان أعظم وأخطر من تأثير الآخرين . .
ثم أتى بالحديث عن أهل الذمة من حيث هم أكبر الطوائف الدينية
فى المجتمع المباسى بعد المسلمين . . ولأن تأثيرهم فى المجتمع كان عظيماً
ثم أختتم الكلام عن هذه الطوائف بالصائفة لأن عددهم كان قليلاً ، ولأن
أثرهم فى الحياة الاجتماعية كان جديداً ضعيفاً . .

أولاً : الشيعة وأهل السنة

الشيعة — فى الأصل — هم أولياء الرجل وأنصاره يقال : شيعته
كما يقال والاه ، وكل قوم اجتمعوا على أمر ففهم شيعة . . ثم غلب هذا الاسم
على من يتولى علياً وأهل بيته — رضوان الله عليهم — حتى صار ذلك اللفظ
علماً عليهم وخصوصاً بهم ، فإذا قيل فلان من الشيعة فُهِمَ أَنَّهُ منهم . . فهم
الذين قالوا بإمامته وخلافته ، واحتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده .

ولا أريد — هنا — أن أتمرض لدراسة التاريخ السياسى لحزب الشيعة
فذلك مكانه علم السير والتاريخ ، ولا أريد كذلك أن أتمرض لدراسة الناحية

العقدية والمذهبية لفرق الشيعة فذلك مرجعه علم المقائد والكلام - ولكنني أريد الحديث عن التشيع بوصفه إحدى الذواهر الاجتماعية في القرن الرابع . ولأنه كان ذا أثر عيق في حياة المجتمعين العراقي والفارسي . . . وكانت الكوفة فيها قبر الإمام علي - كرم الله وجهه - أكبر مركز للشيعة في القرن الرابع وكان يقال : من أراد الشهادة فليدخل دار البطيخ بالكوفة وليقل رحم الله عثمان بن عفان " (١) .

وكانت بغداد هي العاصمة بمعنى الكلمة ، وآية ذلك أن جميع الحركات الروحية في الدولة الإسلامية كانت أمواجها تتلاطم على شواطئها . وكان بها أنصار لجميع المذاهب ، ولكن أكبر الأحزاب بها في القرن الرابع كان حزبي الحنابلة والشيعة ، وكان أنصار الشيعة يمكنون بنوع خاص حول سوق " الكرخ " وكان باب الشعير - غربي شاطئ دجلة - من أكبر مراكز أهل السنة ، وفي فارس كان الشيعة كثيرين على السواحل التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالعراق (٢) .

أما في المشرق فقد كانت النبلية فيه لأهل السنة إلا أهل " قم " فإنهم كانوا شيعة غالبية ، وكان غلوهم موضع كثير من النوادر . . . ومن ظريف ما يحكى أنه ولي عليهم وال سني شتمهم قبله عنهم أنهم - ليغضبهم الصحابة رضوان الله عليهم - لا يوجد فيهم من اسمه أبو بكر ولا عمر ، فجمعهم يوماً وقال لرؤسائهم : بلغني أنكم تبغضون صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنكم لبغضكم إياهم لا تسمون أولادكم بأسمائهم ، وأنا أقسم بالله العظيم ، لكن لم تجهثوني برجل منكم اسمه أبو بكر أو عمر وثبت عندي أنه اسمه لأفعلن بكم ولا ضنقن ، فاستسهلوه ثلاثة أيام ، وفتشوا مدينتهم ، واجتهدوا فلم يجدوا إلا رجلاً صملوكا حافياً عارياً أحول ، ومن أقبح خلق الله منظراً واسمه أبو بكر

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم مثر (١ : ١٠٢) .

(٢) بديع الزمان للشكعة ص ١٩ .

لأن أباء كان غريبا استوطن هذه البلاد فسماء بذلك ، فجاءوا به فشتهم وقال : جتسونى بأقبح خلق الله تتنادون به على ، وأمر بصفعهم . . . فقال له بعض ظرفائهم : أيها الأمير : اصنع ما شئت فان هوا " قم " لا يجرى فيه من اسمه أبوبكر أحسن صورة من هذا ، فغلبه الضحك وغا عنهم (١) .

وكان فى " قم " فرقة من غلاة الشيعة هم الفرأبية ، ومذهبهم أن المال كله للبت ، فلما حكم بينهم أحد القضاة بأن للبت النصف هددوه بالقتل ، وهم قوم من شرار الروافض يذهبون الى هذه المقالة من أجل فاطمة رضى الله تعالى عنها (٢) .

وكان الصراع المذهبى على أشده بين الشيعة وأهل السنة ، ويذكر المؤرخون أن الشيعة البغداديين كانوا يجتمعون فى مسجد " براتا " سنة ٣١٣ هـ فملم الخليفة أن قوما منهم يجتمعون فيه لسب الصحابة فأمر بكبحه فى يوم جمعة فوجد به ثلاثون إنسانا يصلون فقبض عليهم ، وفتشوا فوجدت معهم خواتم من طين أبيض عليها اسم الامام ، كما كان يفعل دعاة الفاطميين مع من ينتسب اليهم ، فاستصدر الخليفة فتوى بهدم المسجد حتى سوى بالأرض ، وغا رسمه ووصل بالمقبرة التى تليه (٣) .

وكما كان الخلفاء يشتدون على الشيعة كانوا يفعلون البشىء نفسه مع الحنابلة ، ففى سنة ٣٢٣ هـ نودى فى جانبى بغداد بألا يجتمع من الحنابلة نفسان فى موضع واحد ، وذلك لتطرفهم ، وظلهم واحداثهم الفتن ، وقد وقع الخليفة الراضى على كتاب بين فيه أخطاء الحنابلة وتوعدهم بالمقاب ، واتهمهم بالطمع على خيار الأمة ، ونسبة شهمة أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الكفر وارصادهم بالمكارة فى الطرق والمحال ، وانكار زيارة قبره الأئمة صلوات الله عليهم ، والتشجيع على زوارها بالابتداع ، وفى آخر الكتاب

(١) معجم البلدان لياقوت الروى ص ١٧٦ .

(٢) طبقات الشافعية للأسبكي . (٢ : ١٩٤)

(٣) الحضارة الاسلامية لمينز (١ : ١٦٦) .

يقسم أمير المؤمنين بالله : لئن لم ينصرف الحنابلة عن مذموم مذهبهم ليوسعونهم ضربا وتشريدا ، وليستعملن السيف في رقابهم ، والنار في محالهم ومنزلهم (١) .

وقد طال الصراع قائما بين الشيعة وأهل السنة ، واشتملت نار الفتنة بين الفريقين ٠٠ ففي سنة ٣٤٩ هـ قامت بهنداد فتنة عظيمة ، وشملت الجمعة بمساجد أهل السنة (٢) .

وكان بنو بويه يميلون إلى الشيعة ويمتنقون مذهبهم ، ويتمصبون لهم ٠٠ وفي سنة ٣٥١ هـ كتب ممز الدولة على المساجد لعن الصحابة فجاء الناس أثناء الليل ، وفي العام التالي أمر الناس أن يحتفلوا بيوم عاشوراء وهو أكبر عيد للشيعة (٣) .

وقد حاول أهل السنة من جانبهم أن يظهروا فضل يوم عاشوراء ، فأقاموا فيه الزينات والأفراح ، وزعموا أن الاكتحال فيه مانع من الرمد في تلك السنة وذكروا الناس بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من الحض على فعل الخير فيه (٤) ، وذلك على خلاف الشيعة الذين كانوا يحدونه يوم حداد عام على مقتل سيد الشهداء الحسين بن علي رضي الله عنهما ٠٠

واستمر النزاع قائما بين الفريقين حتى بلغ من تعصبهم أنهم كانوا يلقون النار بعضهم على بعض ٠٠ وفي سنة ٣٦١ هـ قامت بالكرخ فتنة عظيمة فأرسل الوزير (السهلي) حاجبه لقتال العامة ، وكان شديد المصيبة لأهل السنة ، فاضطر إلى اشغال النار في أماكن كثيرة ليقتض على الفتنة فاحترق الكرخ حريقا عظيما ٠٠ وكان عدة من احترقوا فيه حمة عشر ألف إنسان وثلاثمائة دكان ، وثلاثة وثلاثين مسجدا ، ومن الأموال مالا يحصى (٥) .

(١) الحضارة الإسلامية لستر (١ : ١١٢) .

(٢) المصدر السابق (١ : ١١٨) .

(٣) كتاب الوزراء للصابي ص ٣٧١ .

(٤) الحضارة الإسلامية لستر (١ : ١٢٠) .

(٥) المصدر السابق (١ : ١٣) .

وكان لذلك كله أسوأ الأثر في الحياة الاجتماعية ، فاضطرب الأمن
واهتز النظام ، وعم الرعب والفرع ربوع البلاد ، وكثرت الأحقاد والضغائن
بين أفراد المجتمع ، وساءت الأحوال الاقتصادية والسياسية ، وكان لذلك
الصراع بعض النتائج الايجابية ، فقد انتعش الأدب شعرا ونثرا بفضل كبار
أدباء الشيعة ، الذين تمصبوا لمذهبهم ودافعوا عنه في نتائجهم الأدبية
أمثال : أبي بكر الخوارزمي ، والصاحب بن عباد ، والشريف الرضي وغيرهم .

ومن جهة أخرى كان هناك بعض أدباء السنة يتصدون لهؤلاء ويردون
عليهم أمثال : بديع الزمان الهمداني وغيره . . . مما كان له أكبر الأثر في إثراء
الحياة الفكرية والأدبية آنذاك .

* * *

ثانيا : أهل الذمة

أما أهل الذمة فقد كانوا من طائفتي اليهود والنصارى . . . وهؤلاء كانوا
يتعممون بكثير من ضروب التسامح الديني في ظل الإسلام ، وكانوا يقيمون
شعائرهم في أمن ودعة واطمئنان ولم تتدخل الحكومة الإسلامية في شعائرهم
ولم يخضعوا من تسامح بعض الخلفاء أنهم كانوا يحضرون مواعيدهم وأعيادهم (١) .

ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يخلق دونهم أي باب من أبواب
العمل والكسب ، وكانت قدمهم راسخة في الصناعات التي تدر الأرباح الوفيرة
— كما هو شأنهم اليوم — فكانوا صيارفة وتجارا وأصحاب ضياع . . . بل إنهم
نشأوا أنفسهم بحيث كان معظم نوابغ الصيارفة والصناع يهودا ، على حين
كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى (٢) ، ولم يتدخل خلفاء بني العباس

(١) معجم البلدان لياقوت الرومي (٤ : ١٧٦) .

(٢) الحضارة الإسلامية لمتز (١ : ٦٨) .

بصورة عامة في شؤونهم الدينية أو في حياتهم الخاصة إلا في بعض الظروف ، حيث وضعت القيود على الألبسة ، وأبنية البيع والكنايس .. إلا أن هذه القيود لم تطبق تطبيقاً تاماً ، ومن ثم قويت الروابط الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة ، واشتركوا جميعاً في تحريك الحياة العملية والأدبية ، وأصبح أهل الذمة يمارسون جميع الأعمال في الدولة الإسلامية .. فكان منهم الطبيب والمهندس والتاجر والصراف والبزاز (١) .

ولم ينفصلوا عن بعض الألف في ممارسة الطقوس الدينية ، ومناطق السكن فأقام النصارى في بغداد كنيسة عرفت باسم " دار الروم " وحكوا مدينته " تكريت " بين " الموصل " و " بغداد " كما سكن جماعة منهم مدينة " الرها " (٢) ، أما اليهود فوجدوا في بغداد بكثرة .. وكانت لهم في عهد الخليفة المعتضد مراكز مهمة ذلك مزدهرة حتى القرن السادس الهجري حيث زارها الرحالة " بنيامين " فوجد في بغداد وحدها عشر مدارس وثمانية وعشرين معبداً منها واحد مزين بالذهب والفضة (٣) ، أما عدد أهل الذمة في العراق فقد بلغ أكثر من ستين ألفاً في القرن الرابع (٤) .

ويؤكد آدم مثر أن عدد النصارى وحدهم ببغداد كان مابين أربعين وخمسين ألفاً (٥) .

أما في فارس فقد كثر عدد المجوس والصائبية (٦) .

وكان لكل من اليهود والنصارى رئيس ديني يمين بمهد من الخليفة وكان رئيس النصارى يلقب " بالجاثليقي " أما رئيس اليهود فكان يلقب " بالملك "

-
- | | |
|-----|---------------------------------------|
| (١) | الخراج لأبي يوسف ص ١٢٣ . |
| (٢) | أحسن التقاسيم للمقدسي ص ٢٢١ . |
| (٣) | الرحلة .. ص ١٣٥ . |
| (٤) | الممالك والممالك لابن خردادبة ص ١٢٠ . |
| (٥) | الحضارة الإسلامية (١ : ٦٥) . |
| (٦) | الرحلة .. ص ١٣٧ . |

وتكون رياسته بالوراثة ، ويستمد سلطانه ، من كتاب عهد يوجه اليه من الخليفة وتجرى لكل منهما مراسم خاصة عند توليتهما (١) .

أما عن العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة فكانت حمئة في معظم الأوقات ، غير أنه في بعض الظروف كان التوتر في العلاقات يعود بينهما ، وذلك حين كان بعض الخلفاء يتشدد في معاملتهم ، أو حين يسند الى أحد أفراد أهل الذمة ، منصب كبير في الدولة .

وقد ظهرت الحالة الأولى في عهد الرشيد والمتوكل والمقتدر فقد أمر الرشيد بهدم الكنائس في الثغور ، وأوصى بأخذ أهل الذمة في بغداد بأن تخالف هيتهم الاجتماعية هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم (٢) . وفي عهد المتوكل أمر أهل الذمة بوضع صور شياطين مصنوعة من الخشب على أبواب منازلهم ، وتسوية قبورهم بالأرض ، كما حتم عليهم ليس زى خاص بهم (٣) .

أما المقتدر فقد أمر ألا يستعان بأحد منهم في وظائف الدولة وألزمهم ليس الغسل ، والرقاع من خلف ومن قدام (٤) .

وأما الحالة الثانية : وهى اسناد بعض المناصب الكبرى إلى أحد أفراد أهل الذمة - فقد حدث حين اتخذ الوزير ابن الفرات ، رئيس ديوان الجيش من النصارى فاحتج عليه على بن عيسى بقوله : " أما اتقيت الله في تقليدك ديوان جيش المسلمين رجلا نصرانيا ؟ وجعلت أنصار الدين ، وحماة البيضة يقبلون يده ويمثلون أمره ؟ " فزعم ابن الفرات أنه ليس أول من اتخذ رجلا نصرانيا لمثل هذا المنصب (٥) .

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٥ : ١٢٧) .

(٢) المصدر السابق (١ : ٤١) .

(٣) البيان والتبيين للجاحظ (١ : ٤١) .

(٤) الحضارة الاسلامية لمتز (١ : ٦٥) .

(٥) ظهر الاسلام لأحمد أمين (١ : ٨٣) ط النهضة بمصر .

وإلى جانب ذلك كانت بعض الممارك المحدودة بين الطرفين تحدث
فى بعض المناسبات ففى سنة ٣٨١ هـ هاج المسلمون لأنهم وجدوا رأس خنزير
فى أحد المساجد فظنوا أن النصارى رموه ، وفى سنة ٣٩٢ هـ قُتِلَ أَحَدُ الْمُسْلِمِينَ
فظن العامة أن النصارى هم الذين قتلوه فثاروا عليهم ، ونهبوا بيعة لهم ، وأحرقوها
وكان الأمر عظيمًا (١) .

وفىما عدا تلك الحوادث المحدودة كان الوثام يسود بين الطرفين
حتى إن الخلفاء المباسيين كانوا يمتنعون أحياناً بالنصارى فى وظائف
الدولة ، فاتخذ الخليفة الطائع لله العباسى كاتباً نصرانياً (٢) .

واتخذ عضد الدولة البويهى نصريين هارون وزيار له ، وقد أذن لهما
فى عارة البيع والأديرة ، وإطلاق سلطته فى إعطاء الأموال لفقراء النصارى (٣) .

" وقد حدد الإسلام الملاقات الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة
فسمح بزواج المسلم من الذمّية . دون أن تُجَبَّرَ على ترك دينها والدخول
فى الإسلام ، أما زواج المسلمة من الذمى فكان مستحيلاً " (٤) [لأنه محرم]
ولم يكن النصرانى يرث اليهودى ولا العكس ، كما لم يكن النصرانى أو اليهودى
يرث المسلم ، ولا المسلم يرث غير المسلم يهودياً كان أو نصرانياً (٥) .

وقد فرضت الجزية على أهل الذمة وأغنى منها النساء والصبيان
والشيخوخ المأجزون والرهبان ، وكان المسلمون يراعون الفرق بأهل الذمة
فى جباية الجزية (٦) .

(١) الحضارة الإسلامية لمتز (١ : ٩٢) .

(٢) المصدر السابق (١ : ٥٩) .

(٣) الكامل لابن الأثير (٨ : ٢٥٥) وظهر الإسلام (١ : ٨٤) .

(٤) الحضارة الإسلامية (١ : ٥٩) .

(٥) الخراج لآبى يوسف ص ١١٢ .

(٦) نفس المصدر السابق .

وكان لأهل الذمة خلال القرن الرابع ملابس خاصة يتميزون بها عن المسلمين فاليهود ارتدوا البراطيل الطويلة^(١) على حين اتخذ النصارى البرانس أول الأمر ثم لبسوا القلانس الطويلة^(٢).

* * *

والحديث عن النصارى يدفعنا الى الحديث عن الديارات التي احتلت مكانة بارزة في الحياة الاجتماعية في ذلك العصر .. فكان الشعراء والمجان يلجأون إليها ، ويقضون بها أوقاتا سعيدة لطرافة ما فيها وجمال موقعها ، وحسن منظرها ، وكثرة خمائلها ، وكثافة أشجارها وروحة زهورها ورياحينها ، ولما كانت تشتهر به من الخمور الممتقة ..

وكان بعض الخلفاء يقدون الى هذه الديارات ويقضون بها أوقاتا طيبة ، فقد نزل المأمون مرة بدير الموصل الأعلى ، وهو في طريقه إلى دمشق ووافق نزوله عيد الشمانين عند النصارى ، حيث كانت تقام الاحتفالات المظلمة فجلس المأمون في موضع حسن ، وزين الدير بأحسن زينة ، ورأى الخليفة القسارسة ، والفلماني يحملون الصلبان ويتوجهون نحو المذبح كما شاهد الجوارى .. وقد لبس الديلج وفي أعناقهن صلبان الذهب ، فسر بهذه المناظر سرورا عظيما ، وقضى فيها وقتا طيبا ، ثم قال لأحد جلسائه : وهو اليزيدى - رأيت أحسن مما نحن فيه ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين ، أن تشكر من خولك هذا فيزيدك منه ، ويحفظه عليك قال : بارك الله عليك ، فلقد ذكرت في موضع الذكرى ، ثم أمر بثلاثين ألف درهم فتصدق بها للوقت^(٣).

وكانت الديارات تحتوى الناس على اختلاف طبقاتهم ، خاصة الشعراء الذين قالوا فيها شعرا كثيرا يعد من أرق وأثمن الشعر المربى ، فمن الديارات ذوات الشأن في ذلك الوقت دير " الشياطين " الذي كان غربي دجلة ، وقد

(٣) البراطيل : جمع برطيل وهو القلنسوة : غطاء الرأس .

(١) الحضارة الاسلحية (١ : ٨٤) .

(٢) الديارات ص ١٢٧ وما بعدها .

وصفه الشابشتى بأنه كان " حسن المنظر جميل الموقع ، رقيق الهواء " وأن قلاله كانت عامرة ، كثيرة الأشجار وأرضه كثيرة الرياحين ، وكان له سور يحيط به ، والناس يطرقونه للشرب فيه ، وهو من مطاح أهل البطالة ، ومواطن ذوى الخلافة (١) .

ولعبادة المخنث قصة غريبة فى هذا الدير ، فقد هام حبا بفلام نصرانى بالدير ، وجن به ، وعندما فطن رهبان الدير لأمره فرمن الدير بعد أن أقام به مدة طويلة (٢) .

ومن الديارات الشهيرة فى ذلك العصر " دَيْرَزَكِّي " على شاطئ نهر " أَلْبَلِيخ " وكان يمتاز بجمال موقعه ، ونزاهة موضعه ، وكثرة الغزلان والأرانب حوله ، مما يشجع على الصيد ، ويغرى بالقنص ، وكان الملوك إذا مروا به نزلوه ، وأقاموا فيه ، ولعل ديرا من أديار النصارى لم يشتهر كما اشتهر ذلك الدير لكثرة الأشعار التى قيلت فيه (٣) ، ولقد كان لهذه الديارات فى بلاد المسلمين أسوأ الأثر فى الحياة الاجتماعية وكان وجودها يمثل خطرا على الاخلاق العامة ، وشكل تحديا لشاعر الميئين ، بما كان يوجد فيها من خور معتقة وجوار حسان (٤) وظلمان ملاح . . فأصبحت أمكنة للفسق ، وملاجئ للمنحرفين ، ومراجع لأهل الخلافة والمجون ، وأندية لأهل الاختلال ، والاعلال .

وكان لبها على جانب ذلك كله بعض الآثار الطيبة على الأدب لكثرة الأشعار الرقيقة التى قالها الشعراء فى وصف جمالها ، وحسن منظرها .

-
- (١) الديارات ص ١٨٤ .
(٢) المرجع نفسه ص ١٨٥ .
(٣) نفسه ص ١١٨ وما بعدها .
(٤) نفسه ص ١١٨ وما بعدها .

ثالثا : الصابئة

اختلف المؤرخون في عقيدتهم الدينية ، فذهب السعدي : إلى أن أصل عبادتهم هي عبادة النجوم ، ثم تحولت إلى عبادة الأصنام ، فبنوا لكل صنم بيتا أو هيكلًا منفردا ، وسموا تلك الهياكل بأسماء الكواكب ^(١) ، وجاء في لسان العرب : أن الصابئين قوم يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام وهم كاذبون ، ويشبه دينهم دين النصارى ^(٢) ، وفي المصباح المنير أنهم على دين صابى بن شيث بن آدم عليه السلام وكانوا يعبدون الكواكب في الباطن ، وينسبون إلى النصرانية في الظاهر ^(٣) .

وذكر الامام الرازي في مختار الصحاح " أن الصابئين جنس من أهل الكتاب ^(٤) .

أما ابن العبري فيقول عن دينهم " انه دعوة الكلدانيين ، وأقوالهم قريبة من أقوال الحكماء ^(٥) .

وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم في قوله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ^(١) .

وفي القرن الرابع الهجري كانت هناك قريتان من الصابئة هما : صابئة حران ، وصابئة العراق ، وكانت صابئة حران تمبد الكواكب يجرّون بذلك مجرى عبدة الأوثان ، أما صابئة العراق فهم فرقة موحدة نشأت في فلسطين قبل ظهور النصرانية وهم من اتباع يوحنا المعمدان المشهور في

-
- | | |
|-----|---------------------------|
| (١) | مروج الذهب (٢ : ٣٥) . |
| (٢) | ابن منظور (١ : ١٠٢) . |
| (٣) | المصباح المنير ص ٥٠٩ . |
| (٤) | مختار الصحاح ص ٣٥٤ . |
| (٥) | مختصر تاريخ الدول ص ١٥٣ . |
| (٦) | سورة المائدة آية ٦٨ . |

المراجع العربية والإسلامية باسم يحيى بن زكريا^(١)، ويطلق عليهم العرب اسم
المتحيلة لأنهم يسكنون على ضفاف الأنهار لتسهيل التعميد في المياه
الجارية^(٢).

ويذكر ابن النديم أن تسميه أهل حرّان بالصابئة ترجع إلى زمن المأمون
عندما كان ذاهباً لغزو الروم سنة ٢١٥ هـ فمر على ديار مضر فقابلته الناس
يدعون له وفيهم جماعة من الحرانيين^(٣) الصابئة، وكان لبسهم إذ ذاك لبس
الأقبية، وشعورهم طويلة، فأنكر المأمون زهم، وقال لهم: من أنتم؟ فقالوا:
نحن الحرانية^(٤) فقال: أنصاري أنتم؟ قالوا: لا، قال: فيهود أنتم؟
قالوا: لا، فقال: أمجوس أنتم؟ قالوا: لا، فقال: ألكم كتاب أم نبي؟
فترددوا في القول، فقال لهم: فأنتم إذن: الزنادقة... عبدة الأوثان
فأنتم دسائلكم حلال لأنتم لكم ولا عهد، فاختاروا الآن أحد أمرين إما أن
تدخلوا في الإسلام، أو تختاروا لكم ديناً آخر من الأديان التي ذكرها
الله في كتابه، وإلا قتلناكم عن آخركم، وأعطى لهم مهلة قصيرة لتحديد
موقفهم، فاقترح عليهم شيخ من أهل حرّان أن يقولوا للمأمون أنهم صابئة
فهذا اسم ذكره الله في كتابه، وهكذا أطلق عليهم اسم الصابئة^(٥) (٦).

وقد كتب للصابئين في منتصف القرن الرابع الهجري كتاب عن أمير
المؤمنين المطيع أرفيه بصيانتهم، وحراستهم، والذبّ عن حريمهم، ورفع الظلم
عنهم، والتخلية بينهم وبين موارثهم وترك مداخلتهم، ومشاركتهم فيها لأن
أمير المؤمنين يرى في موارث الصابئين وغيرهم من المخالفين رأى رسول
الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول: "لا يتوارث أهل ملتين"^(٧).

- (١) رسوم دار الخلافة للصابي ص ٧.
(٢) كذا وهو خطأ، والصواب الحرانيون، كما ذكر صاحب القاموس، دكتور
سرحان.
(٣) كذا: والصواب الحرانية راجع القاموس، د / سرحان.
(٤) الفهرست ص ٤٥٩ لابن النديم.
(٥) وفي هذا التخريج شيء في النفس، د / سرحان.
(٦) الوزراء للصابي ص ٢٧٠.

وكانت العلاقات الاجتماعية بينهم وبين المسلمين حسنة ، فقد عاملهم المسلمون كأهل الذمة ، وأعطوهم الأمان كأهل الكتاب ولم يحدث بينهما نزاع ولا قتال ، وذلك راجع إلى قلة عددهم وميلهم للحلم ، ومجاراة المسلمين .

ولم يحدث أن تعرض لهم حكام المسلمين بأذى ، أو بيتوا لهم سوءاً أو كدَّبُوا لهم غدرا إلا في بعض الحالات الشاذة . .

ففي عهد الخليفة القاهر سنة ٣٢٠ هـ استفتى الخليفة أبا سميد الإصطخري في أمرهم فأفتاه بقتلهم ، لأنه تبين له أنهم يخالفون اليهود ، والنصارى ، ويمبدون الكواكب ، فعزم الخليفة على تنفيذ ذلك فيهم حتى اقتدوا منه بأموال كثيرة جميعوها فكف (*) عنهم (١) ، وفيما عدا ذلك كانت العلاقات بينهم وبين المسلمين جد طيبة . .

ولقد كان للصائفة عيدان يحتفلون بهما ، وقيمون شعائرهم الدينية فيهما :-

أحدهما : عيد الميلاد ، ويقع في الثالث والعشرين من ديسمبر " كانون الأول " .
وأما الثاني : فيقع في السابع والعشرين من يولييه " تموز " ويسمى عيدهم " البوتات " (**) وكان لهم إلى جانب ذلك أعياد أخرى كثيرة تقام في جميع أشهر السنة لكل منها رسوم وتقاليد خاصة (٢) .

أما صلواتهم فهي ثلاث مرات في اليوم قبل طلوع الشمس ، وفي منتصف النهار ، ومع الغروب ، وهم يتوضؤون قبل الصلاة كالمسلمين ، ويصومون ثلاثين يوما أيضا ، ولكنها تختلف عن طريقة المسلمين ، في كونها غير متتالية ، بل

(١) الحضارة الإسلامية لمتز (١ : ٦٨) .

(*) وفي النظم أشياء من هذه الروايات . د / سرحان .

(**) البوتات : جمع بوتة : شجر نباته كالزعرور بضم الراء . في القاموس وهو

شجر مشرف . د / سرحان .

(٢) القهرست ص ٤٦١ .

متقطعة إلى ثلاثة مراحل ، في كل مرحلة عشرة أيام (١) .

أما تأثيرهم في المجتمع فلم يكن فعالاً ، ولم يكن لهم نشاط ملحوظ كاليهود ، والنصارى ، وذلك راجع إلى قلة عددهم من ناحية وإلى مريسة تماليهم من ناحية أخرى . .

وكانوا كثيراً ما يحاولون التسترباً لاسلام خوفاً من القتل ، كصابئة " حران " أما صابئة العراق فكانوا حريصين على مجارة المسلمين في عاداتهم وتقاليدهم والرغبة في مودتهم ومسالمتهم . .

واحتل بعض أدباء الصابئة مكانة مرموقة في المجتمع كالأبي إسحاق الصابي ، الذي كان - كما يقول الثعالبي - يماشر المسلمين أحسن عشرة ويخدم الأكابر أرفع خدمة ، ويساعدهم على صيام شهر رمضان ويحفظ القرآن الكريم حفظاً يدور على طرف لسانه وسن قلعه (٢) .

كما نبغ منهم بعض الأطباء أمثال : ثابت بن سنان وابن قرة . وهذا فضلاً عن نبوغهم في النقش على الذهب والفضة وبعض الصناعات التقليدية .

(١) مختصر تاريخ الدول لابن المبري ص ١٥٣ .

(٢) البتية (٢ : ٢١٩) .

٠ :: الفصل الرابع :: ٠

٠ الأعياد والمواسم والمواكب ٠

اهتم العبّاسيون في القرن الرابع بالاحتفالات الدينية في الأعياد
والمواسم ، وأولّوها عناية بالغة ، وأنفقوا عليها أموالاً طائلة ، ولم يقتصروا فـسـى
ذلك على الأعياد الإسلامية ، بل تجاوزوها إلى أعياد أخرى غير إسلامية ، انتقلت
إليهم من الفرس ، أو من أهل الذمة .

ومن الأعياد الإسلامية عيد الفطر والأضحى ، وعيد رأس السنة الهجرية
وعيد المولد النبوي الشريف ، وعيد " غدير خم " (١) عند الشجرة وعيد الفار ضد
أهل السنة (٢) .

ومن الأعياد الفارسية التي احتفل بها المسلمون أعياد : النيروز " والمهرج " ^٣
والسندق .

أما أعياد النصارى فكانت كثيرة ، ومتعددة ، وكان لكل دير تقريباً
عيد يخرج فيه الناس إليه للهو ، والمهت ، والمجون . .

أما أعيادهم العامة فكان أهمها أعياد " الميلاد " والفصح ^٤
والشمانين . .

وكانت مظاهر الاحتفال بالأعياد الإسلامية تتجلى بصورة خاصة في عدى
الفطر والأضحى في جميع البلاد الإسلامية . . خاصة في مدينة " طرسوس " ^٥
التي كان غزاة المسلمين يتوافدون إليها من جميع أنحاء الدولة الإسلامية الواسعة
وترد إليهم تبرعات الذين يتعذر عليهم الخروج للشزو (٦) .

ولما ضاعت من المسلمين حلت محلها " صقلية " التي كانت مشهورة كذلك
بحسن عيديها (٣) .

(٥) غدير خم : موضع على ثلاثة أميال من الجحفة بين الحرمين ، أو هو
غضة هناك . د / سرحان .

(٦) الصبر في خبر من غير (٣ : ٤٣) .

(٧) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٨ : ٢٢٢) .

(٨) الحضارة الإسلامية لمر (٢ : ٢٩٢) .

وكان المباسيون يحتفلون بميد الفطر في كثير من الأبتة والمثلة فكانت
الأنوار تسطع في بغداد وغيرها من المدن المراقية والفارسية في ليالي الميد ،
وتتجاوب أصوات المسلمين بالتكبير ، والتهليل ، والتمغيم وتردحم الأنهار
بالزوارق المزينة بأبهى الزينات ، وتتلألأ الأنوار البراقة في قصور الخلافة (١)
ويستمر الاحتفال بالميد ثلاثة أيام كاملة (٢) .

وكان شهر رمضان هو الشهر الذي يتجلى فيه منتهى الكرم عند المسلمين
ويحكى عن الوزير الصاحب بن عباد أن داره كانت لا تخلو من ألف
نفس يفطرون فيها في كل ليلة من ليالي رمضان ، وأن صدقاته ، وقرباته فسي
هذا الشهر كانت تبلغ بقدر ما ينفق منها في جميع شهور السنة (٣) .

وقد جرت العادة في بغداد وغيرها من المدن المراقية والفارسية
أن تشمل مصابيح المساجد طوآل ليالي شهر رمضان ، وتخرج الإنعامات
من دار الخلافة إلى الخاصة والعامة طيلة الأيام الأربعة من أواخر هذا
الشهر المبارك ، ويتهيا المسلمون لاستقبال اليوم الأول من أيام العيد فيخرجون
إلى المساجد لأداء الصلاة . .

وكان من عادة الخليفة أن يخرج من قصره مبكرا في أول أيام العيد ،
ويسير مع كبار رجال دولته في موكب فخم مهيب ، وهم يلبسون الألبية السود ،
والناس يقفون على جانبي الطريق ، وهم في أبهى منظر ، وأجمل زينة ، ينتظرون
موكب الخليفة ويستقبلونه بالتهليل والتكبير ، والدعاء له بالنصر ويحيونه قائلين :
" السلام على أمير المؤمنين ونور الاسلام ، فيرد الخليفة عليهم بلم بردته ،
والتلويح بها ، وبعد الانتهاء من الصلاة ، وإلقاء خطبة العيد ، يمود الخليفة

(١) تاريخ الاسلام السياسي (٣ : ٤٥) د . حسن ابراهيم حسن .

(٢) صبح الأضنى (٢ : ٤١٦) .

(٣) اليتيمة (٣ : ١٧٤) .

بموكبهم إلى القصر لاستمراض الجند وهم ينتظرونه على ظهور الخيل بملابسهم الجميلة ، وإلى جانبه القواد والقضاة (١) .

وبعد ذلك يجلس الخليفة على سرير مرتفع ويقف حوله الفلمان والخدم متقلدين السيوف ، وتمدد في مواجهة الخليفة ستارة من الديباج فاذا دخل الناس رفعت ، وإذا أراد صرفهم أرخت (٢) .

وهناك مواكب أخرى في عيد الفطر كانت لا تقل روعة ولا بها عن موكب بعض الخلفاء ، وهي مواكب الأمراء والوزراء والقواد وقد وصف هلال ابن المحسن الصابي موكب القائد " نازوك " في يوم العيد فقال :

" إنه كان يسير وبين يديه أكثر من خمسمائة فارس يحملون الشموع الموكبية سوى أصحاب النفط ، وعددهم كثير ، وبلغ من شدة الزحلم أن الرجل كان لا يستطيع اجتياز الموكب ، وكان القواد والأمراء يلبسون في ذلك اليوم قبا أسود وينتطقون بالمناطق ، ويتقلدون السيوف ، أما القضاة فكانوا يلبسون الطيلسان والممائم السود المصقولة (٣) .

وكانت مظاهرة الإسلام تتجلى في الاحتفال بعيد الأضحي ، وتبدو في أبهى صورها حيث كان المسلمون يذهبون في صبيحة أول يوم فيه إلى المساجد لأداء الصلاة ، كما كانوا يحرصون - مع اختلاف طبقاتهم - على نصر الأضاحي ، وتوزيع لحومها على الفقراء والمحتاجين ، بل إن بعض الخلفاء كانوا يشتركون بأنفسهم في ذبح الأضاحي ، فالخليفة المقتدر - حين يوسع بالخلافة سنة ٢٩٥ هـ - وزع في يوم الترويه - الثامن من ذي الحجة - ويوم عرفة - التاسع من ذي الحجة - لحوم ثلاثين ألف رأس من البقر والغنم وألفي رأس من الإبل (٤) (٥) .

(١) المنتظم لابن الجوزي (١ : ٣٥) .

(٢) رسوم دار الخلافة للصابي ص ٩١ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠ .

(٤) المنتظم لابن الجوزي (٦ : ٢٧٦) .

(٥) والمبالغة واضحة في إسناد التوزيع . د / سرحان .

وكانت الحكومة الإسلامية تشرف على تنظيم موكب حجاج بيت الله الحرام كل علم فحمين أميراً تختاره من الأشراف الطالبيين يقوم برعاية شؤون الحجاج منذ خروجهم من بغداد حتى يصلوا مكة وتنتهى مهمته عند عودتهم إلى بغداد (١) .

وكان اختيار أمير الحج يتم فى دار الخلافة فى احتفال عظيم ، يحضره الخليفة والأشراف والقضاة والفقهاء ويخلع فى حضورهم عليه (٢) ، وكان حجاج شمالى وشرقى الدولة الإسلامية الواسعة يتجمعون فى بغداد حيث تهى لهم الحكومة المركزية كل وسائل الراحة — التى تهون عليهم مشقة السفر — ووعورة الطريق ، الى الأماكن المقدسة ، كما كانت تزودهم بالماء والطعام الذى كان يقتصر على الأقراص الممجنة باللبن ، والسكر والفواكه (٣) .

وكان موكب الحجاج عند خروجه من بغداد يتقدمه حامل العلم وجند السفر والقواد والدعاة والحجاب (٤) .

وعند وصول الموكب المبارك إلى بيت الله الحرام يقوم أمير الحج بإلقاء خطبة نيابة عن الخليفة (٥) ، وتملق القناديل التى أحضرت من بغداد على الكعبة وهى مصنوعة من الذهب والفضة ، وتنصب الأعلام التى نقش عليها اسم الخليفة . كما فمل أمير الحج أحمد بن الحسين البوسوى نقيب الأشراف الطالبيين سنة ٣٦٠ هـ (٦) .

وبعد الانتهاء من مراسم الحج يعود الموكب إلى بغداد حيث يقام احتفال عظيم يحضره الخليفة أحياناً ، ويقوم فيه بتقديم الهدايا والخُلع

-
- | | |
|-----|--|
| (١) | مروج الذهب (٤ : ٣٢٠) . |
| (٢) | مقامة فى قواعد بغداد للكازرونى ص ٧٤ . |
| (٣) | المنتظم لابن الجوزى (٧ : ٢٧٦) . |
| (٤) | مقاسة فى قواعد بغداد ص ٨٤ . |
| (٥) | الكامل فى التاريخ لابن الأثير (٦ : ٧٤) . |
| (٦) | المنتظم لابن الجوزى (٧ : ٨٤) . |

لأفراد الحاشية وغيرهم من كبار رجال الدولة (١) .

* * *

وكان يوم الجمعة يُعَدُّ عيدًا صغيرًا للمسلمين يحتفلون به كل أسبوع حيث يتوافدون فيه إلى المساجد لأداء الصلاة ، وكان خطباء المساجد يرتدون الزي الرسمي عند القاء خطبة الجمعة وهو القباء الأسود ، وكان هذا زيا رسميا للفقهاء والقضاة حتى سنة ٤٠٠ هـ ثم أصبح بعد ذلك مقصورا على الخطباء والمؤرخين ، واهتم المباسيون كذلك بعيد رأس السنة الهجرية ولما كان هذا العيد متنقلا دائما ليس له موضع ثابت لم يصر عيداً من الأعياد الشعبية بل ظل عيداً في قصر الخلافة ، لا يحيط به ما كان يحيط بغيره من الفخامة ، وكان الناس يتهادون فيه (٢) .

وكان المباسيون يحتفلون - كذلك - بالمولد النبوي الشريف منذ بداية القرن الرابع هـ أما الاحتفال بمولد أمير المؤمنين على كرم وجهه ومولد ولديه الحسن والحسين رضي الله عنهما فكان قاصرا على الشيعة في فارس والمراق .

وكان عيد الخديرج المعروف بخديرج (خَمَّ) من الأعياد الهامة لدى الشيعة ، وهو يوافق اليوم الثامن عشر من ذي الحجة (٣) . وسبب احتفال الشيعة به ما يرويه المؤرخون من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بخديرج "خَمَّ" وهو في طريق عودته من مكة إلى المدينة وأخذ بيد علي كرم وجهه وقال له : "أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه لا نبي بعدي" ثم التفت إلى أصحابه وقال "من كنت مولاه فعلي مولاه" اللهم وال من والاه وعاد من عاداه (٤) .

(١) المنتظم لابن الجوزي (٧ : ٧٥) .

(٢) الحضارة الإسلامية لمتز (٢ : ٢٩٠) .

(٣) صبح الأعشى (٢ : ٤١٧) .

(٤) المنتظم لابن الجوزي (٨ : ١٦) .

وكان معز الدولة البويهى أول من احتفل بهذا العيد سنة ٣٥٢ هـ
فصيرت الدبادب^(١) والبهوقات ، وأسرع الناس إلى زيارة قبور الأئمة والأولياء
فى الكوفة وبغداد^(٢) واستمر الاحتفال به طيلة العهد البويهى .

أما أهل السنة فكانوا يحتفلون بإحياء ذكرى يوم الفار مضاهاة لميـد
غدير^(٣) " خم " عند الشيعة ، وقيل إنه كان يوافق الثالث والعشرين من ذى الحجة
وهو اليوم الذى دخل فيه الرسول عليه السلام غار " ثور " هو وصديقه أبوبكر
أثناء الهجرة إلى المدينة ، وكان أهل السنة يبالغون فى الاحتفال بهذا
اليوم ، حيث يقيمون الزينات ، ويوقدون النيران ، وينصبون الأعلام ، ويظهرون
الفرح والسرور ، وقد ظل الاحتفال به حتى نهاية القرن الخامس الهجرى .

أما أعياد الفرس فكان أهمها " النيروز " والمهرجانات " والصننى "

ويُعدُّ النيروز من أهم أعياد الفرس القديمة ، وهو أول أيام السنة
عندهم ، ويقع عند الاهدال الربيعى ، وكانت الاحتفالات تقام بهذا العيد
مدة ستة أيام كاملة^(٤) .

وقد احتفل به الناس على اختلاف طبقاتهم منذ أوائل العصر المباسى
وكانوا يتبادلون فيه الهدايا ، ويقيمون الأفراح كما كان الفرس يفعلون من قبل^(٥)
وفضلاً عن ذلك اقتدى بمضى الخلفاء بالفرس فى جباية الضرائب أيام النيروز^(٥) .

وكان الخليفة المتوكل من أكثر الخلفاء اهتماماً بتوزيع الهدايا فى
هذا العيد ، ويروى أنه منح الشاعر الخليل مائة دينار ومن كل بيت من

(١) الدبادب : جمع دبداب ، وهو الطبل ، د / سرحان .

(٢) المنتظم لابن الجوزى (٨ : ١٦) .

(٣) نهاية الأرب للنويرى (٢ : ٧٧٢) .

(٤) المرجع السابق (٤ : ١٧٨) وصبح الأعشى (٢ : ٤١٨) .

(٥) صبح الأعشى (٢ : ٤١٩) .

(٥) مرق الذهب (٤ : ٧٢) .

الشعر في هذه المناسبة (١) .

وكان بعض الخلفاء يتقبلون الهدايا في هذا اليوم من الرعية ، فالخليفة المأمون أهدى إليه سَقَطٌ من الذهب فيه قطعة عود هندي (٢) .

وكان بعض الأمراء — أيضا — يتقبلون الهدايا في هذا اليوم أسوة بالخلفاء ، كما فعل عضد الدولة البويهى — إذ قبل من أبى اسحاق الصائسى رسالة هندسية من استخراج مصحوة بأبيات رقيقة من الشعر (٣) .

وكان من مظاهر الاحتفال بيوم النيروز — كذلك — أن يُرَشَّ الماء على المارة ، وقد أكثروا من ذلك مرة فأصاب الجند والشرطة منهم ماء كثير فنودى في الأرباع ، والأسواق ببغداد سنة ٢٨٤ هـ بالنهى عن رش الماء (٤) .

ويذكر البيرونى * أن عادة رش الماء قد استمرت حتى نهاية القرن الرابع الهجرى (٥) .

أما عيد * المِهْرَجَان * فكان يقع في السادس والعشرين من أكتوبر — أى — في وسط الخريف ، ومدة الاحتفال به ستة أيام ، وكان أفراد طبقات المجتمع يشتركون في الاحتفال به ، وهو شبيه بالنيروز من حيث تقديم الهدايا والمنع وملابس الشتاء إلى اقواد ، ورجال دار الخلافة (٦) .

وكان الخلفاء يجلسون في هذا اليوم للمامة ، ولا يحتجبون — من أحد صغيرا كان ، أو كبيرا ، شريفا كان أو وضيعا (٧) .

(١) مروج الذهب (٤ : ٧٢) .

(٢) نهاية الأرب (١ : ١٧٧) .

(٣) البتية (٢ : ٢٥٥) .

(٤) تاريخ الأمم والملوك للطبرى (٨ : ١٨١) .

(٥) الآثار الباقية للبيرونى ص ٢١٥ .

(٦) البتية (٢ : ٢٥٦) .

(٧) التاج للجاحظ ص ٥٩ .

ومن الأعياد الفارسية التي انتقلت للمسلمين منهم عيد السَّدَق *
وكان يعرف بمعيد الْوَقُود ، وقد جرت المادة في القرن الرابع ، بالتبخير
ليلة الوقود لدفع المضرة ، وصار من مراسم الملوك في تلك الليلة إيقاد النيران
وتأجيحها ، وإرسال الوحوش فيها وتطير الطيور في ليلها والشرب والتلهي
حولها .

وكانت أشهر ليلة وَقُود في القرن الرابع عام ٣٢٣ هـ ٠٠ ففى هذا
العلم أمر القائد الفارسي " مرداويج " أمير بلاد الجبل في غرب إيران
قبل ليلة الوقود بمدة طويلة أن تجمع الأخطاب من الجبال والنواحي البعيدة
وأن تنقل من واد قرب أصفهان ، وأمر بجمع النفط والثفاطين والزراريق (١)
ومن يحسن محالبتها ، واللعب بها ، وتقوم بإعداد الشموع المظلم ، ولم
يبق جبل عال ، ولا تل ظاهر إلا وضمت عليه الأخطاب والشوك ، وصيدت
له الفريان والحدأ ، وعمل بمجلسه الخاص تماثيل من الشمع ، وأساطين عظم
لم ير مثلها ليكون الوقود في ساعة واحدة على الجبال ورموس اليفاعات (٢) ،
والصحراء ثم عُمل له سَاطٌ عظيم في الصحراء التي يبرز إليها من داره وجمع
فيه من الحيوانات والبقر والغنم آلاف كثيرة ، وزين بما لم تجر المادة بمثله
فلما فرغ من ذلك وحضر الوقت الذي ينبغي أن يجلس فيه مع الناس للطعام
والشراب ، خرج من منزله ثم طاف على كل ذلك ، فاستحقده ، واستصفر شأنه
لأجل سمة الصحراء ، واغناظ ودخل إلى خيمته ، واضطجع محولا وجهه إلى
خلاف الباب لئلا يكلمه أحد (٣) .

* * *

أما أعياد النصارى ، فكانت كثيرة ومتعددة على مدار السنة ، وكانوا
يحتفلون بها في الأديرة التي كانت تنتشر في العراق ، وغيرها من بلاد
المسلمين .

- (١) جمع : زرق - بوزن سكر - طائر صياد ، د / سرحان .
(٢) جمع يفاع بوزن سحاب وهو التل ، واليفاعات : الجبال الشم ، د / سرحان .
(٣) الحضارة الإسلامية لاسم متر (٢ : ٢٨٢) .

وكانت الأديرة ببساتينها الفسيحة ، وقاعات شرابها الباردة وخورها
السمتقة ، مقصدا لأهل البطالات ، وطلاب اللذة . . وكثيرا ما كان ذكر
الأديرة يُقرنُ بذكر الخمر والشراب . .

ومن أدم الأعياد النصرانية في ذلك الحين . . عيد الميلاد ، وكانوا
يكثرون فيه من إيقاد الشموع والنيران (١) .

وعيد الشَّعَّانين ، وكان في مصر يسمى عيد الزيتون ، وهو يقع في يوم
الأحد الذي يسبق عيد الفصح من كل عام ، وكان النصارى يتقلدون فيه
الصلبان ، ويتوشحون بالمناديل المنقوشة ، ويحملون بأيديهم الخوص والزيتون ،
وكان الدير الأعلى بالموصل يحتفل بهذا العيد احتفالا كبيرا (٢) .

ومن أعيادهم المشهورة " عيد الفصح " وعندهم أن عيسى عليه السلام
قلم فيه بعد الصلب بثلاثة أيام ، وكان يحتفل به في دير " سَمَالُو " شرقي
بغداد ، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللبو الا حضره ، للقصف والمجون
وهناك يدور الشراب في جو مفعم بالفرح والسرور وفيه يقول محمد بن عبد الملك
الهاشمي :

وَلَرَّبَّائِمِ فِي سَمَالُو تَمَّ إِلَى * فِيهِ السُّرُورُ وَغِيَتْ أَحْزَانُهُ
وَأَخْ يَشُوبُ حَدِيثَهُ بِحُلَاوِي * يَلْتَذُّ رَجْعَ حَدِيثِهِ نِذْمَانُهُ
جَمَلُ الرِّحِيقِ مِنَ الْمَدَامِ شَرَابُهُ
وَالْحَسَنَاتُ مِنَ الْاَوَانِ شَأْنُهُ
فَأَمَرْتُ سَائِقِينَا وَقُلْتُ لَهُ اسْقِنَا
قَدْ حَانَ وَقْتُ شَرَابِنَا وَأَوَانُهُ
فَتَلَاجَتِ بِمَقُولِنَا نَشْوَانُهُ * وَتَوَقَّدَتْ بِخُدُودِنَا نِيرَانُهُ

(١) الكامل في التاريخ (٢٢٢ : ٨) .
(٢) الحضارة الاسلامية لآدم مثر (٢ : ٢٢٨) .

حتى حَسِبْتُ لَنَا الهَاطَ سَفِينَةً
وَالدَّيْرُ تَرْقُصُ حَوْلَنَا حَيْطَانُهُ (١)

وكان عيد * دَيْرَ الثَّعَالِبِ * يقع في آخر سبت من يونيو وكان هذا الدير يقع في الجانب الشرقي من بغداد بالموضع المعروف بباب الحديد وكان أهل بغداد يقصدونه ويتروضون فيه ، ولا يتخلف من عيد أحد من النصارى أو غيرهم لأنه أمر موضع بمشاده لما فيه من البساتين ، والنخيل والرياض ، ولموقعه الفريد وسط البلد (٢) .

وإلى جانب ذلك كانت هناك احتفالات تقام في دار الخلافة تجرى على نطاق محدود لمنح الْخَلْعِ والألقاب للأُمراء والوزراء والقواد والولاة عند توليتهم ، وهي تُعَدُّ مظهرًا من مظاهر تكريم الخلفاء لكبار رجال الدولة (٣) .

كما كانت هناك احتفالات محدودة ذوات طوابع أسرية كحفلات الختان ، وكان الرجل يكره أن يختن ابنه منفردا . .

ولذلك يحكى عن الخليفة المقتدر أنه ختن خمسة من أولاده ، وختن معهم جماعة من الأيتام ، ونثر في هذا الختان خمسة آلاف دينار عينا - أى ذهبًا - ومائة ألف درهم ورقًا - أى فضة - وفرضت فيه دراهم وكُتِّبَ ويقال إن النفقة في هذا الاحتفال بلغت ستائة ألف دينار (٤) .

وعلاوة على ذلك كانت هناك احتفالات أخرى تجرى على نطاق ضيق كحفلات ختم القرآن الكريم التي كان الأُحْدَاث يشتركون فيها بأحسن الأزياء ، ويجهون طرق المدينة ينشدون الأناشيد وتقام المآدب ، وتوزع الخلع على القارئین (٥) .

-
- | | |
|-----|---|
| (١) | الديارات ص ١٤ للشابشتى . |
| (٢) | المصدر السابق ص ٢٤ (٣) المنتظم لابن الجوزي (٧ : ١٥) . |
| (٤) | الحضارة الإسلامية لمتز (٢ : ٢٩٣) |
| (٥) | تلبیس ابلیس لابن الجوزی ص ٣٨٢ . |

ولقد كان لهذه الاحتفالات آثار اجتماعية ضارة تذكر منها على سبيل المثال ما يأتي :-

أولا : كان لأعياد النصارى بصفة خاصة آثار سيئة على الأخلاق العامة حيث كانت الاحتفالات تقلم بهذه الأعياد على مدار السنة في الأديرة التي كانت تمتاز بمواقعها الفريدة ، وبساتينها الفسيحة ، وخمورها الممتقة ، وجواربها الحسان ، وغلماها الملاح ، وكانت ملاجئ لأهل المجون والخلاعة ، وطلاب اللذة والمهث ، والشهوة المحرمة ، حيث كانوا يتوافدون عليها من مختلف الجهات ، يلعبون ويمشون ، ويرتكبون الفواحش مظهر منها وما بطن ما كان له أسوأ الأثر على الأخلاق العامة في المجتمع الاسلامي .

ثانيا : كما كان للأموال الباهظة التي تنفق في هذه الحفلات في شتى المناسبات آثار اقتصادية سيئة مما أدى إلى انتشار الفقر بين الطبقات الدنيا التي كانت وحدها تتحمل عبء هذه المصروفات بما يفرض عليها من ضرائب وإتاوات فساءت الأحوال وتمطلت المصالح ، وعم الفساد .

والى جانب هذه الآثار الاجتماعية الضارة كان لهذه الاحتفالات جوانب حضارية نافعة ، ذلك أن التقاء المسلمين في مثل هذه الاحتفالات في شتى المناسبات ، كان من شأنه أن يولد بينهم التعارف والتآلف ويؤدي إلى وحدتهم ، واندماجهم ، خاصة أن المجتمع الاسلامي في ذلك الحين كان يتكون من جنسيات مختلفة ، ويتألف من عناصر بشرية متباينة ، وأديان متنوعة .

كما كان للصدقات التي يوزعها الأغنياء على فقراء المسلمين في شهر رمضان ، ونصب الموائد العامة طوال هذا الشهر الكريم ، وكثرة لحوم

الأضاحى التى كانت توزع على المساكين فى عيد الأضحى كان لذلك كله أثره الواضح فى تخفيف حدة الفقر بين الطبقات الكادحة ، وإحلال روح الجماعة لديهم ، والتغلب على الأحقاد التى تتولد فى القلوب نتيجة للظلم الاجتماعى وسوء التوزيع وفقدان العدالة الاجتماعية .

وبالإضافة إلى ذلك كان تنظيم مسيرة الحجاج إلى بيت الله الحرام والإشراف التام على موكب الحج من طرف الحكومة المركزية فى بغداد مؤدياً إلى تأمين طريق الحجاج وانتشار الأمن بينهم ، كما كان له أثره البالغ فى تعزيز حرمة الله ، والمحافظة على فرائضه ، وأداء واجباته ، وإتامة شعائر الاسلام الحنيف كما أدى هذا العمل العظيم إلى الحفاظ على هيبة المسلمين بين الأمم ورفع راية الاسلام عالية خفاقة بين الشعوب .

* * *

:: الفصل الخامس ::

الغناء والموسيقى

١ - الفناء وأطواره عند المرب :

أ - في العصر الجاهلي :

عرف المرب الفناء منذ الجاهلية ، والدارس للشعر الجاهلي يجده مرتبطا منذ نشأته بالفناء والموسيقى ، وفي شعر امرئ القيس ، ما يدل على أنه كان يغنى أشعاره في جمع من النسوة ، فكن يعجبين بانشاده ويشقن الى سماعه حيث يقول :

يُرْعَنَ إِلَى صَوْتِي إِذَا مَا سَمِعْتَهُ
كَمَا تَرْعَى عِطْرٌ إِلَى صَوْتِ أَمِيْس^(١)

وفي أواخر العصر الجاهلي ظهر شاعر جاهلي مشهور هو الأعشى كان يغنى أشعاره على آلة موسيقية معروفة باسم الصنج ، ولذلك أطلق عليه لقب " صَنَاجَةُ المرب " .

وكثر في الشعر الجاهلي ذكر الفناء والمغنين ، والموسيقى ، وآلاتها مثل قول الأعشى في معلقته :

وَمَسْتَجِيبٌ تَخَالُ الصَّنَجُ يُسَمِّمُهُ
إِذَا تَرَجَّعَ فِيهِ الْقَيْنَةُ الْفُضْلُ^(٢)

وكقول طرفه في معلقته :

ندامى بيض كالنجوم وقينــــــــــــــــة
تروح علينا بين برد ومجسد

(١) ديوان امرئ القيس ص ١٠٦ .

(٢) مستجيب : عود يستجيب الى الضج وهو دوائر رقاق من نحاس ، يصفق باحدهما على الأخرى .
والفضل : التي تلبس ثوبا واحدا رقيقا .

رَحِيبٌ قِطَابُ الْجَيْبِ مِنْهَا رَفِيقَةٌ
بِجَسِّ النَّدَامَى بَضَّةُ الْمُتَجَرِّدِ

إِذَا نَحْنُ قُلْنَا : أَسْمِعِينَا أَنْبَرْتَ لَنَا
عَلَى رَسْلِهَا مَطْرُوقَةٌ لَمْ تَسُدَّ
إِذَا رَجَعَتْ فِي صَوْتِهَا خَلَّتْ صَوْتَهَا
تَجَاوَبَ أَظَارٌ عَلَى رَسِّ رَدَى (١)

ثم أخذ النخاء يرقى ويتعقد في أواخر المصير الجاهلي - روى
الطبري أن هند بنت عتبة بن ربيعة زوج أبي سفيان * وجماعة من نساء
قريش كن يضرهن على الدفوف في غزوة أحد ، وكانت هند تغنى في أثناء
هذا المزف مقطوعات شعرية غنائية منها قولها :

إِنْ تُقِيلُوا نَمَانِيْقُ * وَتَفَرُّشُ النَّمَارِقُ
أَوْ تُدَيِّرُوا نَفَارِقُ * فِرَاقَ غَيْرٍ وَامِرِقُ (٢)

وفي الأغاني * أن أبا سفيان لما نصح لقريش أن ترجع في غزوة بدر
بعد أن رجعت القافلة سالمة إلى مكة قال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرى
بذراً فنقيم عليه ثلاثاً ، وننحر الجزر ، ونطعم الطملم ، ونسقى الخمسور ،
وتمزف علينا القيان ، وتسمع بنا المرب (٣) .

وذكر ابن رشيقي * أن القبيلة من المرب كانت إذا نبغ فيها شاعر
أتت القبائل فهنأته ، وصنعت الأطمعة ، واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر (٤) .

* المجسد : ثوب مصبوغ بالزعفران .

بضّة المتجرّد : ناعمة الجزء المتحرى من جسدها .

مطروقة : كأن عينيها طرفت .

رّبع : ولد الناقة .

ردى : هالك . (١) شرح المملكات السبع ص ٧٥ للزوزنى

(٢) الطبري (مجلد أول - ١٤٠٠) .

(٣) الأغاني (٨ : ٣٢٧) ط دار الكتب

(٤) الممدّة (٣ : ٣٧) .

وفي أخبار امرئ القيس . أنه لما طرده أبوه كان يسير مع جماعة من صمالك العرب وشذائهم ، فإذا صادف غديرا أو روضة أو موضع صيد أقلم تذبج لمن معه في كل يوم ، وخرج إلى الصيد فيصيد ثم يمود فيأكل ويأكلون معه ، ويشرب الخمر ويسقيهم وتغنيه قيانة (١) .

كل هذه النصوص والشواهد تؤكد لنا بوضوح أن العرب في الجاهلية قد عرفوا النناء وأحبوه ، واستمتعوا به ، كما عرفوا الموسيقى ، وآلاتها ، وكانوا يستخدمونها في الفناء وينشدون عليها الأشعار ما يدل على ارتباط الشعر الجاهلي بالفناء والموسيقى منذ نشأته .

ب - الفناء في العصر الأموي :

وإذا ما انتقلنا إلى العصر الإسلامي وجدنا موجة الفناء تتراجع إلى الوراء ، وتأخذ في التلاشي والانحسار ، ألملمت تعاليم الإسلام وخصائصة أحكامه ، ومشغولية المسلمين بالفزوة ، والجهاد في سبيل الله ، وانصرافهم عن الشعر والنناء ، إلى قراحة القرآن الكريم ، وتدبر آياته ، والمكوف على السننة النبوية ، ودراسة أحكامها .

فلما وصل بنو أمية إلى الخلافة وحولوها إلى ملك وراثي عضوض ظهرت الأحزاب السياسية ، وعادت النمرة الجاهلية ، وأقبل العرب على سماع الشعر وروايته ، خاصة الشعر الجاهلي ، أو ما يحاكيه في ألفاظه ومعانيه ، كما أقبلوا بشغف على الفناء والموسيقى خاصة في الحجاز الذي عرف بكثرة المهنات والمغنيين ، وكان أكثرهم من الموالى من فرس وروم وغيرهما ، واشتهر منهم في مكة : طويمر وسائب وابن سريج وابن مسجح ، وابن محرز وغيرهم ، كما ظهر ممهد ومالك بالمدينة .

(١) الأغاني : دار الكتب (٩ : ٨٧) .

أما المغنيات فكان كثيرات بالمدينة واشتهرت منهن جميلة وسلامة
وهرة ، وحبابة ، وبلبل ، ولذة العيش وسعيدة والزرقاء وعقيلة وخليفة وغيرهن^(١)

وازدهر الفناء في مصر الأموي وتنوع ألوانه فمرف الفناء المادي
كما عرف الفناء المصحوب بجوقة تضرب على الآلات الموسيقية بينما ينسني
المفنون . .

وقد روى أبو الفرج * أن الناس اجتمعوا عند جميلة ، فضربت ستارا ،
وأجلست الجوارى كلهن فضربت وضربن على خمسين وترا فترلزت الدار ثم
غنت على عودها ، وهن يضربن على ضربها^(٢) .

واشتهر بعض خلفاء بني أمية بحبهم للفناء ، وسيلهم للطرب . . أمثال :
يزيد بن عبد الملك الذي قال عنه أبو حمزة الشاري في خطبته : إنه كان يشرب
الخمير ، ويلبس الحلة قومت بألف دينار ، وحبابة عن يمينه ، وسلامة عن يساره
تغنيانه حتى إذا أخذ الشراب منه كل مأخذ ، قد ثوبه ، ثم التفت إلى
إحدهما وقال : ألا أطير؟^(٣) .

وإذا كنت أشك في صحة كلام أبي حمزة الشاري عن الخليفة يزيد بن
عبد الملك - نظرا للخصومة السياسية التي كانت قائمة بين جماعة الخسواف
وبني أمية ، ورغبة كل منهما في النيل من خصمه ، والنقص من شأنه -
والتشهير به أمام المسلمين - فمن الثابت تاريخيا أن ابنه الوليد بن يزيد بن
عبد الملك كان شاعرا خليما يحب الفناء ، ويؤلف فيه ، ويضرب بالموود ويوقع
بالطبل ، ويمشي بالدف على مذهب أهل الحجاز^(٤) .

(١) الفن ومذاهبه في الشعر ص ٥٣ د شوقي ضيف .

(٢) أغاني ط دار الكتب (٨ : ٣١٨) .

(٣) البيان والتبيين للجاحظ (٢ : ١٢٣) .

(٤) أغاني دار الكتب (٩ : ٢٧٤) .

ج - الفناء في العصر المباسي :

أما في العصر المباسي فقد ارتقى فن الفناء ، وازدهرت الموسيقى وتقدمت الفنون والآداب ، " ومن يقرأ كتاب الأغاني الذي ألف في القرن الرابع الهجري يخيّل إليه أنه لم يكن في العصر المباسي إلا الفناء والموسيقى ، ولعلّ ما يدل على قيمة الفناء في ذلك العصر أن الجارية إذا كانت مفضية قومت تقويماً ممتازاً " (١) .

ومن أشهر المغنين الذين علا شأنهم وبعد صيتهم ، وطار ذكرهم في ذلك العصر إبراهيم الموصلي وإسحاق ومُخارق وعريب وغيرهم (٢) .

ويرجع السبب في رقي الفناء في ذلك العصر إلى عدة عوامل نذكر منها ما يلي :-

أولاً : اختلاط المباسيين ، والمرب الفاتحين بالفرس والروم وغيرهم من الموالى بعد حركة الفتوحات الكبرى ، وتأثرهم بهم ، وكان كثير من هؤلاء مثقفين ثقافة ، واسعة في الفناء والموسيقى فتمنوا بالمعبدان والمزامير ، والممازف ، وسمع العرب تلحينهم فأعجبوا بهم ولحنوا عليهم الأشعار (٣) .

ثانياً : انتشار الجوارى في المجتمع المباسي بعد الفتوحات ، وكان أغلبهن من الروميات والفارسيات المثقفات بثقافة أجنبية راقية ، وقد اهتم النخاسون بتعليمهن الأدب والشعر والفناء والموسيقى ليعلن في الأسواق بأسعار عالية (٤) .

(١) الفن ومذاهبه في الشعر ص ٦١ د . شوقي ضيف .

(٢) نهاية الأدب للنويري (٥ : ١٦) .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٣٠٠ .

(٤) مروج الذهب (٤ : ١٦) .

وكانت الجارية الحاذقة منهن تروى أربعة آلاف صوت^(١) ، وقد قامت الجوارى يدور كبير فى ترقية الفنون وعلى رأسهن الجارية عريب السنى اشتهرت بنظم الشعر كما نبغت فى الفناء والضرب على الآلات الموسيقية كالمرود^(٢) .

ويصفها صاحب الأغاني بقوله : " كانت عريب مفعية محسنة ، وشاعرة صالحة ، وكانت واقرة الحظ والمذهب فى الكلام ، ونهاية فى الحسن والجمال ، والظرف ، وحسن الصوت ، وجودة الطرب ، واثقان الصنعة والمعرفة بالنغم ، والأوتار ، والرواية ، والشعر^(٣) ، (٤) " .

ومن الجوارى اللاتي اشتهرن بالضرب على الآلات الموسيقية بجانب النساء شاجية جارية عبدالله بن طاهر التي اعترف بفنها الخليفة الممتضد .

ومنهن عميرة الطنبورية التي اشتهرت بالضرب على الآلات الموسيقية خاصة الطنبور ، وكانت إلى جانب ذلك تميل إلى دراسة الأدب والشعر^(٤) .

ثالثاً : كان لطبقة المننيين تأثير كبير فى رقى النساء والموسيقى فى المجتمع وعلى رأس هذه الطبقة : إبراهيم الموصلى الفارسى الأصل الذى اشتهر بالفناء وبلغ من إجادته له أنه استطاع أن يحدد الخطأ من ثلاثين صوتاً لثلاثين جارية يضررن ويفنين جميعاً على طريقة واحدة ، وينغم واحد على الأوتار ، وكان يقوم بتدريس النساء ، ويجرى امتحاناً للمتقدمين منهم بأمر الخليفة^(٥) .

(١) البيان والتبيين (١ : ٩٢) .

(٢) مروج الذهب (٤ : ١٦) .

(٣) هذا هو المشهور وفى القاموس : أن عريب اسم رجل واسم فرس .
دكتور / مرجان .

(٤) (١٩ : ٢٣٤) الأغاني .

(٥) (١ : ٢٨١) الأغاني .

ومن المفاين من جمع بين صناعة الفناء وتأليف الكتب كما فعل
جحلة المفاى الذى ألف سبعة كتب فى الفناء والمناذمة والطلم.
وأخبار الخلفاء (١).

رابعاً: اهتمم الخلفاء بالفناء ، والموسيقى ، وتشجيع المفاين بالمنح
والهدايا وقد بلغ من تقدير بعض الخلفاء للمفاين أنهم كانوا
يدعونهم لحضور مجالسهم ، كما فعل الخليفة الواثق الذى سمح
للمفاى إسحاق بحضور مجلسه ، وكان للواثق الملم بالألحان
والأصوات حتى إن مجموع أصواته بلغت حوالى المائة (٢).

" ولعل ما يدل على مبلغ ما وصلت إليه هذه الصناعة من قيمة فى هذه
المصور أننا نجد طائفة من الخلفاء ترك فيها أصواتا مثل الواثق والمتصره
والمعتر ، وابن المعتر ، وقد فتح أبو الفرج فى كتابه فصلا يدرس فيه ما تركه
أولاد الخلفاء من صناعة الفناء وصنيع إبراهيم بن المهدي وأخته عليّة مشهور
فى هذا الباب " (٣).

" ولعل ذلك الرقى فى فن الفناء يفسر لنا انفعال الناس إذا
هذا الفن الذى أحكمه أصحابه ، فهم يروون أن بعض من كانوا يحضرون
مجالس المفاين ، كانوا ينطحون الممد من حسن ما يستمعون بل كانوا
يرمون بأنفسهم فى الفرات من شدة الطرب لا يدرون ، وقد يمزقون أثوابهم
ويعلقون نحالهم فى آذانهم لا يمزقون ما يصنمون " (٤) (٥).

-
- | | |
|-----|--|
| (١) | الديارات ص ١٢ . |
| (٢) | تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٣٦ . |
| (٣) | الفن ومذاهبه فى الشعر ص ٦١ . |
| (٤) | وواضح أن هذا الكلام مبالغ فيه جداً . د / سرحان . |
| (٥) | الذهن ومذاهبه فى الشعر ص ٦٢ . |

وقد ظل المفنون والمغنيات موضع رعاية وتشجيع كثير من خلفاء بني العباس، ولم ينصرف عنهم سوى الخليفة المهتدي الذي حرم الغناء^(١) وكذلك القاهر الذي قبض على المفيين وأمر ببيع المغنيات من الجوارى.

وعلى الرغم من تحركات الحنابلة وهجماتهم المتكررة على منازل المفيين والمغنيات، لم يتأثر فن الغناء بذلك، وظل الاهتمام به وعقد مجالس الطرب سائدا في المراق وفارس طيلة القرن الرابع الهجرى.

٢ — مجالس الطرب والغناء :

كانت مجالس الطرب تعقد في قصور الخلفاء، وكبار رجال الدولة، وكان المفنون والمغنيات والندماء يحضرونها، وكانت هذه المجالس تقام في شتى المناسبات كالاحتفال بتولية خليفة جديد، فيمضى المفنون في هذه المناسبة بأغان تتضمن تعجيد الخليفة وتهنئته بالمنصب الجديد كما كانت هذه المجالس تقام في الأعياد والمواسم كالنيروز والمهرجان.

ويذكر المسمودي " أن الخليفة الراضى أمر في ليلة " المهرجـان " بإحضار الجلـساء في مجلسه، بقصر التاج المظل على دجلة، ونفـح في ذلك اليوم جميع الندماء والمفيين والملهين بكثير من الدراهم والدنانير والخلع وأنواع الطيب^(٢).

وكانت مجالس الغناء تقام أيضا في حفلات الزواج والختان، كما فعل الخليفة المتوكل عند الاحتفال بختان ابنه أبى عبدالله الممـتر إذ حضر المفنون والموسيقيون أمثال : عمرو بن بانة وابن المكى، وأحمد بن أبى الملا، وسليمان الطيال، وصالح الدقاق، وزلم الزامر، ومن المغنيات

(١) فوات الوفيات للكتبي (٢ : ٥٣٥) .

(٢) مروج الذهب (٤ : ٧٨) .

عرب وبدعة جارتها وسراب وعدد كبير غيرهن (١) .

وكانت المجالس الفنية أحيانا تقام للتسلية والترفيه عن النفس
كما حدث من الخليفة المنتصر إذ أقام مجلسا للترفيه عن نفسه يوما ودعا
إليه الممّنّى بناناً فغناه :

لقد طال عهدي بالأمم محمد
وما كنت أخشى أن يطول به عهدي (٢)

وفي هذه المجالس كان الممّنّون والموسيقيون والندماء والشعراء
يجتمعون في مجلس الخليفة عادة كما يجتمعون في مجالس كبار رجال الدولة
فيفنّى الممّنّون والقيان من خلف الستارة (٣) ويطرب الجميع ويمرحون
وكان الخليفة الواصل من أكثر الخلفاء المباسيين ميلا إلى إقامة الحفلات
الفنية ، فقد روى أنه أقام مجلسين للفنّاء في ليلة واحدة (٤) .

وكان كبار رجال الدولة من الوزراء والأمراء والقواد يقيمون أيضا
مجالس للفنّاء كما كان الخلفاء يفعلون فيروى : أن أبا الحسن علي بن
الفرات وزير المقتدر كثيرا ما كان يقيم حفلات غنائية يدعو إليها جماعة من
خواصه وكان يحضرها من الممّنّين والممّنّيات عدد كبير (٥) .

وكان قاسم بن عبيد الله وزير المعتضد يقيم المجالس الفنية ويحضرها
الأدباء والشعراء ، وكثيرا ما كان يحدث في هذه المجالس أن تثار أحاديث

(١) الديارات ص ١٥٤ .

(٢) مروج الذهب للمسعودي (٤ : ٧٨) .

(٣) هذا كلام يدل على أن هذه المجالس — لوصح الحديث عنها —
كانت متحفظة في تصرفاتها وكانت في حدود ما وراء الستارة . دكتور
سرجان .

(٤) الأغاني (١١ : ١١٨) .

(٥) تحفة الآراء في تاريخ الوزراء للصابي ص ١٣٠ .

حول موضوع الشمر وقائله (١) .

كذلك اتخذ بعض الأمراء والأثرياء في مساكنهم أماكن واسعة ليقموا فيها حفلات الفناء ، فالأمير بجكم التركي أقام في ليلة " المهرجان " مجلساً غنائياً فاق به مجلس الخليفة الراضى (٢) .

وكانت حفلات الفناء تقام - أيضاً - في بيوت الجوارى اللواتى كن يحترفن الفناء ، وكان عدد كبير من ذوى المكانة في المجتمع يحضرونها ، وعرفت الجارية المغنية عرب بذلك (٣) .

ولم يكن هناك فارق كبير بين مجالس الفناء ومجالس الشراب لأن العادة جرت على أن يحضر الندماء مجالس الفناء التى كان الشراب يقسم فيها أحياناً ومثل هذه المجالس كان يحضرها مختلف طبقات الشعب (٤) .

وكان مما يراعى في مجالس الفناء والشراب أن يجلس الندماء والمغنون ، والموسيقيون حسب مراتبهم ، ومراكزهم الاجتماعية ، ويذكر الجاحظ " أن الفرس هم الذين رتبوا الندماء والمهينين والمغنين وجعلوهم طبقات ، واقتبس المباسيون منهم هذه الطريقة (٥) .

* * *

ومهما يكن من شئ فقد قدر للفناء أن يزدهر في هذا العصر وأن يهتم به كثير من الخلفاء والحكام وأن يشغل بسماحه مختلف طبقات المجتمع مما كان له أبلغ الأثر في الحياة الاجتماعية ، وأسوأ المواقب على

-
- | | |
|-----|-------------------------------------|
| (١) | نشوار المحاضرة للتنوخى (١ : ٥٥) . |
| (٢) | مروج الذهب (٢ : ٥٣) . |
| (٣) | نهاية الأرب (٥ : ٦٦) . |
| (٤) | اليتيمة (٢ : ٣٠٩) . |
| (٥) | التاج للجاحظ ص ٣٣ . |

الأخلاق العامة ، فقد كانت الجوارى المغنيات يظهرن أمل الرجال ويغنين
- غالبا - بشعر ماجن خليع ، وفي بعض الأحيان كانت حفلات الفناء تقلم
بين مجالس الشراب ، كما كانت تقام في الأديرة والبساتين ، خاصة في الأعياد
والمواسم كالنيروز والمهرجان . وفي عيد رأس السنة الميلادية حيث يجتمع
فيها الرجال لسماع صوت النساء مما أشاع الانحلال والمجون في المجتمع
وأدى إلى ضعفه وتفسخه ، كما كان لهذه المجالس التي كان الخلفاء يقيمونها
في قصورهم آثار سيئة على الخلفاء أنفسهم حيث كانوا ينصرفون إلى هذا
المهث تاركين - وراءهم - أمور الدولة ، وأحوال الرعية ، يرى فيها الفساد
ما أدى إلى ضعفهم وخنوعهم ، وضياع هيبتهم ومكانتهم وسيطرة الموالى من
الفرس والأتراك عليهم .

وعلاوة على ذلك كان للأموال الطائلة التي كانوا ينفقونها في شراء
الجوارى المغنيات وعلى مجالس الفناء والطرب آثار اقتصادية مدمرة أدت
إلى انتشار الفقر والجهل في المجتمع . .

وإلى جانب هذه الآثار الضارة كان لهذه الموجة من الفناء
والموسيقى آثار نافعة فقد ارتقت الأدواق ، ونمت المواهب ورق الشـمـور ،
وانتشر السرور والتفاؤل لدى طبقات المجتمع ، كما كان لهذه الموجة آثار
إيجابية أخرى فقد تقدمت الفنون وارتقت الآداب ، ورق الشعر ، وعذب
أسلوبه وتنوع أوزانه ، وتمددت مقطوعاته على نحو ما سنذكره في موضعه
- إن شاء الله تعالى - عند حديثنا عن أثر الفناء والموسيقى في أدب
اليتيمة .

:: الباب الثاني ::

• أبو منصور الثعالبي وكتابه اليتيمة •

١ - الفصل الأول :

حياة الثعالبي

٢ - الفصل الثاني :

ثقافته ومؤلفاته

٣ - الفصل الثالث :

اليتيمة

أ - التعريف بها

ب - الدافع الى تأليفها

ج - منهج الثعالبي وخصائصه فيها

٤ - الفصل الرابع :

أ - مدى تمثيلها لأدب القرن الرابع الهجري

ب - تأثرها بالمؤلفات السابقة

ج - أثرها في الكتب اللاحقة

٥ - الفصل الخامس :

اليتيمة في ميزان النقد

* * *

:: الفصل الأول ::

” حياة الثمالي ”

أ - مولده ونشأته

ولد أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي نَيْشَابُورَ وهي يومئذ قلعة من قلاع العلم ، وحصن من حصون الممركة ، وقد وصفها ياقوت الرومي بقوله :

" نَيْشَابُورُ " بفتح أوله والعامّة يسمونه " نشاور " وهي يومئذ مدينة عظيمة ، ذات فضائل جسيمة ، ممدن الفضلاء ، ومنبع الملما ، لم أرَ فيما طوفت من البلاد مدينة مثلها ، وقد خرج منها من أئمة العلم من لا يحصى^(١) .

في هذه المدينة المريقة ، ذات الحضارة المجيدة . . ولد الثعالبي وكانت ولادته سنة ٣٥٠ هـ وقد أجمع على ذلك كل من أرخ له أو ذكر اسمه ، ولم يكن مولده في بيت رفيع المعاد ، عظيم الجاه ، واسع الثراء ، وإنما وُلِدَ في بيت متواضع من أسرة فقيرة ، يحمل أفرادها في خياطة جلود الثعالب وعملها ، ذكر ذلك ابن خلكان حيث قال :

" الثعالبي " - بفتح الثاء المثناة ، والمين المهملة ، وبعد الألف لام مكسورة ، وبعدها باء موحدة ، نسبة إلى خياطة جلود الثعالب وعملها ، قيل له ذلك لأنه كان قَرَّاءً " (٢) .

وقد أخذ الثعالبي يعمل فيما يعمل فيه أهله من هذه الحرفة المتواضعة ولكنه لم يلبث أن تبرم بها فتركها واشتغل معلماً للصبيان^(٣) على هذه الوظيفة الجديدة تدر عليه ربحاً واثراً ، وتكفل له حياة طيبة ، ولكن يبدو أن هذه المهنة كانت أسوأ من سابقتها ، فظل مُقْتَرّاً عليه في الرزق ، وبقي يشمر بيؤس شديد ، وحرمان عظيم يتمثل في قوله :

(١) معجم البلدان (٨ : ٣٥٦) .

(٢) وفيات الأعيان (٢ : ٣٥٢) .

(٣) طبقات النحاة واللفويين (٢ : ١٠٨) .

ثَلَاثٌ قَدْ بُلِيَتْ بِهِنَ أَضْحَاسٌ
لِنَارِ الْقَلْبِ مَعَى كَالْأَثَافِى
دُيُونٌ أَنْقَضَتْ ظَهْرِي وَجَنُورٌ
مِنَ الْإِيَّامِ شَابَ لَهُ غُدَافِي
وَفَقْدَانُ الْكَفَافِ وَأَيُّ عَيْشٍ
لَمَنْ يَنْتَنِي بِفَقْدَانِ الْكَفَافِ؟ (١)

ولم يذكر التاريخ لنا شيئا عن طفولته المبكرة ، أو نشأته الأولى
شأنه في ذلك شأن الكثيرين من علمائنا القدامى ، ولو قدر لنا أن نمرف
شيئا عن تفاصيل حياته في الصغر لأمكننا أن نلقى مزيدا من الضوء على
مبوله واتجاهاته ، ولكن المؤرخين ، أغفلوا الكثير من أخبار حياته المبكرة ،
ولم يذكروا شيئا ذا بال عن نشأته ، إلا ما كان من عل أسرته في خياطة
جلود الثعالب ، وإلا ما كان من علمه بعد ذلك معلما للصبيان .

ولم يذكر التاريخ كذلك شيئا عن أسرته ، هل كانت عربية الأصل ؟
أم فارسية مصرية ؟ ، فأبوه محمد بن إسماعيل لا يعرف عنه إلا اسمه ، وسكوت
المؤرخين عنه ، وتجاهلهم له يدل على أنه لم يكن له شأن يذكر ، ولم يذكر
التاريخ من سلسلة نسبه إلا آباء محمد و جدّه إسماعيل . وذلك يدل على
أن أسرته لم تكن عربية ، وإن كان شأن العرب قديما الاهتمل بمعرفة
أنسابهم ، كما أنهم كانوا يترقمون - غالبا - عن الحرف المتواضعة ، والصناعات
الهيينة - كخياطة جلود الثعالب ، ويتركونها للموالي والأعاجم .

وأغلب الظن أن أبا منصور - هذا - كان فارسي الأصل ، وأنه ولد لأبوين
مصريين ، وأنه كان يتكلم المصرية ، ويؤلف بها لأنها كانت للشعب الاسلامي
لغة قومية ، لكونها لغة القرآن الكريم ، ولغة نبي المسلمين ، محمد عليه
أفضل الصلاة وأتم التسليم ، خاصة أن الثعالبي أحبه ، وأخلص لتعاليمه وهذا هو سرحب

(١) خاص الخاص ص ١٨٩ .

الشمالي للمربية ، وأقباله عليها ، وقد صرح الشمالي نفسه بسبب عشقه
المربية ، والتعلق بها في مقدمة كتابه " فقه اللغة ، وسر المربية " ، حيث
قال :

" من أحب الله تعالى أحب رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، ومن
أحب الرسول المربي أحب المرب ، ومن أحب المرب ، أحب المربية ،
التي نزل بها أفضل الكتب على أفضل المرب ، والمجم ، ومن أحب المربية
هني بها ، وثابر عليها ، وصرف همه إليها ، ومن هداه الله للإسلام ، وشرح
صدره للإيمان ، وآتاه حسن سريرة فيه اعتقد أن محمداً صلى الله عليه
وسلم خير الرسل ، والإسلام خير الملل ، والمرب خير الأمم ، والمربية خير
اللغات والألسنة ، والإقبال على تفهمها من الديانة .. إذ هي أداة
المعلم ، ومفتاح التفقه في الدين ، وسبب إصلاح المماش والمعاد " (١) .

ولذلك نجد الشمالي - وهو الذي عاش في بلاد فارسية ، يؤلف
كتبه ، باللغة المربية ، التي أحبها وأخلص لها ، لأنها لغة القرآن الكريم ،
ولغة النبي المربي عليه السلام .

فصدر حبه للمربية هو الدين ، وليس التمسك للمرب والمروية
وهذا يؤكد ما ذهب إليه من أن الشمالي لم يكن عربياً ، وإنما كان فارسياً
متحرباً شأنه في ذلك شأن الكثيرين من الموالى الذين كانوا يحبون المربية
لأنها لغة نبي الإسلام ، ولغة القرآن الكريم ، الذي يؤمنون به ، ويخضعون
لتعاليمه وأحكامه ..

وقد نشأ الشمالي محباً للمعلم متطلماً إلى المعرفة ، فأقبل على
القراءة ، وعكف على الدراسة ، واختلف في أوقات فراغه إلى الشيخ ، وما هي
إلا سنوات حتى صار عالماً من أعلام الفكر ، وشيخاً من شيوخ الأدب ، وإماماً

(١) مقدمة فقه الله وسر المربية للشمالي ص ٢ طبع بيروت .

من أئمة اللغة ، ومؤلفا كبيرا في كل فرع من فروع المعرفة ، فودع حياة
البؤس والتماسة وأقبلت عليه الدنيا بزخرفها ونعيمها ، واستطاع بمساعده
النزير وأدبه الرفيع ، وعلو قدمه في التأليف ، أن يسير في سمت الملوك
ويتفيا ظلال السلاطين ، وينعم بخلصهم وعطاياهم ، فقد اتصل بالسلطان
ابن عباد ، وزير فخر الدولة البويهى ، وأهداه كتابه " لطائف المعارف " .
كما اتصل بالأمير شمس الممالى قابوس بن وشكير وأهداه كتابه " المبهج " .
و " التمثيل والمحاضرة " ، وأهدى " سحر البلاغة " ، و " فقه اللغة " ، إلى
الأمير أبى الفضل الميكالى ، وأهدى كتابه " النهاية فى الكناية " و " نشر
النظام " و " اللطائف والظرائف " إلى ملكون بن مأمون أمير خوارزم ، كما
أهدى كتابه " غرر ملوك الفرس " إلى شقيق السلطان محمود المعروف بأبى
المظفر نصر (١) .

وفضلا عن ذلك كله كان الثعالبى صديقا حميما للأمير أبى الفضل
عبدالله الميكالى ، وكانت بينهما رسائل ومكاتبات فى الأخويات رواها
أبو إسحاق الحصرى فى كتابه " زهر الآداب " (٢) ، كما كان صديقا حميما
لوالد الباخريزى صاحب كتاب " الدمية " وكانت الدار تلاصق الدار ، ويجمع
بينهما الجوار ، ويدور بينهما فى الأدب حوار ، وتجرى لهما فى المعارضة
أشمارا (٣) .

" وقد نشأ الباخريزى أبو الحسن على بن الحسن صاحب " الدمية " فى
حجر الثعالبى بعد وفاة أبيه ، يأخذ من أدبه ، ويفيد من كتبه ،
ويربط سببه بسببه ، وأبو منصور يرعاه بحفظه ، ويلحظه بذائقته ، وكأنى بهذا
الصديق والد الباخريزى قد فارق الدنيا ، وترك ابنه لأبى منصور ثقة بأنه

(١) تاريخ الأدب فى إيران من الفردوس الى السعدى للمستشرق براون ص ١١٦ .

(٢) زهر الآداب (٢ : ١٩) .

(٣) دمية القصر للباخريزى ص ٤٣٦ .

سيحسن كفالته ويجيد تربيته ، . . ولم ينس الباخري هذا الفضل لأبي منصور
عندما كبر وصار من المؤلفين ، فكان واحدا ممن ترجموا لحياة الثمالي
ولقد كنا نود أن تكون ترجمته لشيخه ترجمة طويلة مفصلة يسط فيها الكثير
عن حياة الثمالي ومولاته خاصة أنه تربى في حجره ، ونشأ في بيته ،
ويسرف الكثير عن دقائق حياته . .

ولكن على الرغم من ذلك كله لم يكن ماذكره الباخري من أمره سوى
حديث معروف ، وخبر مألوف ، ونبا مكشوف ولم يتكلم عن تفاصيل حياته وكتبه ،
ولو قد فعل لأسدى لأستاذة وإلى عشاق الأدب والمربية خيرا كثيرا .

وربما كان أمرا عاديا أن الباخري لما سكت عن تفصيل حياة شيخه ،
سكت غيره من المؤلفين فلم يذكروا من حياة الثمالي أكثر من هذا الخبر
المعروف حتى الحصري الزمان للثمالي لم يذكر عنه أكثر مما ذكر الباخري
وربما كان الحصري ممدورا في ذلك ، لأنه لا يجمعه بأبي منصور إلا أنه
زمنه ، أما الباخري فتجمعه بأستاذة صلات كثيرة فقد كان له جارا وابنا
وتلميذا ومع ذلك لم يذكر عنه إلا القليل * (١) .

وألغى الظن أن الذي جعل الباخري وغيره لا يذكرون . . عن أبي
منصور إلا هذا الخبر المعروف : هو أن الرجل كان في عصره ذا شهرة واسعة
وصيت بحيد ، وأن شهرته ، ومولاته ، قد جعلت المؤرخين يتوهمون أن حديثهم
عنه لا فائدة منه ، ولا قيمة له ، بعد أن عرف الناس من أمره الكثير . .

وقد صرح الباخري في حديثه عنه بما يفيد ذلك إذ يقول :
" هو جليل تيسابور ، وزبدة الأحقاب والدهور ، لم تر الميرون مثله ،
ولا أنكرت الأعيان فضله ، وكيف ينكر ، وهو المزن يحمده بكل لسان ؟ وكيف

(١) تقديم " التمثيل والمحاضرة " للأستاذ عبدالفتاح محمد الحلوة . بتصرف .

يستر وهو الشمس لا تخفى بكل مكان * (١) .

فهو يشبهه في شهرته بالجاحظ ، وفي فضله بالزن ، وفي بعمد صيته
وظهور أمره بالشمس التي لا تخفى بكل مكان .

ورجل له هذه الشهرة الواسعة ، وتلك المنزلة العالية لا يحتاج
إلى تمريف .. خاصة لأهل عصره وزمانه .

وربما كان هذا — في رأي — هو ما حدا بالباخرزي والحصري
وأضرابهما من المؤلفين إلى الإحجام عن ذكر تفاصيل حياته ، إيماناً منهم بأن
الرجل معروف للخاصة والعامة ، والكلام عنه بعمد تحصيل حاصل .. ومازلنا
في عصرنا هذا . نقول عن الرجل المشهور ذي الصيت البعيد الفــر
إنه لا يحتاج إلى تمريف .. نمنى بذلك أنه معروف للجميع ..

ولم يكن في حياة أبي منصور — على ما يبدو — شئ غريب ، وإنما كانت
حياته مستقرة ، هادئة ، ومقسمة بين القراءة والتأليف وإفادة الكــيرين من
تلاميذه .

وتنحى حياته على هذا النحو حتى يلقي به راضياً عنه بعمد أن ترك
تراثاً أدبياً ضخماً ، وبعمد أن وصل في الشهرة والصيت إلى شأو جد بـميد ،
وبعمد أن احتل مكانة مرموقة ومنزلة رفيعة بين أدباء عصره .

وكانت وفاته سنة ٤٢٩ هـ ذكر ذلك البـاخرزي في " الدمية " (٢) والحصري
في " زهر الآداب " (٣) ، والمبـاسي في " معاهد التنصيص " (٤) .

(١) دمية القصر للباخرزي ص ٤٣٦ .

(٢) دمية العصر وعصرة أهل العصر ص ٤٣٧ .

(٣) زهر الآداب (١ : ١٦٨) .

(٤) معاهد التنصيص (٢ : ٢٦٦) .

وابن الأنبارى فى " نزهة الألباء " (١) ، وابن خلكان فى " الوفيات " (٢)

ولكن هناك من المؤرخين من ذكر أن وفاته كانت سنة ٤٣٠ هـ ومن هؤلاء اليافعى فى " مرآة الجنان " (٣) وحاجى خليفة (كاتب حلبى) فى " كشف الظنون " (٤) وابن العماد فى " شذرات الذهب " (٥)

وأغلب الظن أن وفاته كانت سنة ٤٢٩ هـ لأن الذين ذكروا ذلك كانوا أسبق إلى عصر الشافعى من غيرهم ..

ولعل الذى أوجد هذا اللبس ، أنه أشيع أن الشافعى قد عاش ثمانين عاماً مما حدا بالفريق الثانى أن يذكر وفاته ضمن أحداث سنة ٤٣٠ هـ .

وربما كانت وفاته فى أواخر سنة ٤٢٩ هـ فكان هذا الوهم ———
المؤرخين ، ولو أن وفاته كانت فى أولها لما اختلط عليهم هذا الأمر .

ب - أخلاقه

كان أبو منصور الشافعى من أعظم أدياء القرن الرابع خلقاً وأكثرهم نبلاً وفضلاً ، وأشدّهم تمسكاً بمبادئ الدين ، وخضوعاً لتعاليمه ، وامتثالاً لأوامره ، واجتناباً لنواهيه ..

وعلى الرغم من كثرة الفساد فى عصره ، وانتشار المجون والفسق ، لم يُعرَف عنه أنه مشى إلى ربة ، أو أتى فملاً يثلم دينه ، أو يشين شرفه ، ولم يسمع عنه أنه تصرّف فى إقامة الشائير الدينية ..

-
- | | |
|-----|---|
| (١) | نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ص ٣٦٥ ط دار المعارف . |
| (٢) | وفيات الأعيان (٢ : ٣٥٢) . |
| (٣) | مرآة الجنان ، وجمرة اليقظان (٣ : ٥٣) . |
| (٤) | كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون (٢ : ٦٥٨) . |
| (٥) | شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (٤ : ٢٤٧) . |

والدارس لكتبه الكثيرة التي خلفها لنا: يشمر بأن الرجل كان
سليم الدين ، صحيح العقيدة ، كامل الروعة ، محبا للإسلام ، متعلقا
بالمربية ، مشغولا بها ..

وكان إلى جانب ذلك عظيم الوفاء ، شديد التواضع لين المبركة ،
حسن السمائل ، كثير المجاملة للآخرين .. ولعل هذا هو ما جعل النقاد
المحدثين ^(١) يتهمون بضمف الشخصية لأنه يكيل المدح لمن يترجم لهم
بدون حساب ..

وعندى أن ذلك لا يدل على ضعف الشخصية بقدر ما يدل على
التواضع والحلم والمجاملة ..

والدارس لكتبه - على كثرتها - لا يرى فيها أثرا للزهو ولا للكبرياء
- شأن غيره من أدباء ذلك العصر ونقاده أمثال : المتنبي ، والصاحب ،
والحاتمي ، وغيرهم - وإنما نلحس فيها اليسارة والسهولة والتواضع الجرم .

والدارس لكتبه يلحس فيها كذلك أماته العلمية ، حيث ينسب
المنقول إلى قائله ، ويلقى بالمسئولية على الراوى ، فيقول مثلا " حدثنى فلان "
و " سمعت من فلان " ويذكر أحيانا أنه وجده بخط أبى بكر الخوارزمي ، ويقول
" قرأت فى كتاب " التحف والظرف " لابن لبيب غلام أبى الفرج البغفاء " ،
وغير ذلك كثير فى كتبه ، خاصة كتاب " البتية " ..

وعلى الرغم من كثرة الخصومات الأدبية التى بلغت أوج قوتها فى
هذا العصر بين الشعراء والكتاب - كذلك التى حدثت بين أبى بكر
الخوارزمي ، وبيديع الزمان بسبب الصراع المذهبي ، والتنافس على المال والجاه
وتلك التى كانت بين الصاحب والمتنبي ، وبين الحاتمي والمتنبي ، وبين

(١) الدكتور محمد مندور فى كتابه النقد المنهجي عند العرب ص ٣٠٥ ،
والدكتور طه حسين فى تقديمه : لذكيرة ابن بسلم .

المصاحب وأبى حيان ، وبين ابن لثكك البصرى ، وشعراء عصره ، وبين السرى
الرفاء والخالديين إلى غير ذلك من الخصومات الأدبية التى كثرت فى هذا
العصر .

أقول : على الرغم من هذه الممارك الطاحنة بين أدباء ذلك العصر
نجد أبا منصور طراز فريدا بينهم . .

فلم يعرف عنه أنه خاظم شاعرا ، أو عادى كاتباً ، أو تنكر لولى نعمة ،
وإنما كان معروفًا بالتسامح ، والتواضع ، والحب الشديد لأدباء عصره . .

وانك لتلمس ذلك فى مجاملاته الكثيرة لهم فى كتاب " اليتيمة " .
وعلى الرغم من كثرة الهجاء فى عصره ، وشدة فحشه واقذاه ، لا تكاد نجد
شاعرا ، ولا كاتباً ، قد هجا أبا منصور أو تهكم به ، ولكننا نجد الكثيرين
يمدحونه ويثنون عليه ، كأبى الفتح البستى الذى قال عنه :

قلبي رهينٌ بِنَيْسَابُورَ عند أخ
ما مثله — حين تستقرى البلاد — أخ

له صحائف أخلاقٍ مهـنـبةٍ
من الحجى والملا والظرفِ تنتسـخ (١)

حتى الأمراء أمثال : الأمير أبى الفضل الميكالى ، والأمير أبى نصر
سهل بن آلزُبَّان وغيرهما عرفوا له هذه المنزلة المالية ، وقدره حق قدره
فى شعرهم ونثرهم مما يدل على أن الرجل كانت له مكانة سامية ، ومنزلة رفيعة
بين أدباء عصره . . وهذا — من غير شك — يدل على كم أخلاقه وحميد
صفاته .

(١) اليتيمة (٤ : ٢٩٩) .

ج - منزله بين الأدباء

إذا كان الناس - عادة - يتقربون للأغنياء طمعاً في المال - والنوال ويتملقون الحكم خوفاً من البطش والنكال ، فإن أبا منصور كان خلواً من كل ذلك ، فلم يشتهر بالفنى ووفور المال ، ولم يكن صاحب منصب ولا جاه ولا حسب يتطاول به ..

ولكنه على الرغم من ذلك دفع الناس إلى حبه وتقديره ، بمله الذى كان يزينه ، وأدبه الذى كان يتحلى به ، وتواضعه الذى كان غرة في جبينه وتاجاً فوق رأسه .. وما من ناقد ، أو أديب ، أو لغوى أو مؤرخ منذ عصره إلى وقتنا هذا إلا استفاد من علمه واعترف من بحره ، واعترف له بالفضل والسبق ..

ولا غرابة في ذلك فقد كان الرجل يمثل ثقافة عصره - أصدق تمثيل - فكان كاتباً مبدعاً ، وشاعراً عظيماً ، ولغوياً متبحراً ، ومؤرخاً كبيراً حتى أطلق عليه أهل عصره جاحظ نيسابور .

وقد ذكرت فيما سبق كلمة تلميذه الباخزرى عنه " هو جاحظ نيسابور وزبدة الأحقاب والدمور ، لم تر الميرون مثله ، ولا أنكرت الأعيان فضله ، وكيف ينكر ، وهو المزن يحمد بكل لسان ، وكيف يستر وهو الشمس لا تخفى بكل مكان " (١) .

وإذا كان هذا القول من الباخزرى فيه شيء من المبالغة والمجاملة - لأنه صادر من تلميذ عن أستاذه الذى تربى في حجره - فإن غيره من أهل عصره قد أثنوا على أبي منصور ثناءً عظيماً .

(١) دمية القصر وعصرة أهل المصر للباخزرى ص ٤٣٦ .

يقول أبو اسحاق الحصرى فى زهر الآداب : " وأبو منصور هذا يعيش إلى وقتنا هذا وهو فريد دهره وقريع عصره ، ونسيج وحده ، وله مصنفات فى العلم والآدب تشهد له بعلو الرتب " (١) .

وهذا القول من أبى اسحاق الذى لا يجمعه بأبى منصور الا المييش فى عصره ، يدل على مكان للرجل من مكانة عالية فى نفوس أهل زمانه .
أما ابن الأنبارى المتوفى سنة ٥٧٧ هـ فيصفه فى كتابه " نزهة الألبا " فى طبقات الأدبا " بأنه : " كان أديبا ، فاضلا ، فصيحاً ، بليغاً " (٢) .

وينقل ابن خلكان المتوفى سنة ٦٠٨ هـ رأى ابن بسام صاحب الذخيرة فى الشمالى فيقول : " قال ابن بسام صاحب الذخيرة فى حقه " كان فى وقته راعى تلمعات العلم ، وجامع أشات النثر والنظم ، رأس المؤلفين فى زمانه وألم المصنفين بحكم أقرانه ، سار ذكره سير المثل ، وضرت إليه آباط الأبل ، وطلعت دواوينه فى المشارق والمغارب طلوع الشمس فى الفياهب ، وتواليفه أشهر مواضع ، وأبهر مطالع ، وأكثر من أن يستوفىها حد أو وصف أو يوفى حقها نظم أو رصف " (٣) .

ويقول ابن كثير فى كتابه " البداية والنهاية " : كان إماماً فى اللغة والأخبار وأيام الناس ، بارعاً مفيداً له التصانيف الكثيرة فى النظم ، والنثر ، والبلاغة ، والفصاحة " (٤) .

هذه هى آراء المصنفين والنقاد القدامى فى الشمالى وهى تدل على أن الرجل كان أهلاً لكل مدح وثناء بما بذله من جهد وعرق فى سبيل تحصيل

-
- (١) زهر الآداب وثمر الألباب (١ : ٤٥٣) .
 - (٢) نزهة الألبا فى طبقات الأدبا (ص ٣٦٥) ط دار نهضة مصر .
 - (٣) وفيات الأعيان (٢ : ٣٥٢) .
 - (٤) البداية والنهاية لابن كثير (٦٢ : ٤٤) ط كردستان بمصر .

المعلم ، والسمي الى المعرفة ، وما خلفه لنا من مؤلفات تشهد له بمـلـو
القدر وارتفاع المنزلة . .

أما المحدثون : فيرى الأستاذ جورجى زيدان أن أبا منصور " يَمْدُ
خاتمة مترسلى هذا المصر ، وأهم أدبائه ، ونعم الخاتمة ، لأنه كان
أكثرهم آثارا وأوسمهم مادة ، وأغزرهم علما ، وهو الذى ترجم لهم ، وذكر
أخبارهم وأقوالهم (١) .

ويرى الدكتور زكى مبارك ، أن الثمالى فوق كل مدح ، وفضله على
المصرية أعظم من أن يقدر ، ويرى أن مؤلفاته لو ضاعت لفقدت المصرية جزءا
من تراثها وتتساءل قائلا : " من الذى يستطيع أن يحدد خسارة الأدب
المصرى لو ضاعت يتيمة الدهر ، أو ثمار القلوب ؟ (٢) "

أما الدكتور مندور فينقل ما قاله ابن خلكان عن الثمالى (٣) ، ولكنه
يتحامل على الرجل يمد ذلك فيتهمه بضعف الشخصية ، وعدم الدقة فى
القاء الأحكام ، ويقول عنه " وفى الحق أن الثمالى حتى فى كتبه " فراء "
يخيط آراء غيره بعضها إلى بعض فهو جامع أكثر منه ناقدا ، أو مؤلفا " (٤) .

وفى رأى - أن الثمالى - وإن كان جامعا لأشعار أهل عصره
وآرائهم - كما قال الدكتور مندور - ليعى مجرد جامع لا رأى له ، ولا شخصية
لأن الدارس لكتبه يرى أن له شخصية متميزة واضحة ، وآراء نقدية صائبة ،
وملاحظات دقيقة كماسة تدل على التذوق الرفيع كما تدل على غزارة العلم
والمعرفة . . تلك الملاحظات التى لم يستطع الدكتور - نفسه - أن يتجاهلها
على الرغم من تحامله على الثمالى فهو يمتترف مثلا : بأن الثمالى قد

(١) تاريخ آداب اللغة المصرية (٢ : ٢٧٦) .

(٢) مجلة البلاغ الأسبوعية السنة الرابعة .

(٣) وفيات الأعيان (٢ : ٣٥٢) .

(٤) النقد المنهجي عند العرب ص ٣٠٧ ط دار نهضة مصر بالقاهرة .

لاحظ أن المتنبي كان يخاطب الممدوح من الملوك بمثل مخاطبة الجيب . .
وأنه يستعمل الغزل والنسيب في أوصاف الحرب والجد ويقول : " والذي
لا أشك فيه أن له فضل ملاحظة الظاهرة تم فضل تحليلها " (١) .

ولعل هذا التراجع من جانب الدكتور مندور يدل على أن الرجل
لم يكن مجرد جامع لآراء غيره من غير وعي ولا إدراك كما قال .

والدارس لكتاب " اليتيمة " يجد للشمالي " لفتات نقدية صائبة
بصرف النظر عن نقده للمتنبي الذي كان متأثرا فيه بآراء القاضي الجرجاني ،
والصاحب ، والحائلي ، وغيرهم من نقاد عصره .

ولعل هذا هو ما حدا بالدكتور مندور أن يقول عنه : انه كان ناقلا
جامعا ، وليس مؤلفا ، ولا ناقدا ،

وقد فارق الشمالي الدنيا بحد أن ترك تراثا أدبيا ونقديا ولغويا
وعلميا ضخما ، وبعد أن وصل في عالم الشهرة والصيت إلى شأوٍ جدٍّ بميد .

(١) النقد المنهجي عند العرب ص ٢١١ .

:: الفصل الثاني ::

"ثقافته ومواقفه"

أ - مصادر إلهامه وثقافته

نشأ الثعالبي في نيسابور ، وهي يومئذ من أعظم مدن خراسان
عمرانا ، وأكثرها حضارة ، وأعرقها ثقافة ، وقد عاش فيها الشاعر ، والكتّاب ،
واللغوي ، والمحدث ، والفقهاء ، واشتهرت بمدارسها الراقية ، ومجاهدها
الماهرة .

في هذه البيئة الخصبة بالعلم والمعرفة شب الثعالبي وترعرع وعلى
الرغم من اشتغاله بخياطة جلود الثعالب في مطلع حياته ومستقبل أيامه ،
كان يتردد على مجالس العلماء ، ويختلف إلى شيخ الأدب واللغة ،
ويستفيد من الفقهاء والمحدثين في خراسان .

فإذا ما جاوزنا بيئته الخاصة - وهي نيسابور وما جاورها - من مدن
خراسان - إلى بيئته الإسلامية العامة ، وجدناها زاخرة بمختلف المؤلفات
في العلوم والفنون والآداب . . . ولم يحدثنا التاريخ عن بيئة .
خصبة بمثلها مثل ما حدثنا عن البيئة الإسلامية العامة الذي نشأ فيها
ذلك الرجل العظيم .

وقد كان لدى الثعالبي اعتماد فطري لتلقي العلم ، وتقبل المعرفة ،
كما كان مشغولاً بالأدب ، محباً للعلم ، راغباً في الدراسة فاستفاد من
بيئته الخاصة والعامة فائدة عظيمة . . . وكان لهما أكبر الأثر في تكوينه
العلمي والأدبي واللغوي . . .

والتاريخ لم يذكر لنا شيئاً عن شيوخه الذين أخذ عنهم وأساتذته
الذين اختلف إليهم ، وتأثر بأفكارهم وآدابهم ولهذا لا نكاد نعرف شيئاً
عنهم إلا من خلال ما صرح به الثعالبي نفسه في مقدمة كتابه " فقه اللغة " .
إنه يقول :

” وأنتجع من الأئمة مثل الخليل والأصمى وأبى عمرو الشيباني والكسائي والفرّاء وأبى زيد وأبى عبيدة وابن الأعرابي والنضر بن شميل وأبى الحباس وابن دريد ونفطويه وابن خالويه والغازنجي والأزهري ومن سواهم من ظرفاء الأدباء الذين جمعوا فصاحة العرب البلغاء ، إلى إتيان العلماء ووعورة اللغة ، إلى سهولة البلاغة كالصاحب أبى القاسم ، وحمزة ابن الحسن الأصبهاني ، وأبى فتح المرائي ، وأبى بكر الخوارزمي ، والقاضي أبى الحسن علي بن عبدالمعز الجرجاني وأبى الحسن أحمد بن فارس بن زكريا القزويني (١) .

هؤلاء هم شيوخ الشماليين الذين كان لهم أكبر الأثر في ثقافتهم وفي تكوينه العلمي والأدبي ، ولا غرابة في ذلك فقد كان منهم الأديب ، والناقد ، واللفوي ، فأقبل الشمالي على آثارهم ، وأقوالهم وأخذ ينهل من حياضهم ، ويشتري من بحورهم ، ويقتطف من ثمارهم على نحو ما صرح به في قوله ” وأجتلي من أنوارهم ، وأجتنى من ثمارهم وأقتفى آثار قوم قد أقفرت منهم البقاع ، وأجمع في التأليف ، بين أبحار الأبواب والأوضاع ، ويميز اللغات والألفاظ ” (٢) .

ولا يعقل أن يكون الشمالي قد أخذ عن كل هؤلاء الثقات بطريقة الاختلاف إلى حقائقهم ، والتردد على مجالسهم ، والاستماع إلى أقوالهم وآرائهم ، لأن الكثيرين منهم لم يكونوا في عصره ، كأبى عمرو بن الصلاء المتوفى سنة ١٥٧ هـ ، والخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٤ هـ ، وأبى عمرو الشيباني المتوفى سنة ٢٠٦ هـ ، والأصمى المتوفى سنة ٢٤٦ هـ .

ولا أشك في أن مؤلفات هؤلاء الأعلام وآثارهم كانت المنبع الذي استقى منه — أبو منصور — ثقافته .

(١) مقدمة فقه اللغة للشمالي ص ١٠ ط بيروت .

(٢) المرجع السابق ص ١٠ .

أما الذين عاشوا في عصره فليس بهميد أن يكون قد تردد على دروسهم ، وأخذ منهم مشافهة أمثال : القاضي الجرجاني المتوفى سنة ٣٦٦ هجرية ، وقد تأثر به الثعالبي كثيرا خاصة في نقده للمتنبي ، وابن خالويه المتوفى في سنة ٣٧٠ هـ ، والأزهري المتوفى سنة ٣٧٠ هـ أيضا ، وأبي بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ هـ ، والصاحب المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، وابن فارس المتوفى سنة ٣٩٠ هـ ، والجوهري المتوفى سنة ٣٩٣ هـ ، وأبي حلال المسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ .

ويبدو أن أبا بكر الخوارزمي كان من أكثر أساتذته تأثيرا فيه فلقد كان يخصصه بمحفظه ، ويخبره بمودته ، وينشده من بنات أفكاره ما كان يضمن به على غيره .

يقول الثعالبي : " وكان أكثر ما ينشدني ، ويكتبني ما يضمن به على غيري . . من تلك الفُتُور التي تجري مجرى السحر ، واللمع التي يقطر منها الظرف " (١) .

ولقد كان بين الرجلين الكثير من وجوه الشبه في الاخلاق والصفات وطريقة التفكير .

فأبو بكر الخوارزمي كان من الشخصيات التي أدت أدوارا كبيرة في عالمي الأدب واللغة في القرن الرابع ، وكذلك كان الثعالبي فقد حفظ تراث ذلك القرن من الضياع إذ جمعه في كتابه " يتيمة الدهر " .

وقد اشتهر الخوارزمي بكثرة الحفظ ، والتبحر في رواية الشعر ، وكان الثعالبي كذلك مصروفا بكثرة حفظه وجمعه للأشعار ، ولعل " كتاب اليتيمة " هو أكبر شاهد على ذلك .

(١) اليتيمة (١ : ١٠) .

وسر البلاغة عند الخوارزمي يرجع إلى الصدق فلن يكون للشاعر
أو الكاتب وصول إلى سحر البلاغة ، وسر البيان إلا إذا صدق ، وفي
الصدق وحده سر المبقرية والنبوغ (١) .

وكذلك كان تلميذه الثعالبي الذي يرى أن لكل شيء حلية وحلية
الأدب الصدق (٢) .

وإن قد عرفنا مصا در الهامة ، ومنابع ثقافته ، وهي استمداده
الفطري ، وحبه للملم والمعرفة ، وتأثره بالبيئة العلمية الخاصة في خراسان
والبيئة العلمية العامة في الدولة الإسلامية الواسعة ، وعرفنا كذلك شيوخه
الذين أثروا فيه وكان لهم أكبر الأثر في تكوينه علميا وأدبيا .

أقول : بعد أن عرفنا ذلك كله ، لابد أن نتصرف على نوع ثقافته ،
وهل هي ثقافة أدبية خالصة ؟ أم هي ثقافة علمية شاملة ؟ وهل كانت
ثقافة عربية فقط ؟ أم كانت ثقافة عربية وفارسية ؟

والدارس لكتب الثعالبي ، ومؤلفاته يستطيع أن يجيب بكل وضوح وسر
على هذه التساؤلات الحائرة .

فلقد كان الرجل أدبيا ، وناقدا ، ومؤرخا ، وعالما من علماء اللغة
والدين ، كما كان حافظا للقرآن الكريم متأثرا به في مؤلفاته وأقواله
ويتضح ذلك في كتبه " الفرائد والقلائد " ، و " الإعجاز والإيجاز " وخصاص
الخاص وغيرها .

والقارئ لكتابه " التمثيل والمحاضرة " يعرف مدى اطلاعه
على الأحاديث النبوية ، وحفظها ، وكثرة روايتها والاستشهاد بها ، كما أن

(١) النشر الفنى في القرن الرابع الهجرى (٢ : ٢٦٧) .

(٢) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي ص ٦٥٩ .

اطلاعه على كتب اللغة ومجالسته للفحول ممن عاشوا عصره قد أتاحا له ثقافة
لنوعية هائلة مكنته من تأليف كتاب في " فقه اللغة " يمدُّ رائداً في هذا
الفن ، وقدوة لكثير من المؤلفين الذين تمجوا على منواله مثل ابن سيده في كتابه
" المخصص " الذي سار فيه على طريقة الثعالبي .

وإذا كان الأستاذ أحمد أمين يرى أن فكرة الكتابين ظهرت للرجلين
في وقت واحد (١) فاني أرجح أن يكون ابن سيده قد حاكى الثعالبي في
تأليفه - كما قلت - خاصة أن أهل الأندلس وغيرهم من بلاد المغرب
كانوا يقلدون المشاركة في كل شيء ، حتى لقد عاب عليهم ابن بسلم
صاحب الذخيرة هذه الظاهرة عندما قال :

" انه لو نعتى بتلك الاتفاق غراب ، أو طن بأقصى السلم والمراق ،
ذباب ، لجثوا على ذلك صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما " (٢) .

والقارىء لكتاب " التمثيل والمحاضرة " يدرك أن الثعالبي كان مثقفا
ثقافة دينية عالية حتى إنه لا يكتفى بالاستشهاد بالقرآن الكريم ، والأحاديث
النبوية الشريفة ، وإنما يستدل كذلك بآيات ومواظ من التوراه ، والإنجيل .

ولم تكن ثقافة الثعالبي عربية خالصة ، وإنما كان ملما - بالإضافة
إلى تبحره في العربية - باللغة الفارسية قراة وكتابة ، وفيها ، ونحسب
نلمس ذلك بوضوح في كتابه " غرر ملوك الفرس " حيث يورد كلمات
فارسية كثيرة ، ويقوم بشرحها ، وتحليلها .

(١) ظهر الاسلام (١ : ٢٧٢) ط بيروت .
(٢) تاريخ النقد الأدبي د . محمد زغلول سلام (٢ : ٦١) ط دار
المعارف بمصر .

وهكذا كان الثمالي إماماً في كل فن ، وأستاذنا في كل
علم ، حتى ليتمكن القول : بأنه كان يمثل عصره ، وثقافته
عصره ، أصدق تمثيل ، وقد أطلق عليه رجال عصره جـلـحـظ
نيسابور ..

ولعل كتبه الكثيرة التي خلفها لنا ، والتي سلم بعضها من غوائل
الدهر خير شاهد على ما نقول .

ب - آثاره ومؤلفاته

لقد قدر للشمالي أن يمشى طويلا ، وكان عمره المديد حافلا بجلائل الأعمال في خدمة الأدب ، واللغة والدين ، وفارق الشمالي الحياة الدنيا - مرضيا عنه - بعمد أن ترك تراثا ضخما في مختلف العلوم ، والفنون ، والآداب .

ولقد استطعت بعمد جهد ومشقة أن أجمع أسماء مؤلفاته وكتبه المطبوع منها والمخطوط ، والموجود ، والمفقود ، من بطون الكتب وأمهات المراجع ، خاصة كتب التراجم والتاريخ .

ولقد استمعت في ذلك بجهود الأخوة الذين قاموا بتحقيق كتب الشمالي ، أو بدراسة آثاره ، أمثال : الأستاذ عبدالفتاح الحلو الذي جمع الكثير من مؤلفاته ، في رسالته الداعية " أبو منصور الشمالي وآثاره الأدبية " والأستاذ علي موسى الذي أشار إلى معظم هذه المؤلفات في رسالة التخصص التي كتبها عن ثقافة الشمالي وأثرها في نقده للمتنبي ، وأمثال الأستاذين إبراهيم الأبياري ، وحسن كامل الصيرفي في تقديمهما لكتاب الشمالي المشهور " لطائف المعارف " وغير هؤلاء . أمثال : الأستاذ جورجي زيدان في كتابه " تاريخ آداب اللغة العربية " .

وبعد ذلك كله أستطيع أن أقول : إنني جمعت معظم مؤلفات الشمالي التي وردت أسماؤها في مختلف المراجع ، منذ عصر الشمالي - حتى الآن - وهي كثيرة ، ومتنوعة ، وعظيمة .

وسأؤلم الباحثين ، ويحز في نفوس الدارسين ، أن معظم هذه المؤلفات الثمينة قد ضاع كما ضاع غيرها من كتب التراث .

ولكن ما يثلج الصدر ، ويسبغ النفس أن معظم كتبه الضخمة قد سلمت

من غوائل الدهر ، وعوادي الزمن ، أمثال : لطائف الصراف " و " ثمار
القلوب في المضاف والمنسوب " و " فقه اللغة " ، و " يتيمة الدهر " .

ولو قدر لهذه الكتب الضخمة النافعة أن تضيع كما ضاع غيرها من
كتب الثماليين لخسرت المصيرية جزءا كبيرا من تراثها ويكفى أن أشير إلى أن كتابه
" يتيمة الدهر " وحده قد حفظ أدب القرن الرابع كله من الضياع .

أما معظم كتبه الباقية فقد كانت صغيرة الحجم ، كما أن بعضها قد
ذكر بأسماء مختلفة ، وسأسجل هنا أسماء كتبه المديدة التي أحصيتها من
المراجع المختلفة حسب الترتيب الأبجدي . . على أن أخص كتابه " اليتيمة " -
بدراسة مستقلة بعد ذلك - إن شاء الله تعالى - لأنها وحدها : هي التي
تهمنا في هذه الدراسة . وهذه الكتب هي : -

- ١ - " أبو الطيب المتنبي . . ماله وما عليه " وهو الباب الخامس من كتابه
(يتيمة الدهر) نشره الأستاذ محمد علي عطيه وطبعه بمفرده في مصر .
- ٢ - " أجناس التنجيس " مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٤٨٠ بلاغة)
- ٣ - " أجناس المحاسن " .
- ٤ - " الأحاسن في بدائع البلغاء " .
- ٥ - " أحاسن كلام النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، ولسوك
الجاهلية والاسلام " وهو مختصر " إعجاز الإيجاز " للثمالي اختصره
المعلمة الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ ،
وطبع في رومة .
- ٦ - " أحسن ما سمعت " وله أسنان آخران هما : " اللآلئ " والدرر " ،
و " أحسن المحاسن " الذي تقدم ذكره برقم (٣) وقد طبع بمطبعة
الجمهورية .

- ٧ - أخبار أبي فراس " وهو الباب الثالث من كتاب " اليتيم " طبع نسي
ليدن .
- ٨ - " الأدب ما للناس فيه أرب " .
- ٩ - " الأصول في الفصول " .
- ١٠ - " الإعجاز والإيجاز " طبع بالمطبعة المموية بمصر سنة ١٨٩٢م وفي
الآستانة هـ منه نسخة خطية في دار الكتب المصرية برقم (٥٥٤ أدب)
- ١١ - " الأعداد " ومعرف به " برد الأعداد في الأعداد " وقد طبع
في الآستانة سنة ١٣٠١ هـ منه نسخة خطية بدار الكتب برقم
(٤٩٢ أدب) .
- ١٢ - " أفراد المعاني " .
- ١٣ - " الاقتباس " وقد طبع حديثا في بغداد وشاهدت منه نسخة بالجزائر
- ١٤ - " الأمثال والتشبيهات " ويسمى " الفرائد والقلائد " ويسمى أيضا
" بالحقد النفيس " وقد طبع في مصر بعنوان " الأمثال " .
- ١٥ - " أنس الشمراء " ويسمى " أنس المسافر " .
- ١٦ - " الأنيس في غزل التجنيس " .
- ١٧ - " الأنوار البهية في تعريف مقامات مضار البهية " .
- ١٨ - " بهجة المشتاق " .
- ١٩ - " التجنيس " وهو كتاب " أجناس التجنيس " الذي سبق ذكره برقم (٢)
- ٢٠ - " التحسين والتقييح " .
- ٢١ - " تحفة الأرواح " ، وموائد السرور والأفراح " .

- ٢٢ - " تحفة الوزراء " مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٥ نحو) .
- ٢٣ - " ترجمة الكاتب في أدب صاحب " .
- ٢٤ - " التفاحية " .
- ٢٥ - " تفضل المقتدرين ، وتنصل الممتندين " .
- ٢٦ - " التمثيل والمحاضرة ، في الحكم والمناظرة " وقد حققه الأستاذ
عبد الفتاح محمد الحلو وطبع بدار الكتب سنة ١٩٦١ .
- ٢٧ - " التوفيق للتأنيق " .
- ٢٨ - " ثمار القلوب في المضاف والمنسوب " وهو كتاب قيم حققه الأستاذ
محمد أبو الفضل وطبع بدار نهضة مصر للطبع والنشر سنة ١٩٦٥ .
- ٢٩ - " جوامع الكلم " .
- ٣٠ - " الجواهر الحسان في تفسير القرآن " ذكره الأستاذ جورجى زيدان
- ٣١ - " جواهر الحكم " .
- ٣٢ - " حجة المقل " .
- ٣٣ - " حشو اللؤلؤ " أشار إليه الثعالبي في " ثمار القلوب " .
- ٣٤ - " حل العقد " .
- ٣٥ - " خاص الخاص " طبع بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٦ هـ .
- ٣٦ - " خصائص الفصل " .
- ٣٧ - " الخوارزميات " .
- ٣٨ - " الخلطة وشاقيات " .
- ٣٩ - " درر الحكم " مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٥١١٣ أدب) .

- ٤٠ - " ديوان أشعاره " جمعه عبدالفتاح محمد الحلو في رسالته الجامعية
" أبو منصور الثعالبي وآثاره الأدبية " .
- ٤١ - " سجع المنشور " .
- ٤٢ - " سحر البلاغة " و" سر البراعة " مخطوط بدار الكتب المصرية برقم
(٥ نحو) .
- ٤٣ - " سحر البيان " .
- ٤٤ - " سر الأدب في مجارى كلام العرب " طبع مع فقه اللغة للثعالبي
بالقاهرة سنة ١٩٣٢ م .
- ٤٥ - " سر البيان " و" لعله " سحر البيان المتقدم ذكره برقم (٤٣) .
- ٤٦ - " سر الوزارة " و" لعله " تحفة الوزراء " السابق ذكره برقم (٢٢) .
- ٤٧ - " السياسة " .
- ٤٨ - " سيرة الملوك " .
- ٤٩ - " الشجر والصور في الحكم والمواظ " مخطوط بدار الكتب برقم
(٤٤٠ أدب) .
- ٥٠ - " الشكوى والعتاب " وما وقع للخلان والأصحاب " مخطوط بدار الكتب
برقم (١٦٧٣ أدب) .
- ٥١ - " الشمس " و" لعله " كتاب " شمس الأدب في استعمال العرب " ومنه
نسخة خطية في برلين ، وأخرى في لندن .
- ٥٢ - " الشوق " .
- ٥٣ - " صيغة الشعر والنثر " .

- ٥٤ - " طبقات الملوك " .
- ٥٥ - " الدارف من شعر البسنى " .
- ٥٦ - " الظرائف واللطائف " مخطوط بدار الكتب المصرية (برقم ٦٤ ش) .
- ٥٧ - " عنوان المعارف " .
- ٥٨ - " عيون المعارف " ، ولعله الكتاب السابق نفسه .
- ٥٩ - " عيون النوادر " .
- ٦٠ - " غرر أخبار ملوك الفرس " وهو موجود بدار الكتب المصرية .
- ٦١ - " غرر الهلاكة " ومنه نسخة في برلين بعنوان " غرر الهلاكة " ، وطُرف
البراعة " .
- ٦٢ - " غرر الضاحك " .
- ٦٣ - " الغلمان " ومنه نسخة خطية في برلين .
- ٦٤ - " الفرائد والقلائد " وهو مطبوع على هامش " النثر والنظم " للشمالي
بعنوان " الفوائد والقلائد " طبع المطبعة الأدبية بمصر سنة ١٢١٧هـ
ويقال : إنه هو " المقد النفيس " ونزهة الجليس " . و " الأمثال
والتشبيهات " وقد طبع في مصر بعنوان " الأمثال " .
- ٦٥ - " الفصول الفارسية " .
- ٦٦ - " الفصول في الفضول " .
- ٦٧ - " فقه اللغة " ، وسر العربية " وهو مطبوع ومشهور .
- ٦٨ - " الكشف والبيان " ذكره البغدادى في هداية المارفين .
- ٦٩ - " الكناية والتمريض " مخطوط بدار الكتب برقم (٤٢٩ أدب) ومنه
نسخة مطبوعة .

- ٧٠ - "كنز الكتاب" مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢٨٠٧ أدب) ،
ووجد باسم " المتحل على النسخة المطبوعة بالمطبعة التجارية
بالاسكندرية سنة ١٩٠١ .
- ٧١ - " لباب الأحاسن " .
- ٧٢ - " لطائف الأرفاء " ولعله " الظرائف واللطائف " الذي تقدم ذكره
برقم (٥٦) .
- ٧٣ - " لطائف المعارف " وهو كتاب عظيم حققه الأستاذان : إبراهيم
البيارى ، وحسن كامل الصيرفى .
- ٧٤ - " اللطف واللطائف " .
- ٧٥ - " اللطيف الطيب " .
- ٧٦ - " اللمع الفضية " .
- ٧٧ - " ماجرى بين المتنبي وسيف الدولة " وقد طبع فى لوز سنة ١٨٧٤ م
- ٧٨ - " المبهج " مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٥٠٦ أدب) وطبع
بمصر سنة ١٣٢٢ هـ .
- ٧٩ - " التشابه لفظا وخطا " ومنه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية .
- ٨٠ - " مدح الشئ " ونية " .
- ٨١ - " المديح " .
- ٨٢ - " مرآة المروءات " وهو مخطوط بدار الكتب برقم (٥٠٦ أدب) .
- ٨٣ - " المشوق " .
- ٨٤ - " المضاف والمنسوب " ولعله هو " شار التلويب فى المضاف والمنسوب "
المتقدم ذكره برقم ٢٨ .

- ٨٥ - " مفتاح الفصاحة " .
- ٨٦ - " المقصور والمدود " .
- ٨٧ - " مكارم الأخلاق " وقد طبع في بيروت سنة ١٩٠٠ .
- ٨٨ - " ملح البراعة " .
- ٨٩ - " الملح والطرف " .
- ٩٠ - " الملوكي " ذكره الثعالبي في مقدمة كتابه " تحفة الوزراء " .
- ٩١ - " منادسة الملوك " .
- ٩٢ - " المنتحل " وهو " كنز الكتاب " الذي تقدم ذكره - برقم ٧٠ - وقد صححه الأستاذ أحمد أبو علي أمين مكتبة المجلس البلدي بالإسكندرية وطبع سنة ١٣١٩ هـ وهو موجود بدار الكتب المصرية .
- ٩٣ - " من غاب عنه المطرب " وهو كتيب مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٤٩٢ أدب) وقد طبع في بيروت بالمطبعة الأدبية سنة ١٣٠٩ هـ .
- تصحیح الأستاذ محمد سليم اللبابيدي .
- ٩٤ - " من غاب عنه المؤسس " ويبدو أن هذا هو الكتاب السابق نفسه .
- ٩٥ - " المهذب في اختيار ديوان المتنبي " ومنه نسخة مصورة بدار الكتب المصرية - وهو - فيما يبدو - كتاب " أبو الريب المتنبي " ماله وما عليه الذي مر ذكره برقم (١) .
- ٩٦ - " مؤسس الوحيد في المحاضرات " وقد طبعت منه مختصرات سنة ١٨٣٩م بعنوان " مؤسس الوحيد ونزهة المستفيد " .
- ٩٧ - " نثر النام وحل المقد " وقد طبع في دمشق سنة ١٣٠٠ هـ وفي مصر سنة ١٣١٧ هـ .
- ٩٨ - " نسيم الأندلس " .

- ٩٩ - " السحر " .
- ١٠٠ - " النهاية فى الكناية " .
- ١٠١ - " النهاية والتعريض " وهو الكتاب السابق نفسه .
- ١٠٢ - " النوادر والبوادر " .
- ١٠٣ - " السور " .
- ١٠٤ - " يتيمة الدهر فى محاسن أهل مصر " وقد طبع فى دمشق سنة ١٣٠٣ هـ ، وطبع فى مصر سنة ١٩٣٤ بتحقيق الاستاذ محمد اسماعيل الصاوى ، وأعيد طبعة - بعض أيضا - بتحقيق المرحوم الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد وهو من أجل كتب الثمالى وأكبرها وأكثرها فائدة .
- ١٠٥ - " يتيمة اليتيمة " وقد ذكر فى فهرس دار الكتب المصرية بعنوان " تمة اليتيمة " ومنه نسخة مطبوعة فى طهران بتحقيق الاستاذ عباس اقبال .
- ١٠٦ - " اليواقيت فى بعض المواقيت " وقد جمعه الشيخ أحمد عبدالرازق المقدسى مع كتاب الثمالى " الذرائف واللطائف " المتقدم ذكره برقم (٥٦) وطبعتهما فى كتاب واحد قال فى مقدمته " أما بعد " ، فهذا الكتاب كان فى نسختين متناسيتى الجمع ، متناسختى الوضع ، سعى الشيخ أبو منصور الثمالى - رحمه الله تعالى - أحدهما " الذرائف واللطائف " والآخر كتاب " اليواقيت فى بعض المواقيت " ، وأورد لكل منهما صدرا ، أورد فيه لمن عمله باسمه ذكر ، فجمعت بينهما فى قرن وعطفت عنانيهما الى سنن ، اختصارا للدريق الى فوائدهما ونما لشملى فرائدهما " (١) .

(١) المقدمة : ص ٢ .

تعليق وتحليل :

هذه هي كتب الثعالب ومولفاته ، التي أشارت إليها مراجع المؤرخين ،
والمصنفين ، والأدباء ، الذين عاشوا بعده حتى عصرنا هذا .

ومن المؤكد أن معظم هذه الآثار القيمة قد ضاع ، وأصبح أثرها
بمعد عيّن .

ومن المؤكد - كذلك - أن بعض هذه الكتب التي نشرت مستقلة هي
في حقيقة الأمر أجزاء من كتبه الكبيرة .

وقد ذكرت من قبل أن له كتابا برقم (١) بعنوان " أبو الطيب المتنبي
ماله وما عليه " وآخر برقم (١٥) بعنوان " المذهب في اختيار ديوان
المتنبي " وثالث برقم (٧) بعنوان " أخبار أبي فراس " والحقيقة أن هذه
الكتب الثلاثة أجزاء من كتابه المشهور " بثمة الدهر في محاسن أهل
العصر " .

كما أن بعض كتبه قد ذكر مكررا بأسماء مختلفة لمسى واحد فثلا
يطلق على كتاب الأمثال المتقدم برقم (١٤) هذه الأسماء :-

- ١ - " الأمثال والتشبيهات " .
- ٢ - " الفرائد والفوائد " .
- ٣ - " المقصد النفيس " . (١)

كما أنه يوجد أكثر من اسم لكتاب " أجناس التبعين " المتقدم برقم (٢)
- وكذلك - لكتاب " أحاسن المحاسن " المتقدم برقم (٣) وكتاب " المتحل "

(١) انظر رقم ١٤ .

المتقدم برقم (٩٢) وغيرها .

وقد حَمَلَ الأستاذان إبراهيم الأبياري وحسن كامل الصيرفي محققا كتاب " لطائف المعارف " للشمالي تبعة هذا الخلط " على تلميذه الباخري صاحب " الدمية " - وأنا ممهما في ذلك - فلقد جره تقصيره الأول ففى عرض ما يتصل بحياة أستاذه إلى تقصير ثان وهو أنه لم يذكر كتب شيخه ، ولو أنه فعل لكفانا مثونة التقصص والتحرى - وما كان عسيرا عليه أن يفعل ، ولو فعل لقدم لنا ، ولأستاذنا خيرا كثيرا ، ولأراح الباحثين بعمده ، والمهتمين بتراث الشمالي من هذا المناء (١) .

وقد أشار الأستاذ على محمد موسى فى رسالته " ثقافة الشمالي وأثرها فى نقده للمتنبي " إلى أن هناك خطأ وقع فيه الأستاذ "جورجى زيدان" حين نسب كتاب " الجواهر الحسان فى تفسير القرآن " لأبى منصور الشمالي وهو وهم مرجعه أن لعالم آخر هو الشيخ عبدالرحمن الشمالي كتابا فى تفسير القرآن بهذا الاسم وهو غير أبى منصور الذى نحن بصدد دراسته ، وهناك خلط آخر وقع فيه البغدادي صاحب كتاب "هداية المارفين" حين ذكر أن للشمالي كتابا بعنوان " الكشف والذنون " على حين ذكر حاجى خليفة صاحب كشف الذنون " أن هذا الكتاب لأبى منصور عبدالملك بن أحمد بن إبراهيم الشمالي - وهو غير أبى منصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل الشمالي الذى نتحدث عنه .

وهناك خلط ثالث وقع فيه حاجى خليفة صاحب " كشف الذنون " حين نسب كتاب " اليواقيت فى بعض المواقيت " لنجم الدين عمر النسفى ، وقد وجدت هذا الكتاب منسوبا للشمالي ، وقد جمعه المقدسى وطبعه مع كتاب آخر للشمالي بعنوان " اللطائف والذرائف " كما مر ذكره .

(١) أنظر تقديم " لطائف المعارف " للمحققين .

وهناك أمر آخر جدير بالتسجيل - في هذا المقام - وهو ما أشار إليه الأستاذ على محمد موسى ^(١) ، كما أشار إليه الأستاذ أحمد أبو على أمين مكتبة المجلس البلدي بالاسكندرية . . وهو أن ابن خلكان وابن شاعر الكتبي قد نسبوا كتاب " المنتحل " الذي ورد ذكره ضمن كتب الشمالبي برقم (١٢) إلى الأمير أبي الفضل الميكالي وقد أثبت الأستاذ أحمد أبو على صحة نسبة هذا الكتاب لأبي منصور الشمالبي وقدم الدليل على ذلك وهو أن الأمير الميكالي كان مددوحاً للشمالبي ، الذي مدحه بقصائد سيارة ، نال عليها جوائز السنية وقد كانت انصلة بينهما قوية مكينة ، فلا بأس أن يولف الشمالبي مثل هذا الكتاب وينسبه إلى الأمير الميكالي ، وقد يجوز أن يكون الأمير هو الذي انتحل هذا الكتاب لنفسه ، وسكت عن ذلك الشمالبي تقرباً وتأديباً مع الأمير ^(٢) .

وربما كانت تسمية الكتاب " بالمنتحل " مقصودة من جانب الشمالبي ولم يلحظها الأمير الميكالي ويدل على ذلك قوله في مقدمته : " إنه أودعه فيما ينخرط في سلك الرسائل والمخاطبات ، ويتدرج في أشاء الاخوانيات ^(٣) والسلطانيات والله أعلم بالصواب وإليه المآب " .

وكان غرض الشمالبي بقوله " والله أعلم بالصواب " التنبيه على ما سيقع فيه المؤرخون من الخطأ في نسبة هذا الكتاب إلى الأمير الميكالي .

-
- (١) صاحب رسالة " ثقافة الشمالبي وأثرها في نقده للمتنبي " .
(٢) هذا استنتاج واه لا يرتقى إلى درجة الدليل الذي يؤكد هذا الأمر فهو احتمال لا أكثر ولا أقل بل هو إلى الزعم أقرب . د / سرحان .
(٣) هذه النسبة خطأ وقع فيه القدماء من مؤلفي المصور المتأخرة ووقع فيه الكاتبون ، واستمرأه رجال المصور الحديثة ونقل الجميع عن أن النسب لا يجوز للجمع إلا إذا كان علماً ، كالجزائر ، والمدائن ، وأن اللبس بين النسب إلى المفرد والجمع منتفرد في هذا الباب . د / سرحان .

ويبدو أن بعض ذوي الجاه والسلطان كانوا ينتحلون كتب غيرهم
وينسبونها إلى أنفسهم على سبيل السطو والاختصاب خاصة إذا كانوا من
طبقة الأمراء أو الوزراء وذوي البأس.

ويبدو كذلك أن بعض جهال الوراقين كانوا ينسبون بعض الكتب إلى
مشهوري العلماء والمصنفين، لينفق سوقها وتربح تجارتها، وهو عجت قد
يوقع الباحثين في اللبس والارتباك.

٢٢ الفصل الثالث ::

• كتاب التيممة • -----

- أ - التعريف بها ..
- ب - الدافع الى تأليفها
- ج - مضمون الثمالي وعنايته فيها

١ - التمرير بها :

تعدُّ "اليتيمة" من أجمل كتب الثعالب ، وأعظمها قدرا ، وأعلاها منزلة ، وأكثرها شهرة ، وذيوها . .

ولعل أول ما يسترعى النظر ، ولفت الفكر ، ويثير الانتباه إلى هذا الكتاب هو عنوانه "يتيمة الدهر" والثعالب نفسه لم يذكر سببا لهذه التسمية ويبدو أن الناس قديما - كما يقول الأستاذ الصاوي محقق الكتاب - لم يكونوا يعرفون أصل هذه التسمية ، ولا يدركون سرها حتى شرع لهم ابن قلاقس الشاعر السكندري المشهور تحليلها معقولا لهذه التسمية فمنه بيتين مشهورين هما :

أبياتُ أشعارِ اليتيمة • أبكار أفكار قديمة
ماتوا وعاشت بمقدّمهم • فلذاك سمّيت اليتيمة^(١)

فابن قلاقس يرى : أن أشعار "اليتيمة" كالأطفال لمن نذموها وقد مات أولئك الناطقون تاركين بنات أفكارهم يتامى . . فلذاك أطلق الثعالبى على كتابه اسم "اليتيمة" .

ويبدو - كذلك - أن جمهور الأدباء الذين اشتهروا بعد ابن قلاقس قد ارتضوا هذا التحليل وقبلوه ، واطمأنت نفوسهم إليه . . دون مراجعة ولا نقاش لأننا لم نجد فى كتب التراجم ، من حاول تفسير هذه التسمية ، أو تحليلها ، ومما همم كان يكتفى بنقل بيتى ابن قلاقس . .

ونحن إذا رجعنا إلى المعاني اللغوية نجد أن كلمة "اليتيمة" تطلق على الرملة المنفردة ، وعلى الشئ المفرد وعلى كل شئ يميز نظيره ، وعلى الدرة الثمينة التى ليس لها نظير^(٢) .

(١) اليتيمة : تقديم الأستاذ الصاوي ص (ج) .

(٢) راجع الصحاح والقاموس واللسان وغيرها .

ومن اليقين الواضح أن الثمالي يقصد بهذا التسمية ، أن كتابه فريد
في بابه ، ليس له نالير في كتب التراجم ، أو الطبقات ، فهو كالدرة اليتيمة
التي تميزت عن غيرها بكثير من الصفات . .

وأياً ما كان سبب التسمية فقد اشتهر الكتاب بهذا الاسم ، وأصبح
علماً بين كتب التراث .

وربما كان من حقنا - بعد ذلك كله - أن نتساءل عن نوع هذا
الكتاب ، أهو من كتب التراجم والطبقات ؟ أم من كتب الأدب والنقد ؟
أم هو من كتب التاريخ والحضارة ؟

والدارس لكتاب " اليتيمة " يجده شبيهاً بكتب التراجم والطبقات
من حيث تقسيمه الشعراء حسب أقاليمهم ومدنهم ، وعلى مقدار منزلتهم الأدبية ،
ومكانتهم الفنية ، فهو يماثل كتاب " طبقات الشعراء " لابن سالم البهسي
وإن كان يخالفه في التقيد بمصر واحد . . كما أنه يضاهي إلى حد كبير
كتاب " طبقات الشعراء المحدثين " لابن المحتر كما أشار إلى ذلك غير
واحد من الباحثين . .

وهو كتاب أدب من غير شك لأن المؤلف - رحمه الله - جمع فيه
مختارات شعرية ونثرية لأدباء القرن الرابع ، ولا يستطيع دارس للشعر والنثر
في ذلك العصر أن يستغنى عنه . . ويكفي أن نعلم - فيما أن الأدباء
والمؤلفين منذ عصر الثمالي وحتى اليوم ، قد تأثروا ، واقتبسوا منه ، واستفادوا
به أعظم فائدة . .

والكتاب كذلك يُعَدُّ من كتب النقد الهامة ، فالثمالي فيه لم يكن
مجرد جامع للشعر والنثر لأدباء عصره ، ولم يكن فراءً في كتبه كما كان فراءً
في صناعه ، كما وصفه بعض المحدثين ^(١) وإنما كانت له آراء نقدية صائبة

(١) الدكتور : محمد مندور في كتابه النقد المنهجي عند العرب ص ٣٠٣ .

تشهد له بالذوق ، والفوق ، نلمسها من خلال ترجمته للشعراء ، خاصة أولئك الذين أوتوا حظا من الشهرة كأبي الطيب المتنبي الذي اهتم به المؤلف اهتماما خاصا ، ودرس شعره دراسة وافية ، وربط بين أدبه ومراحل عصره المختلفة . . . مما يدل على إعجابه به وتقديره له . وقد فعل مثل ذلك مع أبي فراس الحمداني ، وابن الحجاج ، وابن الحميد ، والصاحب ، والخوارزمي ، وسديع الزمان ، والصابي وغيرهم من كبار الشعراء ، والكتاب ، فكان يتمقب معانيهم ويرجمها إلى أصلها ، ويبدى إعجابه بالجميل منها ، ويعيب ما يستحق الذم (١) والقدح . . . والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى . . .

وفضلا عن جميع ما ذكرنا يُمدُّ هذا الكتاب من كتب الحضارة والتاريخ ، والدارس لتاريخ العالم الإسلامي في تلك الحقبة لا يستطيع الاستغناء عنه كما فعل المستشرق " آيم متر " في كتابه عن : " الحضارة الإسلامية في القرن الرابع " وكما فعل الأستاذ أحمد أمين في كتابه المشهور " زاهر الاسلام " وكذلك الدكتور حسن إبراهيم حسن في كتابه " تاريخ الإسلام السياسي " وغيرهم . . . لأن كتب التاريخ التقليدية لا تنكف للحكم على هذه المرحلة ، ولا تتدافع أن تعطي صورة صادقة متكاملة عن هذا العصر ، فهي تهتم بأخبار الخلفاء ، والأمراء ، والوزراء ، والقادة السياسيين ، والعسكريين ، مسرودة سردا مرتبا على سني الزمان . . . بعكس الوثيقة " التي تهتم - علاوة على ذلك كله - بالحالة الاجتماعية للدولة الإسلامية الواسعة ، وتعطي صورة صادقة لكل جوانب الحياة في تلك الحقبة .

ب - الدافع إلى تأليفها

يُمدُّ الثمالي من الأدباء الذين يعملون للحديث الطريف ، ويمشقون الأدب المصري ، ويتمصبون له ، وينفرون من القديم ، ويحرضون عنه ، لأن

(١) الذام - بألف متوسطة - كالذام - بهزة متوسطة وهو الذم والذمب .
د / سرحان

النفوس في أيامه قد سئمت ، والأذواق في زمانه قد ممتته وملته .

ولعل الثعالب في ذلك ، كان متأثرا بأستاذ أبي الحسن بن فارس الذي يرى في إحدى رسائله : أن لكل عصر نتاجا أدبيا خاصا ، يلائم روحه ، ويوائم حالته ، ويتطابق مع صور الحياة عند أهله ، وأنه لمن المبعث أن تقتصر الآداب على زمان معلوم ، وأن توقف على أناس دون آخرين .

وهو يرى أن الأدب القديم أصبح رثا باليا ، قد أخلقت جِدَّتْهُ الأيُّم والليالي ، فحججه السمع ، ولفظه القلب ، وسئمت النفس (١) .

وسواء أكان الثعالب مقلدا لابن فارس في هذا الرأي ، أو مبتدعا له ، فإنه كان يفضل الأدب المصري ، ويرى أنه وصل إلى أبعد غايات الجودة ، وبلغ أقصى نهايات الحسن والذarf ، وأنه لحالته وجماله يكاد يخرج من باب الإحجاب إلى باب الإيجاز ، ومن حَدِّ الشعر إلى باب السحر .

ولقد نظر الثعالب فيما حوله من الكتب ، فوجد أن المؤلفين قد اهتموا بالمقدمين من الشعراء ، وذكر طبقاتهم ، ودرجاتهم وتدوين كلماتهم والانتخاب من قصائدهم ، ومقطوعاتهم ، كما نظر إلى أَسْمار أهل عصره وإلى محاسنهم النثرية ، فوجدها — على حالوتها ، وجودتها ، وقرب عهدها — غير محصورة في كتاب يضم نثرها ، وينظم شذرها ، ولا مجموعة في مصنف يقيد شواردها ، ويخلد فوائدها .

(١) اليتيمة (٣ : ٢٦٥) بتصرف .

ولما كان مغربا بالشعر المصرى ، ومفتونا به ، وفضلا إياه على كل شعر سبقه بجاهليا كان ، أم إسلاميا ، فقد تصدى هو لذلك العمل الجليل ، وقام بهذه المهمة الشاقة ، فجمع نتاج الشعراء والكُتّاب المحدثين فى مصنف واحد هو " اليتيمة " واستطاع بهذا الجهد العظيم أن يخلد آثارهم ، ويحفظ تراثهم من الضياع ،

ويبدو من مقدمة " اليتيمة " أنه ألفها سنة أربع وعشرين وثلاثمائة هجرية وهو فى مطلع شبابه واقبال أيامه ، ويظهر أنه انتهى منها فى مدة وجيزة لا تفى بالفرس ، ولا تحقق الهدف ، ولا ترضى الطموح .

وعلى الرغم من ذلك ، ذاع صيتها ، وطار ذكرها ، وطبقت شهرتها فى الأقاليم ، فأقبل عليها المستعمرون يتعاقبون ، والمتسخون يتداولونها ، حتى صارت من أنفس ما تشع به أنفس الأدباء عن الإخوان ، ومن أغلى ما تصير به الركبان ، إلى أقاصى البلدان ، فتواترت الأخبار ، وشهدت الأقاليم بحرص أهل الفضل على غدره وعدهم إياها من فرص العمر وغرره (1) .

ويبدو أن هذا الرواج الذى صادف كتاب " اليتيمة " جمع بين الشمالى ويميد النثار فيها ، ويرى أنه لابد من مراجعة تأليفها من جديد لكن يجيد تنسيقها ، وتبويبها ، ويضيف إليها ، ويحذف منها ، ويحسبكم نسبها ، حتى تصير على الصورة التى يسطح إليها . .

وقد ظل سنوات طوالا فى هذا العمل الجبار يبنى وينقض ويضيف

(1) مقدمة اليتيمة ص ٤ .

وينقص ، ويحوى ويثبت ، ويضيف إليها ما حصل عليه من أفواه الرواة ، وربما انتتحتها ولم يتمها ، وانتصفها ولم يستتمها إلى أن أدرك أيلم تعلم الدربة والحنكة ، وشارف أو ان الثبات والمُسَكَّة (٥) .

وأخيرا ابتسم له الحذا. فاختلص فرصة من غفوة الدهر ، وانتهـز رقدة من عين الزمن ، وأخذ في تحريرها مرة أخرى - على النمط الذى بين أيدينا اليوم - بعد أن غير ترتيبها ، وأعاد رصفها ، وأحكم نسجها ، قبل أن تصل إلى أيدي القراء والمتسخين ، وصار مثله فيها ، كمثل من يتأنق في بناء داره ... التى هى عشه ، وفيها عيشة ، فلا يزال ينقص أركانها ، ويميد بنيانها ، ويدعها حسنا تخجل منها البدور ، وتتقاصر عنها القصور ، فان مات فيها مغفورا له انتقل من جنة الدنيا إلى جنة المأوى (١) .

وهكذا أتم النسخة الثانية من " اليتيمة " بعد أن أحكم نسجها ، وأتقن صنمها ، وجعلها قرّة للعين ، ومتعة للقلب ، ولذة للروح وكان ذلك في المدة من سنة ٤٠٢ هـ إلى سنة ٤٠٧ هـ ، كما قرر ذلك الأستاذ عباس إقبال ناسر كتاب تنمة اليتيمة ...

وقد أهدى هذه النسخة الأخيرة إلى أبى المباس مأمون بن مأمون خوارزم شاه سنة ٤٠٧ هـ ويفهم من نسخة أخرى أنه أهداه إياها سنة ٤٠٢ هـ في شهر المحرم لأن الأمير المذكور توفى سنة ٤٠٧ هـ .

(٥) المسكة : يضم فسكون : العقل الوافر .

(١) مقدمة اليتيمة ص ٥ .

وبذلك يكون الدافع إلى التأليف هو الحرص على جمع تراث
المصريين^(١) في كتاب واحد يحفظه من الضياع ، وأما الهدف فهو
إهداءها إلى الأمير المذكور لينال خلعها وهداياها .

ب - منهجه وخصائصه فيها

تحدث الثعالبي في يتيمة عن شعراء وكتاب العالم الإسلامي في
عصره وأواخر العصر الذي قبله ، على اختلاف ألوانهم وأوطانهم ، من خراسان
وما وراء النهر شرقا ، حتى بلاد المغرب والأندلس غربا .

وقد ذكر فيها الدول الثلاث : دولة بني حمدان في الشام والموصل ،
ودولة بني بويه في فارس والعراق ، ودولة بني سامان في خراسان وما وراء
النهر .

كذلك قسمها إلى أربعة أقسام رئيسة . . . وتحدث في القسم الأول
منها عن شعراء وكتاب الدولة الحمدانية في الشام والموصل ، وألحق بهم
بعض شعراء من مصر والمغرب والأندلس ، وبعد هذا القسم ، من أهم أقسام
" اليتيمة " ، وأضخمها حجما ، فقد اشتمل على حوالي ستائة صفحة من
الحجم المتوسط شملت عشرة أبواب :

(١) هذه عبارة الثعالبي في مقدمة اليتيمة ص ٤ ، ، حيث قال " كانت
أشعار الأسلاميين أرق من أشعار البهايليين ، وأشعار المحدثين
الطف من أشعار المتقدمين ، وأشعار المولدين أبعد من أشعار
المحدثين ، وكانت أشعار المصريين أجمل لنوادير المحاسن " .
أما رجال العصر الحديث فيقولون : " أشعار المعاصرين " ولم ترد
هذه الكلمة في كتب اللغة . د / سرحان .

وقد تحدث في الباب الأول منها : عن شعراء الشلم ، وتمصيب
لهم فضلهم على شعراء سائر البلدان ، وذكر أسباب تفوقهم وأقلم الأدلة
على فضلهم ، وهو قريب من عرب الحجاز ، ومقدم عن الأعاجم ، وسلامة
ألسنتهم من الفساد العارض ، ولأنهم جاوروا ملوكا أفاضل من آل حمدان
كانوا يفهمون الشعر ، ويتذوقونه ويشجعون الشعراء على الإجابة والاثقان
بخلاف أهل العراق الذين فسدت ألسنتهم لمجاورتهم الأعاجم ، واختلاطهم
بهم ..

* * *

وأغلب الظن أن تعصب الثمالي لأهل الشلم راجع إلى حبه الشديد
لسيف الدولة . ذلك الأمير العربي الشجاع الذي حمى الثغور الإسلامية
وتصدى وحده لهجمات الروم ، وأخضعهم ، وحمى الدولة الإسلامية كلها ،
من خطر داهم كان يهدد أركانها ، ويزلزل بنيانها ، قرابة نصف قرن
من الزمان ..

وقد أفرد الباب الثاني للحديث عن سيف الدولة ، وأكثر من الثناء
عليه ، مما يدل على إعجابه به ، وتقديره لبطلته ..

أما الباب الثالث : فقد جمعه لأبي فراس الحمداني ، وقد عني به
عناية خاصة فجمع معظم أشعاره ، وقسمها أقساما بحسب مناحيها ومناحيها ..

وفي الباب الرابع تحدث عن بني حمدان ، واستعرض أشعارهم ، كما
ذكر معهم طائفة من شعراء الشلم معانهم من المفسورين ، وجل تراجمهم
في هذا الباب قصيرة ، لا تحقق الغرض ولا تنفي بالمطلوب ، ولا تشبع نهم
الباحثين .

وقد خصص الباب الخامس لأبي الطيب المتنبي ، وتوسع في دراسته
وأكثر من الحديث عنه ، واهتم به اهتماما بالغا وتمرض لشعره بالنقد
والتحليل ، والدراسة المنهجية الواسعة .

وفي الباب السادس تحدث عن ثلاثة من كبار شعراء سيف الدولة
وهم : الناص ، والناشي ، والزاهي .

وفي الباب السابع تحدث حديثا خاصا عن أبي الفج الهبشاني ،
وغرر شعره ، ودرر نثره .

وفي الباب الثامن تحدث عن ثلاثة من شعراء سيف الدولة وهم
الخليع الشامي ، والوأوا ، الدمشقي ، وأبو طالب الرقي .

وفي الباب التاسع ذكر طائفة ضخمة من شعراء الشام ومصر ، والمغرب
والأندلس ، عددهم ستة وتسعون ومائتان ، وقد ترجم فيه لحوالي خمسة
وستين منهم .

ويؤخذ عليه في هذا الباب الخلط ، وعدم الدقة والتحديد ،
فقد ذكر هذا الممدد الهائل من شعراء العالم الاسلامي في الشام
ومصر والمغرب والأندلس حتى ليصعب على القارئ أن يميز شعراء كل اقليم
على حدة ، اللهم إلا بعض المشهورين منهم ككثير بن الممزر في مصر ،
وابن دَرَّاج القَـطِـطَـلَـيَّ ، وابن شَهِيد ، وابن بَدْرِه في الأندلس .

أما الباب المباشر والآخر من هذا القسم ، فقد تعرض فيه لدراسة

شمراء الموصل ، وهي الشق الثاني للدولة الحمدانية ، وقد تحدث فيه بصورة مفصلة عن السرى الرفاء ودرس شعره دراسة وافية ، وتموض لخصوماته الأدبية وسرقاته الشعرية ، واهتم به اهتماما كبيرا ثم ذكر بعده الخالديين أبا بكر محمدا ، وأبى عثمان سميدا ، وأتبعهما بأبى بكر بن الخباز ، وعبيد الله البلدى ، وذلك ينتهى القسم الأول من " اليتيمة " .

القسم الثانى :

أما القسم الثانى من أقسام اليتيمة فقد تحدث فيه عن بنى بويه وعن أشراف ملوكهم ، ووزرائهم ، وكتابهم ، وقد قسمه إلى عشرة أبواب كذلك على نحو ما فعل فى القسم الأول . .

وقد جمل الباب الأول لملوك بنى بويه ، خاصة الشمراء منهم ، كمضد الدولة ، وعز الدولة ، وتاج الدولة ، وأبى العباس خسرو بن فيروز ابن ركن الدولة . .

وأفرد الباب الثانى للوزير المهلبى وذكر أخباره ، وفصوله وأشعاره

وجمل الباب الثالث : لأبى اسحاق الصابى ، وحاسن كلامه . .

وفى الباب الرابع تحدث عن ثلاثة من كتاب بنى بويه لهم مقامات الوزراء . . وهم : أبو القاسم عبدالعزيز بن يوسف ، وأبو أحمد عبدالرحمن بن الفضل الشيرازى ، وأبو القاسم على بن القاسم القاشانى .

أما الباب الخامس : فقد خصه لشمراء مدينة البصرة بالمراق

وحاسن كلامهم .

والباب السادس من جملة لشعراء العراق سوى بغداد .

ويجعل الباب السابع للكثيرين من شعراء مدينة بغداد .

وأفرد الباب الثامن للشعراء المقلين .. من أهل بغداد .

وزيغ في الباب التاسع للحديث عن شعراء العراق .

وأفرد الباب العاشر للشاعر العربي الملهم الشريف الرضي ، واهتم
به اهتماما خاصا ، وعاش معه في دراسة مستكنة تمتاز بكثير من الخصائص
الفنية والعرفية .

ويلاحظ على الثمالي أن منهجه في هذا القسم مضطرب وغير
دقيق ، فقد جعل للبغداديين بابين ، أحدهما للكثيرين ، والآخر للمقلين ..
وكان يكفي باب واحد لكل شعراء بغداد ..

كذلك جعل لشعراء العراق - سوى بغداد - بابين هما :
السادس والتاسع .. من غير تحليل لذلك . وكان يكفي جميعهم في باب واحد
بما في ذلك شعراء البصرة وبغداد حتى لا يقع الدارس في هذا الخلط .

القسم الثالث :

~~~~~

يواصل المؤلف في هذا القسم حديثه عن شعراء ، وكتاب الدولة  
البيهيبة وقد جملة كذلك في عشرة أبواب - شأن القسمين السابقين :  
وقد خص الباب الأول بابي الفضل بن المميد وتوسع في الحديث

عنه .

وأفرد الباب الثانى لابنه أبى الفتح بن الحميد . وذكر أخباره  
وجمل الباب الثالث للصاحب بن عباد وأسهب فى ذكر أخباره  
ومجالسه وأشعاره ، ورسائله ومذائح الشعراء له . . .

وفى الباب الخامس تحدث عن شعراء مدينة أصبهان .

وفى الباب السادس تحدث عن شعراء فارس وذكر عشرة من  
الشعراء أشهرهم أبو دلف الخزرجى . .

أما الباب السابع فقد جمعه لسبعة عشر شاعرا معظمهم عباس  
منصورا . .

وفى الباب الثامن تحدث عن شعراء فارس والأهواز . .

وخصص الباب التاسع لشعراء جرجان وطبرستان . .

أما الباب العاشر من هذا القسم فقد أفرد له لشمس المصطفى  
قالبوسى وشمكير . .

وبذلك ينتهى القسم الثالث من اليتيمة . .



### القسم الرابع :

أما القسم الرابع والآخر فقد تحدث فيه عن شمراء وكتاب الدولة السامانية في خراسان وما وراء النهر وعاصمتها "بُخَارَى" وقد جمعه عشرة أبواب كذلك :

وتحدث في الباب الأول عن عشرين شاعرا من خراسان ومعظمهم غير مشهور ..

وفي الباب الثاني تحدث عن شمراء الناصبة "بُخَارَى" وعدد منهم أربعة وعشرين شاعرا .

أما الباب الثالث فقد جمعه للمأمون والواثق وهما من أولاد - الخلفاء العبّاسيين - نسبة إلى المأمون والواثق بالله ..

وفي الباب الرابع تحدث عن أبي بكر الخوارزمي ، وتوسع في الحديث عن أخباره وآثاره .

كذلك أفرد الباب الخامس لأخبار بديع الزمان الهمذاني ، ودرسته دراسة مفصلة شاملة ..

وجعل الباب السادس عن أبي النخع البستي وثمانية من الشمراء المغمورين ..

وخص الباب السابع لشمراء خراسان ، ما عدا "نيسابور" .

وأفرد الباب الثامن للأخير أبي الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي وبالغ في مدحه ، وأقرط في الثناء عليه ، وأكثر من الحديث عن أشعاره وأخباره .

وجمل الباب التاسع للشعراء الطائيين على نهسابور من بلاد شتى  
وذكر منهم ستة عشر شاعرا .

أما الباب الحاشى والأخير فقد خصصه لشعراء نهسابور .

ومذلك ينتهى القسم الأخير من كتابه الكبير " يتيمة الدهر " .  
ويلاحظ أن منهجه فى هذا القسم مستقيم فى جملة ، فقد قسمه على أساس  
الأقاليم ، بل على أساس المدن أحيانا ، وإيانا منه بأثر البيئة فى النتاج  
الأدبى ، وبذلك كان هو : أول من طبق نظرية " الإقليمية فى الأدب " . .  
تطبيقا عليها . . وإن كان الصواب قد جازته فى بعض الأحيان عندما وضع  
شعراء الشام وحصر والمغرب والأندلس فى باب واحد مع اختلاف البيئات  
وتباعد الأقاليم . .

وقد أشرت الى ذلك الخلط فى حينه .

## :: الفصل الرابع ::

### "التيمة"

- أ - مدى تشيّلها لأدب القرن الرابع الهجري
- ب - تأثيرها بالمؤلفات السابقة
- ج - أثرها في الكتب اللاحقة

## أ - مدى تمثيلها لأدب القرن الرابع

الهجرى

يعد كتاب "اليتيمة" من أعظم كتب الشمالى ، وأجلها قدرا ، وأكبرها حجما ، وهو الذى أتاح لصاحبه هذه الشهرة الواسعة فى عالم الأدب ، وجعله حديث الأدباء على مر المصور .

وقد استطاع أبو منصور ، بما رزقه الله من ذاكرة قوية ، وما وهبه من قدرة عجيبة على الحفظ والاستقصاء - أن يجمع نتائج الشراء ، والكتاب فى القرن الرابع فى مؤلف واحد ، وقد أدى بعمله هذا فائدة جلى للأدب العربى ولتاريخ الأدب وللحضارة العربية والإسلامية ، ولولاه لضاع الجزء الأكبر من هذا التراث الثمين .

فقد استطاع أن يسجل فى "يتيمته" معالم النهضة الأدبية فى عصره ، تسجيلا يحتفل بالظواهر الأدبية أكثر مما يهتم بإيراد الأحداث التاريخية ، أو السير الشخصية فهو فى الغالب لا يهتم بالتناوب التاريخى لحياة من يترجم لهم ، ويعرف بهم ، قدر اهتمامه بتناجهم الأدبى . وإن كان فى ذل روف خاصة يتمرض لحياة بعض الأفراد بالتفصيل كما فعل مع أبى فراس الحمدانى ، وأبى الطيب المتنبى ، والصاحب بن عباد ، وابن الصميد ، وأبى اسحاق الصابى ، والشريف الرضى ، وأبى بكر الخوارزمى ، ومديح الزمان الهمدانى وغيرهم ولكنه فى الغالب لم يكن يلتزم بهذه الخطة .

وقبل أن أسترسل فى الحديث عن اليتيمة - من حيث أنها من أعظم كتب التراث - ينبغى أن أطرح السؤال التالى :

هل مثلت اليتيمة أدب القرن الرابع الهجرى ؟؟



وهل يستدعي الدار من كتاب اليتيمة وحده أن يحصل على صورة  
صادقة لأدب القرن الرابع الهجرى ؟؟

وللإجابة على هذا التساؤل ينبغي أن أشير إلى أن الثمالي قد  
ترجم في كتابه خمسة وثلاثين وأربعمئة شاعر ، وكتاب من أنحاء العالم  
الإسلامي ، المختلفة - آنذاك - وجمع منهم شاعرهم ، وبنات أفكارهم في كتابه  
الذي لولاه لما وصل إلينا من ذلك التراث الضخم إلا القليل الذي لا يمكن أن  
يرسم صورة صادقة عن التيارات الأدبية والحياة الفكرية في ذلك العصر  
الذهبي من عصورنا التاريخية .

ويكفي أن أشير إلى أن دواوين الشعراء التي وصلت إلينا من ذلك  
العصر - محدودة جدا - ومنهم الشعراء الذين ذكرهم الثمالي في يتيمة  
لم تصلنا دواوينهم ، ولولا " اليتيمة " لما عرفنا شيئا عنهم ، ولما سمعنا  
حتى عن أسمائهم ..

وبناء على ذلك أستطيع أن أقول : إن أدب اليتيمة يمثل أدب  
القرن الرابع الهجرى ، وإنه يمد صورة صادقة للحياة الأدبية والاجتماعية  
في ذلك العصر ، ولا يستطيع باحث أو أديب ، أو مؤرخ لهذه الحقبة  
من تاريخنا الأدبي أن يستغنى عن كتاب " اليتيمة " .

ولكن : قبل أن أتلحن إلى هذه النتيجة ينبغي أن أتوقف قليلا  
على بعض الذواهر التي لاحظتها أثناء دراستي " لليتيمة " حتى يكون حكمي  
على الأشياء حكما دقيقا ، وأقربا من ذلك .

ومن أهم الأمور التي لاحظتها أن هناك شعراء عاشوا في عصر  
الثمالي أو قبله بقليل ولم يرد ذكرهم في اليتيمة .

ومنهم أبو حيان التوحيدى ، الكاتب الكبير ، والفكر العظيم والفيلسوف المدقق ، صاحب التأليف المشهورة ، والآراء الصائبة ..

ومنهم الصَّوِّيرُ شاعر الطبيعة العظيم ، وصديقه وتلميذه أبو الفتح كشاجم ، وسهيار الديلمى ، الشاعر الفارسى المشهور ، وأبو العلا المصبرى الشاعر الفيلسوف ..

فما السرفى ذلك الإهمال أو النسيان ؟ وما أسبابه ودوافعه ؟

هناك احتمال قائم : وهو أن تكون ترجمة هؤلاء الأعلام قد سقطت من نسخة الكتاب الخطية ، ولم يثر عليها وقت الطبع وكثيرا ما يحدث هذا فى كتب التراث ، فالشمالي نفسه قد سقطت ترجمته من "معجم الأدباء" وضاعت فيما ضاع .. فلا يستبعد أن تكون ترجمة هؤلاء الأدباء قد ضاعت من كتاب البيهقي ، خاصة أن الشمالي قد ترجم لمن هم دونهم من الأدباء شهرة ونبوفاً ( ) .

وهناك احتمال آخر قد يكون أقرب إلى الواقع والمنطق .. وهو أن الشمالي قد تمعد تجاهل أبى حيان التوحيدى لأسباب سياسية ، واجتماعية لاتخفى على الباحث المدقق .. ومن أهمها : أن أبا حيان - على علمه وفضله - كان هجاءً سليط اللسان ، كما كان ناقدا لاذعا ، ساخطا على حكام عصره ، وكتابه ، وقد صوّب سهام نقده لأشهر وزيرين ، وكما تبين نفس عصر الشمالي وهما : أبو الفضل ابن المعيد ، والصاحب بن عباد حيث ألف فيهما كتابه المشهور "مثالب الوزيرين" وهجاها فيه هجاء مقذعا قبيحا جعل منهما صورة هزلية مضحكة ، وذلك لأسباب شخصية بحتة حيث كانا ينفران منه لفقره وقبح منظره ، ويكرهانه لجراته وسلطة لسانه ، ويحققدان عليه لنبوغه وتفوقه ..

وأغلب الثان أن ذلك كان السبب في تجاهل الشمالي له ، وعدم ذكره في كتابه حرصا على رضا الوزيرين ، ومجاملة لهما ، وطعما في نوالهما ، وربما خوفا من بطشهما ونقمتهم عليه .

وربما كان فقر أبي جيان وموان شأنه قد حالا دون اهتمام المؤلفين  
بـ ...

أما بالنسبة للصنوبري ، وصديقه كشاجم فقد كان صهرها سابقا على صهر الشمالي ، وهو لم يسجل إلا أبناء صهره .

وأما مهيار الديلمي فأغلب الثان أنه لم يكن مشهورا وقت تأليف اليتيمة . وكذلك الحال بالنسبة لأبي الملا ، وإن كان الشمالي قد ذكره في صفحة واحدة من كتابه " يتيمة اليتيمة " أو " تنمة اليتيمة " مما يدل على عدم شهرته ، وبعد صيته ، وقت تأليف " اليتيمة " .

وهناك في اليتيمة ظاهرة أخرى جديرة بالتسجيل وهي اختفاء روح التشيع فيها .

فعلى الرغم من انتشار التشيع الفكري والأدبي في صهر الشمالي ، وتمدد رجاله ، وكثرة أشيائه وأتباعه ، نلاحظ أن أثره ، أو طابعه كان ضعيفا في " أدب اليتيمة " فلم نشاهد إلا مقطوعات صغيرة متفرقة - لبعض كتاب الشيعة - لا تمثل هذه الظاهرة ، ولا تعبّر عنها التعبير الصادق . فالمعروف أن معاد الدويلات الإسلامية في ذلك العصر كانت تمتزج مذهب الشيعة .

فالدولة الفاطمية في مصر وشمال أفريقية كانت رائدة لهذا المذهب وداعية من دعاته .

والدولة البَوَّشِيَّة في فارس والمراق كان أمراؤها شيعة زيدية ..

والدولة الحمدانية في الشام والموصل كان أمراؤها يتشيمون ...  
وأكثر من ذلك كان عديد من شعراء ذلك العصر وكتابه من غلاة الشيعة ،  
ونذكر منهم على سبيل المثال :

أبا فراس الحمداني ، والشريف الرضي ، وتميم بن العمز ، والصاحب  
ابن عباد ، وأبا بكر الخوارزمي وغيرهم ..

وعلى الرغم من ذلك كله لا نجد صدق كانيا لتشيمهم في أدب البيت  
حيث كان ينبغي أن تكون حافلة بأشعارهم في هذا المجال ( ١١ ) .  
فما السرف في ذلك ؟ وما أسبابه ؟ .

أغلب الظن أن أبا منصور قد تمرد ترك هذه الأشعار وتجاهلها ،  
وأقل ذكرها في كتابه لأسباب تتصل بالمقيدة المذهبية ، والروح السياسية .

وأوضح الأسباب والعلل في ذلك أنه كان سنيا ، لا يتشيع فأثر أن  
يصون كتابه عن هذه الألوان المذهبية التي تثير البعد ، وتبعث المداوة  
والبغضاء بين المسلمين وتصرف أدباء غير الشيعة عن كتابه ، وقد كان جدُّ -  
حرص على رضا الناس ومجايلتهم ، كما يفهم من سيرته وكتبه ...

وهناك سبب سياسي آخر يبعد عن الدائرة الفكرية ، والمذهبية  
وهو أن الثعالبي كان يعيش في تيمسبور التي كانت خاضعة في ذلك الوقت  
لهني سامان - حكم خراسان وما وراء النهر - وكانوا غير شيعيين .

ولهذا نؤكد أن تجاهله للشعر الشيعي كان متعمدا منه لكيلا  
يشير سخط السامانيين عليه ، ونفقتهم منه ..



وسهما يكن من شئ\* فقد سجل الشمالي بعض المقطوعات الشعرية  
لأدباء الشيعة الذين ترجم لهم وهي كافية في التدليل على مذهبهم\*  
وتصوير الصراع القائم بين الشيعة وأهل السنة\* آنذاك\*.

وهي على قلتها كفيلة بأن تعطى صورة واضحة لهذا التيار\* وإن  
كانت لا تمثل إلا أمة أصدق تمثيل\*.

وبعد هذه التحفظات أستطيع أن أقرر بكل ثقة\* واطمئنان أن  
أدب اليتيمة يمثل أدب القرن الرابع الهجري تمثيلاً صادقاً\* على تمديد  
صوره\* واختلاف رسومه\*.

#### ب - تأثير اليتيمة بالمؤلفات السابقة

لم يكن الشمالي في اليتيمة مبتكراً لهذه الطريقة في التأليف\* وهي  
الطريقة التي تمنى بأدباء عصر من المصور\* وتدوين آثارهم\* فقد غنى  
المصنفون قبله\* بوضع الكتب التي تؤرخ لشعراء كل عصر\* وذكر طبقاتهم\*  
والانتخاب من مقطوعاتهم مثل كتاب\* "التاجي"\* لأبي إسحاق الصابقي\*  
وكتاب\* "حاطب ليل"\* لأبي الحسن علي بن أحمد\* وكتاب\* "التحف والظرف"\*  
لابن ليب غلام أبي الفرج البغاف\* وكتاب\* "أخبار الشعراء"\* لأبي هفان\*  
وكتاب\* "أشعار الندماء"\* للشعشاطي\* وكتاب\* "حماسة الشعراء المحدثين"\*  
للخالد بين\* وكتاب\* "الاسجاع"\* للحسن بن عبد الرحيم الزلالي\* وغير هذه  
من الكتب التي ورد ذكرها في اليتيمة\* والتي تُعدُّ مصادر هامة لها<sup>(١)</sup>. أما  
كتب النقد الهامة التي ورد ذكرها في اليتيمة والتي تأثر بها أبو منصور في آرائه  
النقدية فأهمها: كتاب\* "الموازنة"\* بين الطائيين للآدي وكتاب\* "الوساطة"

اليتيمة : تقديم الأستاذ الصاوي ص ( ك ) \*

بين المتنبي ، وخصومه ، للجرجاني ، وقد تأثر الشمالي بهذا الأخير في آرائه النقدية . . خاصة في نقده للمتنبي ، فقد عقد في اليتيمة فصلا درس في—— أبا الطيب ، وديوانه ، وكانت هذه الدراسة صدى للمذهب المعتدل ، الذي كان القاضي الجرجاني من زعمائه ، ومثليه ، فقد وازن الشمالي بين مزايا الديوان ونقائصه كما فعل القاضي الجرجاني من قبل .

يقول الشمالي : " فأنا مورد في هذا الباب ذكر محاسنه ومقابحه ، وما يرتضى ، وما يستهجن من مذاهبه في الشعر — وطرائقه والتنبيه إلى عيوبه (١) " .

فهو بذلك ينهج منهج القاضي الجرجاني الذي يرى للمتنبي محاسنه وعيوبه ، وينقل عن صاحب " الوساطة " رأيه في أن أبا الدايب عندما قال :

أَقْلُ أَنْلَ أَقْطَعُ أَحْمِلُ عَلَى سَلِّ أَمِيدُ  
زِدْ هَشَى بَشَى تَفْضُلُ أَدْنِ سُرْصِلُ (٢)

قد نصح على منوال ديك الجن عندما قال :

أَحْلُ وَأَمْرُ هَ وَضَرُ هَ وَأَنْفَعُ وَلِينُ وَأَحْ  
سَيْنُ وَرْشُ وَابِرُ وَأَتَدِبُ لِلْمَعَالِي

فلما جاء إلى سرقات المتنبي رأى أن يورد منها ما لم يورده الجرجاني في كتابه وقد رأى الشمالي أن القاضي في هذا الباب — شفى وكفى وبالغ فأوفى (٣) .

(١) اليتيمة ( ١ : ١١ ) .

(٢) راجع البيهقي ( ٣ : ٨٥ ) ، ولما سمح أن الناس تحاول عد ألفاظ هذا البيت ذكره ثانيا برواية : " زدهش بَشَى هَبْ اغْرَأْدَنْ سُرْصِلُ " وذلك كما في البيهقي ( ٣ : ٨٩ ) . د / سرحان .

(٣) اليتيمة : ( ١ : ١١٠ ) .

أما الأبواب الأخرى التي عدها لبيان محايب شعر المتنبي فإنه كان أحيانا ينقل عن القاضي رأيه في هذا المصيب ، ويذكر اسمه صراحة ، وأحيانا أخرى كان ينقل ولا يذكر الاسم <sup>(١)</sup> فهذا دليل على أن الثعالبي قد تأثر بالقاضي الجرجاني وكتابه " الواسطة " في الآراء النقدية ، وليس في المنهج والطريقة ..

أما في فكرة الكتاب ، وهي تدوين آثار أدباء القرن الرابع الهجري ، فقد كان متأثرا بكتاب " البارع " لهارون بن علي المنجم ، فقد ذكر ياقوت أنه كان لهارون ، وهذا كتاب اسمه " أخبار الشعراء " الولدين وقد أورد فيه ما اختاره من شعرهم وسماه " البارع " وقال في مقدمته " علت كتابي هذا في " أخبار الشعراء " الولدين " وذكرت فيه ما اخترته من أشعارهم ، وتحريت في ذلك الاختيار ، أقصى ما بلغت معرفتي ، وانتهى إليه علمي ، ثم ذكر أنه اختصره من كتاب مطول ألفه قبله ، وقد ذكر في هذا الكتاب نفعا ومائة وستين شاعرا ، وافتتحه بذكر بشار بن برد ، وختمه بذكر محمد بن عبد الملك بن صالح <sup>(٢)</sup> .

وقد ذكر حاجي خليفة في " كشف الثانون " أن " اليتيمة " ذيل لكتاب " البارع " في أخبار الشعراء " لهارون بن علي المنجم <sup>(٣)</sup> كما ذكر ابن خلكان أن كتاب " البارع " هذا هو الأصل الذي نمتج عليه كل من جاء بعده ، ومنهم الثعالبي في يتيمة <sup>(٤)</sup> على أن لمجد الله بن الممتر الذي عاش في عصر هارون المنصور كتاب في " طبقات الشعراء المحدثين " قلد فيه كتاب

(١) القاضي الجرجاني ص ٨٧ د / أحمد بدوي ، نوابغ الفكر العربي .

(٢) معجم الأدباء ( ١٩ : ٦ ) .

(٣) كشف الثانون ( ٢ : ٢٥٨ ) .

(٤) وفيات الأعيان ( ٢ : ١٩٤ ) .

" البار " ونسج على شواله ، وذكر في مقدمته أنه تابع فيه ابن المنجم .

ولما كان هارون المنجم ، وابن الممتر المباسي قد أرخا لشعرا<sup>١</sup> عصرهما - وهو القرن الثالث الهجري - فقد تابع الثعالبي هذه السلسلة بتأليفه كتاب " اليتيمة " وأرخ فيه لشعرا<sup>٢</sup> وكتاب عصره ، وهو القرن الرابع الهجري اقتداء بما فعله ابن المنجم ، وابن الممتر .

وقد أشار الثعالبي إلى هذا التقليد في مقدمة " اليتيمة " وإن كان لم يذكر ابن المنجم ، وابن الممتر صراحة وإنما اكتفى بقوله " وقد سبق مؤلفوا الكتب إلى ترتيب المتقدمين من الشعراء والتأخرين ، وذكر طبقاتهم والانتخاب من قصائدهم ومقطوعاتهم ، فكم من كتاب فاخر علوه ، وقد باهر نظاموه ، وقيت محاسن أهل العصر غير محصورة في كتاب يضم نشرها ، ولا مسموعة في صنف يقيد شواردها (١) .

فهو يذكر صراحة أنه مقلد لغيره من مؤلفي التراجم والطبقات ، - وإن كان لم يذكر واحدا بيمينه - ولعله كان يقصد كل الكتب التي سبقتها في هذا الفن مثل " طبقات الشعراء " لابن سلام هو " الشعر والشعراء " لابن قتيبة ، و " البار " لابن المنجم ، و " طبقات الشعراء المحدثين " لابن الممتر .

ولا أستبعد أن يكون الثعالبي متأثرا - كذلك - بكتاب " الأغاني " لأبي الفرج الأصفهاني ، فكثيرا ما كان يختار مقطوعاته الجيدة من الشعر الرقيق ، ويسجلها في " اليتيمة " ويذكر أنها ما يتشنى به ، مما يدل على أنه متأثر في هذه الناحية بكتاب الأغاني .

---

(١) مقدمة اليتيمة ص ٤ .



### ج - أثر اليتيمة في الكتب اللاحقة

لم يكد الشمالي يفرغ من كتابه " اليتيمة " ويخرجه على النحو الذي يروقه ويرضيه ، حتى طار ذكره ، وشاع خبره ، وعظمت شهرته ، فأقبل عليه القراء يقتنونه ، والناسخون ينقلونه ، والوراقون يتداولونه ، وحرص عليه الأدياء حرصا شديدا وتنافسوا على شرائه والاستفادة منه .

ولعل هذا هو الذي : شجع الشمالي على أن يجعل له ذيلا ويسميه " تنمة اليتيمة " وان كان حاجي خليفة يذكر ان اسمه " يتيمة اليتيمة " .

وقد ذكر فيه الشعراء الذين نسبهم في " اليتيمة " أو الذين لم يظفر لهم بشئ من أشعارهم ، وأخبارهم حين تأليف " اليتيمة " أو الذين عظم شأنهم ، ونهبوا بعد ذلك .

وتسمد " اليتيمة " ناعصة بدون هذا ، " التنمة " كما ذكر ذلك الشمالي نفسه لأن " التنمة " تحتوى أسما كثير من الشعراء الذين أغفلتهم " اليتيمة " أو ظهر أمرهم بعد انتشارها فضلا على أنها تعين على اكمال تراجم عدد من الشعراء - الفضلاء الذين ذكروا في اليتيمة " .

وقد ذكر الأستاذ عباس إقبال ناشر " تنمة اليتيمة " أنها ألفت في أيام السلطان محمود النزنوى في المدة التى بين سنتى ٤٦٤ و ٤٦٩ هـ ، وقد أخرجها أبو منصور على غرار " اليتيمة " وقسمها أيضا الى أربعة أقسام :

القسم الأول :

فى محاسن أهل الشام والجزيرة .

القسم الثاني :

في أشعار أهل العراق ومحاسنهم .

القسم الثالث :

في محاسن أشعار أهل الري وهمذان ، وأصفهان وسائر بلاد  
الجبيل ، وما يجاورها من بخرجان وطبرستان .

القسم الرابع :

في محاسن أهل خراسان ، وما يتصل بها من سائر البلدان .

ثم كَتَبَ على " اليتيمة " كذلك أبو الحسن الباخري المتوفى سنة  
٤٦٧ هـ بكتابه " دمية القصر وعصرة أهل المصر " ووضع عليه أبو الحسن علي  
ابن زيد التَّبَهَقِيُّ المتوفى سنة ٥٦٨ هـ كتابه " وشاح الدمية " .

ثم ذيل عليه أبو العمالى سعد بن علي بن القاسم الأنصارى الخطيرى  
المتوفى سنة ٥٦٨ هـ بكتابه " زينة الدهر في لطائف شعراء المصر " ووضع  
أيضا أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد العماد الكاتب الأصفهاني المتوفى  
سنة ٥٩٧ هـ كتابه " خريدة القصر ، وجريدة أهل المصر " ذيل به على  
" زينة الدهر " ، وترجم فيه الشعراء من سنة ٥٠٠ هـ الى سنة ٥٧٢ هـ .

ثم صنع بعده كتاب " السيل على الذيل " وجعله ذيلًا للخريدة .  
كما وضع معه في القرن نفسه السمعاني المتوفى سنة ٥٦٢ هـ كتاب  
" الأنساب " .

وفي القرن السابع الهجري ألفت من السلسلة نفسها الكتب  
الآتية :

- ١ - "معجم الشعراء" ، ومعجم الأدباء " لياقوت الحموي المتوفى  
سنة ٦٢٦ هـ .
- ٢ - " عقود الجمان " في شعراء هذا الزمان " لأبي البركات مبارك بن  
أبي بكر الشمار الموصلي المتوفى سنة ٦٥٤ هـ .
- ٣ - " المصنّف في حَلّ المصنّف " لأبي سعيد المصنّف المتوفى سنة  
٦٤٠ هـ .
- ٤ - " أنباء الرواة على أنباء النحاة " للقطبي المتوفى سنة ٦٤٦ هـ . وله  
أيضا في هذا الباب كتاب " المحدثون من الشعراء " .
- ٥ - " الفصوص الياضعة في شعراء المائة السابعة " لأبي الحسن  
علي بن موسى .
- ٦ - " وفيات الأعيان " لابن خلكان المتوفى سنة ٦٠٨ هـ .

\*\*\*

أما في القرن الثامن فقد ألفت الكتب الآتية في هذا الفن :

- ١ - " نوات الوفيات " لابن شاکر الكشي المتوفى سنة ٧٤٦ هـ .
- ٢ - " الوافي بالوفيات " للصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ .
- ٣ - " تلخيص مجمع الآداب " في معجم الألقاب " لابن القوطي المتوفى  
سنة ٧٣٠ هـ .

- ٤ — " طبقات الشافعية " للأُسَوى المتوفى سنة ٧٧٢ هـ .
- ٥ — " طبقات الحنابلة " لابن رجب الحنبلى المتوفى سنة ٧٩٥ هـ .

\*\*\*

وفى القرن التاسع ألف السبكى كتابه المشهور " طبقات الشافعية "

\*\*\*

وفى القرن العاشر ألف الكلب الآتية :-

- ١ — " المنهج الأحمد فى تراجم أصحاب أحمد " للملهم المتوفى سنة ٩٢٨ هـ .
- ٢ — " معاهد التنصيص على شواهد التلخيص " لمحمد الرحيم بن أحمد المباسى ت سنة ٩٦٣ هـ .

\*\*\*

وقد ذلت هذه السلسلة متصلة الحلقات فألف منها فى القرن الحادى عشر ما يلى :-

- ١ — " ريحانة الأُلها ، وزهرة الحياة الدنيا " لشهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ .
- ٢ — " شذرات الذهب " للمعاد الحنبلى المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ .



٣ - "خزانة الأدب" للبندادي المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ .

\*\*\*

وفي القرن الثاني عشر الهجري ألف من هذه المجموعة الكتب  
الآتية :

١ - نفحة الريحانة ، ورشحه طلاء الحانة " لمحمد أمين بن فضل الله  
الحبي المتوفى سنة ١١١١ هـ وقد جمعه ذيلاً على "ريحانة  
الألبا " للخفاجي .

٢ - أمل الآمل " للشاطبي المتوفى سنة ١١٠٤ هـ .

٣ - الدرجات الرنيمة ، في أخبار الشيعة " للشيرازي .

٤ - سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر " للمرادي .

\*\*\*

وفي القرن الثالث عشر : ألف الكتوني كتابه " التاج المكلل " .

\*\*\*

أما في القرن الرابع عشر - وهو القرن الذي نحن فيه ، والذي  
أوشك على الانتهاء - فأدم الكتب التي ألفت في هذا المجال كتاب " الأعلام"  
لخير الدين الزركلي ، وإن كان لم يقتصر فيه على أعلام عصره بل تحدث

فيه عن الأعلام في مختلف المصور ، ولا يعرف في القرن الرابع عشر كتاب  
ألف في تراجم الأدباء على غرار السلسلة السابقة ، وغاية ما ألف في هذا  
السبيل مجاميع اقتصر على شمرا قطر واجد قلما تتمدها ، إلى نظر آخر .

\*\*\*

## **:: الفصل الخامس ::**

### **"التيمة في ميزان النقد"**

أجمع النقاد القدامى الذين تحدثوا عن الثعالب ، أو تعرضوا لذكر  
كتبه ، كالبخريزي في " الدمية " والحصري في " زهر الآداب " وابن الأنباري  
في " نزهة الأكياء " ، وابن خلكان في " الوفيات " ، وحاجي خليفة في  
" كشف القناع " ، وأبي الفدا في " البداية والنهاية " وغيرهم من المؤلفين  
والمصنفين السابقين .

أجمعوا على أن كتاب " البيتية " أكبر كتب الثعالب ، وأجلها قدرا ،  
وأعظمها نفعا ، وأشادوا بها أشادة بالغة ، فهي التي أتاحت لصاحبها هذه  
الشهرة الواسعة ، وجعلت حديثه سر الأدباء على مر المصور .

ولا شك أن هذا الإطار من جانب المؤلفين القدامى لكتاب  
" البيتية " يدل على أهمية هذا الكتاب ، وقيمته الأدبية ، والتاريخية .

وإن كنت أعتقد أن تقديم هذا نقد شخصي كدوي يقوم على أساس  
الذوق الخاص ، والنزعة الجزئية الضيقة ، التي تشتمل على شيء من المبالغة  
والتهميل ، وتلك كانت عادة المصنفين القدامى في تقريبهم لأصحاب الكتب ،  
والمصنفات .



أما نقادنا المحدثون الذين تعرضوا لكتاب " البيتية " بالدراسة والنقد  
فقد كانوا أكثر موضوعية من السابقين ، فأشهروا آراءهم بكل وضوح ، تارة بمدحه  
والثناء عليه ، وتارة أخرى بدمه والقدح فيه .

ومن أشهرهم : الدكتور زكي مبارك في كتابه " النشر الفنى في القرن  
الرابع الهجرى " .

والدكتور : محمد مندور في كتابه " النقد المنهجي عند العرب " .



والدكتور : طه حسين فى تقديمه لكتاب " الذخيرة لابن يسام " .  
والأستاذ أحمد أمين فى كتابه " ظهير الاسلام " .  
والأستاذين : محمد إسماعيل الصاوى ، ومحمد محى الدين عبدالحيد  
فى تقديم كل منهما لكتاب " اليتيمة " .  
وسأحاول فى هذا المجال أن أقوم بعرض آرائهم ، وتوضيحها ، ثم  
مناقشتها والرد عليها — إذا احتاجت إلى رد أو مناقشة .

أولا : رأى الدكتور : زكى مبارك :

يرى الدكتور زكى مبارك أن " اليتيمة " كتاب عظيم أودع الشعالي  
أخبار من عاش فى عصره من الشعراء — ولكنه بعد هذا الإطار لليتيمة يعيب  
على الشعالي فيها أمرين :

أولهما :

أن الشعالي فى " اليتيمة " مفتون بالإسراف فى إطار من يتحدث عنهم  
من الشعراء ، والكتاب ، وله فى ذلك تعابير تكاد تكون واحدة يدور  
حولها هنا ، وهناك <sup>(١)</sup> ، ثم استشهد على ذلك ببعض الأمثلة  
من " اليتيمة " .

وثانيهما :

اقتال الشعالي فى يتيمة لتواريخ الوفيات وذكر أن هذا المييب من  
أقتل عيوب " اليتيمة " .

---

(١) النشر الفنى فى القرن الرابع الهجرى ( ٢ : ١٩٠ ) ط دار الكتب .

ولا شك أن الدكتور زكي مبارك قد ظلم الثعالبى فى هذا الحكم  
الصائبين .

ولا شك أن الذى دفعه إلى ذلك هو النظرة السريعة الخاطفة  
لكتاب " اليتيمة " .

ولو أنه أمعن النظر فى دراستها ، وأعمل فكره فيها .. لما عاب  
على الثعالبى شيئا من ذلك .

وأغلب الظن أن سبب إطراء الثعالبى لشعراء وكتاب عصره يعود  
إلى أسباب شخصية تتعلق بتكوينه ، وأخلاقه فلقد كان كما عرفنا من سيرته ،  
شديد التواضع عظيم الحياء ، كثير المجاملة لغيره من الشعراء والكتاب .

وعلى الرغم من ذلك كان حريصا على إيضاح خصائص من يترجم لهم  
فى أدبهم ، والإلماح إلى وقائع حياتهم التى كان لها تأثير فى هذا الأدب ،  
أو تفسير ظاهرة من ظواهره ، أو كشف عن جانب من جوانبه .

نجد هذا واضحا فى ترجمته لأبى فراس الحمدانى مثلا .. عندما قد  
موازنة بين أبى فراس ، وابن المعتز ، وأوضح الخصائص التى أثرت فى  
شعر كل منهما ، من الإمارة ، وعراقة الأصل وحسن المنبت ، واستقامة اللسان .

كما نجد فى ترجمته لابن لنكك البصرى <sup>(١)</sup> حين قدم موازنة بين  
شعره ، وشعر أبى الحسن بن فارس فى الملاحاة ، وقلة مجاوزة كل منهما البيتين  
والثلاثة ، وحين شبه ابن لنكك فى قلة شعره ، وقصر نفسه بمنصور النقيه الذى  
كان إذا رمى بزوجيه قتل ، وكذلك كان ابن لنكك .. إذا قال البيوت ،

(١) النشر الفنى فى القرن الرابع الهجرى ( ٢ : ١٩٠ ) ط دار الكتب .

(٢) اليتيمة : ( ٢ : ٣٢٠ ) .

والبيتين ، والثلاثة أغرب فيما جلب ، وأبدع فيما صنع (١) .

وكان الثعالبى إلى جانب ذلك كله يلقى بأحكامه على شعر مسن يترجم لهم ، من خلال تقرظه لهم ويحدد معالمه ، ويظهر خصائصه ، وميزاته .

فشعر ابن لنكك البصرى خفيف الروح .

وشعر ابن نهانة السمدى مع قرب لفظه - بعيد الغرام .

وشعر ابن حجاج لا يمتز من العقل بسجف (٢) معجون ، وسخف ولكنه مع ذلك من سحرة الشعر .

وأبو الفتح البستى صاحب الطريقة البديعة فى التجنيس البستى يسميها التشابه .

فأنت تراه يحدد الخصائص العامة لشعر من يترجم لهم ويبين معالمه وحدوده على الرغم من ثناءه عليهم .

وهو لا يفعل ذلك من قبيل المصادفة والاحباط . كما اتهمه الدكتور زكى - وأنا يفعله عن فهم دقيق ، ووهى عيى ، لشعر وحياة المترجم له .

" ولم يكن الثعالبى مقلدا فى طريقته هذه فى الحديث عن الشعراء وإنما كان " مبتدعا ، ولو تأملنا عمل ابن الصمتر فى كتابه " طبقات الشعراء " وعمل ابن قتيبة فى " الشعراء والشعراء " وهما أبرز من كتب فى هذا الفن قبل الثعالبى لأدركنا البون الشاسع بين الطريقتين .

---

(١) البيتية ( ٢ : ٣٢١ ) .

(٢) السجف : الستر .

فابن المعتز وابن قتيبة يعمدان إلى أخبار الشعراء فيسردانها ، وإلى أقوال النقاد فيحصانها ، دون أن يجملا ذلك معرضا لبيان قدرتهما في الكتابة كالثعالبي (١) .

وأما الميب الثاني :

الذي أشار إليه الدكتور زكي مبارك في نقده " لليتيمة " وهو انقال تاريخ الوفيات ، فالحق أن الثعالبي كان معذورا في ذلك ، فلقد جهد أن يترجم لكبار شعراء عصره ، وعمل مخلصا على تقصى الأخبار ، التي تخدم النصوص التي أوردها ، وصرف النظر عن تسجيل ما يحيط بحياتهم الشخصية من أحداث ، لأن هذا جهد المـؤرخ ، لا جهد الأديب .

هذا فضلا عن أن أبا منصور لم يلتق بكل من ترجم لهم وإنما سمع أخبارهم . من قادم نحوه من بلادهم ، أو من صديق طاف البلاد ، وانتقى الأخبار ، أو مما سار لهؤلاء الشعراء على ألسنة الناس ، ولا يميل أن يجرى أبو منصور وراء هؤلاء الشعراء في شتى بلاد الدولة الإسلامية الواسعة ، ليتصرف إلى أخبار الوفيات ، غير أن هذا النقص في الكتاب يمدد عيبا خاصة في عصرنا الحديث ولو أن الثعالبي أنه لافاء على التاريخ الأدبي أوفر الظلال .

ثانيا : رأى الدكتور : محمد مندور :

يرى الدكتور مندور - عندما تعرض لدراسة " اليتيمة " في كتابه " النقد المنهجي عند العرب " - أن الثعالبي كان مجرد جامع لآراء غيره . وذكر أنه كان قراء في كتبه يخطط آراء غيره ، ويجمعها من غير فهم ، ولا إدراك ، كما

---

(١) أبو منصور الثعالبي وآثاره الأدبية ص ١٢٤ عبد الفتاح الحلو .



كان قراءه في حرفته يخطط جلود الثمالب ويضم أجزاءها بعضها إلى بعض<sup>(١)</sup> .

ويزعم - كذلك - أنه لم يكن له رأى مستقل في حكمه على الشعراء والكتاب وإنما كان يعتمد على آراء الآخرين حيث يجمعها ويلفقها ، ويضم أجزاءها إلى بعض ، حتى يجعل منها كتابا . . فهو جامع أكثر منه مؤلفا أو ناقدا .

والحق أن الدكتور مندورا كان متسرعا في حكمه هذا على الثمالب ، طالما له في هذا الحكم الذى أطلقه على عواهنه دون تبصر ، أو دليل .

ولا شك أن الذى حمله على ذلك هو نذاريته الجزئية . . " لليتيمة " عندما تعرض لدراستها حيث لم يدرس منها في كتابه إلا جزءا صغيرا . . هو موقف الثمالب من المتنبي ، في دراسته له ، وقد كان الثمالب فعلا في نقده للمتنبي متأثرا بآراء غيره من الناقدين كالصاحب ، والحامى ، والجرجاني . .

ولعل هذا هو : ما حذا بالدكتور مندور إلى أن يسارع بالحكم على كتب الثمالب كلها من خلال دراسته لهذا الجزء الصغير من " اليتيمة " فحكم على الكل من خلال دراسته للجزء . . وهو حكم بتور ، لا يجد مجالا للوقوف في ميدان النقد النزيه . .

والدارس الواعى لكتاب " اليتيمة " يجد أن الثمالب كان ناقدا من طراز فريد ، فقد كان يسهل أشعار الأدباء دون اكتفاء - في الأكثر - بنقلها من غير تعليق عليها ، أو وقوف لديها - ولكنه - غالبا - كان يحمل رأيه فيها . . ويسهل نقده عليها ، أو وجهته فيها ، أو تحليقه عليها .

ومن ذلك مثلا نقده لأبي بكر الخوارزمي عندما كتب قصيدة للصاحب - وقد اعلت صحته - وكان من ضمنها هذا البيت :

---

(١) النقد المنهجي عند العرب ص ٣٠٣ .

نَمُوا لِي نَفْسَ الْمَجْدِ سَاعَةً أَخْبَرُوا  
يَمَا يَشْتَكِي مِنْ سُقْمِهِ وَمَسَارِسِهِ

فملق الثمالي على هذا البيت بقوله " إن لفظة النسي فيها ما فيها  
من الطيرة .. إذ هي مما يقع في العرثية لافى العيادة " (١) .

ثم يقول بعد ذلك : ومن سقطات الخوارزمي المنكرة قوله في المدح :

وَمَهِيَّبٌ كَأَنَّمَا أَذْنَبَ النَّاسُ  
سُ إِلَيْهِ فَهُمْ مَشْتَمُونَ ذُلًا  
وَأَرِيفٌ كَأَنَّ فِي كُلِّ فَمِيلٍ  
مِنْ أَفَاعِيلِهِ عَرَائِسٌ تُجَلَّى

ثم يملق على ذلك بقوله " إن الكبرياء ، والمحتشمين لا يوصفون بالظرف  
إذ هو من أوصاف الأحداث ، والقيان ، والشبان ، ولم يرض بالفرطة في هذه  
اللفظة حتى شبه أفاعيله بمرائس تجلى ، فلو مدح مختثا لما زاد على ذلك " (٢) .

\*\*\*

ولم يكن الثمالي ممن يكتفى بالبحث عن الميوب ، وتمقبها وإبرازها  
للقارئ ، كما فعل مع الخوارزمي ، ولكنه كان - أيضا - يعجب بالشعر الجيد ،  
ويطرب له ، ويثنى عليه ، ويعلن رأيه فيه ..

ومثال ذلك أنه عندما انتصر سيف الدولة على البرقع أحد زعماء  
القرامطة ، ورجع برأسه على ربح إلى حلب مدحه أبو فراس بقصيدة يهنئه فيها

(١) اليتيمة ( ٤ : ٢٠٨ ) .

(٢) المصدر السابق ( ٤ : ٢٠٨ ) .

بهذا النصر المبين ، وكان من أبياتها قوله :

وَأَبْ وَرَأْسُ الْقَرْمَطِ أَمَامَهُ \* لَهُ جَسَدٌ مِنْ أَكْثَرِ الرِّيحِ ضَامِرٌ<sup>(١)</sup>

فأعجب الثعالب بهذا البيت إعجابا شديدا وعلق عليه بقوله :

\* هذا من أحسن ما قيل في الرأس المملوك على الريح \*

وهذا التعليق من جانب الثعالب على بيت أبي فراس يدل على رقى ذوقه ، ونضج وعيه ، وحسن معرفته بالشعر ، وجودة فهمه له ..

\* \* \*

وكثيرا ما كان يتمقب آراء النقاد ، ويرد عليهم ، ويناقشهم ، فيما يذهبون إليه ، ولا يأخذ كلامهم قضية مسلمة ، أو حجة لا تقبل المناقشة ، وكان في ذلك ذا رأى صائب مستقل .

ومثال ذلك أنه عندما عرض قول المتنبي في المدح :

قَدْ شَرَّفَ اللَّهُ أَرْضًا أَنْتَ سَاكِنُهَا  
وَشَرَّفَ النَّاسَ إِذْ سَوَّاكَ إِنْسَانًا

ذكر أديبنا الكبير رأى ابن جني عندما شرح هذا البيت فقال :

\* قال ابن جني : لا يحببني قوله \* سَوَّاكَ إِنْسَانًا \* ولو قال :  
\* أَنشَاكَ \* ونحو ذلك لكان أليق بالحال \* .

ثم عتب على كلام ابن جني بقوله : \* قلت أنا : ولو قال المتنبي

---

(١) نفسه ( ١ : ١٩ ) .

غير ما قال ، لم يكن نصيحاً شريفاً ، لأن في القرآن " سَوَاءٌ رَجُلًا " (١) ،  
وليس أشرف ولا أفصح مما ينطق به كلام الله عز ذكره (٢) .

\*\*\*

أنحمد هذه الدقة في فهم آراء الآخرين ، وسعد هذا الذوق فسي  
إدراك مواطن الجمال ، يتهمه الدكتور مندور بأنه جامع لأشعار غيره وآرائهم  
من غير فهم ولا تحييص ؟ !! \*

والدارس المدقق " لليتيمة " يرى قوة في شخصية الثمالي ، ويلمس  
سعة في اطلاعه ، ويحس لديه حسن فهم للشعر والنثر ويتضح هذا في أسور  
منها :

١ - عندما كان شعر من يترجم لهم يتفق مع شعر قديم نراه يشير إلى ذلك  
الاتفاق ، ويورد الشعر القديم \*

والأمثلة على ذلك كثيرة خاصة في المواضع التي تمرض فيها  
لسرقات المتنبي ، والصاحب ، والسرى الرقاء ، وابن حجاج وغيرهم \*  
٢ - ولما كان المؤلف شاعراً ، وكاتباً فإنه كان يحاول دائماً أن يقيس ما يورده  
من مسمان وتراكيب ، وألفاظ على ما يمر به في أثناء مدالعاته الكثيرة ،  
ويفاضل بينها ..

٣ - وعندما كان يحس ضرورة لتفسير كلمة مبهم أو توضيح معنى غامض ،  
كان لا يتردد في إيراد هذا التفسير ، أو التوضيح ، وكان بعمله  
هذا يقدم لقراءه فائدة عظيمة لا يجدونها في غير كتابه \*

---

(١) الآية ٣٧ من سورة الكهف ،

(٢) اليتيمة : ( ١ : ١٨٢ ) \*



وسأل ذلك أنه عندما تعرض للقصيدة الساسانية التي قالها أبو  
دلف الخَزرجي في الكدية - وهي قصيدة طويلة جدا وجل الفاظها غامض  
ولا يفهمها إلا طائفة الصماليك .. لأنها لغة سرية خاصة - تولى الثعالبي  
شرحها ، وتوضيحها ، لأن كلماتها الغامضة ، وعباراتها الخفية كانت تحول  
دون فهمها ..

ومن هنا أطلق الثعالبي عليها " منكاة بنى ساسان " ولولا شرحه  
لكلماتها ، وتوضيحه لعباراتها لما عرفنا عنها شيئا في المصور التالية لعصره .

٤ - وللثعالبي لفتات بلاغية أشار إليها حين كان يلحها في أشعار  
من يترجم لهم ، وهذه اللفتات تنم عن ذوق بلاغي رفيع ، وقدرة  
فائقة على فقه أسلوب البيان ، وإدراك خفايا الكلام .

٥ - وقد زودنا الثعالبي بمجموعة قيمة من آرائه النقدية التي نجدها  
مبثوثة في ثنايا تراجم الشعراء ، خاصة عند دراسته لشعر المتنبي ،  
وأبي فراس ، والصاحب والخوارزمي والهمداني ، وغيرهم من كبار  
الأدباء ..

ولا شك أن هذه الدقة من جانب الثعالبي في إبراء أحكامه على  
الأدباء لا يفطن إليها إلا أديب ذواقه يعصم النظر في قراح " اليتيمة "  
ويدقق في دراستها ، أما أولئك الذين ينظرون إليها نظرة عابرة ، أو  
يدرسون بعض أجزائها فانهم لا يلحظون فيها إلا الطنطنة الفارغة ، والاطراء  
الكاذب ، والبالونات المفقوتة .

ولذلك يسارعون إلى اتهام صاحبها بالضعف ، وعدم القدرة على  
الفهم ، والمجاز عن الدراسة والتمييز ، وقديما قيل " رضني بدائنها ،  
وانسلت " .

### ثالثاً : رأى الدكتور : طه حسين :

قام الدكتور طه حسين أثناء تقديمه لكتاب " الذخيرة " بمقابلة موازنة بين ابن بسام صاحب " الذخيرة " والثعالبي مؤلف " اليتيمة " واعترف صراحة بأن صاحب " الذخيرة " قد تأثر بالثعالبي في المنهج والطريقة ، والأسلوب ، ولكنه يبعد ذلك تحامل على الثعالبي كثيراً وفضل عليه ابن بسام وسأقوم هنا بمعرض رأى الدكتور طه بكل دقة وأمانة ثم أحاول من جانبي مناقشته ، والرد عليه . . .

يقول الدكتور عن ابن بسام : " وهو حريص كل الحرص على أن يعير سيرة الثعالبي في تأليف كتابه ، فهو يُقسّم كتابه أربعة أقسام . . . كما تقسم الثعالبي كتابه أربعة أقسام . . .

وهو يقسمه بأخبار الأقاليم . . . كما قسم الثعالبي كتابه بأخبار الأقاليم (١) ، وهو يصطنع ما اصطنعه الثعالبي من السجع والتأنق في تقديم الكتاب والشعراء ، والتصريف بهم والثناء عليهم ، والنقد لهم (١) .

ولكنه — يبعد أن يحترف بفضل الثعالبي على ابن بسام — سرعان ما يأخذ في التحامل على صاحب " اليتيمة " والنيل منه ، والطمع فيه فيقول : " ولكنه — أى : ابن بسام — يبعد هذا كله يخالف الثعالبي ففى أمر دى خطر ، فهو أبعد منه نظراً ، وأنفذ منه بصيرة ، وأعق منه تفكيراً

---

(١) كلمة " اخبار " معناها الاتعاط والاستدلال بالشئ على الشئ ، واستعمالها في غير هذا المعنى خطأ شائع — كما هنا — وإذا جاز وقوعه في أسلوب صفار الكتاب ، فذلك غير سائق في أساليب الكبار ، د / سرحان

(١) تقديم كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة للدكتور طه حسين ط  
لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٦٣ .

وهو على تكلفة في اللفظ ، لا يخدم بالرواء الآثار عا ورام من جودة  
الصنئ ، أو رداءته ، ومن صواب التفكير ، أو خطئه ، ولعله يكون أفقه من  
الشمالي بالحياة الأدبية في إقليم من الأقاليم ، وما ينتج فيه من أدب . فهو  
قد لاحظ مجاورة المسلمين في الأندلس لأعدائهم من الفرنجة وتأثير هذا  
الجوار فيما كان للمسلمين من شعر ونثر (١) .

وقد نسي الدكتور طه أن الشمالي - من قبل - قد ربط بين  
طبيعة كل إقليم وما ينتج فيه من أدب . .

والدليل على ذلك تفضيله لشعراء الشام على شعراء العراق لأسباب  
تتعلق بالموقع الجغرافي لكل من " الأقليمين " وذلك لقرب أهل الشام من  
خطوط المغرب ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق . .  
لمجاورة الفرس ، والنبط ، وداخلتهم إياهم ، فهو قد فطن إلى ما كان من  
اختلاط أهل العراق بالعجم ، وأثر ذلك في نتاجهم الأدبي .  
وما كان ابن بسام الا مقلدا له في تلك الناحية . .

\*\*\*

ثم يواصل الدكتور هجومه على الشمالي فيقول : " وابن بسام  
لا يكتفى برواية مقتطفات من الآثار الأدبية للملوك ، والوزراء والأمراء - كما  
فعل الشمالي - ولكنه يمرض تاريخهم عرضا دقيقا مفصلا ، ويرد آثارهم  
الأدبية إلى مصادرها ، وقد عمد في ذلك إلى مذهب مستقيم حقا . ظاهره  
السهولة وإيثار الحافية ، والإعتماد على غيره ، ولكنه في حقيقة الأمر دقيق في  
كل الدقة . .

---

(١) تقديم الذخيرة لدا حسين ص ( ب ) .

رأى أنه ليس مؤرخاً ، وأنه لا يحسن البحث التاريخي فلم يتكلف  
مألاً يحسن ، ولم يحاول ما لا يجيد ، وإنما اهتم على مؤلف معروف بالصدق  
والدقة وحسن الاستقصاء وحسن العرض أيضاً . . . وهو أبو حيان التوحيدي ،  
فأخذ من كتابه بالنص ، وبالتلخيص ، ما احتاج إليه من التاريخ السياسي  
وأنبأنا بذلك في تواضع وصراحة خليقين بالاعجاب " (١) .

\*\*\*

ولا شك أن هذا الكلام فيه كثير من المحاباة والتعصب لابن  
بسام ، وكثير من النبن والتحايل على الثمالي . . . ولا يصح أن نعقد  
نوعاً من الموازنة بين علي الرضائي لأن البون جد شاسع ، والفرق جـد  
بميسر .

فالثمالي قد ترجم لشعراء الدولة الإسلامية كلهم بما في ذلك  
شعراء الأندلس .

وابن بسام قد ترجم لشعراء الأندلس فقط ، وأضاف في القسم الرابع  
بعض التراجم للمشرقيين . . . اقتداءً بما فعله الثمالي في ذكر شعراء  
الأندلس . . .

وعلى الرغم من ذلك نجد أن ابن بسام لم يعم بالكتابة التاريخية  
وإنما نقل ما جاء في كتاب أبي حيان .

ولم يفعل ذلك في طول الكتاب وعرضه ، وإنما فعله مع الأمراء  
والحكام ثم ترك بقية التراجم دون ذكر أية إشارة تاريخية اليهم .

على أن هذا الصنيع من ابن بسام جعله يحتفل بالأمراء والحكام

---

(١) انظر تقديم الذخيرة لطف حسين ص ( ج ) .



أكثر ما فعل الثعالبي ، وجعل نصيب الآخرين من كتابه ضحلا وقليلًا بينما  
امتلاء كتاب الثعالبي بأدب أمثال هؤلاء ، مما جعله يرسم صورة أدبية واضحة  
لمصره ..

\* \* \*

رابعاً : رأى الأستاذ أحمد أمين في " ظهر الاسلام " :

أما الأستاذ أحمد أمين فيصيب على الثعالبي احتفاله بالبديع اللفظي  
أكثر من عنايته بالتحليل النفسي (١) .

وليت شمرى كيف يطالب الأستاذ أحمد أمين الثعالبي في القرن  
الرابع الهجري بأن يتبع منهج التحليل النفسي ، في دراسته للشخصيات  
الأدبية مع أن هذا المنهج لم يستعمل إلا في العصر الحديث على يد  
طائفة من الأدباء والفلاسفة الذين يخضمون الشخصيات الأدبية والتاريخية  
أثناء دراستها لمنهج التحليل النفسي كالأستاذ العقاد في عقباته المشهورة  
وإن كان بعض أدباء العصر ونقادهم يميئون عليه هذا الاتجاه ..

خامساً : رأى الأستاذ محمد اسماعيل الصاوي :

يرى الأستاذ الصاوي في تقديمه لكتاب " اليتيمة " أن الثعالبي  
في مختاراته الشعرية والنثرية قد أفرط كثيراً في الفحش ، والمجون ،  
واستباح لنفسه في هذه الناحية ما يثير عليه حملات علماء الأخلاق لأنه أورد  
أبياتاً غاية في الإفحاش لفظاً ومعنى ..

وأنا - وإن كنت أعتقد أن الثعالبي قد أفرط حقيقة في هذه

---

(١) ظهر الاسلام ( ٢ : ١٢٢ ) .

الناحية - كما يقول الأستاذ الصاوي - أرى أنه كان ناقلًا أمينًا لأحداث عصره ، ومستبلاً صادقًا لكل ظواهره الاجتماعية ولو أنه أغفل العجسوف ففى مختاراته - كما فعل مزامنه - أبو اسحاق الحصرى فى " زهر الآداب " - لكان كتابه ناقصًا مبتورًا .. ولما استطعنا أن نحكم على المصر من خلال " اليتيمة " حكماء ، صادقاء ، دقيقاء ، أميناء ..

سادسًا : رأى الأستاذ : محمد محى الدين عبدالحميد :

أما أستاذنا المرحوم الشيخ محمد محى الدين عبدالحميد فيعيب على الثعالبي فى " اليتيمة " أمرين :

أحدهما : المصيبة لشعراء الشام ، وتفضيلهم على شعراء سائر البلدان ..

وثانيهما : المصيبة للشعراء من الملوك والحكام ، والثناء عليهم أوفر الثناء ..

أما بالنسبة للأمر الأول :

وهو المصيبة لشعراء الشام - فأرى أن أبا منصور كان محققًا فى ثنائهم عليهم ، وتمصبه لهم ، لأنهم حافظوا على طريقة العرب فى أقراض الشعر ، والتزموا بعمود الشعر العربى المعروف عند النقاد ، كالبغزاة فى الألفاظ ، والفخامة فى التراكيب ، والبداوة فى التعبير ، والقوة فى المعانى ، والعمق فى الأفكار ، واليحد بقدر الإمكان عن الفحش ، والمبعون ، ورككة الأساليب ، وضمف التراكيب .. كما راج - عندهم شعر الحماسة ، وتمجيد البطولة ، ووصف الممارك ، والاشادة بمواقف سيف الدولة البطولية ضد الروم ، والدفاع عن الإسلام .

هذا فضلا عن المحافظة على الأوزان العروضية

المتوارثة .

### وأما بالنسبة للأمر الثاني :

وهو تعصب الثعالبي للملوك والحكام والاشادة بالشمراء منهم -  
فأنا مع شيخنا محبى الدين فى ذلك ، لأن الثعالبي قد أراق ماء  
وجهه فى الثناء عليهم ومدحهم حتى إنه اشترط على نفسه نفسى  
مقدمة " اليتيمة " أن يورد فى مختاراته لب اللب ، وحببة القلب ،  
وناذر الحين ، ونكتة الكلمة ، وواسطة الحقد .

فان وقع خلال ما يكتب البيت والبيتان ما ليس من أبيات القصائد  
ووسائط القلائد ، فذلك راجع عنده لمهينين :

- ١ - إما لأن الكلام محقود به والمعنى لا يتم بدونه .
- ٢ - وأما لأنه شمر ملك ، أو وزير ، أو رئيس خطير واستشهد بههنا  
البيت :

وَحَيْرُ الشَّمْرِ أَكْرَمُ رَجَالًا  
وَشَرُّ الشَّمْرِ مَا قَالَ التَّيْبُ

ولا شك أن هذه نظارة قاصرة من جانب الثعالبي فى فهم الشمر .  
ذلك أن الشمر لا يعلى قدره أن يكون قائله ملكا أو وزيرا أو رئيسا  
خطيرا - كما قال - ولا يشينه ، أن يصدر عن ضيق أو حقير . .

فليس هذا فى الحقيقة مقياسا جيدا لجودة الشمر أو رداؤه ،  
وانما المقياس السليم هو المايير النقدية السليمة التى تعتمد على النظارة  
المجردة فى فهم الشمر ، والحكم عليه . .

ولو كان الشمر يرقى برقى قائله ، ويهبط بهبوطه لكان شمر ابن  
الممتر ، وسيف الدولة - وأبى فراس وعبد الدولة ، وتميم بن المعز وأشرابهم

من الأمراء والحكام في المنزلة العليا من الشعر .. ولأسقطنا من تراثنا  
الأدبي أشعار الحظيعة ، وجريز ، وشار ، وأبي الحتاهية والعتبي وفهرهم ..  
لوضاعة أصولهم ، وهوان أمورهم .. وهذا مالم يقل به أحد في القديم ،  
أو في الحديث ..

وهذه النظرة من جانب أبي منصور تدل على ضعفه ، وحرصه على  
إرضاء الملوك ، والرؤساء في عصره ، ولو على حساب المقاييس النقدية السليمة  
لينال عطاياهم ، وينعم بصلاتهم ، ويؤمن بكرمهم ، فأكثر من الثناء عليهم ،  
والإشادة ، بذكرهم ، وإعلاء شأنهم ، وأفراد لهم في " يتيمته " أبوابا  
مطلوبة . (\*)

والكتاب بعد هذا كله يتمدُّ من أفضل المصادر لدراسة الشعر والنثر  
في القرن الرابع الهجري ، في أوسع رقعة من الأرض تشغل العالم الإسلامي  
كله آنذاك ..

فقد حشد فيه مؤلفه عددا ضخما من الشعراء ، والكتاب يربو على  
أربعمائة أديب في شتى أنحاء الدولة الإسلامية الواسعة الانتشار ..

وهو عن طريق ترجمته لهؤلاء الأدباء يضع أيدينا على حركة أدبية  
شاملة ، ازدهرت في ذلك العصر ، وقد تعاون فيها الخلفاء ، والأمراء ،  
والوزراء ، وأعيان البلاد ، فلم تشغلهم مناصبهم السياسية ، ولا مسئولياتهم  
الإدارية ، عند تشجيع الأدب وتماطى فنون القول .

(\*) لعل هذه الدائرة من الثماليين ترجع إلى المقياس الخلق ، والرقصى  
الاجتماعي حيث لا إسفاف ، ولا سفه ، ولا بداء ، ولا تنزل من الملوك  
في أشعار الملوك والرؤساء ، وعلى هذا الأساس ، يكون مقياس الثماليين  
خير مقياس ، لأن الشعر فن جميل ، يجب أن يربأ به الشعراء  
عالمين بجميل . د / سرحان .



كما أن هذه التراجم تهيئ مادة غزيرة لتأريخ الأدب في ذلك الوقت ، فقد انفرد هذا الكتاب بكثير من التراجم لشخصيات لازالت مجهولة حتى اليوم .

والكتاب بحد ذاته يقدم معلومات متنوعة من البعثات والبلدان الإسلامية ، ومن عاين فيها من علماء ، وحكام وأدباء .. وما كانت تسود به منتدياتهم ، ومخاضاتهم ، من نشاط وحركة ..

وعلاوة على ذلك ، يمدُّ الكتاب مصدرا ، هاما لدراسة الحالة ، الاجتماعية للدولة الإسلامية في القرن الرابع الهجري .. ولا يقاربه في ذلك أثر أدبي آخر ، كما يمدُّ مرجعا هاما لدارسي الأدب وعشاق المربية ، على مر المصور ..

:: الباب الثالث ::

آثار الأجناس البشرية والدوافع الدينية  
في أدب " اليتيمة "

١ - الفصل الأول :

الروح الفارسية في أدب اليتيمة \*

٢ - الفصل الثاني :

أثر الحياة المربية في أدب اليتيمة \*

٣ - الفصل الثالث :

الرقائق وآثاره فيها \*

٤ - الفصل الرابع :

صدى التشيع في اليتيمة \*

٥ - الفصل الخامس :

آثار أهل الذمة في اليتيمة \*

## ٢٢ الفصل الأول ::

• الروح الفارسية في أدب اليتيمة •

منذ أن اُحمد بنو المباس على الموالى ، من فرس ، وترك ، فسى  
إدارة شؤون البلاد ، وتدير أمورها ، وتصريف أحوالها ، وحين اتخذوا منهم  
الوزراء ، والجند ، والمعال ، وأقَصَّوا العرب أبناء أُرَومَهم وعومتهم عمن  
وظائف الحكم .. بدأ المجد المربى الشامخ يتهاوى وأخذت تلك الأعصدة  
الراسخة تنهدم ، وشرع ذلك المقد الثمين فى تساقط درره وتناثر جواهره .

ولم يكد القرن الثالث يشارف نهايته ، حتى صارت هذه الدولة  
الموحدة المظيمة - التى تربعت من قبل على قمن المجد - واستقرت فوق  
قم العزة والفخار - دويلات سياسية صغيرة مستقلة استقلالاً ذوياً خالصاً ،  
ولا تربطها بالحكومة المركزية فى بغداد إلا أوهن الأُمُشاح والصلات وأوهى  
الروابط والملاقات .

ومن بين تلك الدويلات التى تمزقت إليها الدولة المباسية الكبيرة  
دولة بنى بويه التى استولت على بغداد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة هجرية .

وقد كان بنو بويه من الفرس فتمصبوا لبنى جنسهم تمصباً شديداً  
وشجموهم على إحياء عاداتهم ، وتقاليدهم القديمة والاحتفال بأعيادهم الفارسية  
ومواسمهم الدينية البائدة .. وأصبح للبوهميين النفوذ الأعلى ، وعلى المباسيين  
الطاعة والخضوع ، فطغى الرج الفارسية على كل شىء ، وضعت النمرة العربية  
فى نفوس العرب ، وهجر شعراؤهم الفخر بالمآثر العربية من أحساب وأنساب ،  
وتحول الأدب المربى فى تلك الحقبة إلى انحلال ، وضعف وتسيب ، وظهرت  
المدائح التى فيها كثير من الملق ، والمبالغة ، وافتخر شعراء الفرس بقوميتهم  
وتحاملوا كثيراً على العرب .

ولما كان بنو المباس يدينون بقيام دولتهم للنفوذ الفارسى .. كان  
طبيعياً أن تسيطر الآراء الفارسية على الخلفاء أنفسهم ، فأصبحوا يتشبهون



بالأكاسرة ، ويديرون أمور الدولة بالطريقة التي كانت تدار بها امبراطورية آل  
ساسان من قبل . .

فاستبد الخلفاء بالرعية كملوك الفرس ، واتخذوا السيوف أداة  
لإرهاب المجتمع ، وأحاطوا أنفسهم بهالة من الإجلال والتقديم . .

وظهرت الأزياء الفارسية في بلاطهم ، وأصبحوا يمشون في أبراج  
عاجية بعيدا عن الرعية ، وإذا دخل عليهم داخل وجب أن ينحني أمامهم ،  
ويظهر علامات التقدير والاكبار . .

وكان الوضع الرسمي ألا ينال هذا الشرف المذائم إلا البارزون من  
كبار رجال الدولة . .

ويقول بعض الكاتبيين في هذا الصدد :

" ولا شك أن هذه الأفكار التي نشأت في بيئات غير مربية إنما  
كانت بقية باقية من عبادة الملوك ، تلك العبادة التي كانت مشهورة عند  
قدماء الفرس ، والتي لا يبعد أن تكون قد انتقلت إليهم من طريق الديانة  
البابلية القديمة فكان من أثر ذلك أن عد الخلفاء المباسيون أنفسهم ظل  
الله في الأرض كما جملوا إرادتهم كأنها متعة لإرادة الله " (١) .

أما ملوك الفرس من بني بويه فقد تلقبوا بأضخم الألقاب التي تشمر  
بالنلو والجرأة في التسميات (٢) وأحاطوا أنفسهم كالخلفاء بمظاهر العبادة ،  
والإجلال ، والتقديم ، وسار على نهجهم كبار رجال الدولة في فارس والعراق

(\*) واضح أن هناك مبالغة ظاهرة في تصوير الوضع الى درجة غير مقبولة .  
د / سرحان

(١) الأرب في ظل بني بويه ص ٣٨ .

(٢) الحضارة الاسلامية لادم متر ( ١ : ٤٢ ) .

فمَشَقُوا الرِّتَبَ ، وَأَحْبَوْا الْأَلْقَابَ ، وَتَنَافَسُوا عَلَيْهَا تَنَافُسًا شَدِيدًا — جَمَلُ  
أَبَا بَكْرٍ الْخَوَارِزْمِيِّ يَتَنَدَّرُ عَلَيْهِمْ ، وَيَسْخَرُ مِنَ الْخُلَفَاءِ ، وَيَسْهَجُوهُمْ مِنْ أَجْلِ  
ذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ :

يَمَالِي رَأَيْتُ بَنِي الْمَبَاسِ قَدْ فَتَحُوا  
مِنَ الْكُتُبِ مِنَ الْأَلْقَابِ أَبْوَابًا  
وَلَقَبُوا رَجُلًا لَوْ عَاشَ أَوْلَهُمْ  
مَا كَانَ يَرْضَى بِهِ الْحَشَى (١) بَوَابًا  
قَلَّ الدَّرَاهِمُ فِي كَفِّ خَلِيفَتِنَا  
هَذَا فَاتَّفَقَ فِي الْأَقْوَامِ الْقَلْبَا (٢)

وظَهَرَتِ الرِّيحُ الْفَارَسِيَّةُ عَلَاةً عَلَى ذَلِكَ فِي اتِّخَاذِ أَعْيَادِ الْفَرَسِ  
الْقَدِيمَةِ كَالنِّيروزِ ، وَالْمَهْرَجَانِ أَعْيَادًا رَسْمِيَّةً لِلْحُكُومَةِ وَالشَّعْبِ مِمَّا كَمَا  
ظَهَرَتْ بِصُورَةٍ خَاصَّةٍ فِي إِحْيَاءِ لَيْلَةِ الْوَقُودِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَرُ عِنْدَ الْفَرَسِ  
بِاسْمِ " السَّدَقِ " فَقَدْ أَصْبَحَ مِنْ رَسُومِ مُلُوكِهِمْ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَنْ يَوْقِدُوا  
النِّيرانَ فَوْقَ قِمَمِ الْجِبَالِ ، وَيُرْسِلُوا الْوَحُوشَ فِيهَا ، وَيُرْسِلُوا الطُّيُورَ فِي لَهَبِهَا  
وَيَشْرَبُوا حَوْلَهَا .

وَتَتَجَلَّى الرِّيحُ الْفَارَسِيَّةُ كَذَلِكَ فِي هَذَا التَّرَفِ الْمَبَالِغِ فِيهِ وَفِي  
هَذَا الْمَلُو فِي الزَّيْنَةِ وَحُبِّ الظَّهْرِ ، فَامْتَلَكَ الْحُكَّامُ الْقُصُورَ الْبَهِيمَةَ ، وَالْمَنَازِلَ  
الْفَخِيَّةَ ، كَمَا امْتَلَكُوا فَاخِرَ الْأَسَاسِ وَالرِّيَاشِ ، وَالْمَوَائِدَ الْمُطْمَعَةَ بِرِقَائِقِ الذَّهَبِ  
وَالْفُضَّةِ ، وَالْأَرَائِكِ الْمُنْظَمَةِ بِأَبْهَى الْأَغْطِيَةِ ، وَأَجْمَلَ الْبَسْطِ ، وَقَدْ فَرَّشُوا  
السَّجَاجِيدَ ذَوَاتِ الْأَلْوَانِ الزَّاهِيَةِ ، وَأَكَلُوا فِي أَوَانٍ مِنَ الْفُضَّةِ ، وَشَرَبُوا فِي  
كُفُوسٍ مِنَ الذَّهَبِ . . . كَمَا كَانُوا مُتَمَالِّينَ فِي رِعَايَةِ آدَابِ السُّلُوكِ ، فَإِذَا

(١) الْحَشَى : يَفْتَحُ الْحَاءُ وَضَمُّهَا : الْبَسْتَانُ .

(٢) الْيَتِيمَةُ : ( ٤ : ٢١٦ ) .

تقابل نظيران احتضن الواحد منهما صاحبه وقبله ، أما إذا قابل أحدهم من هو أعلى منه مرتبة وقدرًا فعليه أن ينحنى له انحناء كبيرة كلها خشوع واحترام ، فإذا قابل من هو دونه قدم له وجنته ليقبلها ، فإذا تقابل مع فرد من عامة الناس حتى له رأسه قليلا في دمه وهدوءه<sup>(١)</sup> .

ولقد كان لهذا التيار الجارف من العادات والتقاليد الفارسية أثره الواضح في أدب تلك الحقبة فقد تأثر به الشعراء والكتاب ، وظهور صده ، واضحا في أشعارهم ، ورسائلهم ، وعبروا عنه أصدق تعبير .

والدارس لأدب " اليتيمة " التي ألفت في ذلك العصر ، يلمس أثر الروح الفارسية فيها بكل الوضوح ، وخاصة في أبوابها التي تتحدث عن أدباء فارس والعراق .

يلمسه في هذا الملحق المبالغ فيه في شعر المديح والرثاء . . .  
ويلمسه في هذا النلو الفاحش في تمجيد الملوك ، وتقديس الحكام . . . .  
وفي الاكثار من شعر التهاني وبالأعياد الفارسية ، كالنوروز ، والمهرجانات ، والسدق .

ويلمسه - كذلك - في هذه الكثرة الهائلة من الألفاظ الفارسية التي انتشرت في شعر اليتيمة .

ويلمسه أخيرا في هذه الأمثال الفارسية الصَّعْبَة ، والتي تعبر عن أفكار الفرس وتصور نفسياتهم وأخلاقهم ، أصدق تصوير . .

\*\*\*

---

(١) الأدب في ظل بني بويه ص ٣٠٦ .

وكانى بالحضارة الفارسية القديمة قد بحثت فى ذلك المهد  
من جديد ، وطفت على كل شىء فى المجتمع ، فتأثر بها الشعراء ، وترجموها  
فى أشعارهم وآدابهم ، ونسوا الحياة العربية فى الجزيرة ، وما فيها من  
خشونة ، ووعورة ، وهجروا شمر الحماسة الذى يجد البطولة والشهامة ويشيد  
بالشجاعة والمروءة ، ويحث على الاستبسال فى القتال ، وتجدة المستغيث ،  
واستمرروا هذا التردى ، حتى تحول الأدب العربى إلى أدب ماجن خليع  
يقوم على المبالغات ، والنفاق ، وتصوير الحياة الفارسية ، فى ظل الحياة  
الجديدة التى أقبل عليها الشعراء ، ورضوا بها ، واطمأنوا إليها ، واندمجوا  
فيها ، وفضلوها على الحياة العربية القديمة . . وأعلنوا ذلك صراحة  
فى أشعارهم . .

فهذا أبو القاسم الزغراني أحد شعراء صاحب يملن بصراحة  
تأثره بالروح الفارسية ، ويرحب بالحياة الجديدة الوارفة الدلال ، ويرفض  
فى إصرار حياة الأعراب فى جزيرتهم القاسية ، ولادهم الوعة ، وفضل عليها  
حياة اللهو والبهجة فى حى الكرخ ببشداد ، حيث الحياة الناعمة والمعيشة  
الرفيدة فيقول :

لا أتبع الأعراب إن هم قوصوا  
من تجهل حتى أخط بجهل  
وصير أرجاء السير يمسسى  
أخلى بقلبي من صير المحل  
فألكر دار اللهو أعذب مفرعا  
من مخرج يختص دائرة جلجل  
لا تدر دار الميى فى مترج  
بمخيم بين الدخول قحومل (١)

(١) البيت : ( ٣ : ٣١٤ ) .



لقد كان الشعراء في هذا العصر يبالغون في شمر المديح ،  
ويسرفون في تمجيد الملوك ، وتقديس الحكام ، ويسهبون عليهم ألوانا من  
الألقاب ، والصفات التي تجعل منهم أشخاصا فوق مستوى البشر .

وكان الملوك بدورهم يقبلون منهم هذه الثموت في رضا واغباط  
وشجبونهم عليها لأنها كانت ترضى نزعة الضرور عندهم ، وتشبع فيهم رغبة  
التسلط والجبروت .

فابن الحجاج الشاعر الخليل - عندما يمدح بختيار معز الدولة  
البويهى - يتشكك في أن يكون ممدوحه من سلالة البشر ، ويزعم أنه يفوق  
يوسف عليه السلام في الحسن والجمال ، ويدعى أن زليخا امرأة المزيز ، لو  
أبصرته لفضلته على يوسف ، فنجم السها ، لا يقاس بالقمر ، وذلك حيث  
يقول :

فَدَيْتُ رَجَّةَ الْأَمِيرِ مِنْ قَمَرٍ  
يَجْلُو الْقَدَى نَوْرُهُ مِنَ الْبَصَرِ  
فَدَيْتُ مَنْ وَهْنُهُ يُشَكُّنِي  
فِي أَنَّهُ مِنْ سُلَالَةِ الْبَشَرِ  
إِنَّ زَلِيخَا لَوْ أَبْصَرْتَكَ كَمَا  
مَلَّتْ إِلَى الْحَشْرِ لَذَّةَ النَّظَرِ  
وَلَمْ تَقِمْ يَوْسُفًا إِلَيْكَ كَمَا  
نَحْنُ السَّهَى لَا يَقَاسُ بِالْقَمَرِ (١)

وإذا كان ابن حجاج قد تشكك في نسبة ممدوحه إلى البشر ،  
وادعى أن منزلته تفوق منزلة الأنبياء .. فان هناك شاعرا آخر من شعراء

(١) البيت ( ٣ : ٤٠ ) .

فارس هو إسماعيل الشاش قد جعل سدوحه فخر الدولة البويهى فى مسئلة  
الاله وجعل غيره من الملوك كالأصنام التى كان أهل الجاهلية يعبدونهم  
لحقهم إلى الله زلفى ، وإنه ليتقرب من هؤلاء الأصنام ليقرّبوه إلى سيده  
وسمّوه فخر الدولة زلفى وفى ذلك يقول :

أَوَى إِلَى ظِلِّ شَاهِنشَاهٍ مِنْ زَمَنِ  
كَمَا أَوَى الصَّيْدَ مَذْجُورًا إِلَى الْحَرِّ  
زرت الملوك لتدنينى اليه كما  
يبنى الى الله زلفى عابد الصنم  
أَعْطَى فَأَحْيَا مَوَاتَ الْجُودِ نَائِلُكُ  
فَالْخُصْبُ مِنْ فَيْمَلِهِ وَالْإِسْمُ لِلدَّيَمِ (١)

\*\*\*

أما أبو القاسم الزهرانى أحد شعراء صاحب ، فقد ادى لسدوحه  
الرهوية ، وخصه بالسجود ، وأحله من قلبه مكانا لا يشاركه فيه أحد وذلك  
حيث يقول :

يَا سَامِعَ الزُّورِ فَيَّ لِي نِصَمُ  
مِنْهَا الضُّئَى فِى هَوَاكَ وَالسَّقَمُ  
أَنْتَ الْبَدَى دَنْتُ بِالسَّجُودِ لَهُ  
حَتَّى لَقَدْ قِيلَ رَبُّهُ صَنَمُ  
وَلِي فَوَادُ غَدَوَاتِ مَا لَكَ  
بِلَا شَرِيكَ فُلَيْسَ يَنْقَسِمُ (٢)

(١) البتيمة ( ٣ : ٣٥٥ ) .

(٢) نفسه ( ٣ : ٣١٨ ) .

وهما يكن من شئ\* فقد كانت هذه العبارات المقوتة في شعر  
المديح صدى للروح الفارسية التي سادت المجتمع المراتي الفارسي آنذاك

\*\*\*

إن هذه العبارات هي التي أفسدت الشعر العربي ألفاظه  
ومعانيه وجعلته متكلفا هزليا ..

ولعل الأبيات الآتية للصابي في مدح همد الدولة البويهية خير  
دليل على ذلك .. وفيها يقول :

صَلِّ يَا ذَا الْعَلَا لِرَبِّكَ وَأَنْحَرِ  
كُلَّ ضِدٍّ شَانِيٍّ لَكَ أَكْبَرِ  
أَنْتَ أَغْلَى مِنْ أَنْ تَكُونَ أَضَا  
حَبْلَكَ قُرُومًا مِنَ الْجَمَالِ تُمَقَّرِ  
بَلْ قُرُومًا مِنَ الْمُلُوكِ قَدَوِي السُّوْ  
تَدِيدُ تَبَجَّانَهَا أَمَامَكَ تَنْشَرُ  
كَلِمَا خَرَّ سَاجِدًا لَكَ رَأْسُ  
مِنْهُمْ قَالَ سَيِّفُكَ : اللَّهُ أَكْبَرُ (١)

إنه لشعر ركيك تهدو عليه سمات التكلف والصنعة ، وورود الماطفة  
وضعف الخيال ، وهو دون شعر الصابي في غير هذا الفن ..

ولعل ذلك راجع إلى حرص الصابي على راضاه\* سدوحه بشعبي  
المهل فضائق عليه اللغة بما رحبت ، ولم يجد أمامه إلا ألفاظ القرآن الكريم  
يغير عليها ، وينقلصها مديحا لمولاه ليرضى عنده نزع الفرور والتسلط ،

(١) البهجة ( ٢ : ٢٥٤ ) .

والحب للجبروت •• والطفيان •• فجاء شعره ركيكا سقيما •

ولقد كان هذا الشعر — على الرغم مما فيه من برود ومبالغة —  
يسمى عند الدولة ، ويرضى كبريائه وغروره ، فلقد كان كما عرفنا من سيرته  
جبارا طاغية ، يرى نفسه فوق مستوى البشر ، وقد وصف نفسه في بعض  
قصائده بأنه فاق البشر ، وأنه ملك الأملاك ، وأنه أيضا غلاب القدر ،  
والميزان بالله تعالى •

قال الثعالبي : " واخترت من قصيدته التي فيها البيت الذي لم  
يقلح بعده أبدا قوله :

ليس شرب الكأس إلا في المطر  
وغناء من جوار في السحر  
غنيات سالكات للنهس  
ناغيات في تضاعيف الوتر  
مجزات الكأس من مظلّمها  
ساقيات الراح من فاق البشر  
عُدّ الدولة وابن ركنها  
ملك الأملاك غلاب القدر (١)

\*\*\*

على أن صاحب بن عباد وزير بني بويه كان من أكثر زعماء  
عصره تكلفا ، وجبا للمبالغة ، والخلو ، وطريقته في الكتابة ، تدل على ذلك •

وكانت مدرسته الشعرية من أكثر المدارس الأدبية ميلا إلى

الخلو •

---

(١) اليتيمة ( ٢ : ١٩٧ ) •



وكان الشعراء في بلاطه يتحينون الفرص لمدحه ، ونمته بأرفع الصفات ، وتحويله إلى شخصية أسطورية .

وكان يتقبل ذلك منهم راضيا سعيدا ، شأنه في ذلك شأن ملوك مصر ورؤسائه .

فهذا أبو سعيد الرستمي أحد شعراء بلاطه ينتهز فرصة بناء سيده دار جديدة بأصبهان فيسبح عليه من صفات المديح ما يرفمه فوق البشر فيقول :

وَلَوْ أَصْبَحَتْ دَارًا لَكَ الْأَرْضُ كُلُّهَا  
لضَاقَتْ بِمَنْ يَنْتَابُ دَارَكَ أَهْلًا  
ولو كنت توبنهما على قدر همتي  
تَمَّتْ بِكَ وَاسْتَشَرْتُ إِلَيْكَ الْمَاسِلَا  
هَقَدْتُ عَلَى الدُّنْيَا جَدَارًا فَحَزَنَتَهَا  
جميعا ولم تتركْ لغيرك طائِلا

ثم يقسم - بعد ذلك بأربعة أبيات - فيقول :

وَوَاللَّهِ مَا أَرْضَى لَكَ الدَّهْرَ خَائِمًا  
وَلَا أَلْبَدْرَ مُنْتَابًا وَلَا النَّجْمَ نَائِلًا  
وَلَا أَلْفَلَكَ الدَّوَارَ دَارًا وَلَا السُّورَى  
عَبْدًا وَلَا زُهْرَ النَّجْمِ قَبَائِلًا<sup>(١)</sup>

وأما أبو الحسن صاحب البريد وهو من مدرسة صاحب أيضا فيتمنى أن يتطوع الشعراء بأعينهم للمصاحب ليتخذها مكان البسط على أرض داره .

---

(١) اليتيمة ( ٣ : ١٨٢ ) .

الجديدة فيقول :

لَمَّا بَنَى النَّاسُ فِي دُنْيَاكَ دُورَهُمْ  
بَنَيْتَ فِي دَارِكَ الْفَرَّاءِ دُنْيَانَا  
فَلَوْ رَضِيتَ مَكَانَ الْبُسْطِ أَجْنُنَا  
لَمْ تَبْقَ عَيْنٌ لَنَا إِلَّا فَرُشَانَا  
وَهَذِهِ وَزَرَاءُ الْمَلِكِ قَاطِبَتَا  
بَيْتَادِقُ لَمْ تَزَلْ مَا بَيْنَنَا شَاهَا  
فَأَنْتَ أَرْفَعُهَا مَجْدًا وَأَسْمَدُهَا  
جَدًّا ، وَأَجْوَدُهَا كَهًّا ، وَأَكْفَاهَا  
وَأَنْتَ أَدْبَاهَا بِلْ أَنْتَ أَكْثَبُهَا  
وَأَنْتَ سِيدُهَا بِلْ أَنْ مَوْلَاهَا (١)

\*\*\*

على أن صدى الريح الفارسية لم ياتهر فقط في هذا الغلو  
المقوت في شعر المديح ، وإنما تجلى كذلك في أمر آخر أكثر دلالة من  
سابقه . . .

وهو التهنئة بالأعياد الفارسية القديمة التي عادت في هذا العصر  
إلى الوجود من جديد ، واحتفل بها الناس على اختلاف طبقاتهم وأديانهم .  
وكان " النيروز " من أهم الأعياد الفارسية ، وهو أول أيام السنة  
عند الفرس ، ويقع عند الاهدال الربيعي .

وكان الخلفاء ، والأمراء ، والوزراء يحتفلون بهذا العيد حيث

(١) البيتية ( ٣ : ١٨٤ ) .

يتلقون التهاني ، ويتقبلون الهدايا ، كما كان ملوك الفرس القدماء يفعلون .  
وكان الشعراء يتسابقون في هذا اليوم لتهنئة الملوك ، والحكام ،  
ويتنافسون في تقديم الهدايا لهم كل حسب طاقته ، وإمكاناته المادية حتى  
يفوزوا برضاهم ، وخلقهم .

وكان أبو اسحاق الصابي من أكثر أدباء عصره حرصا على ذلك ،  
وقد أورد له الثعالبي طائفة ضخمة من شعر التهاني بهذه المناسبة .

وكان يحرص في كل مرة على إهداء مديوحه ما يقدر عليه حسب  
المادات الفارسية السائدة آنذاك . .

فقد كتب مرة إلى ضد الدولة بهنته بيوم " النوروز " ويقدم إليه  
رسالة هندسية من استخراج . . . وأخذ يتعلقه ، ويخالج في مديحه شأن غيره من  
شعراء العراق وفارس ، آنذاك . . . وذلك حيث يقول :

أَنَا مَالِكُ الْأَرْضِ الَّذِي لِي مَرِيئَتُهُ  
وَبَيْنَ يَدَيْكَ الْكُرْسِيُّ مِثْلُ بَقَارِيهِ  
رَأَيْتُ نَوَى الْأَمَالِ أَهْدَوْا لَكَ الْبَدِي  
تَرَوْقُ الْمُؤَنِّ النَّاطِرَاتِ مُحَاسِنُهُ  
وَحَوْلَكَ خَزَانُ يَحُورُوتَ وَمَسَا  
لَهُ مِنْكَ إِلَّا لَحْظَ طَرْفٍ يُمَانِيهِ  
وَلَكِنِّي أَهْدَيْتُ عِلْمًا مُهْدِيَةً  
يُرْوِقُ الْعُقُولَ الْبَاحِثَاتِ بِوَاطِنِهِ (١)

---

(١) البيت ( ٢ : ٢٥٦ ) .

وعندما سجنه ضد الدولة لأسباب شخصية ، وسياسية لم تمنحه محنته  
أن يهنئ جلاده بيوم " النيروز " وأن يقدم إليه في هذه المناسبة درهمين ،  
وكتاب " المالك والمالك " - عليه يصف عنه ويطلق سراحه - وكتب إليه  
يقول :

أَهْدَى إِلَيْكَ بِحَسَبِ حَا  
لِي فِي الْخَصَاصَةِ دِرْهَمَيْنِ  
وَبِحَسَبِ قُدْرِكَ دَفُوتَرِي  
مِنْ هَمَّا جَمِيعُ الْخَافِقِينَ  
فَإِذَا فَتَحْتَهُمْ رَأَيْتُ  
سَتَ بَيَانِ ذَاكَ يَلْحَظُ عَيْنِ (١)

وكان عندما يمجز عن اهدائه شيئا محسوسا يكفي بتقديم أبيات  
من الشعر لقوله :

تَعَذَّرَ دِينَارِي عَلَى دِرْهَمِي  
فَلَا طَقْتُ مَوْلَانَا بَيْتَيْنِ مِنْ شِمْرِي  
وَكَمْ بَيْتِ شِمْرٍ زَادَ بِالشُّكْرِ قُدْرَهُ  
عَلَى بَيْتِ مَالٍ مِنْ لُجَيْنٍ وَمِنْ نَبْرِ (٢)

وليت شمري كيف كان ضد الدولة - وقد كان ملكا غنيا خطيرا -  
يقبل الدرهم ، والدرهمين ، من شاعر فقير سجين مثل الهابي ؟ ، ولكنها  
الحادات الفارسية التي سيطرت على عقول القوم ، وملك عليهم أمرهم ،  
فأصبحوا لا يستطيعون من قيدها فككا . .

(١) التهمة ( ٢ : ٢٣٦ ) .

(٢) نفسه ( ٢ : ٢٥٧ ) .



وكثيرا ما كان يُجَمَلُ وصفُ الريح ، والتهنئة بالنيروز وسلسلة  
للمدح ، ومقدمة للمدح .

ومن ذلك قول عبد الصمد بن بابك :

لقد نَقَرَ النَّيْرُوزُ وَشَبَّ عَلَى الرَّيَا  
مِنَ النَّوْرِ لَمْ تَخَافْ بِهِ كَفَ رَائِمِ  
كَأَنَّ ابْنَ عَمَّادٍ سَقَى الْعَزْنَ نَشْرَهُ  
فَجَادَ بِرَشَائِي مِنَ الْوَيْلِ سَاجِمِ (١)

وذلك خلافا لما كان عليه الشعر العربي في الماضي ، حيث كان  
الشعراء ، يبدؤون قصائد المدح ، بالوقوف على الديار ، ووصف الآثار ، وكاء  
الأحبة ، ووصف الراحلة .. غير أن شعرا ما هنا كانوا متأثرين بالبيئة  
الجديدة ، التي اصطبغت بالصبغة الفارسية ، فلم يسمهم إلا أن يعمروا  
عن هذه البيئة أصدق تمبير ..

\*\*\*

أما عيد " السهرجان " فلم يكن أقل قيمة من سابقه ، وكان يقع في  
فصل الخريف ، وكان الملوك يحتفلون به " كالنيروز " حيث يجلسون لتسليق  
التهاني ، وتقبل الهدايا ، كما كانوا يفعلون يوم " النيروز " وكان أبو اسحاق  
الصابي - كذلك - سباقا إلى تهنئة الحكام ومجاملتهم بهذه المناسبة ..  
وكان حريصا على تقديم الهدايا لهم كما كان يفعل في " النيروز " .

فقد أهدى عهد الدولة مرة " اصطرابا " وكتب إليه معه هذه

الأييات :

---

(١) المصدر السابق ( ٣ : ٣٤٦ ) .

أَهْدَى إِلَيْكَ بَنُو الْأَمَالِ وَاحْتَفَلُوا  
 فِي مَهْرَجَانٍ جَدِيدٍ أَنْتَ مُبْلِيهِ  
 لَكِنَّ عَجْدَكَ إِبْرَاهِيمَ حِينَ رَأَى  
 طُلُوعَ قَدْرِكَ عَنْ شَيْءٍ يَدَانِيهِ  
 لَمْ يَرْضَ بِالْأَرْضِ مُهْدَاةً إِلَيْكَ فَفَقَدَ  
 أَهْدَى لَكَ الْفَلَكَ الْأَهْلَى بِمَا فِيهِ (١)

وكان الشعراء يحتفلون " بالمهرجان " ويستقبلونه كما يستقبلون  
 الربيع ، لأنه يأتي بعد انتهاء الصيف ، وبعده اللاتج ، وبعده المصيف  
 وكانوا يتخذون من وصفه مقدمة للمديح ، كما كانوا يفعلون في " النيسروز "  
 يقول أبو بكر بن شاذبنة في مدح عبدالله بن إسماعيل البكالي  
 وتهنئته بالمهرجان :

أَنْتِمْ بِيَوْمِ الْمَهْرَجَانِ فَيَانَهُ  
 يَوْمٌ أَنْتَ بِهِ الزَّمَانُ جَدِيدُ  
 وَمَنْ فِي الْمَصِيفِ وَحَسْرَةٍ وَتَعَبٍ  
 وَأَتَى الْخَرِيفُ وَوَقْتُهِ الْمَحْمُودُ  
 إِنْ كَانَ هَذَا الْيَوْمُ عِيدًا لِلنَّوْرِ  
 فَبِقَاءِ عُمُرِكَ كُلِّ يَوْمٍ عِيدُ (٢)

وهما يكن من شيء ، فقد كانت ظاهرة التهنئة " بالنيسروز " ، و  
 " المهرجان " وتقديم الهدايا فيهما - أثرا من آثار الفرس في الحياة  
 العربية تلك الحياة التي اصطبلت بالروح الفارسية صبغة خالصة ..

(١) المصدر السابق ( ٢ : ٢٥٥ )

(٢) المصدر السابق ( ٣ : ٣٨٤ )

وقد ظهر صدى ذلك كله فى شأج الشمر\* ، ورسائل الكتاب  
فى تلك الحقبة .

وكانت ليلة " الوقود " التى كانت تعرف باسم " السّدق " - وهى  
من أحب الأعياد الفارسية إلى قلوبهم ، وأثارها عندهم - قد فتنتهم نيرانها  
المأججة ، وسهرهم شررها المتطاير ، فأقاموا حولها الملاهى وأكثروا من  
الصخب والضجيج ، وتسابقوا فى وصف الطبيعة من حولها ، وكان وصفها  
يقترن غالبا بالمديح والاطراء ..

فهذا ابن نباتة السمدى يمدح ضد الدولة ، ووصف نـار  
" السّدق " التى أشعل ضد الدولة أوارها ، وأجج شعلتها ، وأعلى لهيبها  
فيقول :

لَمَعَرَى لَقَدْ أَذَكَى الْهَمَامُ بِأَرْضِهِ  
مُشْتَهَرَةً يَتَقَابُهَا الْفَجْرُ صَالِيَا  
تَخِيبُ النُّجُومَ الزُّهْرُ عِنْدَ طُلُوعِهَا  
وَتَحْسُدُ أَيَّامَ الشُّهُورِ اللَّيَالِيَا  
هِيَ اللَّيْلَةُ الْفَرَاُ فِي كُلِّ شَقْسَةٍ  
تُفَادِرُ جَيْدَ الدَّمْرِ أَتْلَغَ حَالِيَا (١)

على أن السّالِمى كان من أكثر شمراء العراق إهجايا بهذه النار  
واحتفالا بها ، فأكثر من وصفها ، والحديث عنها .

وكان مفتونا بمنظر دجلة ، وقد انعكس ضوء النار على صفتها  
فحول لونه من فضة إلى ذهب ، وذلك حيث يقول :

(١) المصدر السابق ( ٢ : ٣٦٢ ) .

وَلَمْ تَرَ بَحْرًا جَرَى بِالدُّقَارِ  
 وَلَا ذَهَبًا صَيَّحَ مِنْهُ جَبَلٌ  
 إِلَى أَنْ جَمَرَتْ دِجْلَةُ فِي السَّمَاءِ  
 وَطَنَبَ بِالنُّورِ أَعْلَى الْقُلَلِ  
 سَحَابُ الدُّخَانِ وَرَقُ الشَّرَابِ  
 وَرَفَعَهُ الْمَلَأِي ، وَفِيهِ الْجَدَلُ  
 وَمَا زَالَ يَمْلُؤُ عَجَاجُ الدُّخَانِ  
 نَ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُ زَحَلٌ  
 فَكُنَّا نَرَى الْعَوْنَ مِنْ فَضْلِهِ  
 فَذَهَبَهُ النُّورُ حَتَّى اشْتَمَلَ (١)

وكثيرا ما كان منظر النيران على رؤوس الجبال ، وقم التلال يستولى  
 على شموه ، ويسيطر على قلبه . . . حتى حجب إليه عذاب النار ، وحتى  
 أقسم أن يجعل أنفـس أعضائه وقودا لها اذا خبت فيقول :

مَا زِلْتُ أَشْتَأُقُ نَارًا أُوقِدْتُ لَهَا  
 حَتَّى دَانَتْ عَذَابَ النَّارِ قَدْ عَذِبَا  
 قَدْ كَلَّتْ عَجَبًا بِالْيَسْكِ مُتَرَجِّا  
 وَطَوَّقْتُ جُلْنَارًا وَكُنْتُ ذَهَبَا  
 فَالنُّورُ يَلْمُبُ فِي أَطْرَافِهَا فَرَحَا  
 وَالْخَمْرُ يُرِيدُ فِي أَكْنَافِهَا رَهَبَا  
 وَطَارَ عَنْهَا شَرَابٌ لَوْ جَمَرَى مَمَّه  
 بَرَقَ دَنَا أَوْ تَلَقَّى كَوَكَبَا نَكَبَا  
 لَوْ كَانَ وَقْتُ نَشَارِ خِلَتِهِ دُرَرَا  
 أَوْ كَانَ وَقْتُ أَنْتِصَارِ خِلَتِهِ شُهَبَا

(١) المصدر نفسه ( ٢ : ٣٨٧ ) .



وَاللَّيْلُ مُرَّانٌ فِيهِ مِنْ مَالِيهِ  
نَشْوَانٌ قَدْ شَقَّ أَثْوَابَ الدُّجَى طَرِبًا  
أَقْسَمْتُ بِالطَّرْفِ لَوْ أَشْرَقَتْ حِينَ خَبَتْ  
جَعَلْتُ أَنْفَسَ أَغْضَائِي لَهَا حَظَبًا<sup>(١)</sup>

ولا شك أن الإعجاب بالنار ، والاحتفال بها ، وتقديسها ، إنما  
هو بقية من عبادة النار التي كانت معروفة قديما عند البابليين .

ولقد ظل هذا المعنى مترسبا في نفسية المجتمع الفارسي إلى ما  
بعد إسلامه بقرون . .

فلما استولى الفرس على مقاليد الأمور في بغداد ، وسيطروا على  
الخلفاء ، وأحيوا عاداتهم وتقاليدهم الفارسية من جديد طغت هذه  
الذات مرة على السطح وظهرت إلى عالم الوجود مرة ثانية . ولكن ليس نفس  
صورة عبادة وتقديس هذه المرة . فقد كان القيم مسلمين . ولكن في صورة  
إعجاب وإجلال وتعظيم . وفيه صدى ذلك واضحاً في أدب اليتيمة ، وما  
الأدب إلا صورة صادقة للحياة الاجتماعية في عاداتها ، وتقاليدها وسائر  
أمورها .

\*\*\*

وهناك جانب آخر في أدب اليتيمة ، يدل دلالة واضحة على تأثير  
الحياة المربية بالروح الفارسية . . آنذاك . . وهو تلك الألفاظ الفارسية  
التي انتشرت في قصائد الشعراء ، ورسائل الكتاب . .

والمتمعن لكتاب اليتيمة " - خاصة في الأبواب التي تتحدث

(١) المصدر السابق ( ٢ : ٣٨٢ ) .

عن الأدب في فارس والمراق — تصادفه طائفة ضخمة من الكلمات الفارسية التي اندست بين الألفاظ العربية من غير إشارة إلى أصلها الفارسي ، أو حتى التلميح بذلك .

والشعالي بدوره لم يعمد إلى شرح هذه الكلمات الأعجمية أو توضيحها — كما كانت عاداته دائما عندما كانت تطالعه كلمة غامضة ، أو لفظ غريب ، فانه كان يقوم بشرحها ، وتوضيحها كما فعل في قصيدة أبي دؤب — الخزرجي الساسانية حيث شرح جُلَّ كلماتها ، وفسر معظم ألفاظها ، على الرغم من أنها كانت ألفاظا عربية .

أما هنا فانه تجاهل الكلمات الفارسية ، وتركها من غير شرح ، أو توضيح ، مما يدل على شيوعها وانتشارها ومعرفة الخاصة والعامة بها ، وأنها لشهرتها لا تحتاج إلى تعريف بها أو إبانة لها .

ومثال ذلك قول ابن الحجاج الشاعر الماجن في وصف غلام أعجمي :

غُلَامٌ أَعْجَمِيٌّ فِيهِ ظَرْفٌ  
وَحِيدٌ بِالْتَلْطِيفِ وَالتَّانِي  
سَقَانِي دُوَّ وَسَا وَازْدَدَتْ مِنْهَا  
عَلَى مُكْرِي وَصَبَحَنِي بِهَفَّتِ (١)

فالكلمات : " دو " بمعنى : اثنين ، و " سا " : بمعنى : ثلاثة ، وهفت : بمعنى : المطر ، وهي جميعا ألفاظ فارسية .

ومعظم أبيات هذه القصيدة مطعم بالكلمات الفارسية . . . ولكنني

(١) المصدر السابق ( ٣ : ٨١ ) .

أُتِجَ من ذكرها ، أو الاستشهاد بها لأنها غاية في الفحش والعجون .  
وأحيانا كان الشاعر يعمد الى أبيات عربية فيترجمها الى الفارسية  
ويصوغها في قالب شعري كما فعل الشاعر الفارسي " المروفي " عندما  
قرأ أبيات أبي الحسن البديهي<sup>(١)</sup> الآتية في التشبيب :

وَلَمْ أَرِ لِي يَوْمَ الرَّجُلِ مَسَاعِدًا  
عَلَى الْوَجْدِ حَتَّى أَقْبَلَ الدَّمْعُ مَسْمِدًا  
وَكَانَ دَمًا فَابْيَضَ مِنْهُ أَخْيَرُّهُ  
بِنَارِ التَّمَايُ حِينَ قَاضَ مَسْمِدًا

فترجمها الى الفارسية في البيت الآتي :

خُونِ سَيِّدِ بَارَمِ بِرْدُورِ خَانِ زَرْدَمِ  
آرِي سَيِّدِ بَاشْدِ خُونِ دِلِ مَسْمِدِ<sup>(١)</sup>

\*\*\*

وكانت لعبة الشطرنج من الألعاب المروفة عند الفرس منذ  
القدم ، وكان جل الفاظها ، وصيغاتها - وما زال - فارسية ، ولقد أخذها  
المرب عنهم ، منذ قيام الدولة العباسية ، وأصبحت هذه اللعبة منتشرة  
في بلاط الخلفاء والحكماء ، فأقبلوا عليها يروحون بها عن أنفسهم  
ويروضون بها عقولهم ، ويتعلمون منها فنون الحرب ، وأساليب القتال .

وكان ملوك بني بويه من أشد حكام زمانهم حبا لها وتملقا بها ،  
وكان بعض الشمراء يلعبونها معهم ، ويمجبون بها ، ويصفونها فـسـى

(١) هكذا ورد اسمه في التهمة من غير قياس ، والا لقليل البدهي .

د / مرجحان

(١) المصدر السابق : ( ٣ : ٢١٠ ) .

أشعارهم .. متأثرين في ذلك بالروح الفارسية التي ألهمها أثر كبير في المجتمع العراقي ، والمجتمع الفارسي آنذاك ..

فهذا أبو القاسم الزهراني أحد شعراء فارس كان يحب هذه اللعبة ، وكثيرا ما كان يلعبها مع الحكام أمثال : عضد الدولة ، ووصفها في شعره كقوله :

فَأَقْبْنَا صُدُورَ فُرسَانَ حَرْبٍ  
تَقَرَّبَتْ خَلْفَ رَجَالَةٍ لَهَا لَا تَسِيرُ  
وَإِذَا اسْتَقْدَمَتْ <sup>تَقَرَّبَتْ</sup> الْخَيْلُ  
سَلَّ وَطَابَ الطَّرَاهُ وَالتَّصْمِيمُ  
فَالْتَقَى الْمَعَكَرَانِ فِي حُومَةِ النَّقْصِ  
سَحَابٌ أُسُودَ عَلَى أُسُودٍ تَحْمُومُ  
كُلُّ فِيلٍ نَجَتْ مِنَ الصَّلَامِ أَذْنَا  
وَأَوْرَى نَابَاهُ وَالْخُرْطُومُ  
وَطِيقَةُ إِذَا عَلَتْهُ الْمَسَاوِي  
غَابَ فِيهَا وَعَادَ وَهُوَ سَلِيمُ  
فَاخْتَلَطْنَا وَجَالَ فِي الْحَرْبِ فِرْزَا  
نَبِيٌّ وَقَالَ : الْكَيْمُ مَنْ لَا يَخِيمُ  
ثُمَّ نَادَى شَاهِي بَرْخِيهِ كُتْرَا  
لَيْسَ بَعْدَ الْوُقُوفِ إِلَّا الْهَجُومُ  
فَأَحَاظَا بِشَاهِنَا فِي مَضِيْقٍ  
صَاقَ كَرْمًا بِمِثْلِهِ الْمَكْظُومُ  
ثُمَّ أَرْجَمْتُهُ بِفِيلِي قَتَوِي  
مُسْتَكِينًا كَمَا يُولَى اللَّيْمُ



وَكَشَفْتُ الْمَرَاءَ عَنْ وَجْهِ رُخْسَى  
قَمَرَاءُ الْحَمَلُ وَهُوَ مُسْلِمٌ  
فَتَخَفْتُ مِنَ الْحَيَاءِ وَغَطَّتْ  
وَرْدَ خَدِّ كَأَنَّهُ مَلْطُومٌ  
ثُمَّ قَالَتْ : خُذِ الْفُؤَادَ سَلِيمًا  
إِنَّ حَبَسَ التَّرَهُونَ عَارًا وَلُسُومًا (١)

إنها لممركة حربية حامية الوطيس ، دارت رحاها على رقعة  
الشطرنج الضيقة بين اللاعبين الماهرين ، كل يحرك جنوده ضد عدوه ، ويرسم  
الخطط للنيل منه ، والإيقاع بقواده ، والانتصار عليه ..

وكانت هذه اللعبة بما اشتملت عليه من أسماء وألفاظ فارسية ،  
أثرا من آثار الفرس على المجتمع ظهر صداه واضحا في الأدب على النحو  
الذي شاهدناه ، لأن الأدب كان ، ولم يزل ظلا مكتفا للحياة الاجتماعية ،  
وصورة صادقة لها تعبر عن أفكارها ، وترسم آمالها ، وآلامها ، وترجم  
عاداتها وتقاليدها ..

ولقد كان الثمالي مدركا لهذه الحقيقة تمام الإدراك فقسم أبواب  
التيمة حسب الأقاليم إيمانا منه بأثر .. الأقليم في تناج شعرائه من الأدب ..

وأخيرا هناك اتجاه في أدب التيمة يدل - أيضا - على تأثر  
هذا الأدب بالروح الفارسية ، وهو كثرة الأمثال الفارسية الممربة ، ذلك أن  
الفرس قد عرفوا منذ القدم بالحكمة ، وحسن الرأي وسداد التفكير ، كما برعوا  
في ضرب الأمثال المستوحاة من طبيعة الفارسية ..

ولما كان كثير من الأدباء العرب في فارس والعراق يعرفون اللغة

(١) المرجع نفسه ( ٣ : ١١٣ ) .

الفارسية ويظلمون على آداب الفرس ، وتراثهم ، تولوا ترجمة طائفة ضخمة من الأمثال الفارسية إلى اللغة العربية ، وصاغوها في قوالب شعرية ، ليسهل حفظها ويكثر تداولها .

ولقد كان أبو الفضل المرزوقي الشاعر العربي المعروف من أكثر شعراء اليتيمة ميلا إلى الفرس ، وجبا لأدبهم ، وتعلقا بتراثهم ، وتشبها بحضارتهم فترجم إلى العربية مجموعة ضخمة من أمثالهم . . . وهي كثيرة ومتنوعة . . . وبعضها مستمد من البيئة الريفية أو الصحراوية كقوله :

نَالَ الْحِمَارُ مِنَ السَّقُوطِ فِي الْوَحَلِ  
مَا كَانَ يَهْوَى وَنَجَا مِنَ الْعَمَلِ

وقوله :

وَالْمَنْزُ لَا يَسْمَعُ إِلَّا بِالصَّافِ  
لَا يَسْمَعُ الْمَنْزُ يَقُولُ ذِي كَلَفِ

وقوله :

طَلَبُ الْأَعْظَمِ فِي بَيْتِ الْكِلَابِ  
كَطَلَابِ الْمَاءِ فِي لَمَحِ السَّرَابِ

وقوله :

إِدْعَى الثَّمَلُ شَيْئًا وَطَلَبَ  
قِيلَ : هَلْ مِنْ شَاهِدٍ ؟ قَالَ : الذَّنْبُ

وبعضها يتعلق بأسلوب المعاملة ، وآداب السلوك كقوله :

مِنْ مُثْلِ الْفُرْسِ ذَوِي الْأَبْصَارِ  
التَّوْبُ رَهْنٌ فِي يَدِ الْقَصَارِ

وقوله :

كَانَ يُقَالُ : مَنْ أَتَى خَوَاتِمَا  
مِنْ غَيْرِ أَنْ يُدْعَى إِلَيْهِ هَانَا

وقوله :

مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي بَيْتِهِ طَعَامُ  
فَمَالَهُ فِي مُحْفَلٍ مَقَامُ

ومعناها يصور نفسية المجتمع الفارسى ، وآماله ، وطموحه ، وثقافته ،  
وتجاربه فى الحياة كقوله :

أَعْظَمُ مَا فِي حَفَةِ اللَّيْلِ وَجْدُ  
اللَّيْلِ حُبْلَى لَيْسَ يَدْرِى مَا يَلِدُ (١)

وقوله :

إِذَا لَمْ تُطِقْ أَنْ تَرْتُقِ ذُرَّةَ الْجَبَلِ  
لِمَجْزٍ فَقِفْ فِي سَفْحِهِ هَكَذَا الْمَثَلُ (٢)

كان ذلك كله أثرا من آثار الفرس على المجتمع العربى فى كل من  
المراق وفارس ، تجلى واضحا فى هذا الأدب الذى صور عادات الفرس  
وتقاليدهم ، واحتفل بأعيادهم ومواسمهم ، ونشر لغتهم وألفاظهم على النحو  
الذى أوضحناه .

(١) هناك بيت عربى فى هذا المعنى يقول :  
والليالى من الزمان حُبَالَى \* مفعمات يلدن كل عجيب  
ولا ندري أيهما الاخذ من الثانى \* د / سرحان .  
(٢) أنظر البيتة ( ٤ : ٨٣ ، ٨٤ ) .

ولكن : هل استطاع ذلك التيار الفارسي الجارف أن يخمّد  
الروح العربية في فارس والمراق ؟ •

وهل اختفى حقا شعر الحماسة من الأدب العربي في تلك  
الحقبة ؟ •

ذلك ما سنحاول الإجابة عليه في الفصل القادم - إن شاء  
الله - ••

\*\*\*



## **:: الفصل الثانى ::**

### **" أثر الحياة المربية فى أدب اليتيم "**

على أن هذا التيار القوى من المادات والتقاليد الفارسية القديمة  
التي تحدث عنها في الفصل السابق ، لم يستطع أن يخدم الروح العربية  
ولا أن يمنع المد العربي من الانتشار والتدفق .

ذلك أن بعض العرب الذين عاشوا في فارس والمراق آنذاك ،  
قد آلمهم ما آل إليه أمرهم ، وعز عليهم تطاول الفرس عليهم ، فأخذوا  
يتظلمون إلى ماضيهم المجيد ، وينظرون عبر ذلك الماضي إلى مجد آبائهم ،  
وأجدادهم ، أولئك الذين أقاموا الدنيا ، وأقمدها بما حققوه من انتصارات  
في دنيا الفتوحات . . المادية أو الروحية ونقص عليهم حياتهم ما شاهدوه  
من ضعف الخلفاء ، وخضوعهم لملوك بني بويه الذين كانوا يتمصبون لبني  
جنسهم من الفرس ، وشجيمونهم على إحياء عاداتهم وتقاليدهم ، والاحتفال  
بأعيادهم ، ومواسمهم ، فطفت الروح الفارسية على المجتمع كله وضمت النمرة  
العربية في نفوس العرب ، وهجر معظم شعرائهم الفخر بمجد الآباء ، وتحول  
الأدب العربي إلى أدب ضعف وانحلال وسدح كله نفاق ومبالغة ، واقتصر  
الفرس بقوتهم ، وتحاملوا كثيرا على العرب . .

مثل هذا الواقع المؤلم الذي آل إليه أمر العرب في هذه البلاد ،  
دفع بعض أدباء العرب الذين يفارون على قوتهم إلى التملق بمرويتهم ،  
والتمصّب لها ، ورفض هذه الحياة الناعمة الماجنة التي كان الناس يجيئونها  
في تلك البيئة الجديدة ، تحت السيطرة الفارسية . .

ومن هؤلاء الأدباء شاعر عربي غيور عاش في بغداد في القرن  
الرابع الهجري ، وآلمه ما صار إليه أمر قومه في تلك البلاد ، فراح يمتزج  
بمرويته وتقاليدها الأصيلة ، ويتفنن ويطاول بماضى العرب ومآثرهم ، ويسخط  
على الحياة الفارسية ويترجم بالميش في بغداد التي يسيطر عليها السوالى  
من الفرس ، ويتطلع إلى مستقبل مشرق ، ومجد عريض ، وينحى باللائمة على

أبناء جلدته الذين غدوا كالنساء لا نخوة تحركهم ، ولا شهامة تثير فيهم  
الحماس ، وهذا الشاعر المريب الفيور على المروية والإسلام هو : أبو الحسن  
محمد بن الحسين الموسوي الملوى الملقب بالشريف الرضي وقد ولد ببغداد  
سنة تسع وخمسين وثلاثمائة للهجرة . . وكان شعره صورة صادقة لنفسه الأبية  
التي طبعت على الشم والأنفة ، وصقلت بالمزلة والكرامة ، وغذيت بالدماء  
المروية الحرة التي لاتعرف الخنوع ، ولا تألف الخضوع .

ولهذا جاء شعره صورة ناطقة بالجزالة المروية ، وقوة النظم  
ورصانة الأسلوب ، إلى احتوائه لتجارب الحياة ، ونقد المجتمع وشكوى الزمان ،  
والاعتداد بالفضيلة ، والتفنى بالمكارم ، والفخار بالمنصر المريب ، والاشادة  
بما كان له من عزة ومجادة و بطولة وأصالة ، جاوز صوتها فلك الجوزاء . .

وقد تجلت الروح المروية عند الشريف الرضي في ضيق الحياة  
البغدادية ، وتبرمه بالسيطرة الفارسية ، وحنينه إلى الحياة المروية الحرة  
في الجزيرة الفسيحة الرحبات ،

كذلك تجلت في اعداده بالآباء ، والأجداد ، والاشادة بآثرهم  
والإطراء لمحامدهم ، وطبائعهم النرزية .

وقد ارتسمت هذه المعاني على سفح شعره ، في التطلع إلى  
المعالي ، وعدم الرضا بالهزيمة في أي ميدان ، وفي تهنئة والده بالأيام  
الإسلامية كميدى الفطر ، والأضحى ، وفي شكوى الدهر ، والتمرد على  
الأوضاع القائمة . .

نعم . . لقد كان الشريف الرضي ضيق الصدر بالحياة البغدادية  
حتى كرهها ، وتمنى التزوج عنها ، والرحيل منها ، وهجر مراسمها والبعد عن  
ظواهرها ، التي تؤذي الميرون . .

وكثيرا ما كان يشكو قلة الأصدقاء ، وندور الأوفياء ، وينسى سوء  
حظّه ، في هذا ، ومع ذلك ظل قلبه معلقا بالمعالي ، مشربيا إلى المكارم  
منساقا في طريق المجد والمظمة وإنه ليقول مخاطبا مدينة بغداد :

تَوَقَّعِي أَنْ يُقَالَ قَدْ ظَنَّنَا  
مَا أَنْتِ لِي مَنَزَلًا ، وَلَا وَطَنًا  
يَا دَارُ قَلِّ الصَّدِيقِ فَصَا  
إِحْسِنُ وِدَا وَلَا أَرَى سَكَنًا  
كَيْفَ يَخَافُ الزَّمَانُ مَنْصَلَتُ  
مَنْ خَافَ غَدَرَ الزَّمَانِ مَا أَمِنَا  
لَمْ يَلْبَسِ الثَّوبَ مِنْ تَوَقُّعِيهِ  
لِلْأَمْرِ إِلَّا وَظَنَّهُ كَفَانًا (١)

ثم تهبجه ذكريات الماضي المجيد فينسى همومه ، ويتطلع إلى  
مشارف الملا ، وأرائك المجد ، ويفتخر بنفسه ومقامه فيقول :

لِي مُهْجَةٌ لَا أَرَى لَهَا عِوَضًا  
غَيْرَ بُلُوغِ الْمَلَا وَلَا ثَمَنًا  
مَا ضَرَبْنَا أَنْتَنَا بِلَا جِدَّةٍ  
وَالْبَيْتُ وَالرُّكْنُ وَالْمَقَامُ لَنَا  
سَوْفَ تَنَرَى أَنَّ تَيْمَلَ آخِرَنَا  
مِنْ الْمَلَا قَوْقَ نَيْلِ أُولِنَا  
وَأَنَّ مَا بَرَزَ مِنْ مَقَادِمِنَا  
يُخَلِّفُهُ اللَّهُ فِي آوَاخِرِنَا (٢)

(١) المرجع السابق ( ٣ : ١٢٤ ) •

(٢) المرجع نفسه ( ٣ : ١٢٤ ) •



وإذا كان الشريف يتألم مر الألم ، ويتمرد على الحياة البغدادية  
ويتغنى بشرف نسيبه ، وكرم آبائه ، فما ذاك إلا لأنه كان يرى نفسه أهلاً  
لكل فضل ، ولم لا يكون ذلك وقد عاش في عصر انقلبت فيه الأوضاع ، وتبدلت  
الأحوال ، وانعكست الموازين ، واهتزت القيم ، ووصل فيه إلى الملك من هم  
دونه نسيباً وحسباً وشرفاً ومجداً وكفاً ومقدرة ؟؟

لقد وصل إلى الملك من كان حجاجاً ، وإلى الإمارة من كان  
خطاباً ..

فلا عجب أن يسخط الشريف على وضعه وأن يضيق ذرعاً بالحياة  
والأحياء ، في ظل هذه الأوضاع الذليلة التي كرهها وتنى الخلاص منها  
فيقول :

أَلَا لَا أَهْدُ الْعَيْشَ عَيْشًا مَعَ الْأَدَى  
لَأَنَّ رَقِيقَ الدَّلِّ حَيٌّ كَيْتٌ  
تَخَوَّفَنِي بِالْمَوْتِ وَالْمَوْتُ رَاحَةٌ  
لِمَنْ سَلَّ عَزْمِي قَلْبُهُ يَمْلُ هَمِّي (١)

وهذه الهموم التي سيطرت على قلب الشريف ، وأحالت حياته  
إلى جحيم لا يطاق هي التي عجلت بمشييه قبل الأوان وجعلته يشيب وهو  
ابن عشرين :

عَجَلْتَ يَا شَيْبُ عَلَى مَفْرِقِي  
وَأَيُّ عُدْرٍ لَكَ أَنْ تَفْجَلَا  
فَكَيْفَ أَقْدَمْتَ عَلَى عَارِضٍ  
مَا اسْتَفَرَّقَ الشَّمْرَ وَلَا اسْتَكْمَلَا

كَتُّ آرَى الْمُشَرِّينَ لِي جُنَّةٌ  
 مِنْ طَارِقَاتِ الشَّيْبِ إِنْ أَقْبَلَا  
 فَالآنَ سَيَّانِ ابْنُ أُمِّ الصَّصَا  
 وَمَنْ تَسَدَّى الْمُرَّ الْأَطْوَلَا (١)

" لقد كان شعر الشريف في أكثر أغراضه يمثل ظاهرة أدبية قائمة بذاتها تهدف إلى تصوير ما كان يختلج نفوس طبقة معينة من آلام وآمال وأغنى بهذه الطبقة ، أولئك المرب المفلولين على أمرهم في ميدان الحياة السياسية ، والاجتماعية فقد كانوا ينظرون إلى الحاضر وما أصابهم فيه على يد الأعاجم من فشل وإخفاق فيجزعون ويألمون ، وكانوا يتطلعون إلى المستقبل فداعبهم الأحلام بالظفر والنجاح فيطمعون ويألمون " (٢) .

ولذلك لا تعجب إذا ما رأينا الشريف يكثر من الفخر في شعره والإشادة بعآثر قومه الذين كانوا يشعمرون بالهوان ، تحت وطأة السلطان الفارسي في هذه البلاد . . . . وكان يرى نفسه أهلا لكل فخر ، ولم لا ؟ أليس من بنى هاشم الكرم الذين تمنعوا ذرأ المجد في الجاهلية والإسلام وفي ذلك يقول :

أَنَا ابْنُ الْأَنْجَبِ مِنْ هَاشِمٍ  
 إِذَا لَمْ تَكُنْ نَجَبٌ مِنْ نَجَبٍ  
 ثَلَاثُ بَرْوَدِهِمْ بِالرَّيَّاحِ  
 وَلَمْ يَوِّعَا عَائِمِهِمْ بِالشَّهَبِ  
 عِتَاقُ الْجُجُوءِ وَجُفَى الْجِيَا  
 فِي النَّصْرِ يَمْرُفُهُمْ بِالْقَبَبِ (٣)

- |     |                                                    |
|-----|----------------------------------------------------|
| (١) | نفسه ( ٣ : ١٢٤ ) .                                 |
| (٢) | الأدب في ظل بني بويه ( ص ١٦٣ ) .                   |
| (٣) | جمع قب بكسر القاف وهو المعظم الناتق بين الالبتين . |

يشف الوضأ خلال الشحو  
ب منها وخلف الدخان اللهب (١)

ولأن الشريف ينتسب إلى بنى هاشم الذين ينتسب إليهم المباسيون  
كان يرى نفسه في منزلق لا تقل عن منزلة الخلفاء ، ويرى أنه لا يختلف  
عنهم في شيء إلا في الخلافة ، فهم يتحلون بها على حين كان الشريف  
عاطلاً منها ..

وقد تجلت هذه النظرة من جانبه في مخاطبته للخليفة القادر  
بالله حيث يقول له :

عطفًا أمير المؤمنين فإننا  
في دوحة الملياء لا نتفرق  
ما بيننا يوم الفخار تفارقت  
أبدًا كلانا في المعالي مفرق  
إلا الخلافة ميزتك فإنني  
أنا عاطل منها وأنت مطوق (٢)

وكان يرى أنه ينتسب إلى دوحة عالية الأغصان طيبة الثمار وأن غيره  
من أبناء عصره لا يدانيه في ذلك ولا يقاربه .. فيقول :

لنا الدوحة الملياء التي تزعت لها  
إلى المجد أغصان الجدود الأطياب  
إذا كان في جؤ السماء عروقه  
فأين عواليها وأين الذوائب (٣)

- 
- |     |                       |
|-----|-----------------------|
| (١) | اليتيمة ( ٣ : ١٣٠ ) . |
| (٢) | نفسه ( ٣ : ١٢٤ ) .    |
| (٣) | نفسه ( ٣ : ١٣٥ ) .    |

وكان يرى - كذلك - أنه سهلٌ تحدّر من ظهر أسود شجمان  
ومن كان هذا شأنه لا ينحنى لمخلوق ، ولا يذل لإنسان وذلك حيث  
يقول :

أَكَابِرُنَا وَالسَّابِقُونَ إِلَى الْمَلَا<sup>١</sup>  
أَلَا تِلْكَ آسَادٌ وَنَحْنُ سُجُودٌ لَهَا  
وَإِنَّ أَسْوَدًا كُنْتُ شَيْلًا لِبَعْضِهَا  
لِمُحَقَّقَةٍ أَلَّا يَذِلَّ قِيَمِلُهَا<sup>(١)</sup>

وليس بعيد أن يكون الشريف قد حدّث نفسه بالخلقة ، أو متى  
نفسه بالملك ، والوزارة ، فلقد دارت هذه الأفكار برأسه وطوّفت في فؤاده  
وألحت على عقله ، وتملكت عاطفته ، فكرس حياته ، من أجلها ، وجعل أيامه  
وقفا عليها ، فمزف عن حياة المبحث وحذف من مسارات اللهو والمجون ،  
وانصرف إلى حياة الجد والكفاح وركوب الأخطار ، وتحمل الأهوال ، وتجثم  
الصعاب ، وجبر عن ذلك في شمره ، دون خوف ولا وجل ، وأعلن أنه على  
استعداد لبذل النفس ، والنفيس من أجل تحقيق غايته المنشودة ، وهدفه  
الأسنى ، حيث يقول :

سَابِدُلْ دُونَ الْمَرْءِ أَكْرَمَ مَهْجَةٍ  
إِذَا قَامَتِ الْحَرْبُ الْمَوَانُ عَلَى رِجْلِي  
وَمَا ذَاكَ أَنَّ النَّفْسَ غَيْرُ نَفْسِي<sup>٢</sup>  
وَلَكِنْ رَأَيْتُ الْجَبْنَ ضَرْبًا مِنَ الْبُخْلِ  
وَمَا الْمَكْرَهُونَ السَّمْعُورِيَّةَ فِي الطَّلَى  
بِأَشْجَعِ مِمَّنْ يَكْرَهُ الْمَالَ بِالْبَذْلِ<sup>(٢)</sup>

(١) نفسه ( ٣ : ١٢٦ ) .

(٢) اليتيمة ( ٣ : ١٣٢ ) .



وكثيرا ما كانت هذه الأمنية تلح عليه ، وتطارده في اليقظة ،  
والنوم فيشمر عن ساعد الجدة ، ويطلب من قومه أن ينفروا معه خفافا لملاقاة  
العدو ويقسم أنه سيبدل النفس رخيصة في سبيل تحقيق غايته فيقول :

حَذَفْتُ فُضُولَ الْمَيْشِ حَتَّى رَدَدْتُهَا  
إِلَى دُونِ مَا يَرْضَى بِهِ الْمُتَمَقِّفُ  
وَأَمَلْتُ أَنْ أَجْرِيَ خَفِيفًا إِلَى الْمَلَا  
إِذَا شِئْتُمْ أَنْ تُلْحِقُوا تَحَفُّفًا  
حَلَفْتُ بِرَبِّ الْبُذُنِ تَدْنِي نَحْوُهَا  
وَالنَّفَرِ الْأَطْوَارِ لَبَّؤَا وَعَرَفُوا  
لَا تَبْذُلَنَّ النَّفْسَ حَتَّى أَصَوْنَهَا  
وغيرى في قَيْدٍ مِنَ الذِّلِّ يَرْسُفُ

ثم يتحسر على فوات الفرص وضياعها منه في الماضى فيقول :

نَقَدْتُ طَالَمَا ضَيَّعْتُ فِي الْمَيْشِ فُرْصَةً  
وَهَلْ يَنْفَعُ الْمَطْهُوفَ مَا يَتْلِفُ (١)

ثم يعيب على قومه قعودهم ، وتخاذلهم عن نصرته ، وأناسهم  
يتظلمون إلى الملا من غير سعى ، ويؤكد أنه لن يكون مثلهم متخاذلا  
كسولا ، ولكنه سيضئ لتحقيق هدفه من غير فتور ، ولا ملل فيقول :

بَنُو هَاشِمٍ عَيْنٌ وَنَحْنُ سَوَادُهَا  
عَلَى رَغْمٍ مِنْ يَأْبَى وَأَنْتُمْ قَذَائِهَا  
وَأَعْجَبَ مَا يَأْتِي بِهِ الدَّهْرُ أَنْكُمْ  
طَلَبْتُمْ عَلَاً مَا فِيكُمْ أَدَوَاتُهَا

(١) نفسه ( ٣ : ١٢٦ ) .

وَأَمَلْتُ أَنْ تُدْرِكُوها طَوَالِها  
 دُعُوها سَيَعْمَى لِلْمَالِ سَعَاتُها  
 غَرَسْتُ غُرُوسًا كُنْتُ أَرْجُو لِقَاحَها  
 وَأَمَلْتُ يَوْمًا أَنْ تَطِيبَ جَنَاتُها  
 فَإِنْ أَثَرْتُ لِي غَيْرَ مَا كُنْتُ آمِلًا  
 فَلَا ذَنْبَ لِي إِنْ حَنَظَلْتُ نَخْلَاتُها<sup>(١)</sup>

إنها لزفرة حارة ، وعاطفة جياشة وشعور ملتهب ، صورتها هذه  
 القطعة تصويرا حيا ينير الإعجاب بالشاعر المربي الطمّاح ، الفيور على  
 عروسته التي وجدها تُطْمَنُ في كرامتها ، وسيادتها من أبناء فارس الذين  
 كانوا من قبل موالى للمرب يدينون لهم بالطاعة والخضوع . .

كل هذه المعاني جملة بيدع في تصوير ما يختلج في قلبه من  
 آمال ، وآلام ، ويخبر قومه في المقطوعة الحماسية الآتية أنه بَالِغٌ غَايَتَهُ  
 لا محالة ، اذا كان في العمر بقية ، وقد الله في أجله حيث يقول :

سَتَمْلُونِ مَا يَكُونُ مِنِّي  
 إِنْ مَدَّ مِنْ ضَمِي طَوَالَ سِنِي  
 أَدْعُ الدُّنْيَا وَلَمْ تَدْعُ مِنِّي  
 وَسَمْتُ أَبَايَ وَلَمْ تَسْمِنِي  
 أَفْضَلُ عَنْهَا وَتَضِيقُ عَنِّي<sup>(٢)</sup>

ونحن نتساءل - بعد أن وصلنا إلى هذا الحد من دراسة شعر  
 الشريف واتجاهاته ، وعرفنا نواياه ، ورغباته ، وأدركنا سر آلامه وطموحه -  
 هل كان الشريف حقا فارسا منوارا ؟ وهل كان قائدا حربيا ماهرا ؟

(١) نفسه ( ٣ : ١٢٧ ) .

(٢) نفسه ( ٣ : ١٣١ ) .

وهل كان حقا يمد المدة للانقضاء على بنى بويه ومحاولة إرجاع ملك العرب ؟؟

وهل كانت لديه خطط حربية واقمية كما يقول ؟؟

وهل كانت عنده الجيوش الكافية للقيام بمثل هذه المهمة الخطيرة ؟؟

لم أنها كانت مجرد أحلام ، وأوهام ، ورغبات مكبوتة في نفس الشاعر ، وفي عقله الباطن .. ألحت عليه ، ودأبت خياله فتحدث عنها في شعره ، وجرت على طرف لسانه ، وشبا قلعه ؟ كما كان يفعل المتنبي الذي قال عنه الثعالبي في " اليتيمة " ..

" وما زال في مُرْدٍ صَبَاءٍ .. إلى أنْ أخلَقَ بُرْدَ شَبَابِهِ ، وتضاغت  
عقودُ عمره ، يدور حب الولاية والرياسة في رأسه ، ويظهر ما يضر من كامن  
وساوسه ، في الخروج على السلطان ، والاستظهار بالشجمان ، والاستيلاء  
على بعض الأطراف ويستكثر من التصريح بذلك في شعره كقوله :

سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالْقَنَاءِ وَشَانِي  
كَأَنَّهُمْ مِنْ طَوْلِ مَا أَلْتَمَعُوا مُسَرَّدُ  
يَقَالُ إِذَا لَاقَوْا ، خِفَافٌ إِذَا دُعُوا  
كَثِيرٌ إِذَا شَدُّوا قَلِيلٌ إِذَا عُدُّوا  
وطمن كَأَن الطَّمَنَ لَا طَمَنَ بَعْدَهُ  
وضرب كَأَن النَّارَ مِنْ حَتَرِهِ بَرْدُ

وقوله :

فَلَا تَحْسِبَنَّ الْمَجْدَ زَقَاً وَقَيْنَةً  
فَا الْمَجْدُ إِلَّا السِّيفُ وَالْفَتَكَةُ الْبَكْرُ

وتضربُ أعناقَ الملوكِ وأن تُسرى  
لكَ الهَبَّاتُ السُّودُ وَالْمَسْكِرُ الْجَرُّ  
وتركك في الدنيا دنيًا كأنَّما  
تَدَاوَلَ سَمْعُ المرءِ أَنَّهُ الْمَشَرُّ (١)

أغلب الظن أن الشريف كانت عنده رغبة حقيقية لتحقيق هدفه  
في الوصول إلى الملك والسلطان ، وإرجاع (\*) هبة المرب في هذه البلاد  
— كما كانت تلك الرغبة حقيقية في نفس المتنبي ، وكان الدافع عند الشعراء  
واحداً ..

فالمتنبي المربي الصميم كان يرى نفسه متفوقاً على أقرانه ولداً  
عصره ، وكان ينظر فيما حوله من الممالك الإسلامية فيشاهد عجايباً (١) .  
يرى الأعاجم قد سيطروا على مقاليد الأمور ، واستأثروا بالنفوذ  
والسلطان دون المرب ..  
ويرى كافوراً الإخشيدي — ذلك — المبد الخصى الذي كان حجاجاً  
— يتربع على عرش مصر ..

ويرى بنى بويه الذين كان أبوهم صيادا للسمك في بلاد الديلم  
قد سيطروا على فارس والمراق ..

فلا عجب أن تثور نفس المربية الأبية ضد هذه الأوضاع  
المعكوسة .. تلك الثورة التي نفست عليه حياته ، وجعلتها جحيماً لا يطاق

(١) اليتيمة ( ١ : ٩٤ ) .  
(\*) المشهور : رحمه يرحمه — من باب ضرب ، أما أرجع الرباعى  
فلغة هذيل ، وهي فصيحة . د / سرحان .



لأنه لم يكن يملك الوسائل الكافية لتحقيق غرضه ، والوصول إلى هدفه ،  
فما شح حزينا كاسف الهال .. مكلوم الفؤاد يسيطر عليه الفشل والشعور بالمجزء .  
والدواقع نفسها كانت تسيطر على روح الشريف . مع البون الشاسع بين  
الرجلين ، فالشريف كان له من شرف النسب وعراقة الأصل ما يجعله أهلا لكل  
فخر ..

أما المتنبي فمع طمو قدره ، ومجد همته ، وقوة شاعريته كان ابن سقاء  
بالكوفة على ما يقول الرواة ..

وكان الشريف ينتمى إلى الدوحة النبوية المباركة ، ويحظى باحترام  
المسلمين ، وتقديرهم في كل مكان ..

وكان يرى أن من سخرية الأليم أن يسبقه في موكب الحياة من هم دونه  
نسبا وحسبا وسيادة .. فتطلعت نفسه الأبية إلى تغيير واقعه الأليم ، ولو بالقوة  
السلحة ، ودارت هذه الأفكار في رأسه ، وترجمها في شعره ولكنه ، ما كاد يبدأ  
في تنفيذ هذه الخطط ، وأبرز تلك الأفكار إلى حيز الوجود حتى اصمم بمواقف  
سياسية واجتماعية حالت بينه وبين ما يريد ..

فلم يكن هناك في تلك البيئة المراقية والفارسية من ي مطف على المرب  
أو يرفع حقوقهم ، أو يحفظ عهدهم فالخليفة المباسى محجور عليه ، والمنصر المرسى  
منلوب على أمره ..

وكان الملوك ، والوزراء ، والقادة جميعا من عناصر أعجمية .. فانطوى  
الشريف على نفسه ، بحد أن هو للنصير ، وقل الممين وأخذ يضع آلامه ، ويجتر  
أحزانه ، وتسيطر عليه الهواجس والأراجيف ، وشعر بخيبة أمل ، وسواد مصير ،  
فركبته الهموم ، وشاب رأسه من قبل المشيب ، وأنه ليقول ممبرا عن ذلك :

تُجَاذِبُنِي يَدُ الْإِلَهِ نَفْسِي  
 وَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهَا الْفَلَاحُ  
 نَهَضْتُ وَقَدْ تَمَدَّنَ بِي اللَّيَالِي <sup>(٥٤)</sup>  
 فَلَا خِيْلُ أَعْرَءٌ وَلَا رِكَابُ  
 وَمَا ذَنْبِي إِذَا أَتَقَتِ خُطُوبُ  
 مُغْلَضِبَةٍ وَأَيْلَمُ غَضَابِ  
 وَمَعُزُّ الْمُتَمِّ مَأْتِرَةٌ وَفَخْرُ  
 وَمَعُزُّ الْمَالِ مَنْقَصَةٌ وَعَابُ  
 بَنَانِي وَالْمِنَانُ إِذَا نَبَتْ بِي  
 رَبِّهَا أَرْضِيورْجِلِي وَالْتَرَكَابُ  
 سَوَاءٌ مَنْ أَقَلَّ التُّرْبَ مَنْهَا  
 وَمَنْ وَارَى مَعَالِمَهُ التُّرَابُ  
 وَإِنْ مَزَايِلَ الْقَبْرِ اخْتَصَارًا  
 مَسَاوِلِ الَّذِينَ بَقُوا فَشَابُوا  
 وَأَوَّلْنَا الْمَنَاءُ إِذَا طَلَمْنَا  
 رَأَى الدُّنْيَا وَآخِرْنَا الذَّهَابُ  
 وَإِنْ مَقْلَمٌ مِثْلِي فِي الْأَعْيَادِ  
 مَقْلَمُ الْبَدْرِ تَنْهَضُ الْكِلَابُ  
 رَمُونِي بِالْمَيُكُوبِ مَلْفَقَاتِ  
 وَتَسْطِغُوا بَانِي لَا أَعَابُ

(٥٤) هذا التركيب جاء على لغة "أكلوني البراغيث" وهي لغة بعض  
 العرب وعلينا في رأي أصحابها قول الله تعالى "وَأَسْرُوا النَّجْوى  
 الَّذِينَ ظَلَمُوا" د / سرحان

وَأَنْتَى لَا تُدَنْسُنِي الْمَخَازِي  
وَأَنْتَى لَا يُرَوِّعُنِي السَّبَابُ  
وَلَمَّا لَمْ يَلَاقُوا فِي سَعْيَا  
كَتُونِي مِنْ عُيُوبِهِمْ وَغَابُوا (١)

إنها لنفمة حزينة باكية ، وزفرة حارة ثائرة ، أرسلها الشاعر من صدر  
سيطرت عليه الهيم ، ونفس عذبتها الآلام ، وقلب استبدت به الأحزان ،  
وتكالت عليه الخطوب ، وتأمر عليه الأعداء ، وألصقوا به الميوب ، ودنسوا  
بالمخازي ، ونفقوا له الأكاذيب ، فأصبح غريبا في وطنه ، وحيدا بين أهله وخيرته  
ولكنه على الرغم من ذلك مازال عالي الهمة ، مرفوع الهامة ، مستوى القامة كالهدر  
في كبد السماء ، تنهحه الكلاب ، ولكن هيهات الوصول إليه ، والنيل منه ، والخط  
من قدره والنزول بقيته . .

إن حالة الشريف النفسية التي صورتها تلك المقطوعة من شعره لتذكرنا  
بحالة أبي فراس الحمداني عندما كان أسيرا في بلاد الروم ، حيث كان يشعر  
بالمرارة ، ويحس بالحسرة ، ويرسل الآهات الحارة ، والزفرات الملتهبة ، ويمزى  
نفسه ويواسيها ، ويرجع أسباب وقوعه في الأسر الى سوء الحظ ، وعذر الزمان  
حيث يقول :

أُسِرْتُ وَمَا صَحْبِي يُعْزِلُ لَدَى الْوَغَى  
وَلَا فَرَسِي مُهْرٌ وَلَا رَيْثُهُ غُرٌّ  
وَلَكِنْ إِذَا حُمَ الْقَضَاءُ عَلَى أَمْرِي  
فَلَيْسَ لَهُ بَرِّيْقِيهِ وَلَا بَحْرٌ (٢)

(١) اليتيم ( ٣ : ١٣١ ) .

(٢) اليتيم ( ١ : ٦٣ ) .

وانها لتذكرنا بحالة البارودي في منفاه عقب الاحتلال الإنجليزي لمصر  
في مصر الحديث ، فقد عاش مأساة حقيقية وانفعل بأحداثها ، فمهر عنها أصدق  
تمبير ، وكان تصويره للأحداث تصويرا ذوقيا ، ورسم شخصيا يفصح عن شعوره ، ويوضح  
عواطفه الصادقة ، ويمثل نفسه بالصبر ، ويواسي احساسه بالفخر ويتمنى من خالقه  
انكشاف الكرب ، وزوال الهم .

عَلَى طَلَابِ الْمَرْمِيَنَّ مُسْتَقْبَرَهُ  
وَلَا ذَنْبَ لِي إِنْ عَارَضْتَنِي الْمَقَادِرُ  
فَمَا كُلُّ مَحْلُولِ التَّرِيكَةِ خَائِبٌ  
وَلَا كُلُّ مَحْبُوكِ التَّرِيكَةِ ظَافٍ مُ  
وَلَوْ رُمْتُ مَا رَأَى أَسْرُؤُ بِخِيَانَتِهِ  
لَصَبَحْتَنِي مُسْطَمِنَ النَّالِ وَاقِرُ  
فَقَدْ يَحْتَجُّ الْمَالُ وَالْمَجْدُ غَائِبٌ  
وَقَدْ لَا يَكُونُ الْمَالُ وَالْمَجْدُ حَاضِرُ  
وَلَوْ أَنَّ أَسْبَابَ السَّيَادَةِ بِالْفَنَنِ  
لَكَثَرَتْ رَبُّ الْفَضْلِ بِالْمَالِ تَاجِرُ  
فَلَا غَرَّ أَنْ حَزَّتْ الْمَكَارِمَ عَارِيَتَا  
فَقَدْ يَشْهَدُ السَّيْفُ الْوَعَى وَهُوَ حَاسِرُ  
أَنَا الْمَرْءُ لَا يَتْنِيهِ عَنْ دَرْكِ الْمُسْلَا  
نَعِيمٌ وَلَا تَعْدُو عَلَيْهِ الْمَفَاقِرُ  
فَسَوْفَ يَبِينُ الْحَقُّ يَوْمًا لِنَاطِيرِ  
وَتَنْزُؤُ بِمَوْرَاءِ الْحَقُودِ السَّرَائِرُ  
وَمَا هِيَ إِلَّا غُرَّةٌ نَمَّ تَنْجَلِيْسِي  
غَيَابَتُهَا وَاللَّهُ مِنْ شَاءَ نَاصِرُ (١)



ان حالة الرجلين واحد ، في الموقنين ، فالشريف يشمر بالغربة في بلاد يحكمها  
الفرس ، ويتحكم في مقدراتها العجم ، فيتبرم بالحياة والأحيا ، في هذه البيئة الجديدة  
ويحس بخيبة الأمل بعد أن فشل في تحقيق آماله وأحلامه ، فينطوى على نفسه يجتر  
آلامه ، ويلحق همومه ، ويملك أحزانه ، ويرسل النفقات الحزينة ، والزفرات  
الحارة ، التي تصور حالته النفسية أصدق تصوير ، ويمزق أسباب فشله الى غدر  
الأيام وتآمر الخطوب ..

وأما البارودي فقد كان قائدا عظيما ، ورؤسا خطيرا وشاعرا فحلا  
فأصبح أسيرا في " سرنديب " وعثر له الصديق ، وندر الرفيق وقل معه المميـــــن ،  
وتحطمت منه الآمال .. فأخذ ينص حظه ، ويعزى نفسه بالتعلق بأسباب العيادة ،  
والفخر بالفضل والشرف ، ويسلم وجهه لله تعالى ، ويتشبث بالإيمان به ، والتوكل  
عليه ، لأن الايمان يهدو اليأس ، ويثبت في النفس الأمل والعزم ، ومن لم يلجأ  
إلى الله ليحتس به من مصائب الحياة فهو فيها من الخاسرين ..

ولى أَمَلٌ فِي اللَّهِ تَحْيَا بِهِ الْمُنَى  
وَيُشْرِقُ وَجْهَهُ الظَّنَّ وَالْخَطْبُ كَاشِرٌ  
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَرْكُنْ إِلَى اللَّهِ فِي السَّيِّئِ  
يَحَازِرُهُ مِنْ دَهْرِهِ فَهُوَ خَاسِرٌ (١)

وهذا تماما ما فعله الشريف من قبل عندما يشر من تحقيق آماله هلهو غ  
أهدافه ، فانه ركن إلى الله ، واتجه إليه بقلبه وجوارحه .. وأخذ يواسى نفسه ،  
ويمزيها ، ويذكر أن بقاء الإنسان في الدنيا محدود ، وأن اللجوء إلى الله خير  
علاج للجسم المكدود ، والنفس الممذبة النائرة :

(١) ديوان البارودي ( : ١٤١ ) .

إِنْ أَنْتَبَ الْخَطْبُ فَلَا رُؤْعَةَ  
أَوْ عَظَمَ الْأَمْرُ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ  
فَلِيَهِنَ الْمَرْءُ بِأَيَّامِهِ  
إِنْ مَقَامَ الْمَرْءِ فِيهَا قَلِيلٌ  
إِنَّا إِلَى اللَّهِ وَإِنَّا لَآلِهِ  
وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١)

وأغلب الظن أن فاضل الشريف السياسي ، وشموه بضمف العرب فسي  
المراق وفارس هو الذي دفعه إلى الإكثار من شعر الحماسة والفخر ، والاشادة  
بمآثر العرب ، والتفنى بمجودهم وكان ذلك من باب رد الفعل الطبعي على سيطرة  
الفرس وهيمنة النظم الفارسية على المجتمع آنذاك . .

\* \* \*

على أن الشريف الرضي لم يكن فريدا في هذا الباب . . ولم يكن وحده  
هو الشاعر الذي يهجر عن الروح العربية الكامنة تحت الرماد ، وإنما كان مثله فسي  
ذلك نخوة أبو القاسم علي بن الحسين الملقب بالشريف المرتضى . . الذي كان  
كأخيه الرضي يشمر بالخربة في المجتمع المراق ويحن دائما إلى منبت الآباء والأجداد  
في الجزيرة العربية موطن العرب الأجداد ، وكان يتحرق شوقا إلى هذه المواطن  
الغالية . . في مثل قوله :

أَحِبُّ ثَرَى نَجْدٍ وَنَجْدٌ بِمِيسَدَةٍ  
أَلَا حَبْدًا نَجْدٌ وَإِنْ لَمْ تُفِدْ قُرْبًا  
يَقُولُونَ نَجْدٌ لَسْتَ مِنْ شَمْبٍ أَهْلَهَا  
وقد صدقوا لكن لي فيهم جبا

كَأَنِّي وَقَدْ فَارَقْتُ نَجْدًا شَقَاوَةً  
فَتَى ضَلَّ عَنْهُ قَلْبُهُ يَنْشُدُ الْقَلْبَا (١)

وكان كأكبيه وكالتنبي من قبل - يمشق البدويات ، ويهيم وجدا  
بالنجديات ، ويفضلهن على المراقيات والفارسيات اللاتي أبسدتهن الحضارة ،  
وسيطرت عليهن الروح الفارسية ، ولهذا كان يرسل إلى ظباء نجد عبر  
الأثير غزلا عذبا رقيقا من قلب أضواء الوجد ، وعذبه الهوى ، ونفس مزقتها  
الفرقة وقتلتها الوحدة ، فلم تعد ترى جمالا إلا في موطن الأحبة من أرض  
نجد :

أَلَا يَا نَسِيمَ الرِّيحِ مِنْ أَرْضِ بَابِلٍ  
تَحْتَلُّ إِلَى أَهْلِ الْخِيَامِ سَلَامِي  
وَقُلْ لِحَبِيبٍ فِيكَ بَعْضُ نَسِيمِي  
أَمَا أَنْ أَنْ تَطِيعَ رَجْعَ كَلَامِي ؟  
وَإِنِّي لَأَهْوَى أَنْ أَكُونَ بِأَرْضِكُمْ  
عَلَى أَنْيِّ مِنْهَا اسْتَفَدْتُ سَقَامِي (٢)

ومهما يكن من شيء فقد كانت هذه الأصوات المتردة على السطح  
الفارسية تمثل طبقة المرب المنلوثة على أمرها في هذه البلاد ..

تلك الطبقة التي كانت لها من قبل السيادة المطلقة على هذه الأقاليم  
وكانت تنظر إلى غيرها من الموالى نذارة السيد للمسود ، حتى ولو كانوا مسلمين .  
وإذا بالأيام تتبدل ، وبالأوضاع تتغير ، وإذا بهؤلاء الموالى يصبحون  
سادة في هذه الأصقاع ، وإذا بهم يحيون عاداتهم وتقاليدهم القديمة ، ويمارسون  
طقوسهم الدارسة على مرأى وسمع من الجميع .. ما أزعج كل مسلم ، وأقلق

(١) تنمة البيت ( ١ : ٥٢ ) .

(٢) المرجع السابق ( ١ : ٥٢ ) .

كل عرس غيور على دينه وعروته كالشريف الرضى وأخيه الشريف المرتضى ..

على أن هناك من الشخصيات العربية من عاش في الأضواء الفارسية  
البعيدة وتمرد على هذا التيار الفارسي الوثني الجارف .. ومنهم بديع  
الزمان الهمداني الذي تصدى للفرس ، وانبرى لهم وأخذ يدافع عن الإسلام ،  
ويشيد بالمرب ، ويذم الفرس ، ويسخر من عاداتهم ، وتقاليدهم ، وأعيادهم .  
فكتب رسالة طويلة في معنى " السّدق " تمصب فيها للمرب  
وللإسلام على الفرس والمجوس تمصبا شديدا .

وقد جاء في هذه الرسالة قوله :

" هذا هو المبد ، وذلك هو الضلال البعيد ، إنهم يشبّون نارا  
هي موعدهم والنار في الدنيا عيدهم ، والله إلى النار يعيدهم ، ومن لم  
يلبس مع اليهود غيارهم ، لم يعقد مع النصارى زناهم ، ولم يشب مع المجوس  
نارهم " .

إن عيد الوقود لميد رافك ، وإن شمار النار لشمار شرك ، وما  
أنزل الله " بالسّدق " سلطانا ، ولا شرف نيروزا ، ولا مَهْرَجَانَا ، وأنا صب  
الله سيوف العرب على رموس المعجم ، لما كره من أديانها ، وسخط من نيرانها  
وأورثكم أرضهم ، وديارهم ، وأموالهم حين مقت أفعالهم " (١) . ثم واصل  
كلامه عنهم فقال :

" فلا وقدت نار المجوس ، والله لا أقول ذلك إلا غيرة على نعمته ،  
وشفقة على خطته ، إني أجد الله تعالى يعقت من بحر البحيرة ، وسبب  
السّئية ، فالنار أولى بأن يعقت شارعها ، وهي مسمودة ، وأنا جعل الله تعالى

(١) اليتيمة : ( ٤ : ٢٥٠ ) .



النار تذكرة متاعا ، ولم يجعلها وُدًّا ولا سَوَاءً ، ولم يضرب الله تعالى لها  
عيدا ، ولم يجعل لها لهبا عيدا ، الله ، والنبي ، والميد  
المربي والتكبير الجهير ، وتلك الجماهير ، والملائكة بحد ذلك ظهير ، ذلك  
- لا مasherع الشيطان لأوليائه ، نار لديهم تُشَبُّ ، ولمنة عليهم تُصَبُّ ، وخمرة  
متاعها قليل ، وفي الآخرة خَتَارُهَا طویل (١) .

ولا شك أن هذه النفقة الحارة الصادرة من عرس مسلم غير على  
عرسته ودينه إنما كانت - هي وغيرها - صدى للثورة المضادة للروح الفارسية  
التي سيطرت على المجتمعين المراقى والفارسى آنذاك ، وصبغتها بصبغة  
فارسية خالصة .

\*\*\*

---

(١) رسائل الهذاني ص ٢١٩ .

### (( الفصل الثالث ))

—

:: الرقيق وآثاره في أدب اليتيمة ::

\*\*\*\*\*

:: الفصل الثالث ::

~~~~~

” الرقيق وآثاره في أدب اليتيمة ”

انتشرت تجارة الرقيق في هذا المصر انتشاراً عظيماً ، وكان يجلب إلى بغداد من ثلاثة طرق رئيسية ^(١) : الطريق الأوربي الغربي وطريق آسيا الشرقى ^(٢) ، وطريق إفريقية ^(٣) .

ولأهمية الرقيق وكثرته أنشئت له أسواق كبيرة في مدن العراق يشرف عليها تجار يعرفون بالنجاسين ، وكان في بغداد شارع يحسب باسم دار الرقيق ، كما كان هناك باب في بغداد أطلق عليه باب النجاسين ^(٤) .

وكان بسلامة سوق لبيع الرقيق تتخلله طرق متشعبة وبه عدة حجرات لبيع الرقيق ^(٥) .

وكان الرقيق من الذكور يقومون بالخدمة في القصور والبيوت والحقول ، أما الخصيان منهم فكانوا يقومون بحراسة النساء ، وخدمتهن ، ومنهم من كان يقوم بحراسة القصور ، ويطلق عليهم ” الفراشون ” وكانوا يتخذون من بينهم رئيساً عليهم ^(٦) .

-
- (١) كلمة ” رئيسية ” أو ” رئيسي ” من الأخطاء الشائعة ، والصواب : ” طرق رئيسية ” ، د / سرحان .
(٢) ” آسيا ” خطأ شائع والصواب : ” آسية ” ، بالتاء ، د / سرحان .
(٣) الحضارة الإسلامية لمتز (١ : ٢٨٣) .
(٤) البلدان لليعقوبي : ص ١٣ .
(٥) الأغاني : (١ : ٩٥) .
(٦) رسوم دار الخلافة للصايفي : ص ٩ .

وكان بعض الرقيق من الذكور يطلق عليهم " الفلمان " وكانوا
غالبا ما يقومون بحراسة الخلفاء (١) .

أما الجوارى فقد كثرن في هذا العصر كثرة هائلة ، وامتدّت
بهن قصور الخلفاء والأمراء ، والوزراء ، والأثرياء حتى إن قصر الخليفة
المتوكل كان يحتوى على أربعة آلاف بغيارية (٢) ، وكان بعض البغوارى
يشغلن بالنساء ، ويعرفن بالقيان *** .

وقد اشتهر بعضهن بحسن الصوت ، وبراعة التوقيع ، وجودة
الحزف كقنوة البصرية ، وعلوة ، وروحة ، ونهاية ، وقلم وسندس ، وغيرهن (٣)

وكان لهؤلاء الجوارى أثر كبير في نشر الشعور بالجمال ، وإشاعة
الظرف بين الناس ، وكتابة الأشعار الرقيقة ، والعمل الظرفية على
الأكلم والأردية ، ونادرا لأنهن كن مزيجا من جنسيات شتى استطعن
أن ينقلن الى المجتمع كثيرا من عادات بلادهن وثقاليدها .

وقد أدى التوسع في شراء الجوارى ، والتنافس على اقتنائهن
إلى انتشار الفساد في المجتمع حيث عرف بعضهن بالخلاعة والمجون
والتهافت على اللذة .

وقد بين الباحث الملة في ذلك فقال :

" كيف تسلم القينة من التتنة ، أو يمكنها أن تكون غفيسة ،
وانما تكتسب الأهواء ، وتتعلم الألسن والأخلاق بالمشأ ، وهى إنما
تنشأ من لدن مولدها ، إلى أوان وفاتها فيما يصد عن ذكر الله من

(١) تاريخ بغداد (١ : ٩٥) .

(٢) ذم الهوى لابن الجوزى ص ٦٥٣ ، ووضح أن المبالغة تلف
هذا الكلام في برودها . د / سرحان .

(٣) شهر الاسام (١ : ١٢٨) .

لهو الحديث ، وبين الخلق والمجان ومن لا يسمع منه كلمة جد ، ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ، ولا صيانة مروية .

وتروى الحادثة منهن أربعة آلاف صوت فصاعدا ، ويكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، وعدد ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله — إلا عن غفلة — ولا ترهيب من عقاب ، ولا ترغيب في ثواب ، وإنما بنيت كلها على ذكر المشق والصوبة ، والفلمة ، ثم لا تنفك من الدراسة لصنعتها منكبة طهيها ، تأخذ من المطارحين الذين طرحهم كله تجميع ، وإنشادهم مرادة . (١) .

كما أن بعضهن قد اتخذ في بغداد بيوتا للدهارة يأوى إليها أهل الخلافة والدجون للتسرية والترفيه .

قال أبو حيان التوحيدي :

وقد أحصينا ونحن جماعة في الترخ ستين وأربعمائة جماعة من الجنان ، وعشرين وبنات حرة ، وخمسة وتسعين من الصبيان البدور الذين يجمعون بين الحذق ، والصنعة والحسن والظرف ، والمثيرة ، . . وهذا سوى من كنا لا نذكر به ، ولا نصل إليه ، لمزته وحرسه ورقبائه (٢) .

ومن القيان من كن يتاجرن بالمشق ، والنناء فيوقمن فسي حبالهن الثبان الموسرين حتى يستنزفن أموالهم ، ثم يلفظنهم ، وقد وصف أحد الشعراء هذه الظاهرة فقال :

(١) ثلاث رسائل للجليل نشر فنكل ص ٢٢ .

(٢) الامتاع والمؤانسة لأبي حيان (٤ : ١٨٣) .

صَحُوتُ فَأَبْصَرْتُ النَّوَايَةَ مِنْ رُشْدِي
وَأَيَقَنْتُ أَنِّي كُنْتُ جُرْتُ عَنْ الْقَصْدِ
فَلَا يَمَشَّقُنْ مَنْ كَانَ يَمَشَّقُ قَيْنَةً
فَمَا هُوَ مِنْهَا فِي سُمُودٍ وَلَا سَمُودٍ
تَوَدُّكَ مَا دَامَتْ هَدَايَاكَ جَمَّةً
وَتَرْفُذُكَ هَشَقًا مَا بَقِيَتْ أَخَا رُفْدٍ
إِذَا مَا رَأَتْ فِي مَجْلِسٍ مَنْ تَخَالَهُ
غَنِيًّا حَبَشَةً بِالنَّحِيَةِ وَالْوُودِ
فَذَا دَأْبُهَا حَتَّى يَمُودَ مِنَ الْهَوَى
سَقِيمٌ فَوَائِدٍ لَا يَمِيدُ وَلَا يَمِيدِي
فَتَقْصِدُ لَا مِنْ حَاجَةٍ لِفَصَادِهَا
وَلَكِنْ لَتَكْلِيفِ الْهَدْيَةِ فِي الْقَصْدِ
فَمَنْ بَيْنَ خَلْخَالٍ يَصَاخُ وَخَاتَمٍ
وَمَنْ كُنْطَلُجٍ يُهْدَى عَلَى أَثَرِ الْقَمْدِ
فَذَا فِعْلُهَا حَتَّى إِذَا عَادَ مُقْلَسًا
تَجَنَّتْ وَأَبْدَتْ جَانِبَ الْهَجْرِ وَالصَّدِّ
فَقُولَا لِمَنْ يَهْوَى الْقِيَانُ تَفَهَّنُوا
مَقَالِي فَإِنِّي قَدْ نَصَحْتُ لَكُمْ جَهْدِي^(١)

وعلى الرغم من ذلك علا شأن بعض الجوارى في المجتمع ،
وقعن بدور بارز في الحياة السياسية ، والاجتماعية ، وتهافت الرجال
عليهن ، تهافتا شديدا ، وفضلوهن في بعض الأحيان على الحرائر ،
نظرا لظرفهن ، وثقافتهن ، وروايتهن الأشعار ، ومعرفتهن النساء ،
وكثرة تبرجهن ، وخلاصتهن ..

(١) ظهر الاسلام (١ : ١٢٨) •

وقد علل الجاحظ تهافت الرجال عليهن بأن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كثيرا من محاسنها ، وعرف عديدا من مفاتنها ، ما خلا حذوة الخلوة ، وما يقرب منها ، فأقبل على إبتئائها بمسند وقومها في نفسه ، ومياه إليها ..

أما الحرة فكان يستشير في جمالها النساء ، والنساء لا يبصرون من جمال أمثالهن ، ما قد يقضى حاجات الرجل ويوجه إلى موافقتهن ، لرغائهن في قليل أو كثير ، ومصرف أن الرجال بالنساء أبصر ، وإنما تعرف المرأة من المرأة ظاهرا الصفة ، فأما الخصائص التي تقع في نفوس الرجال فلا تعرفها (١) .

وكما كان لهؤلاء الجوارى تأثير في الحياة السياسية والاجتماعية كان لهن تأثير عظيم في الأدب وضروب ، خاصة عند أولئك اللواتي سلبن الأرواح ، وخلبن المقول وسحرن النفوس ، وأسرن القلوب بجمالهن ، ودلالهن وسيطرن من أسيادهن على الجيد ، واستولين على العقائد ، وذلك بظرفهن وخفتن ، وغنائهن ، وما أوتين من صوت جيد رخيم .

كذلك كن مهبا في كثرة المقطوعات الشعرية التي قيلت فسوى وصفهن ، والتغنى بجمالهن ، وكثرة الشعراء الذين تغزلوا فيهن بشعر عذب رقيق ، ونظم رطب دقيق ، يدل على شدة العشق وهامة المنزلة ، وارتفاع الدرجة إلى حد كبير ، فهذا الوزير المهلب يهيم وجدا بجارية حسنا اسمها " تَجَنَّى " ويكثر من وصفها في أدبه ، والتشبيب بها في شعره ، ويرسل من أجلها الزفرات الحارة ، والآيات الملتبهة التي تصور عشقه لها ، وتعلقه بها فيقول :

(١) الحضارة الإسلامية لمتز (١ : ١٧٤) .

مَرَّتْ فَلَمْ تَنْتِ طَرْفَهَا فِيهَا
يَحْسُدُهَا الْفُصْنُ فِي ثَنِيَّتِهَا
تلكَ تَجَنَّى التي جُنِئَتْ بِهَا
أَعَاذَنِي اللَّهُ مِنْ تَجَنِّيَّهَا (١)

وقال يصف وقتاً سعيداً قضاها معها :

رَبِّ يَوْمٍ لَيْسَتْ فِيهِ النَّصَائِبُ
وَوَلَّيْتُ الْمَذَارَ وَالْعَدَلَ قَسْنَى
فِي مَحَلٍّ يُحِلُّ لَذَّةَ الْمَوْتِ
شئٍ وَيُجَنِّي سُرُورَهُ مِنْ تَجَنِّي (٢)

أما أبو اسحاق الصابي فقد هام بإحدى جواربه كيلاً شديداً
وشبه بها في شعره تشبهاً يدل على وجده بها ومماناته من أجلها
فقال :

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مَا لَقِيتُ مِنَ الْهَوَى
بِجَارِيَةٍ أَضْحَى بِهَا الْقَلْبَ يَلْهَجُ
إِذَا امْتَرَجَتْ أَنْفَاسُنَا بِالْزَايِنَا
تَوَهَّمْتُ أَنَّ الرُّوحَ بِالرَّحِ نُكِّنُ
كُنَى وَقَدْ قَبَلْتُهَا بَعْدَ مَجْمَعِ
وَوَجَدِي مَا بَيْنَ الْجَوَانِحِ يُلَمِّعُ
أَضْفَتْ إِلَى النَّفْسِ الَّتِي بَيْنَ أَضْلُمِ
بِأَنْفَاسِهَا نَفْسًا إِلَى الصَّدْرِ تُوَلِّجُ

(١) الهتمة (٢ : ٢١٤) .

(٢) المرجع نفسه .

فَإِنْ قِيلَ لِي اخْتَرْتُ أَيُّهَا شِئْتُ مِنْهُمَا
فَيَأْتِي إِلَى النَّفْسِ الْجَدِيدَةِ أَحْوَجُ (١)

وكما هام بعض الشعراء بالجوارى البيض وتغزلوا فيهن هلم
بعض آخر بالجوارى السود وتملقهن ، وأغم بهن ، وقال فيهن شعرا
كثيرا ..

ويذكر الثعالبي * أن ديوان ابن سكرة الهاشمي يروى على
خمسين ألف بيت من الشعر ، منها في قينة سوداء ، يقال لها : " خمرة " ،
أكثر من عشرة آلاف بيت ، وكانت عروضة لنوادره وطلحه (٢) .

وكان للسلافي — وهو من أعظم شعراء البيت في إقليم العراق —
جارية سوداء ، تملق بها قلبه ، وكانت له معها مغامرات عاطفية حارة
صورها في شعره تصويرا صريحا حيث يقول :

يَسَارِبُ قَانِيَةً بِيضًا تُصَبِّحُنِي
مِنَ الْعَتَابِ كَثُوسًا لَهَا تَنَسَّاعُ
أَشْتَاقُ طَرَّتَهَا لَمْ صُدَّغَهَا وَصَمِي
مِنَ كُلِّهَا طَرَّرَ سُوْدٌ وَأَصْدَاغُ
كَأَنَّا لَا أَتَاخَ اللَّهُ فَرَّقَتْنَا
يَا لَمَبَّةِ الْيُسُفِ — بَارِ تَحْتَهُ زَاغُ (٣)

ومهما يكن من شيء فقد شاع في هذا العصر حب الجوارى ،
والهيام بهن ، وتفضيلهن على الحرائر ، وقل أن نجد شاعرا من شعراء

(١) البيت (٢ : ١٣٤) .
(٢) المصدر السابق (٣ : ٣) .
(٣) المصدر السابق (٢ : ٣٨٦) .

العراق أو فارس هلم بحرة ، أو تفضل بها باستثناء بعض الشعراء
المتصين للمروية كالشريف الرضي وأخيه المرتضى فإنهما كانا طرازاً
فريداً بين شعراء العراق في ذلك العصر .

أما معظم الشعراء في هذين الإقليمين فقد هلموا بالجوارى
هشاً وجباً ، وتفضلوا بهن غزلاً هيفاً ، وغير غيف ، ويكفى أن تقرأ شعر
ابن سكرة الهاشمي ، أو شعر ابن حجاج — وهما من أبرز شعراء
العراق في ذلك الوقت — حتى إن الثعالب قرنها بجريز والفرزدق
في العصر الأموي — حتى نعرف مقدار هفهما للجوارى ، واستهتارهما
بهن ، ولهما في ذلك أشعار صيغت بأصح الألفاظ ، وأقبح المبارات
وكنت أود أن أستشهد ببعضها في هذا المقام . . ولكن الحياء يمنعني
من ذلك لأنها غاية في الفحش والفجور . . ومن شاء فليرجع إلى هذه
الأشعار في ترجمتيهما بالبيتية أو غيرها . .

وكما هلم الشعراء بالجوارى ، وتفضلوا بهن ، تعلقوا كذلك
بالغلمان الذين كثروا في هذا العصر كثرة فائقة . . وكانوا ملوكيين
كالجوارى فتفضل الشعراء فيهم أيضاً وكان تأثيرهم في الأدب لا يقل عن
تأثير الجوارى ، إن لم يتفوق عليه ، وقد ظهر بسببهم غرض جديد في
الشعر العربي لم يكن معروفاً من قبل ، وهو النزل بالمذكر . .

ويذكر المؤرخون أن أبا نواس أول من جهر بذلك في صدر
الدولة العباسية ، حيث كان شاذاً في سلوكه ، وتصرفاته ، وكثيراً ما كان
يجاهر بذلك تحدياً لأذواق الجماهير واستهزاءً بملء الإسلام ، وسخرية
من كان يسميهم " المتزمتين " فكان يضمن شعره بعض الأشارات
الداعرة ، ويحطى الناحية الجنسية اهتماماً خاصاً إيماناً في الكيـد
والإيذاء . .

وقد أدى أبو نواس هذه الرسالة الشيطانية كما يخفى إبليس وجنوده (١)
وسن في الشعر العربي تلك السنة السيئة وفتح بابا لمن جاء بمسده
من الشعراء لم يكن مصروفا من قبل ..

ولم يكن للولوح بالفلمان شأن يذكر طَوَّالَ العصور التي كانت
السيادة فيها للروح العربية .

أما في القرن الرابع فقد سيطرت الروح الفارسية على إقليم فارس
والعراق سيطرة تكاد تكون تامة ، واضطرب المجتمع الإسلامي بصيفي
فارسية خالصة ، وأطلقت الماديات الفارسية برأسها من جديد وأصبح
الناس يمارسونها بلا خوف ولا حياء ..

وفي الأخبار المأثورة أن عادة الولوح بالفلمان ، والهيلج بهم
عادة فارسية قديمة وفدت إلى العراق من الشرق مع بنيوش المهابيين
الذين جاءوا من خراسان .

فقد ذكر الجاحظ سبب حدوث هذه الظاهرة في الخراسانيين ،
وهو خروج الأجناد في الهموث مع الفلمان ، وذلك حين سن أبو مسلم
ألا تخرج النساء مع الجند خلافا لبني أمية الذين كانوا يسمحون بخروج
النساء مع المعسكر ، فلما طال مكث الفلام مع صاحبه في الليل والنهار
وعند اللباس والتستر - وهم جنود فحول تقع أبصارهم على خد كخد
المرأة ، وردف كردفها ، وساق كساقها تولدت عندهم هذه الفاحشة (٢) .

وأغلب الظن أن ذلك راجع إلى تأثير الفرس بدعوة " مزدك "

(١) ومن أشعاره في هذا المعنى قوله :

وكننت فتى من جند إبليس فارتى

بي الحال حتى صار إبليس من جندي

د / سحران

(٢) الحضارة الإسلامية (٢ : ٥٦٠) .

الذى ظهر أبلم الملك الفارس " قَبَّاذَ " وادعى النبوة ، وكانت رسالته تنحصر فى التشارك بين الناس وشيوعية الأموال والنساء ، وهو مذهب يدعو الى المتع الجسدية والإلحاد فى العقيدة ، والاغراق فى اللذة^(١) ولهذا يقول أحد الشعراء فى البرامكة وهم فرس :

إِذَا ذَكَرَ الشَّرْكَ فى مَجْلِسِي
أَنَارَتْ وَجْوهُ بَنِي بَرْمَكِ
وَأَنْ تَلَيْتَ عِنْدَهُمْ آيَةً
أَتَوْا بِالْأَحَادِيثِ عَنْ مَزْدَكِ^(٢)

ولذا نجد أن حب الفلمان ، والتعلق بهم قد سيطر على كثير من شعراء العوالى ، وبعض العرب ، الذين تأثروا بالفرس ، وشاركوهم فى هذا الداء الويل ، منذ القرن الثانى الهجرى .

ويزم المؤرخون أن الخليفة الأمين كان مستهترا بالفلمان ويميل إليهم ، ويقربهم من مجلسه ، ويكثر من شرائهم واقتنائهم ، فقد روى الطبرى " أنه بلغ من كلفه بالخصيان أنه طلبهم ، وابتاعهم ، وغالى بهم ، وصيرهم لخلوته فى ليله ونهاره ، وقولم طعامه وشرابه ، وأمره ونهيته ، ورفض النساء الحرائر والاماء^(٣) .

ويذكر السعوى " أنه لما أفضى الأمر إلى الأمين قدم الخدم وأثرهم ورفع منازلهم ، فلما رأت أمه شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم ، اتخذت الجوارى المقدودات ، الحسان الوجوه ، وصمت رؤسهن وألبستهن

(١) دراسات فى تاريخ الأدب العربى ص ١٦٥ د / خفاجة ، دكتور
عبد الرحمن عثمان .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ (٣ : ٢٠٦) .

(٣) تاريخ الطبرى : (٣ : ٩٥) .

الأثبية والمناطق فاستقدودهن ، وبرزت أردافهن ، وصحت يهن إليه
فاختلفن بين يديه ، واستحسنهن ، واجتذبن قلبه وأبرزهن للناس
من الخاصة والمامة ، فاتخذ الناس الجواري المطويات^(١) والبسوهن
الأثبية ، والمناطق ، وسوهن التلاميذ^(٢) .

ويروى الشاشتي عن عريب المننية أنها قالت : " كنت لحمد
الأمين وصيفة في عداد الوصائف ألبس قباء ومنطقة وأقوم على رأسه
وربما سقيته وسنى إذ ذاك سبع عشرة سنة^(٣) .

وأنا أستبعد أن يكون الأمين العربي الهاشمي الصميم ، وابن
هارون الرشيد يفعل ذلك ، أو يصل إلى هذا المستوى من الانحلال
الخلق والدينى .. فقد كان أبوه .. كما يقول الرواة .. يحج طاماً ويخزو
طاماً ، ويصلى فى كل يوم مائة ركعة نافلة^(٤) .

وأغلب الظن أن الذى حدا بالمؤرخين إلى الصاق التهم به ،
ورميه بالموبقات هو خوفهم .. من الخليفة المأمون ، الذى تولى
الخلافة عقب الصراع المسلح الذى كان بينه وبين أخيه الأمين ..
والذى انتهى بمصرع الأمين ، واستيلاء المأمون على ناصية الخلافة ..
فلا غرابة أن يقف المؤرخون بجوار المأمون ويساندونه ويدافعون عنه ،
ويمدحونه ، ويلصقون التهم بأخيه ، ويرمون بالمخازى خوفاً من الحاكم ،
وطامساً فى رضا ، وما أصدق قول الشاعر فى ذلك :

(٤) المطويات : المقصوصات الشعر . د / سرحان .

(١) مروج الذهب للمسعودى (٨ : ٢٩٩) .

(٢) الديارات : ص ١٦٥ .

(٣) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٢٥ ومقدمة ابن خلدون :

(١ : ١٣) .

وَالنَّاسُ مَنْ يَلْقَى خَيْرًا قَاتِلُونَ لَهُ
مَا يَشْتَهِي وَلَا مِ الْخَطِيءِ الْهَبَلُ

وفضلاً عن ذلك كان هؤلاء المؤرخون - ومعظمهم من أصل
فارسي - يحقدون على الأمين لأن أمه زبيدة كانت هاشمية عربية،
ولم يوجد من خلفاء بني العباس من أمه وأبوه هاشيمان سواء (١) .
كما كانوا يميلون بطبعهم إلى المأمون الذي كانت أمه فارسية
من الموالي . .

وعلاوة على ذلك نعلم أن عداوة الفرس للرشيد وابنه الأمين أمر
اشتهر وظهر منذ أن نكب الرشيد البرامكة وقضى عليهم . . فلا غسابة
أن يحاولوا تشويه تاريخه والحط من شأن ابنه الأمين الذي كانت
أمه هاشمية .

وإذا كان بعض المؤرخين قد هجا الأمين ، وألصق به التهم
لأسباب سياسية وشموية فإن البعض الآخر قد مدحه ووصفه بالفصاحة
والهلاقة والكرم .

كما أن بعض الشعراء قد دافع عنه وهجا المأمون في قوله

لَمْ تَلِدْهُ أُمَّةٌ تُفْـ
سَرَفٌ فِي السُّوقِ اتَّجَارَا

لَا . وَلَا حُدَّ وَلَا خَا
نَ وَلَا فِي الْخَزَى جَارَا (٢)

(١) الفخرى في الآداب السلطانية ص ١٩٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٣ .

(٣) المصدر السابق ص ١٩٣ .

يخوض بالمأمون لأن أمه جارية ولأن الرشيد كان قد حده في جارية
ووجد معها ، أو في خمر ..

وهذا هو شأن الصراعات الحزبية والحرية بين الأَطراف
المتنازعة ينتصر لهذا فريق ويتمصّب للآخر فريق .. كالصراع بين
الأمويين والهاشميين ، وبينهم وبين الخوارج والزبيريين ، وبين الموالى
والعرب وهكذا ..

فلا غرابة أن يتهم الأميين بالانحلال ، وأن يدنس بنسبة المخازى
إليه .

ولا أريد - هنا - أن أنفى عن المجتمع المباس حب الفلمسان ،
والتشبيب بهم في الشعر ، فقد كان ذلك موجودا منذ عهد أبي نواس
في صدر الدولة ، ولكنني أريد أن أبري* الخلفاء ، وهم أئمة المسلمين
ما رموا به من جهل وغفلة ، أو من عد وخبث (*) ، وسبها يكن - من
شيء - فقد شاع بين الشعراء الفزل بالفلمسان ، والتشبيب بهم ، منذ
القرن الثاني الهجري ، ... ولكنه في البداية كان قاصرا على طائفة
خاصة من الشعراء المجان كأبي نواس وأضرابه ، وكانوا يحاربون
من الخلفاء ، وعلماء الدين ، وبقية طوائف المجتمع أشد الحرب وظل
الحال كذلك طوال القرنين الثاني والثالث بعد الهجرة .

(*) هذا اتجاه واضح الصحة كل الوضوح ، وقد علت الشموييـة
واليهودية القديمة وتمصّبوا الموالى على تجريح خلفاء المسلمين
وقادتهم ، ونقل ذلك كثير من أعداء الاسلام قديما وحديثا ، ومنهم
في هذا القرن الأستاذ جورجى زيدان في كتبه : تاريخ آداب اللغة
العربية ، والتمدن الاسلامى ، وروايات تاريخ الاسلام وغيرها ، والكتب
القديمة ملأى بهذه الأكاذيب ، وقد استفل المستشرقون هذه
الخرافات ، وشنموا على قادة الاسلام طويلا . د / سرحان .

أما في القرن الرابع - وبعد أن استدلى الفرس على زمام
الأمر في فارس والمراق - فقد أصبح الفزل بالفلمان والتشبيبهم
شأن الخاصة والعامة ..

ومن ذلك ما يروى عن عز الدولة البويهى من أنه أسر له فى
إحدى المواقع غلام فجن عليه جنونا ، وحدث له من الحزن ما لم يسمع
بمثله حتى زعم أن فجيئته بهذا الغلام فوق فجيئته بالملكة ، وما زال
يظهر الشكوى حتى خف ميزانه ، عند الناس وسقط من ميونهم (١) .

وما ذكره أبو حيان من : أنه كان بالموصل غلام مفن قد ملأ
الدنيا عيارة وشطارة ، واقتضح أصحاب النسك ، والوقار ، وأصناف
الناس من الصفار والكبار ، بوجهه الحسن ، وثغره البتسم ، وحديثه
الساحر ، وطرفه الفاتر ، وقده المديد ، ولفظه الحلو (٢) .

وانجرف الأدباء فى هذا التيار الآثم ، وأكثروا من القول فى
هذا الغرض ، وخاض الجميع فى هذا المستنقع المفن دون خوف
ولا حرج ..

فقد روى الثعالبي فى يتيبته أشمارا كثيرة فى هذا الباب
لأدباء عظاماء من ذوى المراكز السياسية الخطيرة فى الدولة كالوزير
المهلبى (٣) والصاحب بن عباد (٤) وأبى اسحاق الصابى (٥) وغيرهم .

أما سائر شعراء اليتيمة فى المراق وفارس فيندر أن نجد
شاعرا منهم لم يتفزل فى الفلمان ، بالإضافة إلى تفزله بالجسوارى ،

(١) الكامل فى التاريخ (٨ : ٤٩٥) .

(٢) الامتاع والموانسة : (٢ : ١٢٤) .

(٣) اليتيمة (٢ : ٢٠٤) .

(٤) نفسه (٣ : ٢٣٧) .

(٥) نفسه (٢ : ٢٤١) .

بل إن بعضهم ذهب إلى أبعد من ذلك فقصر تشبيهه على الغلمان دون النساء كنصر بن أحمد الخبز أرزى ، الذى كان ميالا إلى الغلمان كثيرا من القول فيهم ، وكان أميا لا يكتب ، ولا يتهجى ، وكانت حرفته خبز الأرز فى دكانه بمريد البصرة فكان يخبز وينشد أشعاره المقصورة على الفزل ، والناس يزدحمون عليه ، ويتظرفون باستماع شعره ، ويتمجبون من حاله وأمره ، وكان أحداث البصرة يتناقسون فى إمالته إليهم ، وذكره لهم ، ويحفظون كلامه لقرب مأخذهم وسهولته (١) .

وقد روى الثعالبي له فى الغلمان شعرا كثيرا يخرجنى أن أذكره فى هذا المقام فليرجع إليه من يريد هناك (٢) .

وهنا ينبغي أن أشير إلى أمر هام أشار إليه بعض الباحثين (٣) وهو أن الفزل بالمذكر يبدو كثيرا فى الشعر العربى خاصة فى ذلك العصر مع أننا لو تدبرنا الأمر قليلا لوجدناه بريئا من معظم تلك القصائد والمقطوعات التى تحمل سمات النزل بالمذكر وهى ليست فى الحقيقة منه ، ذلك أن ضمائر المذكر أيسر وأخف من ضمائر المؤنث ، وليس ببعيد أن يكون هؤلاء الشعراء قد استخدموا ضمائر المذكر مع أنهم فى الواقع كانوا يوجهون شعرهم إلى معشوقات لا إلى معشوقين وهذه عادة قديمة فى الشعر العربى ، فقد كان الشعراء قديما يذكرون ليلى وسلى وسعدى ولبنى وغيرهن من الأسماء الطيبة فى موازين الشعر العربى وإن كانوا يقصدون أشخاصا

(١) اليتيمة (٢ : ٣٣٨) .

(٢) المصدر نفسه (٢ : ٣٣٩) .

(٣) الدكتور : محمد عبد العزيز الكفراوى فى كتابه تاريخ الشعر

العربى (٣ : ١٣٦) .

غيرهن (١) .

ولو تدبرنا أعمار الأغاني الماطفية في العصر الحديث لوجدنا أكثرها يستخدم في الغزل ضمائر الذكر بقصد التخفيف ، أو بقصد الرمز والتعويہ والشعراء بطبيعة الحال يقصدون المؤنث ... لا الذكر ، لأن طبيعة العصر ، وذوق أبنائه يتنافى مع هذا الشذوذ .

وقد يقال : إن كثيرا من النماذج الشعرية التي تنزل فيها شعراء القرن الرابع بالذكر فيها ما يمين على تحديد جنس المتغزل به ، كالتصريح باسمه ، أو كنيته ، أو لقبه ، فليس هناك سبيل إلى تهربة القوم ما رموا به ..

وللاجابة على هذا التساؤل ينبغي أن أشير - إنصافا - للحقيقة - إلى أن الشعراء في ذلك العصر كانوا فريقين :

الأول : تأثر بالروح الفارسية فضعت أخلاقه ، ورق دينه ، وهؤلاء كان غزلهم بالذكر حقيقيا ، ومصدره المبهث ، ودوافعهم التحلل ، وهدفه اللذة والمزعة ومن هؤلاء الواساني ، وابن لنكك وابن حجاج وابن سكرة لأن سيرتهم الشخصية تؤكد ذلك ..

والثاني : كان يطرق هذا الباب من قبيل التقليد ، والمحاكاة ، ويتخذ منه وسيلة للتصرف في فنون القول وترويض الأذهان على الاجادة ، وكان شعرهم في هذا الباب ضربا من الدعابة والظرف ، ولونا من ألوان الترف الفكري ، والتسلية .. أكثر منه مفاخرات حقيقية مصدرها المبهث والمجون .

(١) وفي مثل ذلك يقول البحتري :

وسميتها من خشية الناس زينا

وكم سترت حبا عن الناس زينا

د / سرحان

وهؤلاء كانوا كثيرين ، وصعظامهم من الحكماء ، والقضاة ، والعلماء ،
ولست أريد بهذا القول أن أبرئ القوم مما رموا به ، بل مما رموا
أنفسهم به ، ولكنى أستدل على ذلك من واقع حياتهم الاجتماعية ،
وحالاتهم الثقافية والأدبية ، فقد انتشرت في هذا العصر المجالس
الأدبية ، وتمددت الندوات العلمية — التي تشبه إلى حد كبير —
الصالونات الأدبية في عصرنا الحديث ، وكان القوم — خاصة ذوى
المناصب السياسية والدينية فيهم ، يتسابقون في انشاد الأشعار
ووصف ما يحيط بهم من مظاهر الحضارة ، وتصوير كل ما يدور في
خواتمهم بدون تكلف ولا استكراه ، وكانوا يطرقون كل باب ، ويخوضون
في كل فن .. فلا غرابة أن يشاركوا غيرهم في هذا اللون ، وهو
الفضل بالذكر من باب الدعابة والظرف ، والترف الفكرى والمقلب من
غير أن يقصدوا من وراء ذلك إلى شيء ..

والدليل على ذلك تنوع الأشعار التي قيلت في المذكر فشاعر
يمشق نصرانيا (١) وثان يمشق صوفيا (٢) وثالث يمشق بدويا ، أو
شاطرا ، أو جنديا (٣) ورابع يمشق أعرج (٤) أو غلاما قد التحى (٥)
أو أسود أو أبيض (٦) وهكذا ..

وكل هذه النماذج الغريبة التي وردت في اليتيمة تدل على
أنها كانت محاولات أدبية أكثر منها مفاخرات عاطفية أو جنسية ،

-
- | | |
|-----|--------------------------------|
| (١) | اليتيمة (١ : ٣١٨) . |
| (٢) | نفسه (١ : ٣٨٩) . |
| (٣) | نفسه (٢ : ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥) . |
| (٤) | نفسه (٣ : ٦) . |
| (٥) | نفسه (٣ : ٥) . |
| (٦) | نفسه (٢ : ٢٤١) . |

والا فها معنى أن يمشق شاعر صوفيا مع أن لديه من المباداة
ما يشغله عن عبث المباشين ، وتحلل الماجنين ؟ وما معنى أن
يمشق آخر جنديا لا يتصور فيه الا الفحولة ، والخشونة ، أو بهوى
شاطرا لا يتوقع منه إلا الفتك ؟ أو بدويا لا يتمويه الا الشبه
والمسرار ؟

أنا لا أتصور حدوث هذا من شاعر اللهم إلا إذا كان ذلك
ضربا من التسلية وتزجية وقت الفراغ ، وتدريب الذهن على الاجادة
والتصرف في فنون القول ..

على أن كثيرا من الشعراء الذين تغزلوا في الفلمسان قد
أعطوا صراحة أنهم لا يقصدون من وراء كلامهم عبثا ولا مجونا ، ولا
يشهدون لذة ولا متاعا ، وصرحوا أنهم غير جادين فيها يقولون ..

ولننظر إلى هذا النص الذي قاله أحد شعراء " البهيمية "
في إقليم المراق وهو النّفَجَمُ البصرى الذى يزعم فيه - كما يزعم
غيره من نقادنا المصريين أنه شعر ينفى الصبيان في مسجد البصرة
وأن منه قوله :

ألا يا جامعَ البَصَرِ
 ة لا خَرَّكَ اللُّهُ
 وَسَقَى صَحْنَكَ الزُّنْ
 مِنَ الْفَيْثِ فَسَرَّاهُ
 فَكَمْ مِنْ عَاشِقٍ فِيكَ
 يَسْرِى مَا يَتَنَسَّاهُ
 وَكَمْ ظَلَمِي مِنَ الْإِنْسِ
 تَلِيحٍ فِيكَ مَرَعَاهُ

تَصْبُنَ الْفَخَّ بِالْمِلْ
 مَ لَهُ فَيْكَ قَصْدَنَاهُ
 بِقِرَآنٍ قَرَأْنَاهُ
 وَتَفْسِيرٍ رَوَيْنَاهُ
 وَكَمْ مِنْ طَالِبٍ لِلشَّمْ
 مِ بِالشَّمْرِ طَلَبْنَاهُ
 فَمَا زَالَتْ يَدُ الْإِيَّاهُ
 مَ حَتَّى لَانَ مَتْنَاهُ
 وَحَتَّى ثَبَّتَ السَّنْجُ
 عَلَيْهِ فَرَكِبْنَاهُ

والى هنا يبدو الأمر حقيقة حيث يذكر الشاعر أنه يتخذ العلم وسيلة لاصطياد الصبيان فى المسجد وأنه يظل يخدمهم ويغمر بهم بما يقرؤهم عليهم من قرآن ، وما يرويه لهم من تفسير ، وما ينشده أمامهم من أشعار ، حتى تلين قناتهم ، ويقموا فرجة سهلة للذئاب . ولكن قبل أن نصل إلى هذا الحكم لابد أن نقرأ النص إلى آخره حتى نعرف الحقيقة . .

يقول الشاعر بحد ذلك :

أَلَا يَا طَالِبَ الْأُمْرِ
 دِ كَذَّبَ مَا ذَكَرْنَاهُ
 فَلَا يَفْخُرُكَ مَا قُلْنَا
 فَمَا بِالْجِدِّ قُلْنَا (١)

(١) اليتيمة (٢ : ٣٣٦) .

وهنا يهيب القاضي للدفاع عن نفسه ويبرئها من الريبة التي
رماء بها الغلام ، ويعترف بأنه لم يرد سوء ولا اثماً ، ويقسم أن
الغلام مخطئ في قوله آثم في تهمة ، وذلك حيث يقول :

فَقُلْتُ وَاللَّهِ الَّذِي
صَيَّرَنِي عِنْدًا لَكَ
مَا إِنْ أَرَدْتُ بِسَيِّئَةٍ
وَلَمْ أَرَدْ سُوءًا بِكَ
وَأَنْتَ فِي قَوْلِكَ ذَا
آثِمٍ مِّنْ أَشْرَكَ (١)

ألعمق هذا كله دليل على أن هؤلاء الشعراء - خاصة
أفاضل الملأ والقضاة منهم - كانوا لا يعنون ما يقولون وأنهم كانوا
يطرقون هذا الباب من قبيل الدعابة والظرف ومجازاة غيرهم ممن
الشعراء ، وإظهارا للتفوق والنموج ؟ ولنتأمل كذلك قول القاضي على
ابن عبدالمزيز الجرجاني في غلام :

مَنْ ذَا النَّزَالُ الْقَاتِنُ الظُّرْفِ
الْكَامِلُ الْبَهْجَةِ وَالظُّرْفِ
مَا بَالُ مَهْنَيْهِ وَالْحَاطِظِ
دَائِبَةً تَعْمَلُ فِي حَظِي
وَاهَا لِيَذَاكَ التَّوَرْدُ فِي خَدِّهِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَنِعَ الْقُطْفِ (٢)

(١) الهتمة (٣ : ٣٨٨)
(٢) الصدر نفسه (٤ : ١٠)

فهو يصرح بحرمة العبث بالفلمان ، والاستهتار بهم ، وهذا ما نتوقعه على الأقل من قاض فاضل كالجرجاني الذي عرف بالصلاح والتقوى ، واشتهر بالعدل والاستقامة والبعد عن مواطن الشهوات وأنه للذي يقول :

يَقُولُونَ لِي فِيمَكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا
رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَوْقِفِ الذَّلِّ أَحْجَبًا
وَمَا زِلْتَ مُنْحَازًا بِعِرْضِي جَانِبًا
مِنَ الذَّمِّ أَخَذَ الصَّيَانَةَ مَخْنَصًا
إِذَا قِيلَ هَذَا مَشْرَبٌ قُلْتُ قَدْ أَرَى
وَلَكِنْ تَفْسَى الْحُرِّ تَحْتَسِلُ الظُّلْمَا (١)

ولا أريد من وراء ذلك أن أبرئ شعراء هذا العصر من تهمة العبث والمجون ، والاستهتار بالفلمان ، والتشبيب بهم . . فقد كان بعضهم يفعلون ذلك عن قصد متأثرين بالعادات الفارسية التي تولع بالشهوة ، وتنشد اللذة ، وتدعو إلى متع الحياة . .

ولكني أريد أن أؤكد ما ذهبت إليه من أن كثيرا من شعراء ذلك العصر - خاصة الحكم والقضاة والملما - كانوا يطرقون هذا الباب من قبيل التقليد والمحاكاة وسجارة غيرهم في هذا الباب حتى لا يوصفوا بأنهم أقصر منهم ذراعا ، أو أضيق باطا في تعاطي فنون القول والإجادة في الكلام . . . كما كانوا يفعلون ذلك من باب الظرف والدعابة ، والبحث عن التزيين المثير .

(١) المصدر السابق (٤ : ٢٢) .

هذا إلى أن حياة الترف والرخاء في هذا المجتمع قد
انمكست على أفكار القوم وآدابهم ، فكانوا مترفين في أفكارهم ، كما
كانوا مترفين في مأكلاتهم ، وملبسهم ومسكنهم ، وكانوا ينشدون المتممة
الفكرية .. كما كانوا ينشدون المتممة الحسية ..

ومهما يكن من شيء فقد كان كثرة الرقيق في المجتمع أثرها
الواضح في ظهور هذا الفزل المقيف أو الجسدي في الفلاسفة
والجوارى ، ومن هنا ترك الشعراء لنا هذه الثروة الأدبية الضخمة
التي امتلأت بها كتب التراث .. وكان ذلك كله من أثر كثرة الرقيق
وانتشاره في المجتمع .

* * *

((الفصل الرابع))

—

:: صدی التشیع فی أدب الیتیم ::

=====

((الفصل الرابع))

:: صدى التشيع في أدب الهتمة ::

يذهب بعض الباحثين إلى أن الهذور الأولى للتشيع قد نهتت
عندما لحق الرسول عليه السلام بالرفيق الأعلى (١) .

ذلك أن النوة قد اتجهت إلى مبايعة علي كرم الله وجهه من بعض
القرشيين كالمعباس بن عبد المطلب وأبي صفيان بن حرب ، وأن جماعة
من الصحابة كانت ترى أن علياً أفضل من أبي بكر وعمر ومن هؤلاء عمار
ابن ياسر وأبوذر الغفاري وسلمان الفارسي وجابر بن عبد الله ونسوة
المعباس وكثير غيرهم .

ويروى أن علياً قد تروى في مبايعة أبي بكر ستة أشهر لأنه كان
يرى نفسه أحق بالخلافة منه (٢) .

ولكن مذهب الشيعة لم ترسخ قواعده ويكثر أتباعه ويمتاز نفوذه
إلا في عهد بني أمية عندما اغتصب معاوية الخلافة من علي وبنه وصيرها
ملكاً وراثياً عضوياً .

ولقد كان استشهاد الحسين بن علي في كربلاء على يد زبانية
اليزيد بن معاوية نقطة تحول بارزة في تاريخ المذهب العلوي فآزاد
عطف المسلمين على آل البيت واشتد تعلقهم بهم وأخذوا يناهضون بني
أمية ويمحطون جاهد بين علي الخلاص منهم وإزالة ملكهم شأنهم في ذلك

(١) فجر الاسلام ص ٢٢٦ لأحمد أمين ط بيروت الطبعة العاشرة .

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٢ .

شأن الخوارج والزبيريين وكان طبعيا أن يكون لكل حزب من الأحزاب المتصارعة
شمرائهم الذين يدعون له وينشرون مبادئه ، ويناهضون أعداءه .

وكان من أبرز شمراء الشيعة في عصر بني أمية الكميث بن زيد
الأسدي وأيمن بن حُرَيْم الأسدي وكثير عزة والفرزدق وغيرهم .

ولما دالت دولة بني أمية وحلت محلها دولة بني العباس لم يكن
حظ الشيعة في الدولة الجديدة بأعظم من حظهم مع بني أمية فلقوا من
الاضطهاد والذل والمطارقة والنفسى على يد بني عومتهم الشيء الكثير . .

على أن ذلك كله لم يفت في سواعدهم ولم يضعف نفوذهم ولم
يخر من ألسنتهم فكان لهم شعراءهم المدافعون عنهم المتحمسون لدعوتهم
وفى مقدمتهم دجيل بن علي الخزاعي صاحب القصيدة الطويلة المشهورة . .

مدارسُ آياتٍ خلَّتْ مِنْ تِيَلَاوَةٍ
وَمَنْزِلٌ وَحْشِيٌّ مَقَرَّ الْقَرَصَاتِ (١)

فلما كان القرن الرابع الهجري وهنت الدولة العباسية ، وتصدعت
جدرانها ، وانقرط عقدتها وانقسمت إلى دويلات صغيرة لا تربطها بهيمنة
أوى الصلات ، وأخذ حكامها يعلنون ولائهم للذهب التشيع دون خوف
ولا وجل من خلفاء بني العباس الذين ضعفوا في ذلك العصر وأصبحوا لا حول
لهم ولا قوة .

ومن الدول التي تولدت عن الدولة العباسية واشتهرت بالتشيع في ذلك
العصر . الدولة البويهية في فارس والعراق والدولة الحمدانية في
الشام والموصل والدولة الفاطمية في مصر والمغرب وغيرهم . . والذي يمتنعها

(١) الكامل في التاريخ لابن الاثير (٣١٥ : ٦) .

من هذه الدول جميعا الدولة البويهية : فهي التي سيطرت على فارس
والعراق واستولت على بغداد واستبدت حكمها بالخلفاء ونشروا مذهب
التشيع منذ اللحظة الأولى من وصولهم بغداد ..

ففي سنة ٣٣٤ هـ عقب استيلائهم على بغداد حاول معز الدولة
البويهى أن يزيل الخلافة العباسية وأن يجعلها في البيت العلوى وفكر
في مبايعة محمد بن يحيى الزيدى العلوى لولا أن أشار عليه أحد خواصه
بالأيفعل قائلا له : " إنك اليوم مع خليفة تمتد أنت وأصحابك أنه ليس
من أهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى أجلس
بعض العلويين خليفة كان معك من تمتد أنت وأصحابك صحة
خلافتهم فلو أمرهم بقتلك لقتلوا مستحلين دمك " .

فأعرض عما كان عازما عليه وأبقى اسم الخلافة لبنى العباس وانفرد
هو بالسلطان ولم يبق بيد الخليفة البتة إلا ما أقطعه معز الدولة
ما يقوم بحاجته (١) .

ولم يلبث مذهب التشيع بعد ذلك أن تأثر بمقائد الفرس المتوارثة
فأصبح شعارا لبعض الفرق الدينية المتطرفة كالقرامطة والإسماعيلية
والقائلين بالتناسخ ، والذين يؤمنون علما وغيرهم .. فكان هؤلاء
جميعا يتسترون بالتشيع ، ويتخذون من حب آل البيت وسيلة لتحقيق
مآربهم والوصول إلى أهدافهم ، وكانوا دائما يظفرون برعاية بنى بويه وتأييدهم

وقد ذكر ابن الأثير " أن الوزير المهلبى قد ظفر بقوم يزعمون أن
روح على بن أبى طالب وروح فاطمة الزهراء قد حلت بهم وانتقلت إليهم

(١) ضحى الاسلام (٣ : ٣١١) ط نهضة مصر للطباعة السابعة .

فحبسهم ولكنهم التجأوا إلى أهل البيت فأمر معز الدولة باطلاقهم فلم
يكن للوزير بد من أن يذعن لمشيتته خوفا من أن يتهم بالميل عن
التشييع (١) .

ويذكر ابن الأثير كذلك أن بنى بويه قد سمحوا للقرامطة أن
يحمينوا لهم نائباً في بغداد يتحكم بحكم الوزراء (٢) .

على أن أمر بنى بويه لم يقف عند هذا الحد في مناصرة الشيعة
ونشر التشيع وإنما ذهبوا إلى أبعد من ذلك حينما كانوا يسبون الصحابة
رضوان الله عليهم ويشعلون نار الفتنة بين الشيعة وأهل السنة ويمطلون
جاهدين على نشر الطغوس المذهبية المخالفة . .

وفي سنة ٣٥١ كتب الشيعة - بإيعاز من معز الدولة - على
جدران المساجد لمن الله معاوية ولعن من نصب فاطمة " قَدَّكَ " ومن
نفي أباندر ، ومن أخرج المباس من الشورى . . فلما كان الليل حكه
بعض الناس فإراد معز الدولة أعادته فأشار عليه الوزير المهلبى بأن
يكتب مكان ما محى . . لمن الله الظالمين لآل رسول الله ، ولا يذكر
في اللعن أحداً إلا معاوية ففعل (٣)

وفي سنة ٣٥٢ هـ أمر معز الدولة في يوم العاشر من المحرم أن
تغلق الأسواق والدكاكين ، وأن يظهر الناس الحزن والنهابة . وأن تخرج

(١) الكامل في التاريخ (٦ : ٣٩٩) .

(٢) المصدر السابق (٧ : ١٢٦)

النساء ناشرات الشمور مسودات الوجوه مشقوقات الثياب وأن يلطمسن
وجوههن على الحسين بن علي تفعل الناس ذلك وكان هذا أول يوم
نبح فيه على الحسين ببغداد (١) .

وفي الثامن عشر من ذي الحجة - من العام نفسه - أمر ممزر
الدولة كذلك باظهار الزينة في بغداد ، فأشعلت النيران ، وأظهر الفرح
وفتحت الأسواق ليلاً كما يفعل في ليالي الأعياد احتفالاً بعيد الفديسر
- معنى فديسر خم - وهو الموضع الذي يروى أن النبي عليه الصلاة
والسلام قال فيه عن علي : " من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم والي من
والاه وعاد من عاداه " وضربت الدباب والبهوقات وكان يوماً مشهوداً (٢)

ولقد كان لهذه الطقوس الذهبية أثرها العظيم في نفوس الشيعة
في فارس والعراق فأخذوا يتملقون بتراثهم القديم الحافل بالأسى
والأحزان ، ويتدارسون تاريخهم المليء بالكوارث والآلام ، وجعلوا
يجسمون العنائب التي حلت بآل البيت طوآل أربعة قرون من الزمان ..
فتها لهم من ذلك كله آفاق فسيحة في عالم الأحزان ، هامت بها نفوسهم
واطمأنت إليها أفئدتهم ، وأصبحت لهم معيناً لا ينضب من التجارب
 وأسباب المعاناة .. مما كان له أوضح الأثر في فنونهم وآدابهم .

وإذا كان الأدب مرآة تنعكس عليها الحالة الاجتماعية للشعوب وت رسم
صورة صادقة لحياة الأفراد والجماعات فإن أدب الشيعة في هذا العصر

(١) الصدر السابق (٧ : ٧) .
(٢) الكامل في التاريخ (٧ : ٧) .

كان ظلا للحالة الاجتماعية والنفسية لجماعة الشيعة ، ولهذا استطاع أن يصور آلامهم وأحزانهم وأمله أن يمبرر بصدق عما يدور في نفوسهم من أفكار وما يخلج في عقولهم من اتجاهات وآمال ..

والدارق لأدب الشيعة في هذا العصر يجد فيه بوضوح آثار اللوعة والأسى ، ويلبس في ثناياه آيات الحزن والحسرة .

ذلك أن جماهير الشيعة التي أنهكتها الأحزان وطحت بها المأسى والآلام واستبد بها اليأس والجزع كانت في حاجة ملحة إلى ترديد الأناشيد الشجية والأغاني الحزينة لتتوح بها على سيد الشهداء أمام قبره في كربلاء .

فقد استحوذ على هذه الجماهير شعور قوي بمعظم الكارثة التي حلت بآل البيت حتى عاودتها الأطياف في المنام وكان من أثر ذلك كله أن كثر عدد الذين يرون النبي عليه السلام في المنام ويشاهدون فاطمة " رض الله عنها " وهي تنذب ابنها سيد الشهداء .

ولعل القصة الآتية التي رواها الثعالبي في "التيمة" خير شاهد على ما وصلت إليه حالة الشيعة في هذا العصر من حبهم لآل البيت وتعلقهم بهم ومشاهدة أطيافهم في المنام ..

حدث الثعالبي قال : قال لي الزاهد أخبرني ابن بشر أنه كان له جد لأمه يصرف بكولان - وكان من أهل الأدب والكتابة وحسن الشعر والخطابة قال لي " حججت سنة من السنين وجاورت بمكة حرسها الله ، فاعتلت علة تطاولت بي وضاق معها خلق ، ثم صلحت منها بعض الصلاح ففكرت في أني عملت في أهل البيت تسما وأرعى قصيدة مدحا ، فقلت أكلها خمسين ثم ابتدأت فقلت :

بنى أحمد يا بنى أحمد *

ثم أرتج على فلم أقدر على زيادة ، فعظم ذلك على ، واجتهدت
في أن أكمل البيت فلم أقدر فحدث لي من النعم بهذه الحالة ما زاد على
نفسى بملقى فتمت اهتماما بالحال ، فرأيت النبی صلی الله علیه وسلم
في المنام فشكوت إليه ما أنا فيه من الإضافة وما أجده من العلة وأخرى
من القلة .

فقال لي : تصدق بوسعك عليك ، وصم بصح جسمك .

فقلت : يا رسول الله ، وأعظم مما شكوت إليك أننى رجل شاعر
أشبه وأخص ولدك الحسين بالمحبة ، وتداخلني له رحمة لما جرى له من
القتل ، وكنت قد عملت في أهل بيتك تسما وأرجمين قصيدة فلما خلوت
إلى نفس بهذا الموضع حاولت أن أكلها خمسين فبدأت قصيدة
قلت فيها مصراعاً وأرتج على إجازته ، ونفر عني ما كنت أعرفه ، فما أقدر
على قول حرف فقال لي قولاً نحافيه إلى أنه ليس بهذا إلى لقوله تعالى :
" وما علمناه الشعر وما ينبغي له " ثم قال : اذهب إلى صاحبك وأوماً
بهذه الشريفة إلى ناحية من نواحي المسجد ، وأمر رسولاً أن يهني إلي
حيث أوما ، فمضى بين الرسول على ناس فيهم على بن أبى طالب فقال له
الرسول : أخوك وجه الهك بهذا الرجل فاسمع ما يقوله ..

قال : فسلمت عليه وقصصت عليه قصتي كما قصصت على النبي صلى
الله عليه وسلم .. فقال لي : فما الصراع ؟ قلت :

بنى أحصد يا بنى أحد

فقال للوقت قل :

..... بكت لكم عميد المسجد

يَهْتَرِبُ وَاهْتَرَقَبُ النَّبِيَّ * أَبِي الْقَاسِمِ السَّيِّدِ الْأَصْبَدِ
وَأَظْلَمَتِ الْأَفْقُ أَفْقَ الْهَلَا * د وَذَرِ عَلَى الْأَرْضِ كَالْأَسَدِ
وَمَكَ مَادَتِ بَيْطَحَائِمَهَا * لِإِعْظَامِ فَمِيلِ بَنِي الْأَعْبَدِ
وَمَالَ الْحَطِيمِ بِأَرْكَانِهِ * وَمَا بِالْبَنِيَّةِ مِنْ جُلُودِ
وَكَانَ وَلِيكُمْ خِذَاذًا * وَلَوْ شَاءَ كَانَ طَوِيلَ الْهَدِ

قال : ورددها ثلاث مرات فانتبهت وقد حفظتها (١) :

وإذا صحت هذه الرواية — وأظنها صحيحة — فإنها تدل على
مدى ما وصل إليه حب الشيعة لأهل البيت وعطفهم عليهم وتفكيرهم في
مآسهم في الليل والنهار .

وإذا كان علماء النفس يرون أن الأحلام غالبا ما تكون انعكاسا لما
يفكر فيه الإنسان في يقظته ، وأنها صدى لرفضاته الكامنة وآلامه المكبوتة . .
فهو يرى في نومه ما يهيمه ويشغل باله في يقظته . . . وإذا كان الأمر
كذلك فإن تفكير الشيعة المستمر في أهل البيت وحزنهم الدائم من أجلهم
قد خلق فيهم حالة من الشفافية السجبية وجعل روحهم قريبة من روح
النبي عليه الصلاة والسلام في المنام .

ولذلك كان البكاء والتحسر والنواح والمويل سمة بارزة من سمات
الفن الشعري لجماعة الشيعة في صدر الدولة العباسية . . فلما ضعف هذا
الدولة وتداعت أركانها في القرن الرابع وتولى الشيعة من بني بويه زمام
الأمر في بغداد أخذت الاحتفالات بذكرى الحسين تتخذ طابعاً

(١) الهتمة (١ : ٣٦٤) .

رسماً ، وكان من مظاهر هذه الاحتفالات أن يدل الشمرء بدلائهم
في هذه المناسبة الباكية ، فجاء شمرهم حزينا كئيبا .. قوامه اللوعة على
أهل البيت تارة ، وهجاء بني أمية أو بني العباس تارة أخرى ، والتمريض
بأهل العفة والنهل منهم مرة ثالثة ..

فهذا أبو بكر محمد الخالدي أحد شمرء الموصل بالمرق يبكى
وينتحب ويذكر مصرع الحسين في كربلاء ، وكيف عز عليه الحق وتخلى عنه
النصير * ، ويلمع يزيد بن معاوية وأباه بل يلمن كل من خذل الحسين
وتخلى عن مناصرتة ، فيقول :

إِذَا تَفَكَّرْتُ فِي مَصَابِيهِمْ * أَتَمَبَّ زَنْدَ الْهَمِّومِ قَادِحُهُ
بَعْضُهُمْ قَرَّبَتْ مَصَارِعُهُ * وَبَعْضُهُمْ بَعْدَتْ مَطَارِكُهُ
أَظْلَمَ فِي كَرْبَلَاءَ يَوْمِهِمْ * ثُمَّ تَجَلَّى وَهُمْ ذَبَائِحُهُ
لَا يَبْجَى الْفَيْثُ كُلَّ شَارِقِيَّةٍ * تَهَى غَوَادِيهِ أَوْ رَوَائِحُهُ
عَلَى تَرَى خَلَّةَ ابْنِ بَنِي رَسُولِ اللَّهِ مَجْرُوحَةَ جَوَارِحِهِ
ذُلَّ حِمَاهُ وَقُلَّ نَاصِرُهُ * وَنَالَ أَقْصَى مَنَاءِ كَاسِحِهِ
عَقَزْتُمْ بِالثَّرَى جِبِينَ قَتَى * جَبْهَلُ بَعْدَ النَّبِيِّ مَاسِحُهُ
يُطَلِّ مَا بَيْنَكُمْ دَمَ ابْنِ رَسُولِ اللَّهِ وَابْنَ السَّفَاحِ سَافِحُهُ
سَيَانُ عِنْدَ الْأَنَامِ كُلِّهِمْ * خَاذِلُهُ مِنْكُمْ وَذَا بَحْسُهُ (١)

ومن شمرء الشيعة الممدودين بالموصل الخباز البلدي وهو أبو بكر
محمد بن أحمد المعروف بالخباز البلدي نسبة إلى قرية يقال لها بلد من قرى

(١) البيتية (٢ : ١٦٩) .

الجزيرة التي فيها الموصلي ، وقد كان أميلا يعرف القراءة ولا الكتابة ،
ومع ذلك كان شاعرا حسن الشعر وكان يباهي بأميته ويتحدى بها
الشعراء كقوله :

بألفت في شتّى وفي ذي * وما خشيت الشاعر الأسمى
جرت في نفسك سماء فما * أحمدت تجربتك للسم^(١)

وقد اشتهر الخباز البلدي بالفلو في التشيع حتى كان يمزج به
مختلف فنونه الشعرية بما فيها الغزل والمجون .

وقد لاحظ الثعالبي ذلك عندما قال عنه * وكان يتشيع ويتشيع في
شعره بما يدل على مذهبه كقوله ..

وحائيم نبتهم ———— * واللبل داجي المشرقين
شبهتهم وقد يكب ———— * ن وما ذرفن دموع عين
بنساء آل محمد * لما يكهن على الحسين^(٢)

وهذا دليل على استبداد فكرة التشيع برأسه وملا زمتها لمقله ..

وكان تشيعه يقوم على محورين :

أولهما : إعلان ولائه المطلق للحلي وأبنائه من بعده ..

وثانيهما : كراهيته الشديدة لأعدائهم من بني أمية وبني عباس
وأهل السنة .

وكان في كل ذلك يمزج التشيع بمختلف الأغراض الشعرية — بما فيها

(١) البيتة (٢ : ١٨٩) .

(٢) نفسه (٢ : ١٩٠) .

الغزل والمجون ، فمن شعره الذى يعلن فيه موالاته لعل وينضه لبنى أميه
قوله فى الغزل :

تظن بأننى أهدى حبيباً * سَوَاكَ عَلَى الْقَطِيمَةِ وَالْهَمَادِ
جَحَدْتُ إِذْ دُنْ مَوَالَتِي عَلَيَّ * وَقُلْتُ بِأَنَّنِي مَوْلَى زَيْكَادِ (١)

ومن شعره فى الهجوم على أهل السنة قوله فى الغزل كذلك ..
قالوا تَكْهَلُ مِنْ هَوَيْتِ * تَفَقَلْتَ رَسْمَ قَدِ دَثَرِ
عَايَنْتُ مِنْ طَلَّابِيهِ * زُمَرًا مَوَاصِلِيَّةَ زُمَرِ
وَكَذَاكَ أَصْحَابَ الْحَدِيدِ * كَيْتُ نِفَاقِهِمْ عِنْدَ الْكَبِيرِ (٢)

وكان فى مجونه وغزله بالذكر لا ينسى أن يصبغ شعره بصبغة
شيمية * فيقول :

أَنَا إِنْ رَمْتُ سُلُوءًا * عَنْكَ يَا قُسْرَةَ عَيْشِي
كُنْتُ فِي الْإِثْمِ كَمَنْ شَا * رَكْ فِي قَتْلِ الْحَسَنِ
لَكَ صَوْلَاتٌ عَلَى قَلْبِي * بَيْنَ يَقَعْدَ كَالرَّدِيسِي
مِثْلَ صَوْلَاتِ عَلِيٍّ * يَوْمَ بَدْرٍ وَحَنِينِ (٣)

ويصوغ الشاعر المعنى نفسه تقرباً فى براعة فائقة فيقول :
أَنَا فِي قَبْضَةِ الْغَرَامِ رَهْنِينَ * بَيْنَ سَيْفَيْنِ أَرْهَفَا وَرْدِيْنِي

-
- (١) البيتية (١: ١٩١) .
(٢) نفسه (٢: ١٩٢) .
(٣) البيتية (٢: ١٩٠) .

فَكَانَ الْهَوَى فِتْنَى عَالِي * ظَنُّ أَنَّى وَلَيْتَ قَتَلَ الْحَمِيمِ
وَكَأَنَّ "يَزِيدَ" بَيْنَ يَدَيْهِ * فَهُوَ يَخْتَارُ أَوْجَعَ الْقَتْلَيْنِ (١)

* * *

ومهما يكن من شيء فقد كان الخباز البلدى من شمراء المـسـراق
المتشبهين بفكرة التشيع ، فجاء شمراء صورة صادقة لميوله الدينية واتجاهاته
الفكرية. والمذهبية .

أما أسلوبه فكان سهلا سلسا تندرفيه الحسنات الهديمية ، وتقل
فيه الصور البهائية التى فتن بها شمراء عصره .

ولعل ذلك راجع إلى أميته وعدم ثقافته وضيق أفقه وعجزه عن الدرس
والتحصيل ، فخلا شمراء من الضموش والخرابة ، ولكنه على الرغم من ذلك ،
كان بارعا فى إعلان مذهبه فى التشيع فى كل غرض من أغراض شمراء حتى فى
النزل والمجون .

أما نصر بن أحمد الشهير بِأَلْخُبَزَارُزَى فقد كان يشبه الخباز البلدى
فى حرفته وأميته ومذهبه الشمرى ، كما كان يشبهه فى تشيعه ، وفى مزج
التشيع بمختلف الفنون الشمرية . . . وكان بينه وبين ابن لنكك البصرى
مودة صادقة ، وعلاقة متينة ، وكان ابن لنكك على علو منزلته وارتفاع
قدره ينتاب دكانه بمرصد البصرة . وكان يدور بينهما مكاتبات ، وأشعار
فى الأخويات ومساجلات أدبية رائعة فى مختلف الشؤون . . . وحدث أن

(١) نفسه (٢ : ١٩٠) .

حضر ابن لنكك عنده وعليه ثياب بيض فاخرة فتأذى بالدخان وساء أثره
على ثيابه فانصرف من عنده وكتب إليه مداعبا :

لنصْرِفِي فَوَادِي فَرْطٍ حُبِّ * يُنِيفُ بِهِ عَلَى كُلِّ الصَّحَابِ
أَتَيْنَاهُ فَبَخَرْنَا بِخُـسُورًا * مِنَ السَّعْفِ الدَّخْنِ بِالشَّهَابِ
فَقَمْتُ مَهَادِرًا وَحَسِبْتُ نَصْرًا * يَرِيدُ بِذَاكَ طُرْدِي أَوْ ذَهَابِي
فَقَالَ : مَتَى أَرَاكَ أَبَا حَسَنِ ؟

فقلت له : إِذَا اتَّخَذْتَ ثِيَابِي (١)

فلما قرئت عليه هذه الأبيات سُرَّ بها سرورًا عظيمًا وأملى على من كتب
له الأبيات التالية التي تدل على ظرفه وحسن تعلوله وسرعة بديهته وقسوة
احتجاجه وبراعته الفائقة في مزج التشيع بالأخويات :

مَنَحْتُ أَبَا الْحَسَنِ صِمَمٌ وَدَى
فَدَاعِنِي بِالْفَسَاظِ عَذَابِ
أَنْتِ وَثِيَابُكَ كَالشَّيْبِ لَوْنًا
فَمَدَّنَ لِيهِ كَرِيمَانَ الشَّهَابِ
وَمَقَضَ لِلْمَشْهَبِ أَعْدَى عَدِي
سَوَادًا لَوْنُهُ لَوْنُ الْخَضَابِ
فَإِنْ يَكُنِ التَّقْـزُزُ فِيهِ فَخْرًا
فَلَمْ يَكُنْ الْوَجِيسُ أَبَا تُكَرَابِ (٢)

(١) النتيجة (٢: ٣٣٧) .

(٢) نفسه (٢: ٣٧٤) .

أما شعراء الشيعة في إقليم فارس فكانوا كثيرين وكان أعظمهم قدرا وأعلام منزلة * وأسماهم مكانة وأشد هم عطفًا على أهل البيت .. الوزير الخطير والأديب الكبير صاحب بن عباد الذي ألف كتاب "الإمامة فسي فضائل علي بن أبي طالب" واهتم بنشر التشيع في بلاد فارس أيام وزارته ..

وقد روى الثعالبي أن صاحب عمل في مدح أهل البيت قصيدة تبلغ سبعين بيتا ممرأة من الألف التي هي أكثر الحروف دخولا في المنظوم والمنثور ومثلها :

قَدْ ظَلَّ يَجْسَنُ صَدْرِي * مِنْ لَيْسَ يَمْدُوهُ فِكْرِي
فتعجب الناس منها وتداولتها الرواة (١) .

وكان صاحب يملن عن موهله الشيعة واتجاهاته الذهبية في كل مناسبة .. وكان كثيره من غلاة الشيعة — يرى أن حب علي كرم الله وجهه وسيلة إلى الجنة ، وطريق إلى النعيم كما كان يصب جام غضبه على أهل السنة الذين كانوا ينادون الشيعة ويسفهن آراءهم ، ويمتقدون أن تفضيل عليٍّ على سائر الصحابة .. وفيهم أبو بكر وعمر — بدعة ما أنزل الله بها من سلطان .

ومن شعره الذي يوضح فيه مذهبه قوله :

حب علي بن أبي طالب * هو الذي يهدي إلى الجنة
إِنْ كَانَ تَفْضِيلِي لَهُ بِدْعَةً * فَلَمَنْتَ اللَّهُ عَلَى السَّنَةِ (٢)

(١) الهتمة (٣ : ٣٧٤) .

(٢) الهتمة (٣ : ٢٤٧) .

ولم يكن تشييمه قاصرا على حب على وأبنائه رضوان الله عليهم
وإنما كان يحب كل العلويين في عصره ، ومحطف عليهم ويساندهم ، ويمد
نفسه واحدا منهم ، ولم يكن يطيق أن يتعرض أحدهم لشدة أو تصيبة
ضائقة أو تحل به نازلة أو يلم به مرض .

كتب مرة إلى أحد العلويين في مرضه :—

يا سيدا أقدية عند شكائيه « بالنفس والولد الأعزّ وسالاب
لم لا أبهت على الفراش مسهدا » وقد اشتكى عضو من أعضاء النبي (١)

وكان العلويون بدورهم يحبونه ويجلونه ويترلونه من نفوسهم منزلة
رفيعة ، ويبادلونه ودًا بود واحتراما باحترام .

كما كانوا يتقون فيه ويستشيرونه فيما يمرض عليهم من
أمور .

كتب إليه أحدهم يخبره بأنه رزق مولودا ويسأله أن يسميه ويكتبه
فوقع في رقته بما يدل على مذهبه " أسعدك الله بالفارس الجديد ،
والطالع السعيد فقد — والله — ملأ العين قرة ، والنفس صرة ، والاسم
على ليعلى الله ذكره والكنية أبو الحسن لحسن الله أمره ، فاني أرجو
له فضل جده وسعادة جده وقد بحث لتمويذه دينارا من مائة مثقال ،
قصدت به مقصد الفأل — رجاء أن يعيش مائة عام ، ويخلص خلاص
الذهب الإبريز من نوب الأيام والسلام (٢) .

(١) الهتمة (٢٤٨ : ٣) .

(٢) الهتمة حد ٣ ص ١٢٥ .

ولا أدل على حبه للملوك في عهد ، وتعلقه بهم منذ
مهد من أنه زوج ابنته الوحيدة لأحدهم — وهو أبو الحسين على بن
الحسين الحسنى الملو — فرزق منها مولودا أسما عبادا ، وكناه أبا
الحسن ، وقد فرح صاحب بسطة هذا ، فرحا عظيما وأنشأ يقول
عند بشارته :

أحمد الله لبُشْرَى * أقبلت عند المَشْرِى
أز حبانى الله سبطا * هو سبط للنبي
مرحبا ثَمَّة أهلا * بِفِلاَم هاشمى
نوى على نوى * حسنى صاحبى

ثم قال :

(١) الحمد لله حمدا دائما أبدا * إذ صار سبط رسول الله لى ولدا

وأخذ الشمراء يتوافدون على داره يشاركونه الفرحة بهذا المولود
الملوى صاحبى ، وأنشدوا فى حضرة القاصد الطوال فى هذه المناسبة
السميدة .

فقال أبو محمد الخازن قصيدة على وزن بيت صاحب ورويه مطلعها :

بُشْرَى فقد آنجز الإقبال ما وعدا
وكوكب المجد فى أفق المَلأ صعدا (٢)

وقال عهد الصد بن بابك :

أناك اليمز يسحب بُردته * على ميثاء حالبة التراب

(١) نفسه (٢١٥:٣) .

(٢) التهمة (٢١٥:٣) .

يهدر من بني الزهراء سار * تَعْرِى عَنْ جِلْبَابِ السَّحَابِ
تَفْرَجُ فِي النُّبُوَّةِ ثُمَّ الْقَسَى * بَضْمِهِ إِلَى خَيْرِ الصَّحَابِ
تَلَاقَتْ لَابِنِ عِمَادٍ فِرْعَوْنَ النَّسْبَةِ وَالْوَزَارِ فِي نَصَابِ (١)

* * *

أما أبو الحسن الجوهري فقد غالى في كلامه عن هذا المولود
وإدعى أنه المهدي المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً فقال :
هَلُمَّ إِلَى الْخَيْرِ الْمَأْثُورِ مَسْنُونِهِ
فِي الطَّالِقَانِ فَكَّرْتُ عَيْنَ نَائِلِهِ
فذلك الكثر عباد وقد وضحت
عنه الإمامة في أولى مخايلِهِ (٢)

* * *

مشيراً بذلك إلى ما روتهُ الشيعة بفارس من أن الطالقان كنزا من
ولد فاطمة يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ولما كان صاحب من قرية
" الطالقان " من قرى أصبهان ورزق سبطاً فاطمياً هو عباد تأول الشعراء
له هذا الخبر (٣) .

ومهما يكن من شيء فقد كان صاحب من كبار أدبار الشيعة في القرن
الرابع هـ وكان شديد الإخلاص للمطويعين شديد المطفأ عليهم ، وكثيراً
ما كان يدفعه الأسى - على ما حل بأهل البيت من مصائب - إلى هجاء
مماوية وكل من يناصره من الناصبة ومن ذلك قوله :

-
- (١) نفسه (٢١٧: ٣) .
(٢) البهيمه (٢١٦: ٣) .
(٣) نفسه (٢٤٧: ٣) .

نَاصِبٌ قَالَ لِي : معاوية خسا
لك خير الأعمام والأخوال
فهو خالٌّ للمؤمنين جميعا
قلت خالٌّ لكن من الخير خالٍ (١)

وكما كان يكره معاوية ويهجوّه كان لابنه يزيد أشدّ كرها ، وأعظم بغضا ،
فكان يلتمه في كل مناسبة ..

روى الثعالبي : أن صاحب كان إذا شرب ماءً بثلج أنشد على
أثره :
قمقمة الثلج بماء عذب * تستخرج الخمد من أقصى القلب
ثم يقول : اللهم جدد اللعن على يزيد (٢)

مشيرا بذلك إلى أن سيد الشهداء قد مات ظمأنا ..

ولعل تشيع صاحب يفسر لنا علاقته الوطيدة بالشريف الرضي أكبر
زعماء العلويين في القرن الرابع ، فقد كانت بينهما مودة وتماطف وصداقة
متينة ، كان من ثمارها أن مدحه الشريف — على علوقه — وجلال منصبه ،
وشرف نسبه بقصيدتين ، ورثاء بواحدة ، كما رثاه غيره من العلويين ...
كأبي المباسم العلوي الهذاني الذي جزع لموت صاحب لأنه كان أكبر
نصير لهم في القرن الرابع وقال فيه :

مات العوالي والمحب * لأهل بيت أبي تراب
قد كان كالجبل المنبسط * مع لهم فصار مع التراب (٣)

(١) الصدر السابق (٢٤٢:٣) .

(٢) الصدر السابق (١٢٧:٣) .

(٣) نفسه (٢٦٠:٣) .

ومن أدباء الشيعة في فارس كذلك أبو بكر الخوارزمي فقد كان متمصبا
للملويين — كالأصاحب — صريحا في موالاتهم * وتعلقه بهم * فسلط
قلعه على خصومهم من الناصبة وأهل السنة * وأصلاهم نارا حامية .

فمن شعره في هجاء فقيه منهم قوله :

مُجَبَّرٌ صَيَّرَ ابْنَهُ نَاصِبًا * مُجَبَّرًا مِثْلَهُ وَتِلْكَ عَجِيبَةٌ

ليس يرضى أن يدخل النار قسرا

ساعة الحشر إذ يقود حبيبه (١)

وكان لفلوه في تشييعه يمتد أن العلوي ينبغي أن يكون مطورا
من طينة نقية ظاهرة في خلق منها الناس جميعا * كما ينبغي أن يكون
مثلا أعلى في سلوكه وتصرفاته * وقدوة صالحة لغيره * وكان ينبغي أن
يكون العلوي كسائر الناس يخطئ * ويصيب * ويسوء * ويحسن * ولذلك هجا
علويا كان دني * النفس سيئ * السلوك لأن تصرفاته تعد دعاية سيئة
لذهب الشيعة فقال فيه ::

شريف فعله فعل وضع * دني * النفس محبوب الجسد

عوار في شريعتنا وفتح * علينا للنصارى واليهود

كان الله لم يخلق إلا * لتتطيف القلوب على يزيد (٢)

وكان الخوارزمي يقيم في نيسابور كبرى مدن خراسان * وكان بيت
يومئذ خاضعة للدولة السامانية وعلى الرغم من إقامته في ظل بني سامان

(١) البيتة (٢١٦:٤) .

(٢) البيتة (٢١٦:٤) .

وتنعمه بخيرات بلادهم كان يتحامل عليهم كثيرا • ويهجوهم وهو في غير دارهم • ويطلق لسانه بما لا يقدر عليه كما يقول الثعالبي (١) •

على حين كان يميل إلى بني بويه ويتعصب لهم ويدحهم في كل مناسبة مع أنه كان بعيدا عنهم لا يعيش في بلادهم • • وهذا يدفعنا إلى التساؤل عن أسباب هذا التصرف الخريب من جانب الخوارزمي • •

ولا شك عندى أن ذلك راجع إلى تشييمه وإخلاصه لمقيدته • • فقد كان تشييمه يدفعه إلى حب بني بويه وهم بعيدون عنه • • لأنهم كانوا شيعة زيدية • على حين كان تشييمه سببا مباشرا في بغضه لبني سامان وتحامله عليهم • مع أنه كان يعيش في بلادهم • • لأنهم كانوا سنيين • معتدلين • • فكان طبيعيا أن يجد من بني بويه عطا ومودة لا يجدهما من بني سامان • •

كما أن غلوه في التشيع يفسر لنا تلك الخصومة الأدبية الشهيرة التي حدثت بينه وبين بديع الزمان الهذاني الذي كان يناهض الشيعة • وجاهر بعداوتهم • وينكر عليهم غلوه في مذهبهم • وتطرفهم في عقيدتهم • فكان بينهما أن يحدث خصام بين الأدبيين الكبيرين تكون نتيجته تلك المناظرة الشهيرة التي دفع فيها الخوارزمي الثمن غاليا وكانت حياته هي الثمن •

فلقد وجد الهذاني خصه الكبير يوسع الصحابة وأهل السنة شتما وسخرية وتقريها • وغازه أن يتعصب الخوارزمي لبني بويه • ويغالى في مدحهم مع أنه كان يعيش في خراسان بعيدا عنهم • وأن يطلق لسانه

(١) البتامة (١٩٥:٤) •

فى بنى سامان مع أنه يمشى فى كفهم ، ويأكل من خيراتهم .

هذا علاوة على تكبره وغوره وترفعه عن صداقة الديق . . فراودته
الفكرة أن ينتقم من هذا الخصم المنهد . . وقد كان — فاستطاع — بأسلوبه
الساخر ولفظه اللاذع ، وبما وهبه الله — من حدة ذكاء ، وسرعة بديهة
وقوة بيان ، وقدرة على الارتجال — أن يجعل من الخوارزمى أضحوكة
بين الناس ، وأن ينتصر عليه انتصارا أودى بحياته ، وكانت تلك الخصومة
الأدبية الشهيرة ثرة غير مباشرة من ثمار الصراع المذهبى بين الشيعة
وأهل السنة .

ولقد كان الخوارزمى فى رسائله أشد اعلانا لتشعبه منه فى شعره ،
ولكن الثمالى — للأسف الشديد — لم يختر من رسائله الا ما كان خاليا
من التشعب ، ولمله كان يفعل ذلك عن قصد حتى لا يورط نفسه فى الصراعات
المذهبية التى اشتد أوارها بين الشيعة وأهل السنة فى ذلك العصر . .
خاصة أن الثمالى قضى شطرا من حياته فى ظلال الدولة السامانية
— وهى سنية — ومخطر آخر فى ظلال الدولة المزنوية — وهى سنية كذلك —
فكان طبيعيا أن يتجنب التورط فى مثل هذه المشاكل حتى لا يقع تحت طائلة
المقاب من حكامه السنيين .

وفضلا عن ذلك كان الثمالى معروفا بكثرة المجاملة للحكام والثناء
عليهم فى كتبه ومؤلفاته ، وكان مشهورا بالاعتدال فى الراى والمقيدة ،
والمزوف عن التطرف والمخالاة .

ولعل هذا يفسر لنا تجاهله لكثير من أدب الشيعة فى عصره ولم
يذكر لنا منه فى البتيمة إلا القليل من النصوص التى لا تشعب نهم الباحثين ،

ولا تكاد تعطى صورة صادقة عن المد الشيعى فى ذلك المصر ، فقد كان كثير من عمالقة الفكر والأدب فى إقليمى فارس والمراق من فُلاة الشيعة كالصاحب والخوارزمي والشريف الرضى الذى كان من أبرع أدباء الشيعة تصويرا لآلامهم ورسمًا لآسؤهم ، وديوانه الكبير حافل بالقصائد الطوال فى التشيع وهى تمتاز بصدق العاطفة ، وحرارتها ، وتدل على الأسى والمعاناة .

ولأمر ما قال الثعالبي عنه : " ولست أدري فى شعراء المصر أحسن تصرفا فى المراثى منه (١) .

وعلى الرغم من ذلك تجاهل الثعالبي فى مختاراته لشعر الشريف كل ما يدل على تشيعه للأسباب التى أشرت إليها آنفا .

وإزاء هذا التقصير الواضح من جانب الثعالبي فى حق الأدب الشيعى عطلت جاهدًا على أن أرسم صورة صحيحة للتيارات الأدبية لجماعة الشيعة من خلال ما جمعته من نصوص كانت متفرقة فى اليتيمة وربما ذكرها الثعالبي غرضًا خاطر .

ولملى أكون قد وفقت من خلال عرض ودراسى لهذه النصوص فى أن أرسم صورة صادقة للمد الشيعى فى إقليمى المراق وفارس فى ذلك المصر ، وأن أعطى فكرة صحيحة عن الجانب الموضوعى لذلك الأدب .

أما عن الجانب اللفظى لأدب الشيعة فقد امتاز ذلك اللون بسهولة الألفاظ ووضوح المبارات وعدوية الأسلوب والبعد عن الترابية والضيوض ، والوعورة .

(١) اليتيمة (٣ : ١٢٨) .

كما خلا ذلك اللون أوكاد من المحسنات الديدمية والصياغة
الهيانية والزخرفة اللفظية والخيال المجنح والمبالغات المفقونة .

ولعل ذلك راجع إلى صدق الاحساس وحرارة العاطفة ، والصنعة
غالباً تذوب أمام العاطفة القوية كما أن أسلوب الجدل والمناظرة الذي
امتاز به أدب الشيعة جملة أشبه ما يكون بالخطابة والمناظرة ، وأبعد
ما يكون عن الصنعة اللفظية والزخرفة الديدمية فهذا الأدب وقورا
حزينا شأنه في ذلك شأن الرثاء في معظم الأحيان .

:: الفصل الخامس ::

• تأثير أهل الذمة في أدب اليتيمة •

كان أهل الذمة في القرن الرابع يتمتعون بكثير من ضروب التسامح الديني في ظل الإسلام ، كما كانوا يمارسون شعائرهم الدينية في حرية كاملة ، واشتركوا جميعا في نواحي الحياة العملية والأدبية ، ونظموا أنفسهم بحيث كان معظم الماليين في الشام يهودا على حين كان معظم أطباء القصور في بغداد نصارى ، واشتهر اليهود في ذلك العصر بلحترافهم حرفا خاصة كالصيرفة ودباجة الجلود والصبغة ^(١) .

وانتشر أهل الذمة في مدن المراق وفارس وخاصة بغداد وتكريت والرها ^(٢) ، وكان في فارس بلدتان تسمى كل منهما اليهودية أحدهما ^(٣) بجرجان والأخرى بأصبهان كما كان في بغداد درب يسمى درب اليهود وأصبح أثرهم عميقا في الحياة الاجتماعية ^(٤) .

وكان للنصارى على وجه الخصوص أعياد كثيرة ومتعددة على مدار السنة ، وكان الاحتفال بها - غالبا - يتم في الأديرة التي كانت منتشرة في ربوع المراق ، وفارس ، وسائر بلاد المسلمين .

ومن أشهر أعيادهم في القرن الرابع عيد الميلاد ، وعيد الثمانين وعيد الفصح ، وكانت طبقات المجتمع تشترك في الاحتفال بهذه الأعياد على اختلاف ألوانها ، وجنسياتها ، وأديانها ، كما كان حكام بني بويه يشاركونهم في مظاهر هذه الاحتفالات ^(٥) .

وكان لهذه الأعياد أثر كبير في أدب اليتيمة تجلى على وجه

-
- (١) ضحى الإسلام (١ : ٣٢٥) .
 - (٢) أحسن التقاسيم للمقدس ص ٢٢١ .
 - (٣) ضحى الإسلام (: ٣٢٥) .
 - (٤) أنظر الفصل الخاص بالطوائف الدينية في الباب الأول من هذا البحث .
 - (٥) اليتيمة : (٢ : ٣٩) .

الخصوص في وصف مظاهر الاحتفالات بالأعياد ، وما يقترن بها غالباً من عادات كرش الماء على المارة " يوم الفصح " ، ووصف مجالس الشراب والأنس ، وتهنئة النصارى بأعيادهم ، ومشاركتهم فيها ^(١) ، كما كان بعض الشعراء يتبادلون التهنئة بأعياد النصارى على غرار ما كانوا يفعلون في أعياد الفرس .

وللصاحب بن عباد مقطوعة شعرية رقيقة بعث بها الى صديقه أبي بكر الخوارزمي يهنئه بيوم الفصح ، ويحثه فيها على اللهو والقصف كما كان يفعل النصارى ، ، فيقول :

أَسَمَّكَ اللَّهُ بِرِمِ الْفُصْحِ
وعشت ما عشت بيوم سَمَحِ
يا رَأْمَ مَالِي فِي الرُّمَى وَرِيحِي
وَقَفَرِي وَنُصْرَتِي وَنَجْحِي
شُرْبًا وَلَا تُصْغِ لِأَهْلِ النَّصْحِ
فَالْحَزْمُ أَنْ تَشْرَبَ قَبْلَ نُصْحِي
سكر النصارى في غداة الفصح ^(٢)

أما عادة رش الماء يوم الفصح فقد أعجب بها الشعراء وتأثروا بها وكانوا يشاركون النصارى فيها ويكثرون من وصفها في أشعارهم . مثل قول السلمي - أحد شعراء العراق المشهورين - يصف مظاهر الاحتفال بتلك المناسبة ويمدح ضد الدولة البرية الذي كان يمدى بدلوه في هذا المبحث :

(١) اليتيمة (٦١ : ٣) .
(٢) المصدر السابق (٣ : ٣٣٩) .

لولا اشتياؤُ الماءِ كَفَكَ لم يكن
 قلبُ الندى وَحْشاً السحابِ تنزلُ
 ولقد نثرت على الهوا أمثاله
 ذا سجع صايفٍ وهذا سلسل
 وكأنما تذهبي زراً فأتنا
 ترمى بأسهم فضة تتسلسل
 من فوق كل ذوابتين سحابة
 أمين كل اثنين منها جدول
 فأرقتُ حتى ماء وجهي إياه
 من غير ماء السورد لا يتبدل
 فاترك لنا ماء الشباب ولا ترق
 ماء الصوام فهو فيها أجمل (١)

وهكذا كان لاختلاط أهل الذمة بالمسلمين أثر عبق في الحياة الاجتماعية والأدبية ، فكثر المقطوعات والقصائد الشعرية التي تصور عاداتهم وتقاليدهم وتسجل أعيادهم ومواسمهم ، وتوضح العلاقات الودية التي كانت تربطهم بالمسلمين ومن جهة أخرى كان للديارات المنتفزة في العراق وفارس وسائر أقاليم دولة الإسلام أثر واضح في الأدب العربي فقد اتجهت أنظار جمهرة من الأدباء والشعراء والمؤرخين منذ صدر التأليف في الإسلام . . . إلى الديارات ، فوصفوا طبيع موقعها ورقعة هوائها وعذوبة مائها ، وتغنوا بحسانها وبما وجدوه فيها من مجالي الأمن والطرب ، ومواطن النزهة واللهو . .

(١) المصدر السابق (٢ : ٣٩٠) .

وقد أتاح هذه الديارات لجماعات من الأدباء والشعراء أن
يلجوا باباً من الوصف ما كان لهم أن يلجوه لولاها ..

يشهد بذلك كتب الديارات المديدة التي ألفت في هذا الفن
في عصر الشمالى مثل كتاب "الديارات" لأبى الفرج الأصبهاني المتوفى
سنة ٣٥٦ هـ وصاحب الأغاني المعروف وكتابه في الديارات مشهور ، وقد
ذكره غير واحد من المصنفين كالشمالى (١) وابن خلكان (٢) والصفدى (٣)
وحاجى خليفة (٤) .

ومثل كتاب "الديرة" للسرى الرفاء المتوفى سنة ٣٦٢ هـ وكتاب
"الديارات" للخالدين أبى بكر محمد وأبى عثمان سعيد شاعرى سيف
الدولة وخازنى دار كتبه ..

وقد ضاعت كل هذه الكتب فيما ضاع من تراث الأقدمين ..

ومثل كتاب "الديارات" للشابشتى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ وكتابه
هذا سلم من غوائل الدهر وقد حققه كوركى عواد وطبعه ببغداد ، وهو
من أجل الكتب التي ألفت في هذا الفن ..

وهذا القدر الضخم الذى ألف في الديارات يدل على أثر
النصارى في الحياة الأدبية كما يدل على التمايز السلى الذى كان
سائدا بينهم وبين المسلمين ..

-
- | | |
|-----|-----------------------------|
| (١) | اليتيمة ج ٣ ص ٩٦ . |
| (٢) | الوفيات ج ١ ص ٤٧٥ . |
| (٣) | الواقى بالوفيات ج ١ ص ١١٨ . |
| (٤) | كشف الظنون ج ١ ص ٧٦٢ . |

وكانت تلك الأديار غالبا ما تقام في مواقع خلوية جميلة تحيط
بها الرِّيا والجبـال وتحتفيها الرياض والأشجار وكان ذلك يفرى هـاى
الجمال الطيعى من الشمرء وغيرهم بزيارتها للتمتع بمناظرها الخلابة
ورياضها النضيرة وخبورها المعتقة ، والتغزل بخلمانها وجواربها وإشباع
مطالب الجسد الحسية . . كما كانوا يمارسون فيها بعض الأنشطة
الاجتماعية والثقافية كسماع الفناء والطرب ، وقراءة الشعر والأدب ، وإشباع
النفس بالتمتع الروحانية ، والمحاورات الأدبية والمناقشات العلمية . .

ومن أشهر أديار المراق في تلك المدة : (دير قنّى بالقرب
من بغداد وقد وصفه الشافى بقوله . . هو دير حسن نزه عاير . .
فيه مائة قلاية لرهبانه ، وحول كل قلاية بستان ، وعليه سور عظيم
يحيط به ، وفي وسطه نهر جار (١) .

وقد أكثر الشمرء من وصف هذا الدير وأنصوا في الحديث عنه
وتصور ما كان يدور فيه من مجالس الأنس وحفلات النناء ومظاهر
المبث والمجون . .

ولابى بكر الخالدى في هذا الدير قصيدة عذبة يصف فيها ليلة
من ليالى الأنس قضاها فيه فيقول :

فَلَا تُكْرَنَ لَدِيرِ قُنَى لَيْلَةً
أَشْرَقَتْ ظِلْمَتُهَا بِهَدَرٍ مَشْرِقٍ
يَتَنَّا نُوفَى اللَّهِو فِيهَا حَقَّةٌ
بِالرَّاحِ وَالْوَتْرِ الْفَصِيحِ الْمُنْطَقِ

والجو يسحب من غليل هوائه
ثوباً يرش بطله المستغرق
حتى رأينا الليل قوس ظهره
هَرَباً وأثر فيه شهب الفُجْرِ
وكان ضوء الفجر في باقى الدجى
سيف جلاء من اللجج المحرق^(١)

ويبدو أن الشاعر الخالدى كان من شاق الجمال الفطرى فكان
يتردد بكثرة على الأدبارة يبحث عن التمتع الحسية • • التمثلة نفسى
مجالس الشراب والفناء • والمبحث بجوارى الدير وراهباته • كما ينشد
التمتع الروحية التمثلة فى إنشاد الأشعار ومدارسة الأدب • ومناقشة
القضايا العلمية والفلسفية •

ومن قوله يصف وقتاً سمحدا قضاء بدير مَرَّان • • ويدعو للدير
بالمقيا والبقاء • •

محاسنُ الدير تسبحى وتُصباحى
وخيرةُ فى الدجى صُبحى ومُصباحى
أنتُ فيه إلى أن صارَ هينكُله
ببقي مفتاحه للحسن مفتاحى
منادماً فى قلايبه رهابئةً
راحت خلايقهم أصفى من السراح
قدَّ عدلوا يُقل أديان ومُرفسية
فيهم بخفة أديان وأرواح

(١) التهمة ج ٢ ص ١٢٤ •

ورشحوا فَرَر الآدابِ فلسفةً
 وحكمةً بملوم ذات إِبْصَاحِ
 في طبِّ بُقْرَاطَ لحنِ المَوْصِلِ وفي
 نحو المبرِّدِ أشعارِ الطرمِاحِ
 ونشيدِ حين يهديه المزاجُ لنا
 " أَلَمْعُ بَرِّي سَرَى أَمْ ضَوْءُ مَصْبَاحِ " *
 وكم حَنَنْتُ إِلَى حَانَانِهِ وَغَدَا
 شوقِي يَكَاثِرُ أَصْوَاتًا بِأَتْدَاحِ
 حتَّى تَخْمَرُ خُمَارِي بِمَرْفَاقِي
 وصيرتُ مُلْحِي فِي السَّكْرِ مُلَاَحِي
 يَا دِيرُ مَرَّانَ لَا تَعْلَمُ ضَحَى وَدُجَى
 سَيَجَالِ غَيْثٌ مَلِكُ الْوَدْقِ سَحَابِ
 إِنْ تُفْنِ كَأْسَكَ أَكْيَاسِي فَاذْهَبِي بِهَا
 يَفْلُ جَيْشٌ هُمُومِي جَيْشٌ أَفْرَاحِي (١)

وكان أخوه أبو عثمان الخالدي يمشق الديارات ويتردد عليها
 مثله ولا غرابة في ذلك فقد وصفهما الثعالبي " بأنهما كانا يحييان بمرح
 واحدة وأن ما يجمعهما من أخوة الأدب مثل ما ينظمهما من أخوة
 النسب ، وأنهما كانا يشتركان في قرض الشعر وينفردان ، ولا يكادان
 في السفر والحضر يفرقان (٢) .

وعلى الرغم من هذه الموافقة في الأخلاق والصفات والطباع
 والثقافة كان أبو عثمان هذا أبرع من أخيه أبي محمد في شمس

(١) المصدر السابق (٢ : ١٢٠) .

(٢) نفسه (٢ : ١٦٥) .

الديارات وله في وصفها قصائد شعرية رائعة تمتاز بجمال الإستمارة
وحسن التشبيه ودقة التصوير ، كما تمتاز بسلاسة اللفظ وعذوبة الجرس ،
والحمد عن التكلف والغموض .

وله في دير سميد الواقع جنوبي الموصل (١) قصيدة عذبة . . .
رطبة يصف فيها جمال الطبيعة ، ويتحدث عن الخمر ومجالس الشراب ويصور
جائها من مغلراته العاطفية ، ويتمنى لو أقام في هذا الدير اقامة
الأبد فيقول :

يَا حُسْنَ دَيْرِ سَمِيدٍ إِذَا حَلَلْتُ بِهِ
وَالْأَرْضُ وَالرُّوحُ فِي وَفِي وَدِيحِ
فَمَا تَرَى غُصْنًا إِلَّا وَزَهْرَتِي
تَجْلُوهُ فِي جُبَّةٍ مِنْهَا وَدُرَّاجِ
وَالْحَمَائِمِ الْحَبَانِ تُذَكِّرُنَا
أَحْبَابَنَا بَيْنَ إِرْمَالٍ وَاهْزَاجِ
وَالنَّسِيمِ عَلَى الْفُذْرَانِ رَفْرَفَةٍ
يَنْزِدُهَا فَتَلْقَاهُ بِأَسْوَجِ
وَالْخَمْرِ تُجَلِّي عَلَى خُطَايَاهَا فَتَرَى
عَرَائِشَ الْكَرَمِ قَدْ زَفَّتْ لَارَوَاجِ
وَكَلْنَا مِنْ أَكَالِهْلِ الْبَهَارِ عَلَى
رَوْسِنَا كَأَنَّا شُرَوَّانُ فِي التَّلَاجِ
وَنَحْنُ فِي فَلَكِ اللَّهِوِ الْمَحِيطِ بِنَا
كَأَنَّا فِي سَمَاءٍ ذَاتِ أَبْرَاجِ

ولست أنسى مقاسى وسط هَيْكَلِهِ
 حتى الصباح غزالاً طرفه ساجس
 أَهْزُ عَطْفُ قَضِيبِ الْهَانِ مَمْتَنّاً
 مِنْهُ وَالْتُمُ عَيْنِي لَعْمَةَ الْعِجَاجِ
 وقولتى والتفاتى عند مُنْصَرَفِي
 والشوق يزج قلبى أى إزعاج
 يادير ياليت دارى فى فنائك أو
 ياليت أنك لى فى درب دراجس (١)

وكان دَيْرُ الموصل الأعلى بالعراق من أجمل الديارات فى القرن الرابع
 وقد وصفه الشافعى بقوله : " هذا الدير بالموصل فى أعلاه يطل على
 دجلة وهو دير كبير يضرب به المثل فى رقة الهواء وحسن المستشرف
 يقال إنه ليس للنصارى دير مثله فيه قلايات كثيرة وله درجة منقورة فى
 الجبل يقضى إلى دجلة وعليها يستقى الماء من دجلة .. وتحت الدير
 عين كبيرة تصب إلى دجلة ولها وقت من السنة يقصدها الناس فيستحمون
 فيها (٢) .

وقد أكثر الشعراء من التردد على هذا الدير ووصف مظاهر
 الجمال فيه ، وتصوير منامراتهم العاطفية .

ولأى هُتَانِ الْخَالِدِيِّ أيضاً شعر عاطفى قاله فى أحد غلاني هذا
 الدير : أو فى إحدى جواربه من النصارى :

(١) المصدر السابق (٢ : ١٨٦) .

(٢) الديارات ص ١٧٦ .

قَرَّ يَدِيرِ الموصِلِ الأَعْلَى
أنا هُدَّه وهواءُ لى مَسُولَى
لَيْمَ الصَّليبِ فقلت من حصد
قبل الحبيب فى بها أولس
جُدَّ لى باحداهن كى يحيا بها
قلبي فميتسه على المَقَسَلَى
فاحسَّرَ من خجل وكم قطفت
منى شقائق وجنة حَجْجَلَى
وثكلت صبرى عند فرقته
فعرفت كيف تُحَسَّرُ الشَّكَلَى (١)

وللسرقي الرفاء شاعر الموصل الكبير شمر فى الديارات يمتاز
بالسهولة والمذوبة وحسن استعمال الطرق البليغة كما يمتاز بالوزن
اللطيف والنخبة الموسيقية الجميلة والألفاظ اللينة الناعمة والحروف
المتلازمة التى لا تخرج السمع والتى تسيل سيلانا على اللسان •

يقول فى بعض ديارات الموصل :

شاقنى مَسْتَمَرَفُ الديَرِ وقد
راح صوب المزن فيه وسَكْرَه
أهواء رَقَى فى أرجائه
أم هَوَى راقى فما فيه كدر
أم حدودُ سفرت عن وردها
أم ربيع عن جنى الورد سَفَر

(١) الهيمه ج ٢ ص ١٨٦ •

مجلس ينصرف القرب وما
 طويت من بسطة تلك الحبر
 وكان الشمس فيه تشـرَّت
 ورقاً ما بين أوراق الشجر
 بين قدرٍ تقع الطير بها
 فتراهن رياضاً في قدر
 ونسيم وكرة الروح فيان
 طار في الصبح ارتديناه طير
 وترى يشهد بالطيب له
 بحق خالف أطراف الأرض
 ونهم تشـرَّت أعـلامها
 فلها ظل طينا متشـر (١)

وقال يصف ليلة من لياليه المأجنة بأحد الأديرة : و يصف الشوم :

ودير شـفقت بغـزلائيه
 فكبدت أقبل صابانها
 فلما دجى الليل فرجت
 بريح تحيـف جـوانها
 بسمع أغير قـدود الرياح
 وسرّ نـراها والسـوانها
 غصون من التـبر قد أزهرت
 لبيها يـزن أفـسانها

فياحُسنَ أرواحها في الدُّجَى
وقد أكلتَ فيه أَسَدَانِهَا
سَكِرْتُ بِقَطْرِ بِلِّ لَيْلَةٍ
لهوتَ ففازتَ غِسْزَ لَانِهَا
وَأَيُّ لِيَالِي الهوى أَحْسَنَتْ
إِلَى فَأَنْكَرْتُ إِحْسَانَهَا (١)

ومهما يكن من شيء فقد كان لاختلاط النصارى بالمسلمين أثر واضح في الحياة الاجتماعية وانعكس هذا الاختلاط على أدب اليتيمة فكثرت فيها المقطوعات الشعرية التي تصف أديار النصارى أو التي تصور عاداتهم وتقاليدهم وأعيادهم ومواسمهم ، أو التي تمكس العلاقات الاجتماعية التي كانت قائمة بين الطرفين وكان ذلك الشعر - خاصة ما قيل منه في الأديرة - يمتاز بمعدوية الألفاظ ورقة المبارات وجمال الجرم ، وحسن الموسيقى ، ودقة الوصف وبراعة التصوير والاكثار من الصور البيانية من غير تكلف ، ولا غرض .

ذلك أن جمال الطبيعة في هذه الديارات قد ظهر صدى في الأدب ، فأكسبه رونقا وسهاء ، وكساه حسنا ورواء .

ومن هنا يُعَدُّ هذا الشعر أصدق صورة للحالة الاجتماعية لأهل النية في ذلك العصر - خاصة النصارى - كما يجرى بصديق من العلاقات الاجتماعية السوية ، التي كانت قائمة بينهم ، وبين المسلمين في القرن الرابع .

(١) اليتيمة (٢ : ١٥٥) .

أما أثر اليهود في الحياة الاجتماعية والأدبية فقد كان محدودًا للغاية إذا قيس بأثر النصارى ، بل إن أثرهم في أدب اليتيمة كان معدومًا تقريبًا ، ويندر أن نجد شاعرا عربيا في ذلك العصر وصف بيصمهم ، ومعابدهم ، أو صور عاداتهم وتقاليدهم ، أو تحدث عن أعيادهم ، ومواسمهم ، أو ذكر شيئا من علاقاتهم الاجتماعية بالمسلمين .

وأغلب الظن أن ذلك راجع إلى طبيعة اليهود في كل المصور فتراهم يحبون الميزة ، ويميلون إلى الإنطواء على أنفسهم ، كما أنهم يخافون الناس ولا يتقون في أحد من غير بني جنسهم ولهذا يحذرون الاختلاط والاندماج ويتعالون على غيرهم ويحيطون أنفسهم دائما بسياج من الميزة والسرية والتكتم ، ويقعون في حوار ضيقة قدرة مظلمة يمارسون فيها سمائهم الدينية بعيدا عن الناس ، ومن ثم كان أثرهم في الحياة الاجتماعية محدودا وفي الحياة الأدبية نادرا ، وذلك عكس ما كان عليه النصارى .

ٖٖ الباب الرابع ٖٖ

• التفاوت الطبقي في المجتمع وأثره في اليتيمة •

الفصل الأول :

موقف الحكم من الأدب •

الفصل الثاني :

ترف الحكم وأثاره في اليتيمة •

الفصل الثالث :

مجالس الفناء والطرب وصداها في أدب اليتيمة •

الفصل الرابع :

المجون وأثره في اليتيمة •

الفصل الخامس :

مظاهر الفقر والحرمان في أدب اليتيمة •

:: الفصل الأول ::

موقف الحكام من الأنثى

كانت بغداد في صدر الدولة العباسية تحتل مكانة سامية ،
وتشغل أول منزلة رفيعة بين المدن الإسلامية الكبرى ، كما كانت مركزا
للحياتين الملمية والأدبية ، وملتقى لمختلف التيارات الفكرية والروحية ،

وقد اختلطت فيها الأجناس البشرية ، وامتزجت الثقافات العالمية
والتقت شتى الحضارات الإنسانية ، ففدت قهلاً لأنظار الأدباء ، وقصداً
لطلاب الشهرة والظهور ، وثابة لراغبي الجدد والعظمة ولم ينافسها
في هذا المجال مدينة أو حضرة إسلامية أخرى .. فكان لزاماً على أولئك
الشمراء الذين يمتفنون الشهرة ، ويتطلعون إلى الثنى والثراء ، ويطمعون
في الأخذ والعطاء ، أن يشدوا إليها الرجال ، ويقطعوا دونها الأدغال
حيث قصور الخلفاء ، والوزراء ، وساكناً الكبراء ، والمعلماء ، وحيث مجالس
العلم ، وحلقات الدرس وندوات الأدب ، يمدحون الحكماء تارة ، ويغشون
مجالس العلم تارة أخرى حتى إذا سنحت لهم الفرص ، وتهيأت لهم
الظروف مدحوا الخلفاء ، وكبار رجال الدولة ، وتقربوا إليهم ، واختصوا
بهم ، وعاشوا في أكنافهم ، ونالوا عطاياهم ، وجوائزهم .

على أنه لم يكن من السهل على كل أديب أن يظفر بالحظوة
لدى المدحجين لأن الطريق إلى الخلفاء كان وعراً وشاقاً ، وكان ممن
الصعب على الشمراء الوصول إليهم ، إلا أولئك الذين أوتوا حظاً من
الموهبة ، والنبوغ أو رزقوا قدراً من الحيلة والدهاء ، أو ساعدتهم
الوساطات على أن ينالوا هذا الشرف العظيم ، ومن ثم كان تشجيع
الحكام للأدب والأدباء — آنذاك — محصوراً في نطاق ضيق ..

أما في عصر الثعالبي — وهو القرن الرابع الهجري — فقد
تمددت الحواضر الإسلامية وانقسمت الدولة العباسية إلى دويلات
كثيرة شبه مستقلة ، ولم يعد لبغداد مركز الصدارة بين الحواضر

الإسلامية — كما كانت من قبل — بل زاحمتها بالبنائب مدن أخرى •
وطغنت عليها في المواكب حواضر جديدة كحلب ، والقاهرة ، وقرطبة ، والري
وشيراز ، وقيسَابُورَ ، ومُحَارَى ، وغيرها من المواقم الإسلامية الحديثة ،
فأقبل الشعراء على هذه المراكز السياسية الجديدة ، ووجدوا من الأمراء
والوزراء ، في هذه الدويلات تشجيعا وترحيبا ، وأخذ الحمدانيون في
حلب ، والبهيميون في فارس والمراق ، والسامانيون في خراسان ، والفاطيحيون
في مصر ، والمغرب ، والأمويون في الأندلس ، يتنافسون في تقريب الملوك
ويتسابقون في الحذب على الأدباء ، فراجت سوق الأدب ، ونفقت بضاعه
في تلك الأقطار راجعا عجيبا كان من نتائجه أن أصبح الأدباء كالطهيّر
ينتقلون من قنن إلى قنن ، ويهردون على غصن بعد غصن ، ويصدحون في
روض بعد روض ، ويتكاثرون حيث ينتشر الحب ، ويكثر المطاء ، وبهذا
غدوا كالتاجر الماهر الذي يحمل بضاعه إلى حيث تنفق وترج ليحظى
منها الربح الوفور ، والمال الكثير ••

والدارس لحياة الأدباء في تلك الحقبة يلاحظ ذلك بوضوح ••

فالمشبهى مثلا : عاش قدرا من حياته في بلاط سيف الدولة بحلب
وقدرا آخر في بلاط كافور بمصر ، وقدرا ثالثا في بلاط عضد الدولة
بشيراز ••

والتأضي الجرجاني كان في صباه — كما يقول الثعالبي — خلف
الخضر في قطع عرض الأرض ، وتدويخ بلاد المراق والشام وغيرها حتى
يمر على حضرة صاحب ويلقى بها هذا السائر (١) •

(١) البيهقي (٤ : ٣) •

وأبو الحسن السالتي هجر بغداد إلى الموصل ثم ورد أصبهان
ثم آثر حضرة عضد الدولة بشيراز (١) .

ومديح الزمان الهذاني كان جوابة آفاق . فلم يترك من
خراسان وسجستان وغزنة بلدة إلا دخلها وجبى من ثروتها ، وجنى من
ثروتها ، واستفاد من خيرها وميرتها ، ولم يترك أميراً ولا ملكاً ولا وزيراً
ولا رئيساً إلا استمطر منه بنوه ، وسرى منه في ضوء (٢) .

والثعالبى نفسه كان أختا تنقلات وأسفار ، وحليف إقبال وإدبار ،
وله رحلات متعددة إلى جرجان والجرجانية وغزنة ، ويدل على ذلك
قوله في مقدمة كتابه " اليواقيت في بعض المواقيت " : فافتتحت بنيسابور
ونطرفته بجرجان وتنصفته بالجرجانية واستتمتته بغزنة .

وقد شاع في ذلك العصر حرص العلماء والأدباء على إهداء
كتبهم وشعرات غزلهم إلى ملوك ورؤسا عصرهم ، . . . فعل ذلك الثعالبى
الذى أهدى كتابه إلى الصاحب بن عباد في أصبهان ، وإلى الأمير
قابوس بن وشكير في طبرستان ، وإلى الأمير أبى الفضل الميكالى في
نيسابور ، وإلى مأمون بن مأمون أمير خوارزم ، وإلى السلطان نصر أخت
السلطان محمود (٣) ، وفعل مثله البيرونى الذى أهدى كتابه " التفهيم
في صناعة التنجيم " إلى أمير خوارزم ، وأهدى كتابه " الآثار الباقية "
إلى الأمير قابوس وأهدى كتابه " الهند " إلى السلطان محمود ،
وأهدى كتابه " القانون المسعودى في الفلك " إلى السلطان مسعود ابن
السلطان محمود الغزنوى (٤) .

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٧٠ .

(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٤٢ .

(٣) تاريخ الأدب في إيران من الفردوس إلى السعدى للمستشرق براون
ص ١١٦ ط السعادة ببصر .

(٤) مديح الزمان الهذاني للشكعة ص ٢٩ .

وأما أبو الفرج الأصفهاني فقد أهدى أجل كتبه " وهو " الأغاني " إلى سيف الدولة بحلب وإلى عبدالرحمن الناصر بقربله (١) .

وهكذا حظى الأدباء في القرن الرابع بعناية الحكام الذين اهتموا بالأدب واحتفلوا بأهله احتفالا يدعو إلى الدهشة ويشير المعجب ويبحث على التساؤل (٢) .

فما الذي حدا بهؤلاء الحكام إلى رعاية العلوم والآداب إلى هذا الحد ؟ وما الذي حملهم على تكريم العلماء وتقريب الأدباء والتسابق في إجابة مطالبهم والحرص عليهم ؟

أتراهم كانوا يفعلون ذلك حبا في العلم ورغبة في الأدب ؟ أم كان الدافع إلى ذلك هو حرصهم على تزيين مجالسهم بهؤلاء الأدباء كما كانوا يزينونها بوسائل الترف وأدوات الزينة ؟ أم كان طلب التسلية وتزجية وقت الفراغ هو الحامل على هذا كله ؟ أم كان ذلك التسابق مجرد تنافس يحدث مثله كثيرا بين الخصوم والأقران ؟ كل افتراض من هذه الافتراضات قد يكون هو الفاية . فقد ذكر غير واحد من القدامس والمحدثين أن من هؤلاء الحكام من كان عالما أدبيا يهوى العلم وحمقى الأدب ، كابن المميد .

ومنهم من كان أدبيا يحنو على الأدباء بدافع من الحب والاعجاب كالصاحب ، والمهلبى .

ومنهم من كان فيلسوفا يعيل إلى الفلسفة ، صقرب أهلها كابن سمدان .

(١) ظهر الإسلام ج ١ ص ٢٤٠ .

ومنهم من كان أديبا يحب الكتب فيجمعها ، ويمنى بها كسابور
ابن أردشير .

ومع إيماني بكل الدوائع السابقة أعتقد أن السبب الحقيقي وراء
ذلك التكالب على الأدباء يرجع في الدرجة الأولى إلى المنفعة المتبادلة
بين الطرفين . . فكما كان الأدباء محتاجين إلى أموال الحكام وجوائزهم
كان أولئك الحكام محتاجين بالقدر نفسه — إلى قصائد الشعراء ورسائل
الكتاب التي تملئ من شأنهم وترفع من قدرهم . .

ويخيل إليّ أنه لولا المتنبي لما عرف لسيف الدولة هذه الكنانة
المربوطة التي تبوأها بين حكام عصره ، ولما كان له هذه السهرة البطولية
التي أحالتته إلى شخصية أسطورية لا نظير لها في عالم الحقيقة ، مع أنه
كان حاكما لامارة صغيرة هي حلب وما جاورها من القرى والنجوع . .

ولم تكن حاجة الحكام إلى الكتاب بأقل من حاجتهم
إلى الشعراء . .

ذلك أن معظم هؤلاء الحكام كانوا في صراع دائم مع جيранهم
في الخارج ومع منافسيهم في الداخل وكانوا مهددين في كل لحظة
بالإغارة عليهم من الخارج أو التمرد عليهم من الداخل . . وكانت رسائل
الكتاب — في ذلك العصر — أشد عونا للحكام من سيوف الفرسان . .

وقد سبقني إلى هذا الرأي الثعالب نفسه عندما تَوَّع قديما بالكتاب
وأشار إلى خطرهم في قوله : إِنَّ الْكِتَابَ وَهُمْ أَلْسِنَةُ الْمُلُوكِ إِنْ
يَتَرَاوَعُونَ فِي جَبَايَةِ خِرَاجٍ أَوْ سُدِّ ثَمَرٍ أَوْ عَارَةِ بِلَادٍ أَوْ إِصْلَاحِ نَسَادٍ
أَوْ تَحْرِيزِ عَلَى جِهَادٍ أَوْ احْتِجَاجٍ عَلَى فِتْنَةٍ أَوْ دَعَاٍ إِلَى أَلْفَةٍ أَوْ نَهْيٍ

عن فرقة ، أو تهنته بمطية ، أو تمزية برزية ، أو ما شاكلها من جلائل
الخطوب ومما ظم الشؤون^(١) .

وقد أجمع أهل البصيرة في الترسل على أن رسالة ابن العميد التي
كتبها إلى ابن بلكا — عند استمضائه على ركن الدولة البويهى — قصد
نايت عن الكتاب في عرك أدبيه ، واستصلاح شأنه ، ورده إلى طاعة
صاحبها^(٢) .

على أن الكتاب أنفسهم لم يكونوا يجهلون حقيقة أدوارهم في خدمة
الملوك ، بل كانوا يعرفون جيدا خطورة مراكزهم ، حتى لقد زم أبو
إسحاق الصابى في إحدى قصائده أنه لسان السلطان وكاتبه الوفى الذى
يؤازره فيما عراه من خطوب ، ويمده برأيه الواضح الذى يره ضوء الشمس
وسط ظلام الليل ، ويدعى أنه يمين السلطان التى يبطش بها ويمسك
التي ينظر بها ، ولسانه الذى يتحدث به ، وأنه فقير إلى كلاءه الذى
يرد به رأس الجصح فيثنى ويجمله سوط الحرون فيعنى حيث يقول :

وقد علم السلطان أنى لسانه
وكاتبه الكافى السيد الوفى
أؤازره فيما عسرا وأمد
برأى يره الشمع والليل أغسق
يجده بى نهج الهوى وهو دارس
يفتح بى باب النهى وهو مفلق
فيمناى يمناء ولفظى لفظه
وعنى له عين بها الدهر يرمى

(١) نشر النظم وحل المقد للشمالي ص ٣ ط مصر ١٣١٧ هـ .

(٢) اليتيمة ص ٣ ص ١٧٤ .

ولى فقّر تضحى الملوك فقيرة
اليها لدى أحداثها حين تطرق
أرد بها رأس الجحش فيثني
وأجملها سوط الحرون فيمنق
فان حاولت لطفاً فساء مرقق
وان حاولت عفاً فنار تاللق (١)

وبلغ من عظم مكانة الكتاب في ذلك العصر أن صار الاعتقاد راسخاً
بأن حملة الأقلام أجدى وأنفع من حملة السيوف ، وأنهم ييلفون بأقلامهم
ملا ييلفه الفرسان بخيولهم .

يقول أحد شعراء البيتية وهو الخيري معبراً عن ذلك :

واعلم بأن المسلم أرفع رتبة
وأجل مكتب وأسنى مخير
يضمّر الأقلام يبلغ أهلها
ماليس يبلغ بالجياد الضمر (٢)

وإذا كان الأمر كذلك . . فلا غرابة أن يستند الحكام المناصب
الإدارية الكبرى كالوزارة وما يشبهها إلى الكتاب والشعراء ولو لم يكن
الحكام محتاجين إلى قصائدهم السائرة ، ورسائلهم المحيرة ، لما رأيناهم
يتسابقون إليهم إلى هذا الحد ، ولكان لهم في غيرهم من رجال الإدارة
والعمرسون بشؤون الحكم خير عوض ، وليس من قبيل المصادفة أن يظهر
أمثال : ابن العميد والصاحب والمهلبى وابن سعدان ، وسابور بن أردشير

(١) البيتية ج ٢ ص ٢٤٢ .

(٢) نفسه ج ٢ ص ٨٩ .

— من وزراء فارس والمراق — فى ذلك العصر ، وما منهم إلا كاتب بليغ وشاعر مفلح ، لأنهم كانوا خير سند لبني بويه فى الحرب والسلم على حد سواء . . .

وعلى الرغم من أن بني بويه — حكلم فارس والمراق فى ذلك العصر — كانوا فرسا لا يعرفون اللغة العربية أول عهدهم ، نجد أنهم سرعان ما اندمجوا فى المجتمع العربى فى بغداد ، وتأثروا بالثقافة العربية وأثروا فيها — منذ الجيل الثانى منهم — فكتبوا العلماء ، وفتحوا أبوابهم للكتاب والشعراء ، وغروهم بالمعاليق والبهات . . . ولم يكد الجيل الثانى من بني بويه يأتى حتى ظهر منهم الشعراء والأدباء والكتاب الذين رأى الثعالبي أن يفرد لهم فى اليتيمة بابا كاملا ، تحدث فيه عن أدبائهم واختار من أشعارهم قدرا كبيرا . . .

ومن أبرز شعرائهم ، عز الدولة ، وأبو العباس خسرو بن ركن الدولة وتاج الدولة بن عضد الدولة الذى كان آدب بني بويه وأشعرهم كما يقول الثعالبي (١) .

وكان أبوه عضد الدولة شاعرا نابغا فى عدة شؤون . . . وكان على ما مكن له فى الأرض وجعل إليه من أزمة البسط والقبض وخص به من رفعة الشأن وأوتى من سعة السلطان . . . يتفرغ للأدب ويتشاغل بالكتب ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء ويقول شعرا كثيرا (٢) .

وكانت حضرته مقصدا للشعراء وقبلة للأدباء الذين يحجون إليها من أطراف البلاد الإسلامية كالمثنى والسلى والخوارزم وغيرهم فيضرمهم

(١) اليتيمة ج ٢ ص ١٩٨ .

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١٩٥ .

بالمال ويجزل لهم الملبأ ، وكان مجلسه لا يخلو من المناقشات المليسة
والمحاورات الأدبية ، وكان يستحث الشعراء على الإجابة في القول وشجهم
على الارتحال للشعر ، وكان لا يحضر أمامه شيء من الطعام أو الشراب إلا
أنشد فيه لنفسه أو لغيره شعرا حسنا ، فبينما كان جالسا ذات يوم مع
بعض الأدباء على المائدة إذ قدمت بهظة^(١) فنظر عند الدولة إلى أبي
بكر الخوارزمي وطلب منه وصفها فارتج عليه وغلبه سكوت صعبه خجسل
فارتجل عند الدولة وقال :

بَهْظَةٌ تَمَجُّزُ عَنْ وَصْفِهَا
يَا مُدَّي الْأَوْصَافِ بِالزُّورِ
كَانَهَا فِي الْجَامِ مَجْلُوسَةٌ
لَأَلَى فِي مَاءِ كَأْسِورِ^(٢)

وكان لذلك كله أثره البعيد في رقي الأدب وازدهاره في بلاطه
واتقاد جذوة النهضة لمختلف الملموم والفنون في العراق وفارس على يد
حكلم بنى بويه .

أما وزراءهم فقد كان التنافس بينهم على أشده في تقريب الملمأ
وتكريم الأدباء ، وكان كل منهم يمثل مدرسة ، بل جامعة تحوى ألوانا
مختلفة من الثقافات والمعارف وضروبا متنوعة من الملموم والآداب .

ومن أجل هؤلاء الوزراء مكانة ، وأعلام قدرا ، وأسماهم منزلة وأغزهم
علما وأدبا في فارس ابن الحميد الذي كان كما وصفه الثمالى " عمن
المشرق ، ولسان الجبل ، وعاد ملك بنى بويه وصدر وزراءهم وأوحد
المصر في الكتابة وجميع أدوات الرئاسة وآلات الوزارة والضرب في الآداب

(١) البَهْظَةُ : الأرز يطبخ باللبن والسمن .

(٢) اليتيمة (٢ : ١٩٦) .

بالسهل الفائز ، والأخذ من المعلوم بالأطراف القوية * * يدعى الجاحظ
الأخير والأستاذ والرئيس ، يضرب به المثل في البلاغة وينتهي إليه في
الإشارة بالنصائح والبراهن مع حسن الترتيل وجزالة الألفاظ وسلاستها
إلى براعة المعاني ونفاستها وما أحسن وأصدق ما قال له صاحب وقد
سأله عن بغداد — عند منصرفه عنها — : " بغداد في البلاد كالأستاذ
في المباد " ، وكان يقال : بدئت الكتابة بمحمد الحميد وختمت بابن
المعبد * (١) .

وكان في قصره يمثل المدرس النشط الذي يعنى بتهديب طلابه
وتمرينهم على قرض الشعر وكان ينتهز المناسبات ويطلب منهم أن ينظموا
فيها شعرا ، فاذا حيا ، بمض الزائرين بآترجة — مثلا — قال لهم
تعالوا نتجاذب أطراف وصفها * (٢) .

واذا سُئِلَ بعض الحاضرين في مجلسه عن قصة له فقال ولم يقصد
وزنا : أى جهد لقيته * * * وشقاء شقيته .

قال لهم ابن المعبد قولوا على هذا الوزن * (٣) .

وهكذا كان ابن المعبد يقارض الشعراء وينظر الفقهاء ويكتسب
الأصدقاء كما كان صاحب طريقة فريدة في الكتابة عرفت باسمه وتأثر بها
الكتاب في زمانه وبعد زمانه ، فضلا عن ذلك كانت له مكتبة كسبرى
تحتوى آلاف الكتب والمجلدات بالرى وكان يمهّد بتدبيرها وتنظيمها إلى
أبى دلى أحمد بن محمد بن مسكويه الشاعر المؤرخ الفيلسوف صاحب كتاب
" تجارب الأمم " .

(١) اليتيمة ج ٣ ص ١٣٢ .

(٢) نفسه ج ٣ ص ١٥٢ .

(٣) نفسه ج ٣ ص ١٥٨ .

ولعل المتنبي لم يكن مبالغا في وصفه له بقوله :

مَنْ مُبْلِغِ الْأَعْرَابِ أَنِّي بَعْدَهَا
جَالِسْتُ رَسْطَالِيحَ وَالْأَسْكَدَرِ
وَسَمِعْتُ بَطْلِيمُوسَ دَارِسَ كَتَبِهِ
مَمْلُوكًا مُتَبَدِّئًا مَحْضَرًا
وَلَقِيتُ كُلَّ الْفَاضِلِينَ كَأَنَّمَا
رَدَّ إِلَهُ نَفْسَهُمْ وَالْأَعْمَرُ (١)

أما صاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة وفخر الدولة فقد كان كما وصفه الثعالبي أيضا : " صدر المشرق وتاريخ المجد وغرة الزمان وينبوع العدل والاحسان ، وكانت حضرته محط رجال الأدباء والشعراء ، وموسم فضلائهم ومترع آمالهم ، وكانت أمواله مصرفة اليهم وصنائعهم مقصورة عليهم ، كما كانت همته في مجد يشيده ، وإعلم يحدده ، وقاضل يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه " .

" ولما كان نادرة عطار في البلاغة وواسطية عقد الدهر في الساحة جلب إليه من الاتاق وأقصى البلاد كل خطاب جزل وتوأل فصل وصارت حضرته مشرعا لروائع الكلام وبدائع التفهام وثمار الخواطر ومجلسه مجسما لصوب المقول ، ونوب الملموع ، ودرر القرائح ، فبلغ من البلاغة ما يُعَدُّ في السحر ويكاد يدخل في حد الإعجاز ، وسار كلامه مسوِّباً الشمس واحتف به من نجوم الأرض وأفراد المصر وأبناء الفضل وفرسان الشعر من يُزَيِّع عددهم على شعراء الرشيد ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوائمي وملك رقاب المعاني " .

(١) اليتيمة ج ٣ ص ١٣٩ .

ثم أخذ الثمالي بعد ذلك يعدد شعراء صاحب وندمائه فقال : " وجمعت حضرة صاحب بأصفهان والزهرى وجرجان أمثال أبي الحسن التتلى وأبي بكر الخوارزمي وأبي طالب المأموني وأبي الحسن البديهي وأبي سعيد الرستمي وأبي القاسم الزغراني وأبي المباسم الضبي وأبي الحسن علي بن عبدالمزيز الجرجاني وأبي القاسم ابن أبي الملا وأبي محمد الخازن وأبي هاشم الملو وأبي الحسن الجوهري وابن المنجم وابن بابك وابن القاشاني وأبي الفضل الهمداني وإسماعيل الشاسي وأبي الملا الأسدي وأبي الحسن الشويري وأبي دلف الخزرجي وأبي حفص الشهر زوري وأبي معمر الإسماعيلي وأبي الفياض الطبري وغيرهم ممن لم يبلغني ذكره أو ذهب عن اسمه " (١) .

إنهم عدد ضخم من الأدباء والشعراء الذين أحاطوا بهذا الوزير العظيم والتفوا حوله وساروا في فلكه وقبسوا من ضوئه واغترفوا من بحرهم وعاشوا في كتفه فغمرهم بحطفه ورعايته .

وقد كان كأستاذ ابن العميد يشجع الشعراء على القول ويديرهم على الإرتجال ويحثهم على الإجادة ويقترح عليهم الموضوعات ويطلب منهم أن ينظموا فيها الشعر ولكن في نطاق أوسع وبصورة أعم وأشمل
يخسني داراً بأصفهان فطلب منهم وصفها فتسابقوا في ذلك ، ووقع في بدء قيل وهو بجرجان فأمرهم أن يقولوا فيه شعراً ، ونفق برزون أبي عيسى بن المنجم بأصفهان فطلب منهم أن يبرئوه ويعزوا صاحبهم على سبيل المدح ، فاستجابوا لرغبته سرعین وكان من أثر ذلك ظهور مجموعات شعرية ضخمة أوردها الثمالي كلها في الهمية وعرفت بالداريا والقيليات والبرذونيات (٢) .

(١) الهمية ج ٣ ص ١٦٩ .

(٢) انظر الهمية ج ٣ ص ١٧٣ الى ص ٢١٥ .

كما أورد له الثمالي طائفة ضخمة من رسائله الأخوية فسي
التهنئة والمدح والملاطفة وطائفة أخرى من مسلحه ونوادره وتوقيماته
واختار له قدرا كبيرا من عيون شمسه في مختلف الأغراض والفنون .

وليس أدل على حب صاحب للملم وتكرمه للأدب من أنه كان
يمتخف بالوزارة وتقاليدها ويتربى بزي أهل الملم ويخرج على الناس
متطلعا متحنكا (١) .

ومهما يكن من شيء فقد كان تأثير صاحب في الحياة العلمية
والأدبية عظيما بالنسبة وقد تجلى ذلك بوضوح في كتاب اليتيمة حيث
أورد له الثمالي ولشعرائه طائفة ضخمة من الأخبار والأشعار تربو على
خمين ومائة صفحة من الحجم المتوسط .

أما وزراء بني بويه بالمراق فلم يكونوا أقل حماسا من إخوانهم
بفارس في تقريب الملوك وتكريم الأدباء ولم يألوا جهدا في تشجيع
الحركة الفكرية في بلادهم فاجتذبوا إلى قصورهم قادة الفكر والبيان
وأمراء الكتابة والشعر .

ومن أبرز وزراءهم في إقليم العراق : الوزير السهلي . . وابن
سعدان وسابور بن أردشير . أما السهلي فقد كان — كما يقول الثمالي —
" يترسل ترسلا مليحا ويقول الشعر قولا لطيفا يضرب بحسنه الشلل
ولا يستحلى معه المسل يفذى الروح ويجلب السرح " (٢) .

وكان يحمق مجالسه الأدبية في قصوره الجميلة ويمسكها بالثقافة
فيها كثير من قادة الفكر وأمراء البيان أمثال صاحب والقاضي التنوخي

(١) الأدب في ظل بني بويه ص ١٣٠ .

(٢) اليتيمة ج ٢ ص ١٠٢ .

وابن فريضة وابن معروف وغيرهم .. حيث كانوا يأخذون في فنون مختلفة من المناشدات والمجاوبات والمذكرات والمدائح (١) .

وكان صاحب يتردد على هذه المجالس السهلية عندما كان يزور المراق ويحجب بها .. فأكثر من وصفها في كتابه "الروز نلمجة" فقال في أحد فصوله مخاطباً أستاذه ابن الصمد : "وردت - أدام الله عز مولانا - المراق فكان أول ما اتفق لي استدعاء مولاي الأستاذ - أبي محمد - يعني السهلي - لي ، وجمعه بين ندمائه - من أهل الفضل - وبينى ، وكان الذي كلمني منهم شيخ ظريف خفيف الريح أديب متقصر في كلامه لطيف بحرف بالقاضي ابن فريضة ، فانه جاراني في مسائل خفتها تمنع من ذكرها واقتضاضها (٢) .

وكان السهلي يحب الأدب ويكثر من الحديث حوله في كل مناسبة ولو كان على مائدة الطعام فقد حكى ياقوت " أن السهلي كان يكثر الحديث على طعامه وكان طيب الحديث ، وأكثره مذاكرة بالأدب وضروب الحديث على المائدة لكثرة من يجمعهم عليها من العلماء والكتّاب والندماء (٣) .

وقد بلغ من حبه للأدب وعطفه على أهله أنه كان يحتفل من أبي الفرج الأصهباني ما لا يحتفل به بشر ، فهو على ما كان من نظافته وأناقته في مأكله كان يتكلف الصبر على مؤكلة أبي الفرج فلا يظهر في وجهه انكاراً ولا استكراهاً (٤) .

(١) الأدب في ظل بنى بويه ص ١٣٢ .

(٢) اليتيمة ج ٢ ص ٢٠٥ .

(٣) معجم الأدباء ج ٩ ص ١٤٣ .

(٤) نفسه ج ١٣ ص ١٠٢ .

وقد اهتم به الثمالي كثيرا في "الهيئة" وأقر له بابا كاملا تحدث فيه عن نسبه ومكانته وتقلب الدهر به وكرم أخلاقه وحميد صفاته ، كما تحدث عن مجالسه الأدبية والفنانية وجمع طائفة ضخمة من أشعاره في مختلف الأغراض والفنون وهذا يدل على مكانة المهلبى وطو كعبه في الأدب وأثره في نهضة العلوم والآداب والفنون بإقليم المـسـراقى في زمانه .

وبالإضافة إلى مجالس المهلبى الأدبية والعلمية كان هناك بالمـسـراقى مجلس آخر ذو شأن كبير في تاريخ المجالس الأدبية وهو مجلس أبى هـدالله الحسين بن سـمـدان المتوفى سنة ٣٧٥ هـ وزير صمصام الدولة البويهى الذى كان يعيل إلى الفلسفة ويحب أهلها ويقرب المشتغلين بها ويشعلهم بمطافه ورعايته . . وكان أبو حيان التوحيدى الأديب الكبير والفيلسوف العظيم يجالسه ويناديه ويقضى معه الأمسيات الطويلة ويناقشه في مسائل فلسفية وأدبية بالغة الأهمية . . كحياة الانسان وطبيعته الروح ومميزات ذوى الشأن من المصريين ومواهب العرب البارزة مع موازنتها بمواهب غيرهم من الأجناس الأخرى وموازنة كتبه الحسابات بكتاب الرسائل وإظهار أيهما أكثر فائدة للحاكم وأنتفع لحكمه . . إلى كشف امتياز علوم اللغة على علوم المنطق . . وغير ذلك ما هو مذكور في كتابه الشهير "الإمتاع والمؤانسة" .

وكان مجلسه حافلا بأفاضل العلماء والأدباء والفلاسفة في عصره كابى حيان التوحيدى وأبى طى عيسى بن زرق النصرانى المتفلسف وابن عبيد الكاتب وابن الحجاج الشاعر وأبى الوفاء المهندس وابن بكر وابن مسكويه وأبى القاسم الاهوازى وأبى سعد بـهـرام بن أرتشير وابن شاهويه

سوى الطائفتين من أهل الدولة (١) .

وكان ابن سعدان كثيرا ما يهاى بمجلسه هذا ويفخر به على مجالس الوزراء المزمعين له فى فارس والعراق أمثال ابن الحميد والصاحب والمهلبى وكان يقول : " ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير وإنهم لأميان أهل الفضل وسادة ذوى العقل " .

وكان يوازن بينهم وبين ندماء الوزراء الآخرين فيقول : " أنظرن أن جميع ندماء المهلبى يفون بواحد من هؤلاء ؟ ، أو تقدر أن جميع أصحاب ابن الحميد يشبهون أقل من فهم ؟ وهل عند ابن عباد إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون ويحقنون ويتصاحون ؟ " (٢) .

وأما سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهى فقد كان أديبا كبيرا جمع حوله طائفة كبيرة من الشعراء أمثال السلاسى والحمدونى وأبى الفتح البيناى وابن لؤلؤ وابن بابك والناسى والحائسى والخالع وغيرهم وقد أورد الثعالبى فى اليتيمة بابا كاملا لشعراء سابور من أهل العراق وغيرهم من الذين كانوا يمدحونه وشيدون به فى أشعارهم (٣) .

ومن مآثر ذلك الوزير العظيم تلك المكتبة الضخمة التى أسسها سنة ٣٨٣ هـ ففى هذه السنة أتماع سابور دارا بالكش بين الصوهرى فى بغداد وعمرها وسماها دار العلم ، ووقفها ونقل إليها كتب كثيرة (٤) .

(١) الصداقة والصديق لأبى حيان ص ٣٠ .

(٢) دراسات فى الحضارات الاسلامية د . أحمد شلبى ص ٩٠ .

(٣) اليتيمة ج ٣ من ص ١٠٩ الى ص ١١٦ .

(٤) شذرات الذهب لابن العماد ج ٣ ص ١٠٤ .

ويذكر ياقوت (١) أن عدد الكتب التي بها كان أربعمائة وعشرة
آلاف مجلد من أصناف العلوم .. منها مائة مصحف بخطوط بنى مقلّة ..

وكانت تلك المكتبة مركزا ثقافيا ممتازا يلتقى فيه العلماء والباحثون
والدارسون للقراءة والبحث .. وطالما عقدت فيها المناظرات الأدبية
والمناقشات العلمية ولقد زارها أبو الملاء المصري عندما كان في
بغداد وقال فيها :

وَقَفْتُ لَنَا فِي دَارِ سَابُورَ قَبِيَّةً
من الورق مطراب الأصائل ميهال (٢)

وهكذا كان الحكماء في إقليس العراق وفارس يشجعون
العلماء ويقربون الأدباء ويجزلون لهم العطايا والتهبات .. وكانوا
يتنافسون في ذلك تنافسا عجيبا كان من نتائجه أن كثرت مراكز العلم
وتعددت مجالس الأدب .. وازداد عدد الشعراء ازديادا عظيما ..
وازدهرت الحركة الأدبية والعلمية في ذلك العصر ازدهارا لم تعرف
له مثيلا من قبل .. ولعل كتاب اليتيمة الذي ألف في هذا العصر
والذي أخرج لشعراء وكتاب العالم الإسلامي في تلك الحقبة خير شاهد
على ذلك ..

(١) معجم البلدان ج ٢ ص ٢٤٢ ..

(٢) الأدب في ظلال القوسيات ص ٣٦ لأحمد الشمراني ..

((الفصل الثاني))

:: ترف الحكام وأثره فى أدب اليتيمة ::

~~~~~

## :: ترف الحكام وأثره فى أدب اليتيمة ::

~~~~~

بلغت الحضارة المباسية فى القرن الرابع قمة الازدهار والرقى ،
وأصبحت الحياة الاجتماعية - بفضل ذلك - صبة معقدة ، فيها كثير
من التكاليف والمبالغة ، فأقبل الحكام على هذه الحياة الجديدة يتفيا ون
ظلالها وقطفون ، ثمارها ، وتمرغون فى نعمها ، تاركين معظم
الرعية فى فقر مدقع ، ومؤس شديد .

قد هجروا الماديات الحربية القديمة التى كانت تقوم على البسابة
والسهولة والفترة السليمة ... إلى هذه الماديات الحربية . التى لا
تمت الى الحياة الحربية بصلة ، وأخذوا يتأنقون فى مآكلهم ومشربهم
وسائر أمورهم والنفوا فى ذلك حتى تعقدت حياتهم وأحوالهم .

ولم يزل الطريقة التى كانت متبعة - آنذاك - فى تناول الطعام
تمثل صورة صادقة لحياة هؤلاء الحكام المترفين .

ففى أوائل القرن الرابع الهجرى كان الوزير أبو الحسن على بن
الفرات يدعو إلى طعامه فى كل يوم تسعة من الكتاب الذين اختصهم
وكان منهم أربعة نصارى ، فكانوا يقعدون على جانبيه وبين يديه وقدم
إلى كل واحد منهم طبق فيه أصناف الفاكهة الموجودة فى الوقت من خير
شئ ثم يجعل فى الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الأصناف

وكل طبق فيه سكين يقطع بها صاحبها ما يحتاج إلى قطعه من سفرجل
وخوخ وكشرى وسمه طست زجاج يرمى فيه التفل فإذا بلفوا من ذلك
حاجتهم ، واستوفوا كفايتهم ، رفعت الأطباق ، وقدمت الطموت والأباريق
ففسلوا أيديهم ، وأحضرت المائدة منشاة بدبيقى فوق مكبة خيازر
ومن تحتها سفرة آدم فاضلة عليها وحواليها مناديل الفمر فإذا وضعت
رفعت المكبة والأغشية وأخذ القوم فى الأكل وأبو الحسن بن الفرات
يحدثهم صوابهم وحقهم فلا يزال على ذلك والألوان توضع
وترفع أكثر من ساعين ثم ينهضون إلى مجلس فى جانب المجلس الذى
كانوا فيه وفسلون أيديهم ، والفراشون قيام يصبون الماء عليهم ،
والخدم يقوف ، وعلى أيديهم المناديل الدبيقية ورطيلات ماء الورد
لمسح أيديهم ، وصبه على وجوههم (١) .

وهذا يكون ابن الفرات قد هجر الطريقة المربية القديمة التى
كانت تقضى بأن يوضع الطعام كله مرة واحدة واستعاض عنها بهذا ،
الطريقة الجديدة المقعدة التى تقضى بأن توضع ألوان الطعام بعضها
بعد بعض وهى الشائمة الآن فى أوربة كلها (٢) .

وكان الوزير السهلبى أكثر تمقيدا فى طريقة طعامه من سلفه ابن
الفرات فقد بلغ به الترف والتمقيد والتكلف فى تناول الطعام أنه كان
إذا أراد أكل شئ يلمقه كالأرز واللبن وقد على جانبه الأيمن فلام

(١) الحضارة الإسلامية لمتى ج ٢ ص ٢٣١ .

(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٣١ .

معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجا مجرودا فيأخذ ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة ثم يدفعها إلى غلام آخر قام من الجانب الأيسر ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل الأولى حتى ينال الكفاية لثلاث يميند الملعة إلى فيه دفعة ثانية (١) .

ولم يبلغ بهم الترف أنهم كانوا يأكلون في أوان من الذهب والفضة . وكانوا يسرفون في الإنفاق على الطعام والشراب وبالفنون في ذلك . . حتى إن الخليفة المكفي كانت تقدم على مائدته عشرة ألوان من الطعام في كل يوم سوى صنوف الحلوى (٢) .

ولم يكن الوزراء أقل إسرافا من الخلفاء في هذه الناحية فلو كان لحامد بن العباس وزير المقتدر أربعمائة مائدة يختلف إليها في كل غداء أفواج من الناس كما كان للوزير ابن الفرات مطبخان أحدهما للخاصة والآخر للعامة وكان يقدم إلى الأخير يوميا تسمون رأسا من الفم وثلاثون جديا غير المئات من الدجاج وكان الخبازون وأصحاب الحلوى يعملون ليل نهار (٣)

وفي كتاب " البخل " للجاحظ وغيره من الكتب التي ألفت في هذا العصر أسماء أطعمة كثيرة مثل " السكياج " وهو لحم يطبخ بخمائل

(١) مجمع الادباء ج ٥ ص ١٥٣ .

(٢) مروج الذهب ج ٤ ص ١٩١ .

(٣) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني د . شوقي ضيف ص ٧٤ ط دار المعارف بمصر .

ومضاف إليه شيء من الزعفران لتطيب رائحته ، والضميرة .. وهي لحم
ممزوج ببعض التوابل ، والشارقات .. وهي شرائح مشوية من اللحم
والطبايح .. وهو طعام من لحم وبيض وصل ، والهريمة .. وهي
لحم بياض وسميد ... الى غير ذلك من أطعمة كثيرة ..

ثم الحلوى من الفطائر والرقاق ومنها : اللوزنج : وكان
يتخذ من اللوز والدقيق والفتق وشرش بياض الورد .. ومنها الفالونج
وهو حلوى من النشا وعسل النحل والسمن ، والخشكان .. وهو كعك
يحشى بالجوز والسكر ..

ثم الأشربة : ومنها الجلاب وهو شراب ممزوج بياض الورد كما
كانت تقدم مع الطعام المشبهات ويسمونها النقل (١) .

ومعظم هذه الأطعمة لم تكن معروفة في المجتمع العربي من قبل
وهذا يدل على مدى ما وصل إليه القوم من الانغماس في الحضارة المادية
الحديثة .. وتأنيهم فيها .

أما فن الطبخ فقد نال عناية كبيرة من جانب المؤلفين في هذا
المصر فقد ألف الرازي مثلاً كتابين في هذا الفن أحدهما : " ما يقدم
من الأطعمة وما يؤخر " ، والثاني : " ترتيب أكل الفواكه " .

وآلف إبراهيم الحري كتاباً بعنوان : " الهدايا والسنة فيها " ،

(١) تاريخ الأدب العربي مصر المباحث الثاني د شوقي ضيف ص ٧٥ .

كما ألف قسطنطين بن لوقا كتابا بعنوان : "النهيذ" وشرحه في الولايم^(١) .
ولكل من علي بن هارون المنجم وإبراهيم بن المهدي المباسي وجحظة
البرمكي كتب قيمة في فن الطبخ^(٢) .

وبالإضافة إلى ذلك كله تحدثوا عن النديم وصفاته ، وما يستحسن
منه وما يستقبح ، فلاحظ مثلا : يستحسن من النديم ألا يشمس
المعظم ولا يبادر إلى البيض الموضوع على البقل ولا يأخذ لنفسه أكباد
الدجاج وصدورها أو المخ أو الكلى أو العيون أو صفار الفوايح^(٣) .

وقد بلغوا من الأناقة في المعيشة أن جعلوا للظرف والظرفاء
قوانين متعارفة من خرج عليها كان غير ظريف ، وألف الوشاء كتابين في
هذا الفن أحدهما "الموشى" ، والآخر : "حدود الظرف" .

وقد تحدث بالتفصيل عن قوانين الظرف وحدوده ، كما أوضح
صفات الظريف ، ومن كلامه في ذلك قوله :

اعلم أن كمال أدب الأدباء وحسن تظرف الظرفاء صبرهم على
ما تولدت به المكارم ، واجتنابهم لخسيس المآثم ، فهم لا يداخلون أحدا
في حديثه ، ولا يتظلمون على قارئ في كتابه ، ولا يقطعون على
متكلم كلامه ، ولا يستمعون على مسر سره ، ولا يسألون عما وري عنهم
علمه ، ولا يتكلمون فيما حجب عنهم فهمه^(٤)

(١) ظهر الاسلام ج ١ ص ١٠٢ .

(٢) الحضارة الاسلامية لأدم متر ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٣٤ .

ولما كان الأدب صورة صادقة لحياة الأفراد والجماعات ، و مرآة
تنعكس عليها أوضاعهم الاجتماعية كان أدب هؤلاء الحكام مثرفا ناعما
فأناقة المآكل والملبس والمعيشة جديدة بأن تحمل أصحابها على
التأنق في الأدب فلا غرابة أن يكثر أدباء هذه الطبقة من وصف الأطعمة
والأشربة وغيرها .. من وسائل التذخ وأدوات التعميم .

لقد كان من أعلام الأدباء في ذلك العصر ابن المبرد والصاحب
ابن عباد والوزير المهلبى وعبد المنز بن يوسف وأبو إسحاق الصابى
وغيرهم ، وكانوا يحكم مناصبهم السياسية وكانتهم الأدبية يمشون فى
بذخ وضيعم يحيون حياة هائلة مترفة ، ويتقلبون فى أعطاف المعيش ،
يؤمن اللذة والطيش ، ويتأنقون فى طعامهم وشرابهم يحتفلون بمجالسهم
وسوائدهم احتفال ابن الفرات بسوائده ، والمهلبى بملأه ، وصورون
ذلك كله فى أشعارهم ومناظلاتهم ..

وقد سبق أن تعرفنا الى أن ضد الدولة البويهى كان من الحكام
الذين يتفرغون للأدب ويتشغلون بالكتب ويوترون مجالسة الأدباء على
منادمة الأمراء ، وكان لا يحضر أمامه شئ من الطعام والشراب وأدواتهما
إلا أنشد فيه لنفسه أو لغيره شعرا حسنا (١) .

وكان أدبه فى هذه الناحية صورة صادقة لحياته المترفة الناعمة .
فأكثر من وصف الطعام والشراب ومجالس الطرب والفناء ..

(١) ج ٢ ص ١٩٦ .

أما أبو الفضل بن العميد فكان يتخذ من ألوان الطعام التي
تقدم إليه أو التي تهدي إليه من أصحابه وسيلة للمقارنات الشعرية
والمساجلات الأدبية . .

ومن ذلك أن ابن خلاد القاضي المزاني له أهدى إليه شيئاً
من الأطعمة وكتب إليه في وصفها — وابن العميد إن ذاك ناقة من
مرض كان به — فكتب إلى ابن خلاد :

قُلْ لَابْنِ خَلَادٍ الْمُضَى إِلَى أَمِيٍّ
فِي الْفَضْلِ بَرَزَ فِيهِ أَيْ تَسْبِيحُ
مَاذَا أَرَدْتَ إِلَى مَنْهُوضٍ نَائِيَةٍ
مُدْفَعٍ عَنْ حِمَى اللِّذَاتِ مَلْهُوزٍ^(١)
هَزَزْتَ بِالْوَصْفِ فِي أَحْشَاءِ قَرَمًا
مَا زَالَ يَهْتَرُ فِيهَا غَيْرَ مَهْزُوزٍ
لَمْ يَتْرِكْ فِيهِ فَحْوَى مَا وَصَفَ لَهُ
مِنَ الْأَطَائِبِ غَضًّا غَيْرَ مُحْفُوزٍ^(٢)
أَهْدَيْتَ تَبْرَةً أَهْدَتْ لَأَكْلِهِمَا
كَرْبَ الْمَطَامِيرِ^(٣) فَمَنْ آبٍ وَمُحْزُوزٍ

فأجابه ابن خلاد بقصيدة منها :
يَا أَيُّهَا السَّيِّدُ السَّامِيُّ يَدْوَحِيهِ
تَاجُ الْأَكَاكِيرِ مِنْ كِسْرَى وَفُـمُوزِ
أَنْتَ قَرِيبُكَ يَزْهَى فِي مُحَاسِنِهِ
زَهْوُ الرُّبَا بِأَسْرَتِ أَنْظَامِ نَمُوزِ

(١) الملهوز : المدفوع السنوع

(٢) المحفوز : المظنون

(٣) المطامير : جمع مظمورة وهي الحفرة في جوف الأرض

يا حُسْنَهُ لَوْ كُنْنا حِينَ يَهْجُنَا
خَطْبُ النَّهَارِ فِيهِ وَالشَّوَارِبِ
أَقْرَرْتُ بِالْمَجْزِرِ وَالْأَلْبَابِ قَدْ حَكَمْتُ
بِهِ عَلَى قَدْرِكَ الْيَوْمَ تَعْجِزِي
جَوَزُ قَرِيضِي فِي بَحْرِ الْقَرِيضِ فَكَمْ
(١) مِنْ قَائِلٍ عِنْدَ قَوْلٍ بِتَجْهِي
...

وأهدى ابن خلد مرة أخرى إلى ابن العميد كتابها في الأظعمة
عقب مرض كان قد ألم به فكتب إليه ابن العميد :
فهمتُ كتابك في الأظعمة
وما كان تَوَلِيَّيَ أَنْ أَهْمَمَهُ
عَمَ هَاجَ مِنْ قَرَمٍ سَاكِنٍ
وَأَوْضَحَ مِنْ شَهْوَةِ مَهْمَمَةٍ
وَأَرَتْ نَفْسِي كَيْدِي ظَلَمَةً
مِنَ الْجُوعِ نَوْرَانَهُمَا بُرْمَةً
فَكَيْفَ عَدَتْ بِسَبْعِ نَاقِيَتَا
جَوَانِحُكُمْ لِلطَّيْوِي مَلَمَةٍ
خَفُوقِ الْحَشَى أَنْ تُصْغَ تَتَمِيعَ
مِنَ الْجُوعِ فِي صَدْرِهِ هَمَمَتَمَةٍ
تَتَمِيعُ لَهُ شَرَّهَا مُوجِمَتَا
وَتُفَرِّي بِسَبْعِ نَهْدَتَمَةٍ مُوَلِمَةٍ

(١) البيتية ج ٣ ص ١٥٠ .

فأين الإحسان وما يقتضيه منك بأشبابها المبرمة
 وأين تكرر المستفيض فيها إذا عاينت الكرم
 وهلا أضفت إلى ما رصف * ت شيئا تهش لأن تطعمه
 يمد الصدوق إليه يدا * إذا ما رآه وشجى فنه
 وأين شواربك المرتضاه * إذا ما تفضلت الأظفمة
 وأين كواميك المجتبا * دون الأطايب بالتكريم
 وهل أنت راض بقولي إذا * ذكرت : دعوه كما أله ؟

فأجابه ابن خلاد بقصيدة منها :

هلم الصحيفة والمقلمة * وأدن الحمبرة المفممة
 لكتب ما جاش في خاطري
 قد عظم الخوض في النبرمة
 وأعجل على بهدي وندي
 فاني من الخوض في ملحممة
 ألا حننا ثم يا حننا
 كتابي المصنف في الأظفمة
 كفانا به الله ما راعنا
 بملمة سيدينا المولمة
 أطاب الحديث له في الطما
 فقشق شهوته البهمة
 أيادنا الندي والحجى والملا
 ومن أوجب الدين أن نعظمه

لكن كان نهر مِسِيٍّ أَضْدَدْتُ
ولم تَأْكُ صُنْعُهَا مُخَكَّكَةً
فصوف يُزُورُكَ شَيْءٌ رَازِنًا
فَقُتِّبِمُ بِاللَّهِ أَنْ تُكْرِمَهُ (١)
.....

والإضافة إلى ذلك وصفوا الهريسة والقطايف والسكاجنة وخبز
الأرز والبيض المفلق ورؤوس الحملان وغير ذلك من ألوان الطعام
وصنوف الحلوى ..

ومن ذلك ما كتبه الصابي إلى صديق له يستدعيه وصفه ما عنده
من رؤوس الحملان والشراب والفتق فقال :

طَبَاخُنَا صَانِعُ رُؤُوسَاتِنَا
يَسْقُطُ مِنْ طِيهَاتِنَا الْخِلَافُ
مُهَيَّزَةً كَاللَّجْجِ لَوْنِنَا
شَهِيذَةً كُلُّهَا نَظَافُ
وَأَخْذَهَا فِي الرَّقَبَاتِ يَحْكِي
صَنِيعَ حُمَى لَكُ لِحَافُ
مَنْ بَيْنَ عَجَلٍ إِلَى خُرُوفٍ
تُزْهِقُ بَتْنَيْدَهَا الصَّحَافُ

(١) البتية ج ٣ ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

مُخْلِفَاتُ الْقُدُودِ لَكِنَّ
لَهَا بِأَسْنَانِهَا أَثِيلَانُ
وَكُلُّهَا رَاضٍ صَفِيرُ
لَهُ عَلَى ضَرْعِهَا أَجْكَافُ
قَدْ أَشْمَتَهُنَّ أُمَّهَاتُ
مِنْ طُولِ ارْضَاعِهَا عَجَسَانُ
تُعْقَى عَلَى ذَاكَ رَجَّحَ دَنْ
أَرَقَّ أَسَانِيهَا السُّلَانُ
عَرُوسُ دَنْ صَفَتْ وَطَابَتْ
لَوْنًا وَطَعْمَتًا فَا تُعَمَّافُ
كَانَ بِإِزْقِهَا لَدَيْنَا
نَاكُسُ رَأْسٍ بِهِ رُعَافُ
وَالنَّفْلُ مِنْ ضُتُوقِي جَنِيَّةِ
رَطَبُ حَدِيثِكَ بِهِ الْقَطَافُ
لِي فِيهِ تَشْبِيهُ فِيلَسُوفِ
وَالْفَاظُ لَهُ عَذَابَةٌ خِفَافُ
وَمُصَمِّعٍ مَطْرِبٍ مَلِيسِ
يُحْرَمُ عَمَّنْ مِثْلِهِ الْمَفَافُ
يَهْطِلُنِي صَاحِبَتَا وَلَكِنَّ
فِي سُكْرِهِ مَا بِهِ انْتِصَافُ
فَصِرَ إِلَيْهِ قَدًّا يَلِيْلُ
أَقْدِيكَ مِنْ كُلِّ مَا يُخَافُ

فَأَنْتَ أَصْلُ السُّرُورِ عَنِّي
وَكُلُّ مَا بَعْدَهُ مُضَاعَفُ (١)

...

ولا شك أن الصابي قد أجاد في وصف ما عنده من صنوف الطعام
والوان الفاخرة والشراب إجادة تُشغري صاحبه على إجابة طلبه وتلبية
دعوه ، وهو بهذا يصور لنا جانباً من حياته المترفة .. وإن كان جانبه
التوفيق في بعض التشبيهات التي احتوى عليها هذا النص كقوله عن
روس الحلان :

وَأَخَذَهَا فِي الرَّقَائِي يَحْكِي
صَرِيحٌ حُسْنِي لَهُ لِحَافٌ

فهو تشبيه بفيض تنفر منه الاندواق السليمة وأبهاء الطبع المستقيم ..
وأسوأ منه قوله عن إبريق الشراب :

كَأَنَّ إِبْرِيقَهَا لَدَيْنَا * تَاكِنُ رَأْسِي بِهِ رَعَافُ

....

وإذا كان الصابي قد أخفق في هذا النص من الناحية الفنية فبيان
مزامنه السري الرفاء أحد شعراء الوصل بالمراق كان أبرع منه في وصف
الحمل المشوي ، فقد وصفه وصفاً دقيقاً يدل على قوة الملاحظة وبراعة
التصور فقال عنه :

(١) البيتية ج ٢ ص ٢٣٨ .

أَنْعَمَهُ مَصْفَرُ الْبُرْدَيْنِ
 أَبْيَضَ صَافِي حَمْرَةَ الْجَنِينِ
 خَلْفَ شَهْرَيْنِ عَلَى الْخَلْفَيْنِ
 ثُمَّ رَعَى بَعْدَهُمَا شَهْرَيْنِ
 فَجَمَعَهُ شِبْرَانِ فِي شِبْرَيْنِ
 يَا حُسْنَهُ وَهُوَ صَرِيحُ الْحَسَنِ
 بَيْنَ ذِرَاعَيْنِ مُفَصَّلَيْنِ
 كَمَا رَقِيَ حُسْنٌ مِنَ الْهَدْيَيْنِ
 وَطَرَفَ يَسْتَوْفِ الطَّرْفَيْنِ
 كَمَثَلِ مِرْآةٍ مِنَ اللَّجَيْنِ
 مَذْهَبَةِ الْقَبَسِ وَالْوَجْهَيْنِ
 تَعْرِفُهُ مَرْهَقَةَ الْحَدْيَيْنِ
 بِكَفِّ طَاهٍ عَظِيمِ الْكَفَّيْنِ
 شَقَّ حَشَاءَ عَنْ شَقِيقَتَيْنِ
 أُخْتَيْنِ فِي سِي الْقَدِّ شَبِيهَتَيْنِ
 كَمَا قُرِنَتْ بِسَيْنِ كَاتِبَيْنِ (١)

ولم تكن عناية القوم بمجالس الشراب أقل من عنايتهم بمواسم
 الحمام قد تأنفوا في هذه المجالس أيضا ، وأسرفوا في الاهتمام بها
 فكانوا يزينون أرضها بالزهر ، وفروشونها بالورد ، ومنون بالآلاتها

(١) البيتية ج ٢ ص ١٦٣ •

وروائحها وخمرها وفواكهها .. حتى إنه كان في بيوت الكبراء إلى جانب الطباخ رجل آخر يسمونه " الشَّرَابِي " شأنه العناية بالشرب وآلاته والفاكهة والروائح (١) .

وكانوا يختارون لهذه المجالس أطراف الندماء وأكثرهم لطفًا وأطيبهم عشرة وكان وزراء العراق وعلى رأسهم المهلبِيُّ يحبون القاضي القنوخ ويملكون إليه ، ويمسحون له ، ويعدونه ريحانة الندماء وتاريخ الظرفاء ، ومعاشرهم منه من تطيب عشرته وتلين قشرته وتكرم أخلاقه وتحسن أخباره (٢) .

وقد ظهر صدى هذا الجانب في أدب اليتيمة فأكثر الأدباء - خاصة صاحب عهد المميز بن يوسف والمصابي - من وصف مجالس الشرب والطرب في أشعارهم ورسائلهم ، وكان الطاحب من أكثر الأدباء وصفًا لهذه المجالس .. فقد وصف مجالسه الخاصة ومجالس صديقه المهلبى عندما كان يزوره في بغداد .

ومن ذلك قوله يصف بعض مجالسه ويدعو أحد أصحابه إلى حضوره .
" نحن يا سيدى فى مجلس قد تَفَحَّتْ فيه عيونُ التَّرجِس ، وَتَوَرَّدَتْ
فيه خدودُ البنفسج وفاحت مجامرُ الأَثَرَج ، وَهَفَّتْ ظاراتُ النَارَنَج ،
وانطلقت ألسنة الميدان ، وقام خطباء الأوتار . وهبت رياح الاقداح ،

(١) الحضارة الإسلامية لمتز ج ٢ ص ٢٣٩ .

(٢) اليتيمة ج ٢ ص ٣٠٩ .

ونققت سوق الأنس وقام منادى الطرب ، وطلعت كواكب الندماء ،
وامتدت سماء الند ، فحياتي لما حضرت لنحصل بك في جنة الخلد ،
وتتصل الواسطة بالعقد (١) .

أما عبد العزيز بن يوسف فقد كان كاتباً وشاعراً ، وكانت مكانته
الاجتماعية لا تقل عن مكانة الوزراء وكان مترفاً في حياته كما كان مترفاً في
أدبه ومن قوله يصف مجلس أنس لمضد الدولة البويهى :

فها مَجْلِسًا عَزَّ الْخِلَافَةُ مُحْسِدٌ
بِاقْطَارِهِ وَالنَّدُّ وَالنَّمْرُ وَالْخَمْرُ
وَقَدْ أَرَجَتْ أَرْجَاؤُهُ وَتَمَطَّطَتْ
بَسَاطِحُ نَشْرِ مَا يُقَاسُ بِهِ نَشْرُ
وَقَحَّ فِيهِ التَّرْجِيحُ الْفَضْلُ أَغْنَى
مَحَاجِرُهَا بَيْضٌ وَأَحْدَاقُهَا صَفْرُ
كَانَ الشَّمْعُ الشُّمْلَاتِ خِلَالَهُ
تَوَاكُلُ عِبْرَى مَا يُنْهِنُهَا الزَّجَرُ
إِذَا قُطِعَتْ مِنْهَا الرُّؤْسُ تَضَاحَكْتَ
وَكَانَ عَلَى قَطْعِ الرُّؤْسِ لَهَا بَشَرُ (٢)

.....

وقال الصابي يصف مجلساً من مجالسه الخاصة ومثبهه بميدان
المركبة :

-
- (١) البيتية ج ٣ ص ٢٢٢ .
(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٩٩ .

أَلَا قَيْسُ هُمُومِي نِي جَعَفَ قَيْلٍ
لَهَا مِنْ مَقَامِي فِيهِ قَرَارٌ
دَبَّادِبُهُ مِنْ طَوَالِ الْقَيْتَا
نِ وَالنَّائِي بِوُقْ لِهْ مُسْتَمَارٌ
وَجَلَسْنَا حَوْسَةَ أَرْجَسَتْ
لَزَحْفِ النَّدَامَى إِلَيْهَا بِدَارِ
كَانَ فَكَاهَاتِهِمْ إِذْ عَلَسَتْ
غَائِمٌ لِلْحَرْبِ فِيهَا شِمَارٌ
كَانَ الْكُتُوسُ بِأَيْدِي السَّقَاةِ
سُيُوفٌ لَهَا بِالذَّمَاكِ أَحْيَارٌ
كَانَ مَنَادِيهِمْ أَلْكَافُهُمْ
حَامِلُهَا إِذْ عَلَيْهِمْ تُدَارِ
كَانَ رُجُومٌ تَحَايَاهُمْ
سِهَامٌ عَلَى الْجَيْشِ مِنْهَا نِشَارٌ
كَانَ الْمَجَامِرُ خَيْلٌ جَسَرَتْ
وَقَدْ نِشَارٌ لِلْنَدَمِ مِنْهَا عُجَارٌ
كَانَ السَّكَارَى رِجَالُ الرُّغَى
وَقَدْ غَفَرَتْهُمْ هُنَاكَ الْمَقَارُ (١)

.....

وفضلا عن ذلك وصف الصابي كثيرا من أدوات الترف ووسائل
النميم ومظاهر الحضارة كمتيدة الطيب والشمعة والورد والفرجيس

(١) البيتية ج ٢ ص ٢٣٧ .

وشمامة الكافور وطائر القبجة وطائر الخطاطيف وغير ذلك (١) .

وهناك في أقصى الشرق من بلاد فارس عاش شاعر عباسي يدعى
الأموني — نسبة إلى الأمون أمير المؤمنين — قد نبغ في الأوصاف
والتشبيهات فكان يصف كل ما تقع عليه عينه من مظاهر الحضارة ووسائل
الترف ، فوصف المنارة والنار والحمام والمنشفة والشرابية والجليد
والقاعة والأترج والرطب الممسل والجوز والزبيب والمناج والباقلان
والبطيخ والملح المطيب وخبز الأبايز والرقاق والجبن والزيتون
والصنعة والشواء السوقي والسفود والهريسة وماء الخردل والبيض
المفلق واللوزنج اليابس والفالودج المعقود والمحبرة والمقلصة
والاقلام والاسطرلاب وغير ذلك من الأدوات المنزلية والشخصية (٢) .

وكانت في هذا العصر المجالس الأدبية غير الرسمية التي كانت
تقام غالبا في قصور الوزراء أو بيوت الأدباء والأثرياء وكان الأدباء
في هذه المجالس يتركون أنفسهم على سجيتهما فيطلقون القول من غير
تكلف ولا تصنع ، ويكررون من ارتجال الشعر في وصف ما يحضر لهم
من النوادر كآيات في إنسان ساقط يلبس عمامة سرية (٣) أو في
إنسان شريف الأصل وضعف النفس (٤) أو إنسان تولى إقطاعية فوجدها

(١) نفسه ج ٢ ص ٢٣٨ إلى ٢٤٣ .

(٢) نفسه ج ٤ ص ١٦٠ حتى ١٧٣ .

(٣) اليتيمة ج ٢ ص ٢٦٠ .

(٤) نفسه ج ٢ ص ٢٦٢ .

خربة وفي السَّهَادَةِ بالنبيذ ، وفي وصف مجلس أنس ، وفي شكر على
هدية وفي هجاء بخیل أو ثقیل ، وفي وصف معنی عرض أو حداث
حدث ونحو ذلك (١) .

وكتاب اليتيمة خير شاهد على ذلك فقد كثرت فيه المقطوعات
الشعرية القصيرة التي أكثر الأدباء من نظمها ارتجالاً حتى زاحمت
القصائد الطوال ، وطفقت عليها .

وكان الأدباء يتناولون مادة هذه المقطوعات غالباً ما كان يده
على السنة الجالسين من النوادر والملح والفكاهات والألغاز والاحاجي
والمعيات .

ومن ذلك ما قاله الثعالبي في الزيت على سبيل الإلغاز للأمير
أبي نصر سهل بن المرزبان .

حَاجِيْتُ شَمْسَ الْعِلْمِ فَوَدَّ الْعَصِيرِ
نَدِيمَ مَوْلَانَا الْأَمِيرِ نَصْرِ
مَا حَاجَةُ لِأَهْلِ كُلِّ مَضِيرِ
فِي كُلِّ مَا دَارَ وَكُلِّ قَصْرِ
يَبَاغُ فِي الْأَسْوَاقِ بَعْدَ الْمَصْرِ

فأجابه الأمير بقوله :

يَا بَحْرَ آدَابٍ بِنَسِيرِ جَزْرِ
وَحَظِّهِ فِي الْعِلْمِ قَسْرِ نَزْرِ

(١) ظهر الاسلام ج ١ ص ١٢٦ .

حزرت ما قُلْتَ وكان حَيِّزِي
آنَ الذي غَنِيَتْ دهن البز
يَمِّصِرُهُ ذَوْ قُسْوَةٍ وَأَزْرُ^(١)

...

ولا شك أن كثرة المقطوعات الشعرية في اليتيمة يدل على الترف
الفكري لدى الطبقات الحاكمة التي كانت تكثر من مجالس الأدب والطعام
والشراب والطرب في قصورها ومنازلها رغبة في اللذة والمتاع وبلا إلى
كل فريب عجيب ..

ولقد كان لترف هؤلاء الحكام وتأنيقهم في مطعمهم وشربهم
وسائر أمورهم أثره الواضح في الناحية الفنية للأدب علاوة على أثره
السابق في الناحية الموضوعية .. فقد تألقوا في الأسلوب وأكثروا فيه من
السجع والجناس والطباق وغيرها من المحسنات اللمعية ، كما أسرفوا في
استخدام الصور البيانية من تشبيه واستعارة وكتابة ، وأضدوا الممانس
بالمخالفة والإحالة والتحويل ، فالتأنق في المميشة والترف الحسنى
في الحياة دفع القوم إلى الترف الفكري والتأنق في الأسلوب ، وهذه
حقيقة مؤكدة قد قررها غير واحد من الباحثين أمثال الأستاذ / أحمد
أمين^(٢) والدكتور شوقي ضيف^(٣) والأستاذ / خليل مردم^(٤) ولعل

(١) اليتيمة ج ٤ ص ٣٦٢ .

(٢) في كتاب ظهر الاحلام ج ١ ص ١٣٣ .

(٣) في كتابه : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٨٠ .

(٤) في رسالته عن ابن الحميد .

تشبيهات ابن المعتز الملكية خير شاهد على ذلك ...

والذى أعجب له أن يعض الباحثين (١) حاول جاهدا إنكار هذه الحقيقة زاعما أن هناك فرقا كبيرا بين تأنق الانسان فى معيشته ، وتأنقه فى أسلوبه . لأن التأنق فى المعيشة سهل ميسر لا مشقة فيه ولا عناء ، لأن الإنسان يعتمد فيه على الخدم والحشم والأعوان ، وعلى الأموال المكسوة فى الخزائن ، أما التأنق فى الأسلوب فيحتاج إلى كد الذهن وجهاد الفكر وترويض النفس فى تصيد التجنيس والطباق والسجع والمجاز والبيان .

وأعتقد أن هذا احتجاج باطل لأن التأنق فى الكتابة ... وان كان فيه كد للذهن وإرهاق للفكر كما يقول الكاتب فيه لذة لا تدانيها لذة ، وسمعة روحية لا يصرفها إلا أولئك الذين يمشقون الأدب ويمارسون الكتابة حتى إن أحدهم ليترك طعامه وشرابه وسائر المتع الحسية من أجل الاستفراق فى الكتابة والإبداع الفنى ، وهو بذلك مفتيط سعيد لا يشكو تعباً ولا رهقا ...

وإذا كان الاشتغال بالأدب فيه عناء للنفس والجسم كما يزعم الكاتب ، فما الذى حمل الأمراء والوزراء والحكام المترفين على الخوض فيه وركوب أهواله ، وتجشم أخطاره ومتاعبه ؟ .

لقد كان ابن القيم والصاحب والسهلبى وغيرهم ينتهزون الفرص

(١) الزهيرى فى كتابه : الادب فى ظل بنى بويه ص ٢٩٨ .

لقرض الشعر وكتابة الرسائل لانهم يجدون في ذلك متعة لنفوسهم
ولذة لأرواحهم . حتى لقد بلغ بهم حب الأدب أن أحدهم كان يفرح
إذا مدح بحسن الكلام وإجادة فنون القول أكثر مما يمدح بسطوة
الحكم وعظم النفوذ وسعة الملك +

وتاريخ صاحب بن عباد خير شاهد على ما أقول : فقد أثر
عنه أنه كان يطرب إذا مدح بملوكهم في الأدب والبلافة أكثر مما
يطرب لأي شيء آخر حتى إن الوصول إلى قلبه كان سهلاً عن هذا
الطريق كما يقول أبو حيان (١) .

ولو كانت ممارسة الأدب والتأنق في الأسلوب تؤدي إلى
المشقة والحناء لانصرف هؤلاء الوزراء عنه إلى التفرغ في وسائل التمتع
الحسية والجسدية مؤثرين الراحة والنعم . .

ولكنهم أقبلوا على الأدب يرتشفون من رحيقه ، وغرفون من
بحره ، يجدون فيه لذة لنفوسهم ، ومتعة لأرواحهم .

وإذا صحت هذه الحقيقة — وهي أن التأنق في الأسلوب مصدره
التأنق في المعيشة — فلا بد من الاستشهاد بأدب هؤلاء الحكام
لنرى إلى أي حد قد بالفوا في السجج وأسرفوا فيه . . حتى ليندر أن
نجد كاتباً منهم كان لا يلتزم به .

(١) معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٢٦ .

لقد كان على رأس أدباء هذه الطبقة ابن المميد * الذى
كان يمد إماما لهذه الطريقة الجديدة فى الكتابة * ثم تابعه على
ذلك بقية الكتاب كالصاحب والصابى والثعالبى والهدى وغيرهم *

وما يدل على اسراف ابن المميد فى السجع واهتمامه بالمحسنات
والمبالغ فى المعنى قوله فى رسالة وجهها الى ابن بلكا عند استعصاء
على ركن الدولة :

" كتابى وأنا مترجح بين طمع فيك وأمن منك ، وأقبال عليك
وإعراض عنك ، فإنك تدل بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة ، أيسرها
يوجب رعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفسهما بحادث غلول وخيانة
وتتهمها بأنف خلاف ومعصية ، وأدنى ذلك يهبط أعمالك ، ومحق
كل ما يروعى لك ، لا جرم أنى وقفت بين ميل إليك وميل عليك ، أقدم
رجلا لصدك وأؤخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يدا لاصطلامك واجتياحك
وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك " (١) .

ويستمر على هذا النحو حتى آخر الرسالة بكثرا فيها من ضروب
السجع والازدواج وألوان البيان والمجاز ...

أما صاحب نقد كانت شهرته بالسجع لا تحتاج إلى دليل ، ...
قد كان يمشق السجع ويميل إليه ، ويتجشم الصواب فى سبيله .

قال أبو حيان : " وكان كلفه بالسجع فى الكلام والقول عند الجد

(١) الوثيقة ج ٣ ص ١٤٥ .

والهزل يزيد على كلف كل من رأينا في هذه البلاد ، قلت لابن السبيعي
أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع ؟ قال يبلغ به ذلك لو أنه رأى
سجده ينحل بموقفها عروة الملك . مضطرب بها أهل الدولة ،
ويحتاج من أجلها إلى غم ثقیل وكلفة صعبة وتَجَشُّمُ أمور ، وركوب
أحوال . . لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخليها ، بل يأتي بها
ويستعملها ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها (١) .

ثم قال أبو حيان نقلا عن ابن الحميد " إن صاحب خرج من
السرى متوجها إلى أصفهان ومنزله " رَامِينَ " وهي قرية كالمدينسة
فجاوزها إلى قرية غامرة ماء ملح لا شيء إلا ليكب إلينا : كتابي
هذا من الصباح يوم السبت نصف النهار (٢) .

وهما قيل عن تحامل أبي حيان على صاحب وعداؤه له وتندر .
به فإن من الثابت أن صاحب كان مُوَلِّمًا بالسجع إلى حد المشقق
والهيام ، حتى لقد كان حريصا على أن يكون كلامه كله سجوعا كقولـه
عن بغداد وقد سأله عنها ابن الحميد " بغداد في البلاد كالأستاذ
في العباد " (٣) .

وقوله لهديج الزمان وقد قَلَّ الأرض بين يديه " يا بني اقعد ،
لم تسجد ، كأنك هُدَّهْدٌ ؟ " (٤) .

-
- (١) مجمع الادباء ج ٦ ص ٢٠٧ ط الحلبي بمصر .
(٢) الصدر السابق ج ٦ ص ٢٢٠ .
(٣) اليتيمة ج ٢ ص ١٣٧ .
(٤) نفسه ج ٤ ص ١٧٤ .

وكان تأنيقه في رسائله أعظم من تأنيقه في كلامه ومن ذلك قوله في
التهنئة ببنت " أهلاً بمقيلة النساء ، وأمّ الأبناء ، وجالبة الأصهار ،
والأولاد الأطهار ، والبشرة بأخوة يتناسقون ونجهاً يتلاحقون ،
ثم قال :

فلو كان النساء كمثل هذى * لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيتُ لاسم الشمس عيباً
ولا التذكيرُ فخرٌ للهلال

فأدبرع يا سيدى احتباطاً ، واستأنف نشاطاً ، فالدنيا مؤنثة
والرجال يخدمونها ، والذكور يعبدونها ، والأرض مؤنثة وسها قوام
الابدان وملاك الحيوان ، والحياة مؤنثة . ولولاها لم تتصرف الأجسام
ولا عرف الأنام ، والجنة مؤنثة ، وسها وعد المتقون ، ولها بعست
المرسلون ، فهنيئاً هنيئاً ما أوليت ، وأرزعك الله شكر ما أعطيت ،
وأطال بقاءك ما عرف النسل والولد ، وما بقى الابد ، وكما عرلهد (١)

ولقد قدر لهذه الطريقة الجديدة في الكتابة أن تسود ، وأن
تتعد لتشمل سائر الأغراض والقضون .

ومن رسائل الهمداني في الهجاء قوله " يا شبر ، ما هذا
الكبر ، ما فتر ما هذا السر ، ما قرد ما هذا البرد ، ما يا جوج متى
الخروج ، ما ققاع بكم تباع ما فراني متى تراني ، ما لقمة الخجل نحن

(١) اليتيمة ج ٣ ص ٢٢٦ .

بهابك ، يا بيضة النفيلة من أتى بك ، يا دبة ، يا حبة ، يا من
فوق المكبة ، يا من قرره المذبة ، يا من خلقه المسبة ، يا دمل
ما أوجمك ، يا قمل لنا حديث معك ، فان رأيت آذيت والسلام^(١)

والأغرب من ذلك أن تسرى هذه الطريقة على لغة التأليف
فقرى المؤلفون في هذا العصر كالثعالبي وغيره قد التزموا بها فيما
يكتبون وما يصنفون حتى أننا لنجد الثعالبي في اليتيمة كثيرا ما ينسى
مهمته الأصلية وهي إبراز الحقائق وتقرير الوقائع أثناء تراجعه للشعراء
والكتاب وجعل كل همه تنميق الأسلوب وتصيد البديع والجوى روا
المجاز والإكثار من المبالغة والتسهيل كقوله عن السرى الرضا :

وما أدراك من السرى ، صاحب سر الشعر الجامع بين نظم
عقود الدر ، والنفت في عقد السحر ، ولله دره ما أعذب بحره ،
وأصفى قطره ، وأعجب أمره ، وقد أخرجت من شعره ما يكتب على جبهة
الدهر ، ويملق في كعبة الفكر ، فكتبت منه محاسن وملحا ، ودائع
وطرفا . كأنها أطواق الحمام ، وصدور البزاة البيض ، وأجنحة
الطواويس وسوالف الغزلان ، وشهود المذارى الحسان وغزوات
الحدق الملاح^(٢) .

وفي ظلال هذه الطبقة المترفة - وهي طبقة الحكام - ازدهر
فن من الفنون الأدبية ما كان له أن ينتمش إلا في ظلها وهو فن

(١) اليتيمة ج ٤ ص ٢٥١ .

(٢) اليتيمة ج ٢ ص ١٠٣ .

الأخويات ، فلقد كان هذا الفن وثيق الصلة بأخلاق الطبقة
الراقية في المجتمع التي سيطر عليها حب المال ، واستمهدتها الألقاب
الظارغة ، والجري وراء المناصب المالية ، والتكالب على السلطنة ،
والتعلق بالأوهام الكاذبة ، ونتيجة لذلك قدوا الاحسان بالكرامة ،
وتصاغروا أمام رؤسائهم واحتملوا في سبيل ذلك ما لا يحتمله الأحرار
حتى إنك لتجد الوزير المهلبى على جلالة قدره وعظم منصبه كسان
يلحقه من فحش معز الدولة وشتمه عرضه ما لا صبر لأحد عليه . . فيحتل
ذلك احتمال من لا يكثر له وينصرف إلى منزله (١) .

والأغرب من ذلك أن معز الدولة قد ضربه ذات يوم بالمقارع
خمسين ومائة مقرعة يراوح بينها بأن يرفع عنه الضرب حتى يموخه ويكفه
ثم يعيد عليه الضرب ولكن الوزير قبل بعد أن شفى من هذا الضرب
أن يرجع إلى الوزارة (٢) .

فلا غرابة أن تكون العلاقات الاجتماعية بين هذه الطبقة التي
قدت الإحسان بالكرامة قائمة على المجاملة والكذب والخش والنفاق .

وقد بدا ذلك واضحا في رسائلهم الأخوة شعرا ونثرا ، فقد
عدوا إلى توجيه هذه الرسائل إلى الأمراء والوزراء والعمال والقضاة
والاصدقاء في شتى المناسبات كالتهنئة والتمنية والعتاب والاعتذار
والاهداء والاستزارة والشوق والزلفى وغير ذلك من المناسبات التي

(١) تجارب الامم ج ٦ ص ١٤٦ .

(٢) المصدر السابق ج ٦ ص ١٩٠ .

كانوا يتصيدونها ويحشون عنها جوبا روا المناصب والألقاب وارضاء
لرؤسائهم .

وكان كل واحد منهم حريصا على اراقة ماء وجهه عند مخاطبة
رئيسه فيوجه إليه أرق المبارات ، مخاطبه بأفخم الألقاب ، وتضرع
إليه تضرع المهد لسيد ، والخادم لمولاه . . ليرضى فيه نزعة الفرور
والتسلط ، ويمحوه عن الشمر بالنقص .

ولعل الوزير ابن سعدان الفيلسوف المشهور كان صائها في
تعليل تلك الظاهرة التي شاعت بين حكام عصره وترفيههم عندما طلب منه
أبو حيان أن ياذن له في كاف المخاطبة وتأء المواجهة عند حديثه
معه ، فقال له لك ذلك وأنت المأذون فيه وكذلك غيرك وما في كاف
الخطاب وتأء المواجهة ؟ إن الله تعالى على علوشانه وسطة ملكه
وقدرته على جميع خلقه يواجه بالتأء والكاف ولو كان في الكتابة
بالهاء رفعة وجلالة وقدر ورتبة وتقديس وتمجيد لكان الله أحق
بذلك ومقدما فيه ، وكذلك رسوله صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله
عليهم السلام وأصحابه رضى الله عنهم والتابعون لهم بإحسان رحمة
الله عليهم وهكذا الخلق فقد كان يقال لل خليفة : يا أمير المؤمنين
أعزك الله وما أمر أصلحك الله . وما غاب هذا أحد وما أنف منه
حسيب ولا نسيب ولا أباء كبير ولا شريف .

ثم أشار الوزير إلى أخلاق أهل عصره من الحكام والكبراء وشعورهم
بالنقص ومحاربتهم تموض ذلك بالألقاب الكاذبة والفرور الخادع قال :

وانى لأعجب من قوم يرغبون عن هذا وشبهه ويحسبون أن فى ذلك ضمة أو نقيصة أو خطأ أو زراية ، وأظن أن ذلك لسببهم وفسولتهم واتخذواهم وقتلهم وضوءولتهم وما يجدونه من الفضاضة فى أنفسهم وأن هذا التكلد والتجبر بمحوان عنهم ذلك النقص ، وذلك النقص ينتفى بهذا الصلف — هيهات — لا تكون الرياسة حتى تصفو من شوائب الخيلاء ومن مقابح الزهو والكبرياء (١) .

فابن سمدان فى كلامه هذا يملل تكلف هذه الطبقة للمظمة الكاذبة والكبرياء المصطنع بأنه عملية تمويض عن النقص الذى كانوا يشعرون به داخل كيانهم وأعماق نفوسهم .

وقد صور أبو حيان طبيعة العلاقات التى كانت قائمة بـبين أفراد الطبقة الحاكمة فى ذلك العصر أصدق تصوير عندما عقب على كلام ابن سمدان بالقول المأثور (ما تعاظم أحد على من دونه إلا بقدر ما تصاغر لمن فوقه) (٢) .

وهذا القول المأثور الذى استشهد به أبو حيان كان ينطبق تمام الانطباق على أخلاق الطبقة الحاكمة آنذاك .

قد كان كل واحد منهم يتعاظم على من دونه ويحتقره ومعامله بقسوة وكبرياء على حين كان يتضائل أمام من فوقه ويخضع له ويتقرب إليه فى تذلل وخنوع .

(١) الامتاع والموانسة ج ١ ص ٢١ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢٢ .

والدارس لأدب الأخويات في اليتيمة يجد فيه الدليل على ما نقول .

فلقد كان الأديب في هذا المجتمع يهني* إنسانا لا تربطه بسـ
رابطـة ود أو تماطف ، صمزي آخر بحادث وفاء لا يثير في نفسه حزنا
ولا حسرة مستمطف وجهها فيسبغ عليه آيات الاجلال والإكبار
وهو لا يضر له غير الهفـض والاحتقار ، ولهذا نراهم إذا كتبوا في
الشوق مثلا : أغاروا على معاني المشاق فانتحلوها ، وإذا كتبوا إلى
مريض سفحوا الدموع وأظهروا اللوعة والأسى ، وإذا كتبوا إلى وجه تذللوا
وتضرعوا وهكذا .

ومن ذلك ما كتبه أبو اسحاق الصابي إلى صاحب بن عباد في
الشوق :

" كتبت — أطل الله بقاء صاحب — هذا الكتاب وأنا أود أن
سواد عيني مداده وبياضها طرسه شوقا إلى الألاء فرته وقرما إلى تقبيل
أنامله وظما إلى ارتشاف بساطه^(١)

ان هذا كلام لا يصدر إلا من عهد لميده أو من خادم لمولاه ،
وإنه ليمبر أصدق تمبير عن أخلاق هذه الطبقة التي ساد بيضها النفاق
وشاع الكذب والدّهان ققامت علاقاتهم الاجتماعية على أساس التملسق
الكاذب والمبالغة المقترة .

وكتب الصابي إلى صاحب أيضا رسالة شمرية في الشوق أغار
فيها على معاني الماشقين فقال :

(١) اليتيمة (٢ : ٢٣٢)

لَمَّا رَضَمْتُ صَحِيفَتِي * فِي بَطْنِ كَفِّ رُسُولِهَا
قَبْلَتُهَا لِتَسْتَهَيَّا * يُعْذَاكَ عِنْدَ رُسُولِهَا
تَوَدُّ عَيْنِي أَنِهَا * قَرَنْتُ بِبَعْضِ فُصُولِهَا
حَتَّى تَرَى مِنْ وَجْهِكَ الْ * مِيمُونَ غَايَةَ سُؤْلِهَا (١)
.....

أما عهد المزيز بن يوسف فقد كان أعظم من الصابي مُجَامِلَةً وأقدر
منه على الكذب والنفاق فكثر من الرسائل الأخوية شمرا ونشرا إلى
الصاحب وغيره من رؤساء المجتمع في شتى المناسبات .

ومن ذلك قوله في رسالة إلى الصاحب : " كتابي - أدام الله
عز مولانا - وحالي - فيما أعانيه من تمثل حضرته وتذكر خدمته والمواقف
التي سعدت فيها برويته وأفدت من مشاهدته حظها ومقابلة نعم الله
عليه وعلى الأدب وحزبه والكرم وأهله ، - حال امرئ هب وقد أوردته
الأحلام مناهل أمله ، فهو يتلها فتذكرا ، وتلذذ تحيرا وناجى النفس
تمثلا ، ويراقب المني تمثلا .

وأحمد الله تعالى على الأحوال كلها وأسأله قرب الادالة والمقبي
السارة وأقول :

أَقُولُ وَقَلْبِي فِي ذِرَاكِ مُحْسِنٍ
وَجِسْمِي جَنِيبٌ لِلصَّبَا وَالْجَنَائِبِ

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥١ .

يَجْذِبُ نَحْوَ الصَّاحِبِ الشَّوْقُ مَقُودِي
وَقَدْ جَازَ بَتْنِي عَنْهُ أَيْدِي الشَّوَانِدِ
سَقَى اللَّهَ ذَاكَ الْمَهْدُ عَهْدًا مِنَ الْحَيَا
(١) وَلَكَ السَّجَا يَا الْفَرَّ غَر السَّحَابِ

على أن الصاحب نفسه لم يكن أقل من هؤلاء الكتاب مجلدة
لروءاء عصره فقد أكثر من مراسلاته إلى ابن العميد وغيره وكان يتصاغر
أمام ابن العميد بقدر ما كان يتعظم على من دونه *

ولقد أهدى مرة إلى أحد أصدقائه - ولعله ابن العميد - أترجة
وكتب معها رسالة نصها :

" ما زلت يا سيدي أكثر في تحفة تجمع أوصاف معشوق وعاشق
وتنظم نموت مشوق وشائق حتى ظففت بأترجة كأن لونها لوني ،
وقد منيت بهمدك ، وليت بصدك ، وكأن عرفها مستمار من عرفك ،
وظرفها مشتق من ظرفك . "

مولاي قد جاتك أترجة
من بضر أخلاقك مخلوقة
ألبها صانعها حلقة
من مَرَقٍ أَصْفَرٍ مَشْرُوقَةٍ (٢)

(١) اليتيمة ٢ : ٢٩٢

(٢) اليتيمة ح ٣ ص ٢٢٥ • المرق : الحرير •

وحيث ان هؤلاء الكتاب كانوا يمثلون الطبقة العليا في المجتمع
كان طبيعيا أن يقلدوهم سائر أدباء عصرهم وأن تسرى طريقتهم في أدب
الأخويات إلى غيرهم، كأبي بكر الخوارزمي الذي كان — كما وصفه بديع
الزمان — لا يحسن إلا هذه الطريقة الساذجة وهذا النوع المتداول
بكل قلم، المتناول بكل يد (١) وصنى به الرسائل الأخوية ..

على أن الهذاني نفسه لم يكن أقل من الخوارزمي إجادة لفن
الأخويات فذكر في رسائله من المجملات الكاذبة، والبهالغة الصفوة ..

ولقد كتب إلى أبي بكر الخوارزمي في بداية عهده به كتابا
نصه :

أَنَا لِقُرْبِ دَارِ الْأُسْتَاذِ — أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ —
كَمَا طَرَبَ النِّشْوَانُ مَالَتْ بِهِ الْخُمُرُ
وَمِنَ الْارْتِيحِاحِ لِلْقَائِمِ —
كَمَا انْتَفَضَ الْمَصْفُورُ بِلِلَّهِ الْقَطَرُ
وَمِنَ الْامْتِرَاجِ بِوَلَائِهِ —
كَمَا التَّقَتِ الصَّبَاءُ وَالْبَارِدُ الْمَذْبُ
وَمِنَ الْابْتِهَاجِ بِمِزَارَةِ (٢)
كَمَا اهْتَرَتْ تَحْتَ الْهَارِحِ الْغَصْنُ الرُّطْبُ
...

وكتب إلى صديق آخر ما نصه " يمزعلني — أيد الله الشيخ —
أن ينوب في خدمته قلبي عن قدمي، وصعد هرويته رسولي قبل

(١) رسائل الهذاني ٤ : ٢٤٣

(٢) اليتيمة ٤ : ٢٤٣

وصولى هرد مشرع الأنس به كتابى قبل ركابى * ولكن ما الحيلة والموائق
جهه ..

وعلى أن أسمى وليه * س على ادراك النجاح
وقد حضرت دارة وقبلت جداره ومالى حب للحيطان
ولكن شغف بالقطان * ولا عشق للجدران ولكن شوق إلى المكان^(١) .

وسهما يكن من شىء فقد كان لترف الطبقة الحاكمة وتألقها فى
طعامها وشرابها ومجالسها وسائر أمورها أثره الواضح فى أدب الهنمية .

وقد تجلّى ذلك على وجه الخصوص فيما كتبه الأدباء خاصة
المترفين منهم كابن العميد والصاحب والصابى وعبد المنيز بن يوسف
وغيرهم فى وصف ما يقدم إليهم من ألوان الطعام وأنواع الفاكهة وصفوف
الحلوى * وفى وصف مجالس الشراب والطرب والفناء .

كما ظهر ذلك أيضا بصورة جلية فى التألق فى الأسلوب والزخرفة
فى الكلام والإكثار من المحسنات البدعية والصور البيانية .

وأخيرا تجلّى ذلك الأثر فى أدب الأخوات الذى راج راجعا
عظيما فى هذا المصربين أفراد هذه الطبقة فأكثر الأدباء من الرسائل
الأخوة شعرا ونثرا مستخدمين فى ذلك ألفاظ التضرع ومجارات التوسل
والخنوع وهم فى ذلك كله خاضعون لظروف حياتهم الاجتماعية ومستجيبين
لموثراتها ودواعيها .

(١) المصدر السابق ٤ : ٢٤٣

((الفصل الثالث))

==
:: أثر النناء والموسيقى في أدب اليتيمة ::

=====

:: أثر الفناء والموسيقى في أدب اليتيمة ::

~~~~~

لعمل مجتمعا من المجتمعات الإسلامية ، لم يحفل بالفناء والموسيقى مثل ما حفل بهما المجتمع المباسى ، ويضع ذلك من كثرة الكتب والمؤلفات التى صنفت فيهما منذ مطلع الدولة المباسية حتى أواخر القرن الرابع . .

وقد بلغ من اهتمام العلماء بهما أن الفلاسفة كانوا يشاركون غيرهم فى التأليف فيهما مثل الكندى الذى ألف كتابا مختلفة فى الموسيقى ، وكذلك تلميذه أبو الطيب السارخى ، وقسطا بن لوقا البعلبكي ، والفارابى صاحب كتاب " الموسيقى الكبير " وقد استطاع أن يدخل تحسينات على آلة القانون الإغريقية (١) .

أما طبقة المنحنيين فقد كان لها نشاط واسع فى هذا المجال ، ومن أشهر شخصياتها فى ذلك إسحاق الموصلى " هَذَل " التى كان لها كتاب فى الأغاني يشتمل على اثني عشر ألف صوت (٢) ودنانير البرمكية ، وذكر أبو الفرج أن لها كتابا مجردا فى الأغاني (٣) ولمعروبن بانه كتاب فى الأغاني يمد من الأصول المهمة فيها (٤) .

- 
- (١) المصر المباسى الثانى من ٨٥ د . شوقي ضيف .
  - (٢) الأغاني ( ١٣٨ : ١٥ ) ط العاسى .
  - (٣) المصدر السابق ( ١٦ : ١٣١ ) .
  - (٤) نفسه ( ١٥ : ٢٦٩ ) دار الكتب .

وقد عمل في هذا العصر كثير من المصنفين على تحسين آلات الغناء  
وتفخيزته بالألحان الأجنبية خاصة أن كثرتهم كانت من الموالى بل إن منهم  
من اخترع بعض الآلات الموسيقية مثل زنام الزامر الذي اخترع نايًا نسب إليه  
قيل : ناي زنامي<sup>(١)</sup> .

ولعل انتشار الغناء وازدهاره في هذا العصر يفسر لنا انفعال الناس  
بإزاء هذا الفن الذي أحكمه أصحابه ، فهم يروون أن بعض من كانوا يحضرون  
المصنفين كانوا ينطحون العمد من حسن ما يستمعون ، بل كانوا يرمون  
بأنفسهم في الفرات — من شدة الطرب — لا يدرون ، وقد يمزقون أثوابهم  
صالحون نعالهم في آذانهم لا يعرفون ما يصنعون<sup>(٢)</sup> .

مذكر أبو حيان : أن ابن فهم الصوفي كان إذا سمع غناء " نهاية "   
جارية ابن المصنفى ضرب بنفسه الأرض وتفرغ في التراب وهاج وأزبد وتمفر  
شعره ، ولا يجسر أحد على الدنونه لأنه كان يعض بنانه ويخمش بظفره ،  
ويركل برجله وتخرق ملابسه ويلطم وجهه الفلطة<sup>(٣)</sup> .

أما ابن غيلان البزاز فإنه كان إذا سمع ترجمات " بلور " جارية   
ابن اليزيدي حلق بعينيه ، وسقط مخشياً عليه وصبوا على وجهه الكافور  
وصاء الورد وقرأوا في أذنه آية الكرسي والممذتين<sup>(٤)</sup> .

(١) تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني ص ٨٦ د شوقي ضيف .

(٢) المقدم الفريد لابن عبد ربه ج ٤ ص ١٢٤ .

(٣) الامتناع والموانسة ج ٢ ص ١٦٦ .

(٤) المصدر السابق ج ٢ ص ١٦٧ .

وما هو جدير بالذكر أن فن الغناء في العصر المباسي قد وصل  
إلى ذروة الرقي والانتشار في القرنين الثاني والثالث بعد الهجرة •  
أما في القرن الرابع — الذي أرصد ظواهره الاجتماعية والأدبية —  
فقد انحسرت فيه موجة الغناء • • وضعف شأنه بعض الشيء خاصة في بلاط  
الخلافة •

ولا يستطيع باحث أن يزعم أن بلاط المستنقفي أو المطيع ، أو الطائع  
في القرن الرابع كان في الترف والازدهار كهلاط الرشيد أو العاصم أو  
المتوكل أو يقاربه •

وذلك راجع في رأيي إلى ثلاثة أسباب رئيسة :  
أولها : ضعف الخلافة المباسيين في هذا القرن واستتار بني بويه  
بالسلطة دونهم فضيقوا عليهم الخناق ، وعينوا لهم راتباً  
خاصاً لا يكفي حاجتهم الضرورية وانعكس ذلك في نظرة الشعراء إليهم فلم  
يمجدوا ويتهاقنوا على قصورهم كما كانوا يفعلون في الماضي ، وأنا أقبلوا  
على الأمراء من بني بويه ووزرائهم في فارس والمراق كابن المعيد والصاحب  
والمهلبى • • • ولم يكن حظ الخلافة من الشعراء إلا التندر والسخرية مما  
آل إليه أمرهم ، كما فعل أبو دلف الخزرجي شاعر الكندي في القرن الرابع  
الذي تهكم بهم وأضحك الجاهل عليهم حينما جعل الخليفة المطيع من  
جملة المكدين والمسولين لأنه يعيش على ما يتفضل به عليه معز الدولة  
البويهى من جارية قال :

وَمِنَّا سَائِرُ الْأَنْصَارِ ■ رِ وَالْأَشْرَافِ مِنْ فَهْرٍ



وَمَا قَتِمُ الدَّيْسِ الْمَطِيحُ الشَّائِعُ الذَّكِرُ  
يَكْدَى مِنْ مَمَرِ الدَّو \* لَعَلَّ الْخَبْرَ عَلَى قَدَرٍ (١)

.....

ثانيها : ضعف الحكومة المركزية في بغداد فلم تعد تسيطر على حكام  
الولايات الإسلامية سيطرة كاملة كما كانت تفعل من قبل قللت  
الأموال في خزائن بغداد خاصة تلك التي كانت تنفذ إليها من شتى بقاع  
الدولة المباسية الواسعة في الماضي \* وانعكس ذلك على الوضع الإقتصادي  
في بغداد وفي قصر الخلفاء على وجه الخصوص ..

ثالثا : ظهرت هناك عدة عواصم في المملكة الإسلامية وأخذت تنافس  
بغداد وثقافتها السيادة والرقى كالري وحلب والقاهرة  
قرطبة وغيرها ونازعت بغداد وسائل الترف والرخاء والطرب والفن ..  
وعلى الرغم من ذلك كله لا أستطيع أن أزعج أن الغناء قد اختفى من  
المجتمع المباسي في القرن الرابع وإنما كان موجودا في كل مكان .. في  
قصور الحكام وفي ديارات النصارى وفي الحدائق العامة وفي دور النخاسين  
وكان له صدى واسع في أدب اليتيمة .. تجلى بوضوح في وصف مجالس  
الطرب والفن وفي وصف الممننين والممنيات وفي وصف آلات الطرب ،  
وأدوات الموسيقى ، وفي نمومقطوعات الشعر الغنائي وشيوعها في اليتيمة  
وفي تأثير الفن في موسيقى الشعر الداخلية والخارجية على حد سواء ..

---

(١) اليتيمة ج ٣ ص ٣٣٦ .

## أ - مظاهر الغناء في اليتيمة

\*\*\*\*\*

أكثر شعراء اليتيمة من وصف مجالس الطرب والغناء التي كانت تقام  
قائلاً في أماكن خلوة جميلة كالرياض والبساتين أو على شواطئ الأنهار  
وحافات الغدران حتى يتمتعوا حواسهم بشم الورد والريحان وروية الخضرة  
والماء ، وسماع الموسيقى والغناء وقضوا ساعات حالمة في جو مغمم بالمهجة  
والسرور ..

ومن ذلك قول صاحب بن عباد يصف مجلساً من مجالس الوزير  
المهلبى الغنائية التي كان يقيمها في بستانه الجميل على شاطئ دجلة :  
" قد حضرنا حجرة تمر فبحجرة الريحان فيها حوض مستدير ينصب إليه الماء  
من دجلة بالدواليب وقد مدت الستارة وفيها حُسن المَكْبَرَةِ ففنت :

سلامُ أيها الملكُ اليمانيُّ « لقد غلبَ اليمادُ على التداني  
فطرب الأستاذ أبو محمد أيده الله تعالى بغنائها واستمادها الصسوت  
مراراً وانعمته أبياناً وهي :

تَطَوَّى المنازلَ عن حبيبِكَ دائماً  
تَظَلُّ تَبْكِيهِ بِدَمْعٍ سَاجِمِ  
هَلَّا أَقَمْتُ وَلَوْ عَلَى جَمْرِ الْفَضَا  
قَلَّتْ أَوْحِدَ الْحَسَامِ الصَّارِمِ

وتبعثها جارية ابن مقله ولا غناء أطيب وأطرب وأحسن من غائنها ففنت  
بهذين للأستاذ - يعني المهلبى - وهما :

يَا مَنْ لَهُ رَتَبٌ مُتَّكَسَةٌ الْقَوَاعِدِ فِي الْفَوَادِ  
أَيُّهَا أَخَذَ الْمَاءَ مِنْ « مُتَلَهَّبِ الْأَحْشَاءِ صَادِي

فتحت الجميع ثم انهمسنا في الشرب واشتغلنا في الشد وارتفع  
الأمر عن الضبط ، والأصوات عن الحفظ ، واتفتت في أثناء ذلك مذكرات  
ومناشدات ومجاهلات وافترقنا (١) .

قال في موضع آخر يصف بعض هذه المجالس :  
استحضرنى - المهلبى - قد خلت عليه وقد قعد للشرب فأكروهنى  
عليه ثم قال : أتعرف أحسن صنيعة منى بك ؟ قد نقلتك من وأحرىء إلى  
وأطرباء ، وسمعت عنده خادمة المسى سلافا وهو يضرب بالطنبور وجهه  
صغنى وحسن وفيه يقول المهلبى وقد شربنا عنده سلافا .

قَدْ سَمِعْنَا وَقَدْ شَرَبْنَا سَلَاْفًا « وَجَمَعْنَا يَلُطْفُهُ أَصَانَا  
شاهدت من حسن مجلسه وخفة روح أدبه وأنشاده للصنوبرى وطبقته ما طاب  
به الوقت وهشت له النفس وشاكل رقة ذلك الهوى وهذه تلك اللسى (٢)

وما تجدر الإشارة إليه أن مجالس الفناء والطرب لم تكن تخلو من  
الخمير والشراب حتى إن الأثرياء كانوا يسمون بعض المفاينين بأسماء الخمير  
كسلاف وخندريس وشمول وراح وأبى الكاس وأبى الدمام . . . وما شاكل  
ذلك ليحصلوا على اللذة من جميع أطرافها .

(١) البهيمه ج ٢ ص ٢٠٧ .

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠٦ .

ولعل ما يذكره صاحب عن مجلس الهلبي الفنائية خير دليل  
على ذلك . . . قد وصف في كتابه "الروزنامة" بعض هذه المجالس  
قال : "أنفذ الأستاذ أبو محمد - يعني الهلبي - ليلة وقد مضى الثلث  
منها فاستدعاني فضيت وألقيته قد انتهى من بحثانه الكبير إلى مصيبتها  
من دجلة على ميادين ريحان نضرة فاستحسن الموضع وقعد فيه يشرب مع  
خدمته - أبي الكاس وسلاف وأبي المدام وشراپ وخندريس وشمول وراح -  
وأمر فضيت نحو مائة شمعة في أصول تلك الميادين وقعدت ففنى سلاف :

يا شقيق النفس من حكيم \* نمت عن ليلي ولم أنم

قال الأستاذ بل عن :

يا شقيق النفس من خديسي \* لم يمت ليلي ولم أنم  
غنى من شمر ذي حكيم \* يا شقيق النفس من حكيم  
ولم نزل تشرب الراح إلى أن باح الصبح بسرهم وقام كل منا يتمثر في  
سكره . (١)

ومن أجل ذلك كنا نجد الشعراء الفنائين يلهجون بذكر الخمر  
فيكونون من الحديث عنها في مقطوعاتهم الفنائية حتى لكان الخمر كانت من  
لوازم السماع على نحو ما نشاهده من قول ابن حجاج :

من شروط الصبح في المهرجان \* خفة الشمل مع خلو المكان  
وحلول الطعام قبل طلوع الشمس مذاسي بارد الألوان

---

(١) البتية ج ٢ ص ٢٠٩ .



والمرس التي تزف إلى الأرز ■ طال في ثوب صيفها الأرجواني  
رسموا طين دنتها وهور طيب ■ باسم كسرى كسرى أنوشروان  
قوى سوسن الكتوس عليها ■ كسوة من شقائق النعمان  
ثم خفق الطبول بين الأغاني ■ واصطكاك الأوتار في الميدان  
والمداع الذي يمل على الأس ■ سماع ما تشتبهى بلا ترجمان  
كل صوت من اقتراحات اسحا ■ ق التي زينت كتاب \* الاغاني \*

.....

فانت تراه يقرن الخمر بالفناء وكأنهما شيان لسمى واحد وشباع  
ذلك في أدب اليتيمة حتى ليندر الحديث عن الخمر دون الحديث عن الطرب  
والفناء .. فهذا عهد الدولة كان يحب الشرب وقت السحر على صوت قطرات  
المطر .. وأن تغننه جوار فائنات حيث يقول :

ليس شرب الكأس إلا في المطر  
وخاء من جوار في السحر  
فانبات ما البسات للشهيق  
ناعبات في تضاعيف القوس  
مهرزات الكأس من مطيعها  
ماقيات الراح من فراق البشر  
عهد الدولة وابن ركنها  
ملك الاملاك غلاب القدر<sup>(١)</sup>

.....

(١) اليتيمة ( ٢ : ١٩٧ ) .

أما ابن عمه عزالدولة فكان يشرب على قطرات المطر في صحن دجلة  
من كف أغيد مشوق القوام .. وقد شبه صوت الماء بين الفصوص بصوت  
القيان الراقصات حول الزامر فيقول :

إِشْرَبْ عَلَى قَطْرِ السَّمَاءِ الْقَاطِئِ  
فِي صَحْنٍ دِجْلَةٍ وَأَعِصِ زَجْرَ الزَّاجِرِ  
مَشْمُولَةٌ أَبَدَى الْمِرْزَاجِ بِكَاسِهَا  
تَدْرَأُ نَثِيرًا بِمِنْ نَظْمِ جَوَاهِرِ  
مَنْ كَفَّ أَغْيَدَ يَسْتَبِيكَ إِذَا مَشَى  
بِدَلَالِ مَمْشُوقٍ وَنَخْوَةِ شَاطِئِ  
وَالْمَاءُ مَا بَيْنَ الْفُصُوفِ مَصْفَقٌ  
يُمَثِّلُ الْقِيَانَ رَقْصَ حَوْلِ الزَّامِرِ (١)  
...

وكما تجلت مظاهر الفناء في وصف مجالس الطرب والموسيقى تجلست  
كذلك في وصف المغنين والمغنيات ، وأدوات الموسيقى والطرب ، فأكثر الشعراء  
من وصف القيان كما أكثروا من وصف الرجال المغنين وبيان أثرهم  
في النفوس ..

ومن ذلك ما كتبه أبو عثمان سميد بن هاشم الخالدي يصف جارية  
سوداء مغنية يقال لها " شغف " فيقول :

إِذَا تَغَنَّتْ بِمَعْوِدِهَا شَغْفٌ  
جَاءَ سُرُورٌ يَفُوقُ كُلَّ مُنَى

(١) نفسه ( ٢ : ١٩٨ ) .

• • •



•



أما عهدان الأصبهاني أحد شعراء فارس فقد ابتلى بسماع جارية قبيحة  
النظر والمخير فقال يصفها ويهجوها هجاء فاحشا قبيحا :

لنا قينةٌ تَحِي من الشُّرْبِ شُرْبَنَا  
فقد أَمِنُوا سُكْرًا وَخَسُوفَ خُمَارِ  
نَكْشَرُ عَنْ أَنْبَاهِهَا فِي غَائِثِهَا  
فَحَكِي حِمَارًا شَمَّ بَقُولِ حِمَارِ (١)

...

وكما وصف الشعراء القيان وصفوا الممنين من الرجال وذكرهم  
في أشعارهم وبينوا تأثيرهم في النفوس والقلوب ومن ذلك قول أبي سعيد الرستمي  
يصف مغميا كان مغمونا بجمال منظره وحسن غائته :

وجه به الْجَلَنَارُ مَتَمُّ \* يَفْتَرُ وَالْأَقْحَوَانُ مَتَسِقُ  
شملة تار ملاحه وَسَنَّا \* يكاد منه الجليس يَأْتَلِقُ  
غَيَّ فَجَلَى الظلامُ غُرَّتَهُ \* عَنَا وَفَصَّتْ بِشَدْوِهِ الْأَفْئِقُ (٢)  
فَوَدَّتِ الْعَيْنُ أَنَّهَا أَدُنُّ \* تَسْمَعُ وَالْأَذُنُ أَنَّهَا حَدَقُ

.....

وكان بالمراق مَنَقَّ مشهور يقال له ( الْقُرْشِي ) ويدوانه كان قبيح  
الصوت سيء الغناء فأخذ الشعراء يهجونه ويسخرون منه ويتندرون به في  
أشعارهم وَلِحِهِمُ قَالَ عَنْهُ الْوَزِيرُ الْهَلَبِيُّ :

---

(١) نفسه ج ٣ ص ٢٧١ .  
(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٨٢ .



إِذَا غَنَانِي الْقُرْشِي \* دَعَوْتُ اللَّهَ بِالطَّرَشِ  
وَإِنْ أَبْصَرْتُ غَرَّتَكَ \* قَوِّ لَهْفِي عَلَى الْمَمَشِ (١)

قال فيه أيضا :  
إِذَا غَنَى لَنَا أَمَّا \* حَشَوْتُ مَسَامِي صَمًا  
وَإِنْ أَبْصَرْتُ طَلَمْتَكَ \* كَحَلْتُ نَوَاطِيرِي بِمَمَى (٢)

وكما سخر منه المهلبى في المراق تهكم به ابن العميد في فارس

قال عنه :  
إِذَا غَنَانِي الْقُرْشِي يَوْمًا \* وَغَنَانِي بِرُؤْيَيْهِ وَضَرَبِهِ  
وَدِدْتُ لَوْ أَنَّ أُذُنِي مِثْلُ عَيْنِي  
هناك وأن عيني مثل قلبه (٣)

...

وهناك لون آخر من الوصف تجلت فيه مظاهر الفناء في الأدب وهو  
وصف آلات الفناء وأدوات الموسيقى التي كانت شائعة في ذلك العصر  
كالعود والطنبور وطبل المزف والهم والزير والناي وغيرها •

وفضلا عن ذلك كان بعض شعراء البيتية يعمدون إلى بعض  
الأدوات الموسيقية يكتبون عليها أشمارا تصفها وتصور آثارها •

ومن ذلك ما كتبه أحد شعراء الرى وهو أبو الفتح الدهاوندى على

عود :

- 
- (١) المصدر السابق ج ٣ ص ١٦١ •  
(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ١٦١ •  
(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ١٦٠ •

رَأَيْتَ الْمَوَدَّ مُشْتَقًّا \* مِنَ الْمَوَدِّ بِاتِّقَانٍ  
فَهَذَا طَيْبٌ آتَانِي \* وَهَذَا طَيْبٌ آذَانٍ (١)

وکتب علی طنہور :

وَدَّوْحًا نَسِ أَصْبَحَتْ ثَمَرَاتُهَا  
أَفَارِدَ تَجَذَّبُهَا نَدَامَى وَجُلَّاسِ  
تَخَنَّى عَلَيْهَا الطَّيْرُ وَهِيَ رَطِيْمَةٌ  
فَلَمَّا عَسَتْ غَنَى عَلَى عُودِهَا النَّاسُ (٢)

وكان ابن حجاج الشاعر الماجن كثيرا ما يصف أدوات الموسيقى ويكثر من ذكرها في أشعاره وخاصة البم والزير والطنبور مثل قوله من قصيدة يهني<sup>١</sup> فيها عز الدولة البويهى بمعيد الأضحى :

قد صَاحَبَ الْبَيْتَ مَعَ الزَّيْرِ \* قَعَمَ قَلِيلًا فَمَرَّ مَامِرٍ  
 فَمَ هَاتِيهَا أَصْفَى - إِذَا رَفَرَقَتْ  
 فِي الْكَاسِ - مِنْ دَمْعَةٍ مَهْجُورٍ  
 مِنْ يَدِ عَذْرَاءَ لَهَا وَجْنَةٌ  
 تَحَارُّ فِيهَا أَعْيُنُ الْحَوَرِ  
 فَاسْمَعِ يَوْمَ الْمِيَدِ وَاجْلِسْ لَهُ  
 فِي خَلْوَةٍ جَلَسَتْهُ مَنْشُورٍ  
 رَضَحَ فِيهِ بِالْذَّنَانِ السَّيْتِ  
 تَخِرُ بَيْنَ الْبَيْتِ وَالزَّيْرِ  
 وَاسْتَضَرَّ الْمَوَدَّ وَوَجَّهَهُ بِهِ  
 حَتَّى نَمَلَّيَ بِالطَّائِرِ

(١) تنمة اليتمة ج ١ ص ١٢٩ •

• 44 44 44 44 (Y)

الركعة الأولى ولي سرجينة  
وركمة التسليم ما خوري  
وهي صلاة العبد لا يمتد سوى  
تجوزي فيها وتقصيري (١)

وقال في قصيدة أخرى يهني بمض الوزراء بالنيروز ويطلب منه السهر واللهو  
والسكر والسماع ويصف بمض آلات الموسيقى :  
يا من حقوق النيروز تلزمه  
رسمك يوم النيروز مشهور  
فاسكر من الليل واصطبج سحرًا  
غدا تراني وأنت مخمور  
واستنطق الزبر إنني رجل  
يتمججني ما يقوله الزبر (٢)

...

وهكذا أكثر شعراء اليتيمة من وصف مجالس الطرب والفناء كما أكثروا من  
وصف الممنين والمفنيات • وشاع في أثمارهم كذلك وصف أدوات الموسيقى  
وآلات الطرب وهذا يدل على تأثيرهم بموجة الفناء التي كانت طاغية في  
المجتمعات العراقية والفارسية آنذاك وظهر أثرها واضحاً في أدب اليتيمة •

(١) اليتيمة ج ٣ ص ٥٩ •

(٢) اليتيمة ج ٣ ص ٦٠ •

## ب — أثر الغناء في شعر اليتيمسة

\*\*\*\*\*

لقد كان للغناء في هذا العصر أثر كبير في نمو شعر الغناء وكثرة مقطوعاته في كتاب اليتيمسة كما كان له أثر بالغ في موسيقى هذا الشعر الخارجية ، والداخلية على حد سواء .

وقبل أن أتناول هذا الأثر بشئ من التفصيل ينبغي أن أتعرض للملازمة التي كانت تربط الشعر بالغناء منذ القدم .

والمتتبع لتاريخ الشعر العربي منذ نموه أظفاره يجد قد نشأ نشأة غنائية ولا أدل على ذلك من أن بعض شعراء العرب في الجاهلية كانوا يغنون أشعارهم على بعض الآلات الموسيقية كالأغص الذي كانوا يطلقون عليه صناجة العرب لأنه كان يغنى شعره على توقيع آله موسيقية تسمى الصنج (١) واقترن الشعر بالغناء منذ الجاهلية حتى لقد كان القدماء يطلقون على الشعر كلمة " غناء " وكأنهما اسمان لشيء واحد .

وفي الأثر أن عرب بن الخطاب رضى الله عنه قال للنايفة الجعدى أسمعنى بعض ما عفا الله لك عنه من غنائك (٢) يريد من شعره وفي العصر الأموى نجد الشاعر ذا الرمة يميز عن الشعر بلفظ التغنى في قوله :

أَحِبُّ الْمَكَانَ الْقَفْرَ مِنْ أَجْلِ أَنْسَنِ  
بِهِ أَتَغَنَّى بِأَسْمِهَا غَيْرَ مُعْجِمٍ (٣)

- 
- (١) الاغانى ج ٩ ص ١٠٩ ط دار الكتب .  
(٢) المقدم الفريد لابن عبد ربه ج ٤ ص ٩١ .  
(٣) الممدود ج ٢ ص ٢٤١ .



وهذا يدل على أن الفناء والشعر كانا مرتبطين عند العرب برباط متين منذ القدم .

أما في العصر المباسي فقد ازدادت هذه العلاقة بين الشعر والفناء بسبب أوزان المروض التي أحدثها الخليل بن أحمد التوفى سنة ١٢٠ هـ والتي كان لها أثر قوي في موسيقى الشعر حتى أن جماعة اخوان الصفا كانوا يقولون : إن قوانين الموسيقى ماثلة لقوانين المروض (١) .

وذكر ياقوت : أن للخليل بن أحمد صاحب المروض كتابين في الأصوات (٢) وهذا يؤكد العلاقة التي تربط الشعر بالفناء والموسيقى . ولولا معرفة الخليل بالايقاع لما استطاع تأليف المروض .

وليس أدل على وجود هذه العلاقة بين الشعر والفناء في العصر المباسي من أن كثيرا من المفيين والمفنيات في هذا العصر كانوا يجيدون الشعر كما كانوا يحسنون الفناء . ومن هؤلاء إبراهيم بن المهدي وإسحاق الموصلي وعريب التي وصفها صاحب الأغاني " بأنها مفعلة محممة ، وشاعرة صالحة على علم بالنغم والأوزار والرواية والشعر (٣) .

ولغ من قوة العلاقة بين المفيين والشعراء في ذلك العصر أن بعض المفيين الذين لا يقرضون الشعر كانوا يقطمون المسافات الطويلة والمراحل البعيدة طلبا للشعراء الذين يكتبون لهم أصواتا تصلح للفناء .

- 
- (١) اخوان الصفا ج ١ ص ١٤٤ .  
(٢) مجمع الأدباء ج ٤ ص ١٨٢ .  
(٣) الأغاني ج ١٩ ص ١٣٤ .

ومن ذلك ما ذكره الثعالبي عن الهنكري مَفْنَى سَهَت الدولة الذي  
رحل الى الشاعر ابن حجاج في بغداد ليكتب له شمرا يخنى به امام  
الأمير فحسب به الشاعر وكتب له مقطوعة شعرية رقيقة تصلح للفناء وهي :

أمرى يا من نَدَى كَفَّه \* يزيد على المَارِضِ المَطِيرِ  
أرى يومًا يومَ كَأْسٍ تَدُو \* رِ مِنْ يَدِ ذِي دَعَجٍ أَحْمَرِ  
وأبيض يَحْدُوكَ سَكَّرَ الفَرَامِ \* على رَسْمِ شَارِبِهِ الأَخْضَرِ  
بحمرة وجنته تَمْتَدِلُ \* على أنه من بَنِي الأَصْفَرِ  
وأنك من دُونِهِ قد ضَرَبْتَ \* ت هَامَةً ذِي لَيْدَةٍ قَسْوَرِ  
وشمرا ابن حجاج يا سَيِّدِي \* يَخْنَى بِهِ عَيْدُكَ الهَنَكِرِي  
غَاءَ وشمرا لنا يَجْمَعَا \* ن ما بين زَلْزَلٍ وَالْهَجْرِي (١)

...

وهذا يدل على قوة الرابط بين الفناء والشمرا من ناحية وبين المغنين  
والشمراء من ناحية أخرى في ذلك العصر .

وما زالت هذه العلاقة قائمة حتى عصرنا الحاضر ، وإلى عهد قريب  
كانت توجد في مصر جماعات " الأدبائية " وهي جماعات تؤلف الشعراء  
وتنشده على بعض الآلات الموسيقية ولا يزال " الشاعر " معروفًا في الريف  
إلى وقتنا هذا وهو يلقي أشعار أبي زيد الهلالي وغنثرة وغيرهما مضيًا إلى  
انشاده الضرب على آله الموسيقية المعروفة باسم الربابة .

---

(١) البيتية ح ٢ ص ٤١ .

وليس هذا بدعا في الشعر العربي فقد كانت هذه الظاهرة موجودة قديما عند اليونان حتى إن الشاعر اليوناني الكبير "هوميروس" كان يغنى شعره على أداة موسيقية خاصة ، ونرى ذلك عند الغربيين المحدثين فقد كانت توجد في المصور الوسطى جماعات تولى الشعر وتغنيه وهى المعروفة باسم "تروادور" (١)

ومهما يكن من شئ فقد كانت هناك علاقة وطيدة بين الشعر والغناء منذ القدم وظهرت هذه العلاقة بصورة أقوى في العصر العباسى نظرا لوجود القيان المغنيات اللواتى كن يجدن قول الشعر بجوار الغناء ، نظرا لتأثير العروض في موسيقى الشعر في ذلك العصر بصورة واضحة .

وإذا صحت هذه العلاقة ، وهى صحيحة من غير شك — فما الأثر الذى أحدثه الغناء العباسى في شعر اليتيمة ؟

وهل كان ذلك الاثر قاصرا على ألفاظ الشعر ومعانيه ؟ أم تعداهما إلى الموسيقى والأوزان ؟

الحق أن أثر الغناء في شعر اليتيمة كان عظيما ، وهذا الأثر لم يكن قاصرا على ألفاظ الشعر ومعانيه وإنما كان واضحا أيضا في موسيقى الشعر الداخلية والخارجية على حد سواء .

أما فيما يتعلق بالأمر الأول : وهو أثر الغناء في ألفاظ الشعر ومعانيه فقد كان عميقا وواضحا . .

---

(١) أنظر الفن ومذاهبه للدكتور شوقي ضيف ص ٤١ .

ولقد كان لوجود القيان في المجتمع الفضل الأكبر في ذلك فقد كثر عدد من في المجتمع كثرة فائقة وتعددت جنسياتهم وقلماء كن يشتمون بشيء من المهانة أو يستشعرون شيئاً من وجوب التحفظ والإحتشام بل لقد كن يتفنن في وضع الحيل التي يجذب بها قلوب الرجال .

وفضلاً عن ذلك اشتهرت بعض القيان بالظرف واللباقة وقوة الشخصية ومعد الحيلة ، وسمة الثقافة ، والجراءة في الحديث ، والقدرة على اكتساب الرجال إلى حد تفوق فيه على الحواثر في هذه الأمور جميعاً . . .

فلا غرابة أن يجذب قلوب الشمراء ، وسحرون عقولهم حتى كثر ترددهن على بيوت النخاسين حيث توجد القيان ، واختلطوا بهن ، وأعجبوا بسحرهن ، وكثر بينهم من وقع في غرام جارية أوقينة فدفعه هذا الغرام إلى نظم الأشعار الفزلية الرقيقة التي تصلح للفناء ، وكانوا يدقمون بهنذ المقطوعات غالباً إلى أولئك القيان لتخمين بها على مسامح العاشقين منهم ومن سواهم وقل من تغزل في هذا المصر بحرة ، ولعل هذا يفسر لنا كثرة المقطوعات الفزلية الرقيقة التي امتلأت بها اليتيمة والتي تصلح للفناء ، وقد نبه الثمالي القاري عليها ، وكانى به كان على معرفة بالفناء ، أو لعله كان متأثراً بكتاب الاغانى الذى ألف قبل اليتيمة بقليل .

ومهما يكن من أمر فقد كثر هذه المقطوعات الفنائية في اليتيمية للأسباب التي ذكرتها آنظ ، وهى تمتاز بالركة الفائقة في العبارة ، والجمال المنفرط في الالفاظ كما تمتاز بجودة المعنى ومراعاة . .



ومن ذلك قول المحسن بن علي القاضي التنوخي في إحدى هولي  
الجواري :

قُلْ للمليحة في الخمار الذهب  
أفدت نعلك أخى التقى المترهب  
نور الخمار ونور وجهك تحتسه  
عجا لوجهك كيف لم يتلهب  
وجعت بين الذهبين فلم يكن  
للحسن عن ذهبيهما من ذهب  
فإذا بدت عين لتسرق نظرة  
(١) قال الشاعر لها اذهبي لا تذهبي  
وهي غاية في رقة الأسلوب وعذوبته وجمال المعنى وجودته .

والطف منها قول أبي عبد الله الحامدي - وهو ما يتخني به أيضا :

قُلْ للمليحة في الخمار الشمسي  
كم ذا الدلال عدمت كل محترش  
يا من غدا قلبى كترجس طرفها  
في الحب لا صاح ولا هو منتشس  
هذا الريح يصحن خدك قد بدا  
للقبل وممض وممض  
فتى أبيت معانقا لتهيار  
(٢) ولورد المستأنس التنوخي

(١) البيتة ح ٢ ص ٢٢٢ .  
(٢) المصدر السابق ح ٢ ص ٣٤٤ .

ثم لنقرأ هذه المقطوعة لأبي الحسن الهديهي — وهي مما يتغنى به  
كذلك — لنرى أثر الفناء في رقة الشعر وعذوبة ألفاظه وحسن معانيه :

ذَرِينِي أَوَّاصِلَ لَذَّتِي قَبْلَ فَتْنِهَا  
وَشَيْكَا لِتَوَدِّيعِ الشَّبَابِ الْفَارِقِ  
فَمَا الْمَعِيشُ إِلَّا صَحَّهٌ وَشَبِيبَةٌ  
وَكَأْسٌ وَقُرْبٌ مِنْ حَبِيبٍ مُوَافِقِ  
وَمَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ لَمْ يَخْتَرِ بِرَبِّهَا  
وَادَّرَ بِاللَّذَاتِ قَبْلَ الْمَوَائِقِ (١)  
...

وسبما يكن من شيء فقد كان لكثرة الرقيق في المجتمعين المراقسي  
والفارسي أثره المباشر في نمو مقطوعات الشعر الفنائى وتعدددها في كتاب  
البيتية كما كان له أثره في رقة الألفاظ وسهولة الأسلوب وجمال المعنى .

ومن الشعراء العرب من كان محافظاً على الروح العربية الأصيلة  
ففرغ عن الفزل في القيان وقصر غزله على الحرائر من الأعرابيات أصحاب  
الخيام وصاغ فيهن مقطوعات غزلية رقيقة تصلح للفناء .

ومن هؤلاء الشريف المرتضى الذي كان يحن للهديات وله فيهن  
شعر رقيق كقوله :

أَلَا يَا نَسِيمَ الرِّيحِ مِنْ أَرْضِ بَابِلَ  
تَحْمِلُ إِلَى أَهْلِ الْخِيَامِ سَلَامِي

(١) البيتية ج ٣ ص ٣١١ .

قُلْ لِحَبِيبٍ فِيكَ بِمَضْنِ نَسِيمِهِ  
أَيَا أَن أَنْ تَشْطِيعَ رَجْعَ كَلَامِي  
وَأَنْ لَّاهْوَى أَنْ أَكُونَ بِأَرْضِكُمْ  
عَلَى أَتْنِي مِنْهَا اسْتَفْذْتُ سِقَامِي (١)

وهو كلامٌ بِمِثَرٍ بلا شرابٍ ويطرب بالأسماع كما يقول الثعالبي .

ومثله في عشق الحرائر والتفنى بهن أبو محمد الخازن قد كان  
يمش في حرة من بنات نجد وكانت نجد منذ القدم تحتوى الشمرات وتغريهم  
بالتفنى بها لما تمتاز به من ارتفاع الهضاب وطيب الهواء وعذوبة الماء  
فأكثر الشمرات من ذكرها والتشبيب بنسائها قال :

حَتَّ الْمَطَى فَهَذِهِ نَجْدٌ \* بَلَّغَ الْمَدَى تَزَايِدَ الْوَجْدِ  
يَا هَذَا نَجْدٌ وَسَاكُنُهَا \* لَوْ كَانَ يَنْفَعُ هَذَا نَجْدٌ  
يُفْتَحِنِي الْوَادِي لَنَا رَشَاءٌ \* قَدْ ضَلَّ حَيْثُ الضَّالُّ وَالرَّندُ  
هَنْدٌ تَرَى بِسُيُوفٍ مَقْلَتَهَا \* مَا لَا تَرَى بِسُيُوفِهَا الْهَنْسُكُ (١)

.....

ولا شك أن رقة هذه الشواهد وعذوبتها وجمال أسلوبها وروعة معانيها  
أكبر دليل على تأثير الشتاء العباسي في النظم الشعر ومعانيه .  
والم يكن تأثير الغناء في موسيقى الشعر الداخلية والخارجية بأقل  
من تأثيره في النظم ومعانيه . . .

- 
- (١) تنمة اليتيمة ح ١ ص ٥٢ .  
(٢) اليتيمة ح ٣ ص ٢٩٦ .

ولو ألقينا نظرة على الشعر العربي في الجاهلية لوجدناه حافلا بالقصائد ذوات البحير الطويلة أو المتعددة التفعيلات مثل الطويل والكامل والبسيط وغيرها من البحور الطويلة لملاءمة هذه البحور لأغراض الشعر الجادة التي كانت سائدة في العصر الجاهلي ، وهي أغراض الحماسة والفخر ووصف الحروب التي كانت دائرة بين القبائل آنذاك .

وفي المصيرين الإسلامي والأموي ظلت الأوزان الطويلة سائدة ففى الشعر العربي كما كانت في الجاهلية ولم يطرأ عليها أى تغيير يذكر اللهم إلا ما كان من رقى فن الرجز ، وازدهاره .

أما في العصر المباسى فقد خضعت الحياة الأدبية بوجه عام والشعر بوجه خاص لمؤثرات عديدة ترجع إلى تغيير طبيعة الحياة الاجتماعية بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأخرى ، ولا سيما الفرس ، وتأثرهم بمبادئ تلك الأمم ، وتقاليدها ، وآدابها وقوانينها ، وكون الناس إلى حياة الدعة والفرف ، وانتشار مجالس اللهو والطرب فقلبت أوزان الشعر العربي في ذلك العصر تلونا ملحوظا نتيجة للأسباب السابقة ، وكان من مظاهر ذلك التلون مهل الشعراء إلى النظم على البحور القصيرة والمجزوءة الصالحة للفناء ، إرضاء لأذواق الفنانين والمستمعين على حد سواء .

ذلك أن أمتين المباسيين كانوا يحرقون فن الفناء القديم ويدخلون فيه ألحانا فارسية ورومية <sup>(١)</sup> فاضطر الشعراء بدورهم أن يجددوا مع الفنانين في أوزانهم .

---

(١) الأغاني ج ٥ ص ٢٢٩ ج ١ دار الكتب .



ولعل هذا يفسر لنا ميل الشعراء في ذلك العصر إلى نظم الشعر على المحور القصيرة والمجزوءة التي تصلح للفناء وتناسبه ، بل إن بعضهم كان يخرج في مقطوعاته الشعرية على قوانين المروض التقليدية السـمـىـة  
ضمنها الخليل ليرضى أذواق الفنانين .

وما هو جدير بالذكر أن هذا التجدد الذي لحق أوزان الشعر المباسى بسبب الفناء لا يمتنى أبدا اختفاء الأوزان الطويلة التقليدية وانقراضها لأن أية نظرة نلقيها على دواوين الشعر المباسى تدلنا على وجود تلك الأوزان وتشرعها ، وغاية ما في الأمر أنها تراجعت إلى الوراء لتحل محلها الأوزان القصيرة التي تلائم الفناء ولم تعد تحتل المكانة المرموقة التي تهرأتها في المصور السابقة . .

وسهما يكن من شئ فقد أكر الشعراء المباسيون من الوزن على المحور القصيرة أو المجزوءة كالتقارب والرمز والهزج والخفيف فان ألم أحدهم بالأوزان الطويلة أخذ ينوع فيما يحدثه من مشطوراتها ومجزواتها أو من اختلاف في صروبها وأعاريضها ، وكأنى بالخليل بن أحمد قد فتح باب الزحافات في المروض ليعدل الشعراء في إيقاعات الأوزان القديمة ونغماتها وكان هذه الزحافات خروق في الرقعة الموسيقية ضمنها الخليل لينفذ منها الشعراء إلى التمديل في الأوزان التي يتطلبها الفناء المباسى (١) .

ومن الأوزان التي لاقت رواجا في ذلك العصر وزن المجث حيث كثر في مقطوعات الشعر الفنائى لقصره وسهولته وسلاسته للرقص والفناء ، وكان

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٧٤ .

الوليد بن يزيد بن عبد الملك أول من اقترح هذا الوزن كما يقول الدكتور  
شوقي ضيف (١) . ان غنى فيه :

إِنِّي سَمِعْتُ بَلِيْزِيلَ \* وَرَأَى الْمَلَكِي يَرْتَلِي  
إِذَا بَنَاتُ هِشَامٍ \* يَنْدُبْنَ وَالِدَهُنَّ  
يَنْدُبْنَ قَرْمًا جَلِيلًا \* قَدْ كَانَ يَعْضُدُهُنَّ (٢)  
.....

وفي العصر المباسي الأول شاع هذا الوزن وكثر في أشعار  
المباسيين وكان مطيع بن إياس الكنانى أول من أخذه عن الوليد بن يزيد  
ثم تداوله الشعراء في عصره كشار وأبي نواس وأبي المتاهية وأضرابهم .

وفي القرن الرابع الهجرى شاع هذا الوزن في الشعر الفنائى وظهر  
أثره في المقطوعات الفنائية التى اختارها الثمالى في البيضة كقول أبى الفتح  
ابن المميد في مقطوعة غنائية على هذا الوزن :

يَا مُوَلِّمًا بَعْدَ أَيَّسَى \* أَمَا رَجِئْتَ شَبَابِي  
تَرَكْتُ قَلْبِي قَرِيحًا \* نَهَبَ الْأَسَى وَالتَّصَابِي  
إِنْ كُنْتُ تُتَكْرَمُ مَائِسَى \* مِنْ ذِلَّتِي وَاكْتَابِي (٣)  
فَارْقِعْ قَلْبِي لَا قَلِيلًا \* عَنِ الْمَظَامِ ثِيَابِي

كما شاع في البيضة كذلك مجزوء الرمل لخفقه وسهولته وحسن نغمته  
وصلاحيته للفناء كقول القاضى التتوخى :

- 
- (١) المصدر السابق ص ٥٩ .  
(٢) المصدر السابق ص ٥٩ .  
(٣) البيضة ح ٣ ص ١٦٤ .

هَاتِ يَسْتَفِينِي وَشَرِبْ \* ذَهَبًا لِلْهَيْمِ مُذْهِبٌ  
شَادِنٌ يَحْمِلُ مَاءً \* فِيهِ نِسَارٌ تَلْهَبُ  
رُودَةٌ ضَاكِكَةٌ عَيْنُ \* أَقْحَوَانٍ حِينَ يَقْطُبُ  
لَوْ آذَنَّاهَا عَلَى تَيْبٍ \* لَيْتَ لَكَ الْيَتِ يَطْرَبُ (١)  
لَيْتَ يَسْمُرِي أَسْرُورًا \* أَمْ مُدَامًا يَتِ أَشْرَبُ

وَقَوْلُ أَبِي بَكْرِ الْخَالِدِيِّ فِي مَقْطُوعَةٍ أُخْرَى عَلَى هَذَا الْوِزْنِ :  
يَا شَبِيهَ الْبَدْرِ حُسْنًا \* وَضِيَاءًا وَشِيَالًا  
وَشَبِيهَ النَّصْنِ لِينًا \* وَقَوَامًا وَاعْتِدَالًا  
أَنْتَ مِثْلُ الْوَرْدِ لَوْنًا \* وَنَسِيمًا وَكَلَالًا  
زَارِنًا حَتَّى إِذَا مَسَا \* تَرَنَّا بِالْقُرْبِ زَالًا (٢)

.....

وَكثُرَ فِي الْيَتِيمَةِ أَيْضًا وَزْنَ الرَّجْزِ لِقَصْرِ وَرَعْدِهِ وَهَلَاكِهِ لِلرَّقِصِ  
وَالْفَنَاءِ كَقَوْلِ السَّرِيِّ الرَّفَاءِ يَصِفُ الرُّوضِ وَالْخَمْرَ وَالْمُوسِيقَى وَمَعْضَ مَظَاهِيرِ  
الطَّبِيعَةِ كَقَوْلِ قَزَحٍ :

إِنْ عَنَ لَهْوٌ أَوْ سَنَجٌ \* فَاعْدُ إِلَى الرَّاحِ رَوْحُ  
رَضِيَتْ أَنْ أَحْظَى بِمِيزِ الْكَاسِ وَالْحِظِ مِزْجُ  
وَصَاحِبِ يَقْدَحِ لِي \* تَارَ السَّرْرِ بِالقَدَحِ  
فِي رَوْضَةٍ قَدْ لَبَسَتْ \* مِنْ لَوْلُؤِ الطَّلِ سَبَحُ  
أَقْظَى بِالْمَرْفِ أَوْ \* يَوْظُنِي إِذَا صَدَحُ

- (١) الْيَتِيمَةُ ح ٢ ص ٣١١ .  
(٢) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ ح ٢ ص ١٧٤ .

وَالْجَوْ فِي مَسَّكَ • طَرَّازُهُ قَوْسٌ قُفَّحٌ (١)

.....

ومهما يكن من شيء فقد كان تأثير الغناء في موسيقى الشعر عظيماً ،  
وقد تجلّى ذلك بوضوح في ميل شعراء البيتية إلى النظم على البحور القصيرة  
كالبحث ونحوه من البحور المجزوءة التي تصلح للغناء والمزوف عن البحور  
الطويلة التي تلائم الموضوعات الجادة ، وكان هذا كله أثراً من آثار الغناء  
في موسيقى الشعر وأوزانه •

وليس هذا كل ما صنعه الغناء بشعر البيتية فقد أثر فيه من جانب  
آخر وأغنى به الموسيقى الداخلية ، وإذا كان للشعر العربي موسيقى  
خارجية مثلثة في الوزن والقافية فإن له موسيقى داخلية تقوم على أساس  
اختيار الكلمات وتجانسها من جهة ثم المشاكلة بين أصوات الكلمات والمعاني  
من جهة أخرى •

وإذا كانت معرفة الموسيقى الخارجية وقوام ضبطها تقوم على أساس  
علم العروض فإن الموسيقى الداخلية للشعر ليست لها ضوابط معينة ولا قواعد  
معروفة ، وإنما مدار ذلك على الذوق السليم والملكة الناضجة والممارسة  
الطويلة ، وقد برع شعراء البيتية في اختيار الألفاظ وتنقيتها الأساليب ،  
وتجانسها فجاءت سهلة سهلة ممتعة ، ولنقرأ هذا النص للخباز البلدي  
لنلمس فيه أثر هذه الموسيقى في الشعر الفنائ حيث يقول :

ورضية بات ظل الغيث ينسجها  
حتى إذا نجت أضى بدجها

(١) البيتية ج ٢ ص ١٥٢ •



يَهْكِ عَلَيْهَا بُكَاءُ الصَّبِّ فَأَرْقُبُ  
إِلْفًا تُضْحِكُهَا طَوًّا صَهْجُهَا  
إِذَا تَنَفَّسَ فِيهَا رِيحُ تَرْجَمِهَا  
تَأْفَى جَنَى خُزَامَاهَا بِنَفْسِهَا  
أَقُولُ فِيهَا لِسَاتِنَا وَفِي يَمِينِهِ  
كَأَنَّ كَشْمَلَةَ نَارٍ إِذْ يُوجَّجُهَا  
لَا تَمَزَّجُهَا بِخَمْرِ الرَّيِّقِ مِنْكَ وَإِنْ  
تَتَخَلَّلُ بِذَاكَ قَدَمِي سَوْفَ تَمَزَّجُهَا  
أَقُلْ مَا بِي مِنْ حَبِيكَ أَنْ يَسْدِيَ  
إِذَا دَنَتْ مِنْ نَوَادِي كَادَ يَنْضِجُهَا (١)  
.....

وقد تنبه نقادنا القدامى إلى وجود هذه الموسيقى في الشعر ونوهوا  
بها وأوصوا الكتاب والشعراء بمراعاتها وإن لم يضعوا لها إسماعيل عليها ،  
ومن هؤلاء الأمدى في الموازنة ، فقد وصف شعر البحتري " بأنه صحيح السبك  
حسن الديباجة ليس فيه سفاسف ولا ردى ولا مطروح " (٢) .

ومنهم الجاحظ الذى أوصى الأدباء بتصفية أساليبهم واختيار الفاظهم  
وأرشدهم إلى مواقع الكلمات واستعمالها وما يحسن منها وما يستهجن (٣) .

أما عبد القاهر الجرجاني فقد تحدث عنها فى أكثر من موضع ففى  
كتابه " أسرار البلاغة " و " دلائل الإعجاز " وحاول فى أسرار البلاغة أن

(١) التهيئة ح ٢ ص ١٩١ .  
(٢) الموازنة بين الطائيين ص ٣ .  
(٣) البيان والتبيين للجاحظ ح ١ ص ٢٠ .

يخضع هذه الموسيقى الداخلية أو قواعد النظم إلى قواعد علم الهلافة وأصولها  
فصر جمال الشعر عنده يرجع إلى استمارة وقيمت موقعها أو أصابست  
فرضها أو حسن ترتيب تكامل معناه البيان حتى وصل إلى القلب مسج  
وصول اللفظ إلى السمع واستقر في الفهم مع وقوع المبالغة في الأذن (١) وإلى  
سلامة الكلام من الحشو غير المفيد والفصل الذي هو كالزيادة في التحديد .

أما في دلائل الإعجاز فقد أرجعها إلى قواعد علم النحو فجمال  
الشعر مصدره التقديم والتأخير والتعريف والتذكير والحذف والإضمار  
والإعادة والتكرار وتوحي وجهها من الوجوه التي يقتضيها علم النحو (٢) .

وسواء أكانت هذه الموسيقى الداخلية خاضعة لقواعد النحو أو لعلم  
الهلافة أو كان أساسها الذوق والممارسة فإن شعراء اليتيمة كانوا يراعونها  
في أشعارهم ففرقت ألفاظهم وحسن موقعها في السمع ولصقتها بالفؤاد .  
وما ذلك إلا أثر من آثار الفناء في الشعر المباسي فأصبح على هذه الصورة  
التي نشاهدها في المقطوعة الآتية للسرى الرفاء والتي قال عنها الثعالبي  
وما أروى أحسن ولا أشرف ولا أعذب ولا ألطف من قول السرى :

قسمت قلبي بين ألهم والكسب  
وقلتي بين قبح الدمع والسهر  
مرحت في الحسن أشكالا مقسمته  
بين البهال وبين الغصن والمقد  
أهتني مطرا ينهل مأكسه  
من الجفون ورقا راح من برده

(١) أسرار الهلافة ص ٢٢١ .

(٢) انظر دلائل الإعجاز ص ٦٥ وما بعدها .

ووجني لا يروى ماؤها ظمسي  
بخلًا وقد لذعت نيرانها كبدى  
عكيف أبقى على ماء الشؤن وما  
أبقى الغرام على صبري ولا جلدى (١)  
.....

وهما يكن من أمر فقد كان لشروع الغناء وانتشاره في المجتمعين  
المراقي والفرسي أثره الواضح في أدب البيتية وقد تجلّى ذلك الأثر في  
عدة أمور : منها وصف مجالس الطرب والغناء ، ووصف المغنين والمغنيات  
ووصف أدوات الغناء وآلات الموسيقى .

وفضلاً عن ذلك كان للغناء أثر آخر في نمو مقطوعات الشعر الثنائى  
وكثرتها في البيتية ، كما كان له أثره الواضح في موسيقى الشعر الخارجية ،  
وموسيقى الداخلية على حد سواء ، حيث عُدّ الشعراء إلى النظم على البحور  
القصيرة والمجزوءة والمولدة التي تصلح للغناء كما حرصوا على اختيار الفاظهم  
وتقنياتها من الشوائب والمهوب فجاءت ألقاظهم غاية في رقة الأسلوب ،  
وجمال المبالغة وجودة المعنى هراغة وكان ذلك كله أثراً من آثار الغناء في  
أدب البيتية .

---

(١) البيتية ج ٢ ص ١٤١ .

(( الفصل الرابع ))

:: المجون وأثره في أدب الهيمه ::

~~~~~


:: المجنون وأثره فى أدب اليتيمة ::

"إذا بحثنا عن المعنى الدقيق للمجون فى اللغة استطعنا أن نحدد بالضبط المقصود بشعر المجنون ، والأغراض التى كان يخوض فيها من الشعراء الذين يمكن أن نطلق عليهم اسم شعراء المجنون .

وقد جاء فى اللغة : **مَجُنَّتِ** الأرض مجونا إذا صلبت وظظت ومنه جاء اشتقاق كلمة **ماجن** لصلاة وجهه ، وقلة استحيائه .

والمجانة أيضا معناها : ألا يبالى الإنسان بما صنع ولا بما يقال له وقد قيل : **إن الماجن عند العرب هو الذى يرتكب القابح المزيمة ، والقضائح المخزية ، ولا يمنعه عدل من يعذله ، ولا تقريع من يقرعه .**

ومن هنا نعرف المجنون بأنه ارتكاب الأعمال المخلة بالآداب العامة والمعرف والتقاليد دون تستر أو استحياء ، وهذا التعريف نجد أن المجنون ظاهرة خطيرة فى أى مجتمع إنسانى خاصة إذا انعكس فى شعر هذا المجتمع (١) .

وقد عرف المجنون عند العرب منذ أواخر الدولة الأموية حيث اشتهر أحد خلفاء هذه الدولة وهو الوليد بن يزيد بشرب الخمر ، وعرف بالخلاعة ، وجهر بالمجون وتغنى بذلك فى شعره خارجا عما ألف بنو أمية ، وعما ألف

(١) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى ص ٢٠٤ ط دار المعارف بمصر .

المرب من الجد والبقار وقد أدى الوليد ثمن هذا التحلل وكان دمه هو الثمن (١) .

وعندما اختلط العرب بالفرس بعد قيام الدولة المباسية ولانست الحياة العربية بعد الخشونة بدأ المجون ينشط من عقاله ويستشرى خطره في المجتمع المباسي . . بيد أن ذلك كان في نطاق ضيق وفي بيئات محدودة . . حيث كان قاصرا على حفنة من الخلفاء والفصاق أمثال : بشار وأبي نواس ووالهة بن الحباب وطيع بن إياس والحسين بن الضحاك وأضرابهم .

وكان معظم هؤلاء ينتمون إلى أصل فارسي وكانوا يمارسون المجون في تستر وخفاء حيث كان المجتمع ينهضهم والسلطان يهاردهم ورجال الدين يسمون في هلاكهم ، ولم يكن المجون في ذلك الوقت يمثل ظاهرة اجتماعية عامة .

أما في القرن الرابع الذي نؤرخ له ونرصد ظواهره الاجتماعية والأدبية — وبعد أن أصبحت السيادة في يد الفرس من بني بويه فقد عظم المجون واستفحل أمره ونشطت شياطينه وتعدد رجاله وصار شيئا مألوفاً في المجتمعين المراقى والفارسي لا ينكره المرف ولا تمارضه السلطة فكثرت مواطنه وتعددت أماكنه وأصبح يمثل ظاهرة اجتماعية عامة .

ودلنا على ذلك ما تحدث به المقدسي الرحالة المشهور عن مدينة

(١) خصام ونقد ص ١٥٣ د . طه حسين ط بيروت .

المجوس إحدى المدن الفارسية إذ قال : ترى دور الزنا عند أبواب الجامع ظاهرة ثم لا ترى لقرائهم ولا لمشايخهم هيئة ، ولا لمذكرهم قيمة ولا حسبة ومقطمون أرقائهم بالرقص ^(١) .

وفي موضع آخر يتحدث عن أهل شيراز فيقول : عدولهم لوطنة وتجارهم فسقة ، وسلاطينهم ظلمة يدخلون الحمامات بلا مأزر ولا ثرى على مجوس غيارا ولا لصاحب طيلسان مقدارا ولقد رأيت أهمل الطيالس سكارى ويلبسه المكدرين والنصارى وه دور الزنا ظاهرة ورسوم المجوس مستعملة وفي المقابر مجتمع الفساق ^(٢) .

وبدل على ذلك أيضا ما يذكره التوحيدى عن كثرة المفسنين والمفنيات فى بغداد سنة ستين وثلاثمائة إذ قال :

” وقد أحصينا ونحن جماعة بالكرخ أربعمائة وستين جارية فسى الجانبين ومائة وعشرين حرة وخمسة وتسعين من الصبيان البدور يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والمشرة هذا سوى من كنا لا نظفربه ولا نصل إليه لمرته وحرسه ورقبائه ^(٣) .

وبدل على انتشار المجون كذلك ما يحكيه الثعالبى فى يتيمة من ” أن القاضى التنوخى كان يشرب الخمر وينادم الوزير المهلبى فى جملة القضاة الذين كانوا ينادونه ويجمعون عنده فى الاسبوع ليلتين على أطراح

(١) أحسن التقاسيم ص ٤٠٧ .

(٢) نفسه ص ٤٢٩ .

(٣) الامتاع والموانسة ج ٢ ص ١٨٣ .

الحشمة والتبسط في القصف والخالعة وهم ابن قريعة وابن معروف والقاضي
التنوخى وغيرهم وما منهم إلا أبيض اللحية طولها وكذلك كان الوزير المهلبى
فإذا تكامل الأنس ولد السماع وأخذ الطرب منهم مأخذ وهبوا ثوب
الوقار للمقار وتقلبوا في أعطاف الميخ بين الخفة والطيش ووضع في يد كل
واحد منهم كأس ذهب من ألف مثقال إلى ما دونها مملوء شراباً فطر بلها ،
أو عكبريساً فينمى لحينه فيه بل ينقمها حتى تتشرب أكثره ويرش بها
بعضهم على بعض يرقصون أجسامهم وعليهم المصففات ومخانيق البرم وإياهم
عنى السرى الرفاء بقوله :

مَجَالِسُ تَرْقُصُ الْقُضَاةَ بِهَـ
إِذَا انْتَشَرُوا فِي مَخَانِيقِ الْبُرْمِ

فإذا أصبحوا عادوا لماداتهم من التزمت والتوقر والتحفظ بأبهة القضاء ،
وحشمة المشايخ الكبراء (١) .

وهكذا انصرف أفراد المجتمع عن حياة الجد والوقار التي كان
يحياها العرب من قبل ، وأقبلوا يشغف على هذه الحياة المابثة المأجفة .
متأثرين في ذلك بالروح الفارسية التي تنشد اللذة وتقصد الشراب ، وأخذوا
يمارسون هذه اللذات علانية دون خوف أو حياء . . . وكان يحلوا لهم أن
يسمونها بأسمائها الصريحة دون كناية أو تمريض لأنهم كانوا يجمعون بين
لذتين في وقت واحد لذة السماع ولذة الممارسة . . . ولعل رائداهم في ذلك
أبو نواس عندما قال قبلهم :

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٣٠٩ .

أَلَا فَاسْقِنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْسُ
وَلَا تَسْقِنِي سِيراً إِذَا أَمَكْنَ الْجَهْرُ (١)

...

واقبل الشعراء بدورهم على هذه الحياة الجديدة الناعمة يرتشفون
من رحيقها وشترون من بحرها وملنون سخطهم وتبرؤهم بالحياة المرهبة
الخشنة •

يقول أبو بكر الخالدي معبرا عن هذا التحول الذي طرأ على
الحياة العربية في فارس والمواق :

لَا تُطِيبُنِ فِي بَكَاءِ النَّوْرِ وَالطَّنِيبِ
وَلَا تُحَيِّ كَهَيْبَةِ الْحَيِّ مِنْ كَعْبٍ
وَلَا تَجِدْ يَمْنَامَ لِلغِيَامِ وَلَا تَسْمَعُ لِرَبِّ الْمَهَا بِالْوَاكِفِ الشَّرِبِ
رِيحٌ تَمُفِّي فَاعْفُفِي مِنْ جَوَى وَأَسَى
قَلْبِي وَكَانَ إِلَى اللِّذَاتِ مُنْقَلِبِي
سَيَانِ بَانَ خَلِيطُ أَوْ أَقَامَ بِهِ
فَانْمَا أَعَامِرُ التَّيْدَاءِ كَالْخَرِبِ
أَبهى وَأَجْمَلُ مِنْ وَصْفِ الْجَمَالِ مِنْ
إِدْمَانِ ذِكْرِ هَوَى يَهْوَى عَلَى قَنْبِ
مَدُّ الْهَنَانِ إِلَى كَأْسٍ عَلَى مَكْرٍ
رَفَعَ صَوْتِ بَطْرِيسٍ عَلَى طَرِبِ
حَمْرَاءُ حِينَ جَلَّتْهَا الْكَاسُ نَقَطَهَا
مَزَاجَهَا بِدَنَانِسِيرٍ مِنَ الْحَبِيبِ

(١) ديوانه ص ٢٤٢ •

كانت لها أرجل الأعلاج وإبرة
بالدوس فانتصفت من أرويس العرب
يوس إليك بأطراف مطرفية
بها خضابان للمنياب والمنيب (١)

.....

وإذا كان أبو نواس قد سبقهم إلى هذا الاتجاه حين زهد في
بكاء الاطلال والفضل بالأعرابيات والانصراف عن حياة العرب وطريقتهم في
بناء القصيدة وأكثر من ذلك في شعره (٢) فإن الدافع إلى ذلك عند أبي نواس
كان جِدًّا مختلف عنه عند هؤلاء القوم من شعراء القرن الرابع ..

كان أبو نواس شمويا يتمصب للفرس ومحتقر العرب فهو حين يزهد
في بكاء الديار لا يفعل ذلك رغبة في التجديد بقدر احتقاره للمعرب
ولطريقتهم في بناء القصيدة والمحافظة على عمود الشعر ، وهو حين يتصرف إلى
تقديم الخمر والتسبيح بحمدها لا يفعل ذلك إلا حبا لأجداده من الفرس
الذين كانوا يقدمون الخمر والشراب ..

ذلك أن عادة الشراب عند الفرس قديمة جدا ترجع إلى طقوسهم
الدينية الوثنية التي كانت شائعة قبل الإسلام فقد كانوا يتناولون من أجل
آلهتهم عصيرا مسكرا يستخرجونه من عشب "الهوما" الذي يكثر على سفوح
الجبال في بلادهم ... وعلى الرغم من استياء نبيهم (زرادشت) من
هذه الوثنية ظلت عادة تقديم شراب (الهوما) المسكر متبعة في الديانة

(١) البيتية ح ٢ ص ١٧١ .

(٢) انظر ديوان أبي نواس ص ٤٣ ، ١٨٠ ، ١٨١ .

(الزرادشتية) إذ كان على الكاهن أن يشرب جزاً معلوماً من هذا المصير
المقدس وأن يقسم الباقي على الحاضرين من المؤمنين في أثناء تأديته
الطقوس الدينية (١) .

ولعل هذا ما يفسر لنا تقديس أبي نواس للخمر ونعته إياها بالأسما
الحسنى ..

أما شعراء القرن الرابع فلم يكن الدافع عندهم احتقار الموب والزهد في
طريقتهم من قبيل التمسك لهنى جنسهم كابى نواس .. وإنما كان الدافع ميولا
حقيقية إلى الميث والمجون والميل إلى الحياة الجديدة الناعمة والتمسك
عن الحياة المرعبة الجادة فانصرفوا عن الجهاد في سبيل الله إلى هذه
الحياة المباشرة ، وأعلنوا ذلك في أشعارهم كقول ابن حجاج الشاعر الماجن :

الشُّرْبُ لَا الْحَرْبُ عَادَتِي وَسَعِي
مَتَى رَهْطُ جُنْدٍ صَادِيكُ
الدَّنُ وَالرُّطْلُ وَالْمَشَمَّةُ وَالنَّقْلُ
وطبيل التَّكْرِيجِ وَالْمَوْدُ (٢)

.....

ومن حق المرء أن يتساءل عن الأسباب الحقيقية التي جعلت المجنون
في هذا العصر يشكل ظاهرة خطيرة لم يسبق لها مثيل ، وجعلت أفراد
المجتمع يتكالبون عليه إلى هذا الحد المزعج ..

(١) الأدب في ظل بنى بويه ص ٢٥٨ .

(٢) الهزيمة ح ٢ ص ٥٦ .

والدارس للحياة الاجتماعية في ذلك العصر في إقليم فارس والمواق
دراسة واعية يجد أن ذلك يعود إلى عدة أسباب مختلفة ومتشابهة :

بعضها سياسي يرجع إلى طبيعة الحكم الفارسي الذي سيطر على
مقاليده الأمور في فارس والمواق وساعد على إحياء التقاليد الفارسية
الدارسة . . تلك التقاليد التي تحمل بين طياتها تجارب أمة تختلف
حياتها تمام الاختلاف عن حياة العرب الجادة القوي .

ومعها ديني يرجع إلى ظهور مذاهب شاذة هدامة بلهت الأفكار
في المجتمع الإسلامي وعلى رأسها مذاهب الزنادقة والدهريين كما أن
وجود أديرة النصارى في بلاد المسلمين كان له أكبر الأثر في رواج المجون
حيث اشتهرت هذه الديارات بالخمر الممثلة والجواري الحسان الأمر
الذي جعلها موطن جذب لذوى الخلعة والمجون .

ومعها اجتماعي يعود إلى انتشار دهر الرقيق في العراق وفارس
تلك الدهر التي كانت تمتج بالقيان والفلماني وكانت مأوى للمباشين
والفاسدين من طلاب اللذة وعشاق المجون .

وهناك عامل اقتصادي لا يقل أهمية عما سبقه فقد كان للتفاوت
الطبقى سوء توزيع الدخل في المجتمع أثره المباشر في انتشار الأمراض
الخلقية التي تمثل على تفسخ المجتمع وانحلاله . . . فالغواغ القاتل يحصل
الأغنياء على الميث وكثرة الأموال في أيديهم تدفعهم إلى الإسراف في
اللذة والتكالب على الشهوات . . . كما أن الفقر المدقع قد يدفع بعض

الناس إلى التضحية بالكرامة والشرف في سبيل الحصول على القوت .

وهناك سبب نفسي خاص بإقليم العراق .. حيث كان هذا الإقليم إلى وقت قريب أقوى وأغنى أقاليم الدولة الإسلامية الواسعة وكان مركزا لحكومة قوية ذات جيوش ضخمة ومواكب فخمة تجبى إليها الضرائب من شتى بقاع العالم الإسلامي آنذاك فلما انفصلت الولايات الإسلامية عن بغداد في القرن الرابع واستقلت عن الحكومة المركزية في العراق .. قد هذا الإقليم ثراء الميراث وجاهه الواسع ، وشعر أهله بالمرارة وخيبة الأمل والإحباط ، وتحول الإقليم إلى مسرح للملاهي والتماسي ، وأنجب أكبر شاعرين من شعراء المجون في الأدب العربي وهما ابن حجاج وابن سكرة الهاشمي

وأخيرا هناك سبب شخصي خاص بشعراء المجون في العراق حيث ازدحم هذا الإقليم في ذلك العصر بعدد ضخم من الشعراء المذمومين أمثال : ابن نهانة والشريف الرضي والسلامي والطائي وغيرهم وهذا ما جعل الطريق إلى جوائز المدح حين وعمره شائكة .

ذلك لأن المدح الجاد يحتاج إلى كد الذهن وارهاق النفس وأعداد خاص ، وهذا ما دفع بعض الشعراء في هذا الإقليم أن يتنحوا عن هذا الطريق الوعر وأن يحاولوا الوصول إلى قلوب المدحيين بوسيلة أخف وأرخص من سابقتها وهي الترفيه عن الأمراء بشيء من الفكاكة والدعابة والمجون .. فما على الشاعر إلا أن يضحك مدحيه ببعض السخافات

ونال من بعد ذلك ما يشاء * - كما يفعل الممثل الهزلى فى المصر
الحديث * حيث يضحك الجمهور بهمس التفاهات وشىء من التهريج
الرخيىء وصل من خلال ذلك إلى عالم الشهرة والبطء الحريف *

ولعل ابن لنكك المصرى لم يتجاوز هذه الحقيقة عندما قال:
يا طالباً بالمعلم حظاً مسمداً
فى ذا الزمان رأيت رأى مَعْرِيقٍ
أنطق علم فى زمان جهالة
ترجو ود هوى وسخف مطبق
كن ساعياً وصافياً وضارطاً
تنل الرغائب فى الزمان وتفق (١)

...

كل هذه الموامل مجتمعة كانت سبباً فى انتشار المجون فى هذا
المصر فراجت تجارته ونقت بضاعه وتمددت مواطنه وكثر أنصاره وأصبح
يمثل ظاهرة اجتماعية خطيرة، وشاعت فى المجتمع الفاظ الفحش والمفاسد
وأصبحت مقبولة عند الخاصة والعامة حتى قال قائلهم عن ابن حجاج وابن
سكرة وهما من أكبر شعراء المجون فى الأدب العربى * إن زمانا جاد باهن
الحجاج وابن سكرة لسخى جدا * (٢) .

إنها لهيئة اجتماعية شاذة تلك التى نتجت هذا اللون من الأدب
الماجن الذى نقرؤه لابن حجاج وابن سكرة وابن لنكك والجوهري
وغيرهم ..

(١) البيتة ح ٢ ص ٣٢٣ .
(٢) المصدر السابق ح ٣ ص ٣ .

والأعجب من ذلك أن هذا اللون الخلع من الأدب قد تغلغل في الأوساط الاجتماعية رواج رواجاً عظيماً عند الخاصة والعامة حتى أن ذوي المناصب العليا في الدولة لم يكونوا يتخرجون من إظهار الكلام القبيح في المجالس العامة ولم يكونوا يتورعون أن يعبثوا عن أقبح المعاني في أفحش الألفاظ فيما ينظمون أو يكتبون أو ينطقون ..

فقد روى عن الوزير حامد بن المباس " أنه كان لا يرد لسانه عن أحد أئمة ، وكان إذا غضب شتم وكان يقول : نحن في السواد إذا غلبنا خصوصاً قلنا قد نلنا أمهاتهم (١) .

ويحكى عن الوزير سليمان بن الحسن في حوالي سنة ٣١٩ هـ أنه أظهر من سخر الكلام وضرب الأمثلة المضحكة وإظهار اللفظ القبيح بين يدي الخليفة ما بهل الوزراء عنه (٢) .

وكان صاحب بن عباد على جلالة قدره وعظم منصبه يستعمل نسي وصفه وهجائه أفحش الألفاظ (٣) .

وكان الصابي على رقاره وتحشمه إذا هجا أتى بالفاظ فاحشة مقدعة (٤) .

وكان الوزير ابن سمدان الفيلسوف الكبير يطلب من أبي حيان أن يجعل إحدى لياليه مجونة . سمد أن يتمه أبو حيان بالوان مسن

(١) نشوار المحاضرة ج ٨ ص ٤٩ .

(٢) الحضارة الإسلامية لمتز ج ٢ ص ١٧٦ .

(٣) التهذيب ج ٣ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

(٤) نفسه ج ٢ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ .

المجون الداعر شعرا ونثرا يقول له " قدم هذا الفن على غيره وما ظننت
أن هذا يطرد في مجلس واحد (١) .

والأغرب من ذلك أن يصل بهم المصنف إلى أن يعقدوا موازنة
بين الفلماني والنساء وأيهما أحظى عند الرجال ؟ ، فقد كتب أبو
الفرج بن هندو أحد أدباء فارس في ذلك العصر رسالة هزلية طويلة في
ذلك يمتنون : " الوساطة بين الزناة واللاطحة " ، وحاول فيها أن يفضّل
الفلماني على النساء مستشهدا بأدلة عقلية وعقلية كما كان يفعل أبو نواس
من قبل (٢) .

والأشد غرابة من ذلك أن النساء لم يكن بمنزل عن الخوض في
المستنقع الآسن فقد روى الثعالبى أنه " كانت بهمذان شاعرة مجتهدة
تعرف بالحنظلية خطبها أبو علي كاتب ديار بكر فلما ألح عليها وألحف
كتبت إليه بهيتين غاية في الفحش والإقذاع لفظا ومعنى وعلى الرغم مما
فيهما من خلعة وسجون أعجب بهما صاحب بن عماد أعجبا شديدا وعلق
عليهما بقوله " هذه والله في هذين البهيتين أشعر من كبشة أم عمرو والخنساء
أخت صخر ومن كموب الهذلية " وليلى الأخيلية (٣) .

وهما يكن من شئ " فقد شاع هذا اللون من الأدب في المجتمع
وتقبله الناس قبولا حسنا وأقبل الشعراء عليه قصدا للتسلية والمزاح

(١) الامتاع والموانعة ح ٢ ص ٦٠ .

(٢) تنمة اليتيمة للثعالبى ح ١ ص ١٤٤ .

(٣) اليتيمة ح ٣ ص ١٤٤ .

وتنفيسا عن القلق والتماسة التي يشعر بها المجتمع المطلوب على أمره ..
حيث تشمر هذه المجتمعات بحاجتها الملحة إلى التنفيس عن شموهها
بخيبة الأمل خاصة تلك المجتمعات التي وصلت إلى درجة معينة من
الحضارة كالمجتمع المباسي آنذاك .

* وإذا كان هذا الميل إلى اللهو والمرح قد ترك صدى عند
الرومان في المصارعة ونحوها من ألوان الميث ووجد اليوم تنفيسا فيها
شاع بيننا من تمثيل مزلي غانه أثناء تلك المصور قد وجد في الشعر
المصري أيسر أداة لتحقيق أهدافه^(١) .

فقد تلون أدب هذا العصر بلون ماجن خليج لم يشهده من
قبل ولا من بعد وربما كان كتاب اليتيمة لأبي منصور الثعالبي الذي هو
موضوع بحثنا - خير ما يمثل هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة فقد أكتسب
الثعالبي في يتيئته من إيراد الشواهد التي تصور هذا الجانب المايت في
حياة الناس عموما وحياة الأدباء على وجه الخصوص وأسعاج لنفسه في هذا
الصدء أن يورد أمثلة وسختارات غاية في الفحش والإقذا ع .. فهو حين
يترجم لشعراء وكتاب هذا العصر يعنى كثيرا بأخبار لهوهم وجوهم ويركز
كثيرا على الجانب المايت من أخلاقهم مستشهدا على ذلك من شمرهم
بالنماذج الصارخة والفاجرة .

صخيل إلى أن أبا منصور كان يعتمد هذا الأمر تمعدا إرضاء
لذوق العصر واستجابة لرغبات الجماهير التي كانت تمطشة إلى هذا

(١) الشعر المصري بين الجمود والتطور ص ١٢٢ محمد عبد المزيتر
الكفراوي - .

النوع من الأدب الخليج فكانت تفضل على غيره وتوثقه على سواء . .

وليس من حق أحد أن يلوم الثعالبى على ذلك . . أوعيه على هذا الاتجاه فقد كان الرجل أينا في نقل أخبار مصر وتسجيل ظواهره الاجتماعية والأدبية بما فيها من خير وشر . ذلك أن تاريخ الأدب لا يعنيه في الدرجة الأولى إلا أن يسجل الظواهر الأدبية وشرحها ثم يربطها بعلمها الاجتماعية والتاريخية والإقليمية ولا يعنيه بعد ذلك أن كانت هذه الظواهر خيرا أو شرا ، فهو يقرر ما هو كائن لا ما ينبغي أن يكون^(١) .

ولو أن الثعالبى أغفل هذا الجانب في حياة المجتمع لكان كتابه ناقصا مهتورا لا يمثل عصره أصدق تمثيل . .

ومن الإنصاف للثعالبى وتاريخ الأدب المرس أن أقروا أن أدب المجون الذى أتحدث عنه والذى سجله الثعالبى في يتيقته ينقسم إلى لونين مختلفين وتباينين :

أحدهما : مباح مقبول والآخر فاحش مخيف .

فأما الأول فهو ذلك اللون من المجون الذى لا يؤذى الشاعر ولا يخذل الحياء وهو معروف فى الأدب المرس من قديم وقد سجل لنا التاريخ أسماء بعض الخلفاء الذين اتخذوا المضحكين من الشمراء لتسليةهم والترفيه عنهم . . وأحاديث أبى دلامة والجسين بن الضحاك وغيرهما مع خلفاء بني المهمل مشهورة فى هذا الباب . . وربما انتهب بعض السادة

(١) الأدب فى ظل بنى بويه للزهيرى ص ٢٧٩ .

من الزنراء وأشباههم إحدى الفرس المواتية ليجمعوها من الشمر مائة
فكاهية مسلية ، ومن ذلك ما ذكره الثعالبي في اليتيمة عن صاحبها
عبد من أنه أوعز ذات يوم إلى ندمائه القيمين بحضرته أن يعزوا أبا عيسى
ابن المنجم حين تفق يردون له كان صاحب قد حمله عليه وقد لبى
هذه الدعوة الكريمة عدة غير قليل من الشمراء وأخذوا يذرفون الدموع
ويرسلون الزفرات من أجل هذا البرذون الهالك ويتعنى كل واحد منهم
لو استطاع فداءه بالنفس والولد والفاأل والنفس من أمواله ويطلبون
من أبي عيسى التجمل بالصبر والتدبر بالتأسي والمزاء (١) .

ولما كان هذا اللون من المجون يدل على الظرف والدعابة كما
يدل على الترف الفكري والحمى شاع في أدب الكبراء من الزنراء وأمثالهم
وكرر في أشعارهم ورسائلهم . . وكان يحلو لهم أن يفلفوه في أشواب
من الكناية والتعريض ليكون ألطف في السمع وأرقع في القلب .

ومن ذلك ما كتبه ابن العميد . . إلى أبي الحسن بن هند و
صبيحة عرسه على سبيل المراح والمدامجة :

أنعم أبا حسن صبا حيا * وأزدد بزوجه ارتياحا
قد رُضت طرفك خاليا * فهل استأنت له جماحا
وقد حث زندق جايدا * فهل استهننت له أنقدا حيا
وطرقت منقلا فهل * سن الإله له انفاحا

(١) اليتيمة ج ٣ من ص ١٩٤ إلى ص ٢٠٨ .

قد كنت أرسلت الميمو * ن صباح يومك والرواحا
ومثت مصيبة تبيست لديك ترتقب النجاحا
فقدت على هجولسة * لم تولني إلا القضاحا
وشكت الآن خلا خيلا * خرمنا وأرضحة ضاحا
منمت وساوتها المسا * مع أن تحسن لكم صياحا (١)
.....

قال الثمالي معقبا على هذه الأبيات " وهذه الأبيات بديعة في
لها ولم أر أملح منها في معناها، إلا قول الصاحب لأبي الملا الامدي
في مثل تلك المناسبة :

قلبي على الجورة يا أبا الملا
فهل فحت الموضع القفلا
وهل فككت الختم عن كيميه
وهل كحلت الناظر الأكملا
إنك إن قلت نعم صادق قسا
أبمت نارا يمتلا الميزلا
وإن تجني من حيايلا
أبمت إليك القطن والميزلا (٢)
...

وأبيات الصاحب اقرب من التصريح وأظرف وأبيات ابن الممهد
أجزل وأخفى وأدخل في باب الكناية والتعريض .

(١) الهتية ج ٣ ص ١٥١ .

(٢) نفسه ج ٣ ص ١٥٢ .

وكما اتخذ الادباء الشعر وسيلة للدعاية والتظرف اتخذوا النشر
كذلك أداة لتحقيق الغرض نفسه .

فقد كتب صاحب رسالة نثرية إلى أحد اصدقائه يداعبه صبيحة عرسه
قال : " خير سيدى عندي " وان كتمه عنى ، واستأثر به دونى ، وقد
عرفت خبره البارحة فى شربه وأنسه رضاء الضيف الطارق وعرسه . .

وكان ما كان ما لست أذكره
وجرى ما جرى ما لست أنشره

وأقول :

إن مولاي امطفى الأشهب فكيف وجد ظهره ؟ وركب الطيار فكيف
شاهد جريه ؟ وهل سلم على حزنونة الطريق ؟ وكيف تصرف ؟ أفى سمعة
أم ضيق ؟ وهل أفرد بالحج أم تمتع بالعمرة ؟ وقال فى الجملة بالكرة ؟
ليفضل بتعريفى الخبر فما ينفعه الإنكار ، ولا يهينى عنه إلا الإقرار وأرجو
أن يساعدنا الشيخ أبو مرة كما ساعد مرة ، فضلى للقبلة التى صلى إليها
وتشكن من الدرجة التى خطب عليها ، وله فضل السبق فى ذلك الميدان
لكثير من الفرسان (١) .

وهكذا خاص الشعراء فى هذا اللون من المعجون وأكثروا من المداعبات
الظرفية والنكات البديعة بقصد الترفيه عن النفس وإشاعة جو من البهجة
والسرور فى المجتمع . . حتى إن بعض الشعراء كانوا لا يتحرجون أن
يمزجوا مدائحهم للحكام بهذه المداعبات وكان الحكام بدورهم يتقبلون ذلك

(١) البيتية (٣ : ٢٢٦) .

منهم بصدور رجب ونفس راضية وكافونهم على ذلك ويجزلون لهم المطاء .

ومن ذلك ما كتبه ابن حجاج الشاعر العاجن إلى الأمير عز الدولة
البهسي يمدحه وصفه بالجمال والحسن والتفوق في الناحية الجنسية قال :
قَدَيْتُ وَجْهَ الْأَمِيرِ مِنْ قَمْتِـرٍ * يَجْلُو الْقَدَى نُورُهُ عَنِ الْبَصَرِ
قَدَيْتُ مِنْ وَجْهِهِ يُشْكِكُنِي * فِي أَنَّهُ مِنْ سُلَالَةِ الْبَشَرِ
إِنَّ زُلَيْخًا لَوْ أَبْصَرَتْكَ لَمَّا * مَلَتْ إِلَى الْحُشْرِ لَذَّةَ النَّظَرِ
وَلَمْ تَقِسْ يَوْسُفًا إِلَيْكَ كَمَا * تَجْمُ السَّهَابَ لَا يَقَاسُ بِالْقَمَرِ
وَكَانَ يَا سَيِّدِي قُبُورًا إِذَا * كَرِهْتَ مِنْهَا يَنْقَدُ مِنْ دُبُرِ
بِلَ وَحَيَاتِي لَوْ كُنْتُ يَوْسُفَهَا * لَمْ تَكُ مِنْ تُهْمَةِ الْعَزِيزِ بِسَرِي
لَأَنْسَى كَالَيْسَ بِأَنْكَ لَوْ * شَمْتُ رِيًّا نَسِيْمَهَا الْمَطِيرُ
سَبَقْتُهَا وَأَنْزَلْتُ تَتَبُعُهَا * مَا بَيْنَ تِلْكَ الْهَيْئَتِ وَالْحُجُرِ (١)

....

مضى على هذا النحو في مدح الأمير وكثر من مداعباته والمزاح معه
ومتقبل الأمير منه ذلك ويسعد به ويرضى عنه ويجزل له المطاء .

ولا شك أن هذا اللون من الأدب مستساغ ومباح لأن فيه ترفيها
للنفوس وترويحاً للقلوب وقد ورد في الأثر " رَوَّحُوا الْقُلُوبَ سَاعَةً بِمَعْدٍ
سَاعَةٍ فَإِنَّ الْقُلُوبَ إِذَا كَلَّتْ عَمِيَتْ " .

أما اللون الذي يندى له الجبين ويخدش له الحياء ، وتنفر منسه

(١) البيتية ج ٣ ص ٤٠ .

الأذواق السليمة ، والطباع المستقيمة ، فهو ذلك المجون الذي يجمع
السوءات والممورات محور نكاته ، ويتخذ المفاخر والمقادر منبع دعاباته ،
وهذا اللون من المجون الداعر اشتهر به شاعران من شعراء المبراق في
القرن الرابع لم يجارهما فيه أحد من قبل ولا من بعد وهما : أبو عبد الله
الحسين بن أحمد بن حجاج وأبو الحسن محمد بن سكرة الهاشمي فقد كان
كلاهما ماجنا خليما لا يتورع أن يصوغ أقبح المعاني في أسوأ الألفاظ .

وكان ابن حجاج من أولاد العمال والكتاب . وكان أول أمره
يغتفل بالكتابة فكتب بين يدي أبي إسحاق الصابي في أيام حداشته ثم تأنى
له من المميشة بالشعر ما عدل به إليه وعول بعمده عليه وكان أكسب له مما
كان متشاعلا به ثم ضمن قرائض الصدقات بسقى الفوات وأخيرا عين في أيام
عز الدولة البويهى محتسبا على مدينة بغداد (١) .

ولضاد طريقته ، وقبح مذهبه ، وفحش شعره ، وسلطة لسانه قال
الشمالي عنه " ولو لا أن جد الادب جد وهزله هزل كما قال إبراهيم بن
المهدي لصت كتابي هذا عن كثير من كلام من يمد يد المجون فيمرك بها
أذن الحزم ويفتح جواب السخف فيضع بها قفا العقل (٢) .

وعلى الرغم من هذا السخف الذي تحدث عنه الشمالي والذي نقره
اليوم فيما نشاهده من نماذج الشعرية كان ابن حجاج مقبولا لدى العامة
والخاصة . حتى ان الفضلاء والكبراء والأدباء والمحتشمين كانوا يتفكحون

(١) الادب في ظل بنى بويه ص ٢٧٨ والحضارة الاسلامية لمتزح ١ ص ٤٨

• واليتيمة ح ٣ ص ٦٠

(٢) اليتيمة ح ٣ ص ٢٥

بشار شعره يستملحون بنات طبعه ، ويستخفون أرواح نظمه ويحتلمسون
فرط رفته وقذعه •

ولقد مدح الملوك والأمراء فلم تخل قصيدة فيهم من سفاتج هزلسه
ونتائج فحشه وهو عندهم مقبول الجملة غالى مهر الكلام ، موفور الحظ من
الإكرام والإنعام مجاب إلى مقترحه من الصلات الجسام والأعمال المجدبة
التي ينقلب منها إلى خير حال ، وكان طول عمره يتحكم في وزراء الوقت وروما
المصر تحكم الصبي في أهله ويميش في أكتافهم عيشة راضية (١)

والأغرب من ذلك أن ديوان شعره على الرغم مما فيه من فحش وفجور
كان أسير في الآفاق من الأمثال وأسرى من الخيال وأنه كثيرا ما بهسج
بخمسين دينارا إلى سبعين (٢) •

وما يدل على رواج شعره عند ذوي المكانة في الدولة أن الشريف
الرضى نقيب الأشراف المملوكين في القرن الرابع والمعروف بالحشمة والوقار
كان من أكبر المعجبين به وقد رثاه بقصيدة واختار من شعره الصليم أشياء
كثيرة •• وقد حمل إليه الخليفة الفاطمي صاحب مصر عن مديح مدحه به ألف
دينار على سهيل الصلة (٣) •

وقد زعم الثعالبي أنه اختار من نماذج الشعرية الملح الخالية من
الفحش المفرط ، الحالية بالحسن النقوط ، وأخرج كثيرا من نوادره التي
تسر النض وتشرح الصدر وتعيد الأنس ••

(١) اليتيمة ج ٣ ص ٢٥ •

(٢) نفسه ج ٣ ص ٢٩ •

(٣) الحضارة الإسلامية لمتز ج ١ ص ٤٨٢ •

وهذه الملح التي زعم الثعالبي أنها خالية من الفحش - يعلم
الله - أنها فاحشة داعرة ، قبيحة الألفاظ ، مبتذلة السانئ ولعل هذا
ما جعل ابن سكرة يقول : وقد سئل عن قيمة ديوان ابن حجاج " قيمته بربح "
أي لكثرة ما يشتمل عليه مما يقع فيه (١) .

وابن حجاج كان فخوراً بذهبه في السخف متمسكاً به لا يحاول أن
يتبرأ منه أو يمتدّر عنه ولكنه كان يدافع عنه ويحاول أن يضيف عليه شيئاً من
المنطق مهما كان ذلك المنطق سقيماً فيقول :

وَشِعْرِي سَخْفُهُ لَا يَدَّ مِنْهُ * قَدْ طَهَّنَا وَزَالَ الْإِحْتِشَامُ
وَهَلْ دَارَتْكَونَ بَلَا كَيْفٍ * فِيمَكُنْ عَاقِلًا فِيهَا الْقَسَامُ (٢)

....

وكان لسخفه وقذارة لسانه مخشى الجانب مقضى الحاجة مقبول الشفاعة
مسموع الكلمة ، ولم يزل أمره يتزايد حتى حصل الأموال وصار من أهل الجاه ،
وهل على ذلك قوله لبعض الرؤساء حين طالبه بالعدل عن هذا السخف :

سَيِّدِي شُكْرَكَ عَنِّي * مِثْلُ شُكْرِي لِإِلَهِي
سَيِّدِي سَخْفِي الَّذِي قَدْ * صَارَ يَأْتِيهِ بِالذَّوَاهِي
أَنْتَ تَدْرِي أَنَّهُ يَسْدُ * فَعَنْ مَالِي وَجَاهِي (٣)

....

فالسخف في شعره كان ضرورة ملحة ، وكان يلجأ إليه وقت الحاجة
ليدافع به عن ماله وجاهه ..

-
- (١) الهتيفة ج ٣ ص ٢٨ .
(٢) نفسه ج ٣ ص ٢٨ .
(٣) نفسه ج ٣ ص ٢٧ .

وكان أحيانا يلجأ إلى هذا السخف تلبية لحاجة الجماهير التي كانت تقبل بشغف على هذا اللون العتم من الأدب العاجن * * شأنه في ذلك شأن المثل الهزلي الذي فرضت عليه ظروف اجتماعية معينة إجابة الفصول المضحكة واتقان الأدوار المرحية التي تسعد الجماهير وتدخل إلى قلوبهم الفرح والسرور وإلى نفوسهم البهجة والصور حتى إذا فرغ من عمله ونادى إلى بيته رجع إلى طبيعته الجادة المتحفظة *

فأين حجاج لا يمد وأن يكون مثلاً هزلياً بارعاً من هذا النوع يمارس عمله على مسرح الحياة الاجتماعية الهائلة إرضاء لأفراد المجتمع الذين كانوا يقبلون على شصره ومشجعونه على العزى في هذا الطريق وإذا ما رجعنا إلى سيرته الشخصية وما يذكره الرواة عنه من أنه كان وقوراً متزناً أدركنا صدق ما نقول :

قد روى أبو حيان " أن أبا الفتح بن الحميد سأل عن ابن حجاج وكان متشيقاً إليه لما كان يقرأ من قوافيه فأحب أن يلقاه لأنه ليس بالخبر كالممينة * * فلما حضره أبو عبد الله احتبسه ابن الحميد للطعام وسمع كلامه وشاهد سمته * واستحلى شمائله * ولما خلاه قال له : يا أبا عبد الله : لقد والله تهيت عجائبك * * فلما عجبى بك فقد تقدم * لقد كنت أغنى ديوانك فأتمنى لقاءك وأقول : من صاحب هذا الكلام أطيبي طائش وأخف خفيف * وأغمر غامر * وكيف يجالس من يكون في هذا الإهاب؟ وكيف يقارب من ينسلخ من ملابس الكتاب وأصحاب الآداب * حستى شاهدتك الآن فهالك على وقارك وسكون أطرافك * وسكون لفظك وتناسب حركاتك * وفوط حياتك * وناضر ماء وجهك * وتبادل كلك ومضك وانك

لمن عجائب خلق الله وطرف عباده ، والله ما يصدق واحد أنك صاحب ديوانك • وأن هذا الديوان لك ، مع هذا التناقض الذي بين شعرك وبينك في جدك (١) •

تكلّم ابن العميد عن الشاعر يدل على أنه كان وقورا ساكن الأطراف متناسبا الحركات ، عظيم الحياء ، ولم يكن ماجنا بطبعه ولا فاحشا بفطرته حتى لقد تمجّب ابن العميد بعد لقائه به من هذا التباين الواضح بين شخصية الشاعر • وما يصدر منه من شعر •

وفي رأي أن هذا التباين الذي لاحظته ابن العميد بين الشاعر وشعره ليس له إلا تحليل واحد وهو أن الشاعر كان متأثرا بأخلاق المجتمع الذي يعيش فيه • وأنه كان يكتب ذلك الشعر السخيف الماجن استجابة لرغبات هذا المجتمع المشهالك على اللذة والفساد ولذلك راج شعره لدى الخاصة والعامة لأنه صادف منهم هوى صادقا ، ورغبة أكيدة ••

وأنا لا أزم بهذا القول أن ابن حجاج كان من الأتقياء البرة ولا أحاول أن أقدم له صك البراءة بما قاله في شعره — فقد كان — من غير شك — عنده استعداد شخصي للمجون ولكني أريد أن أقول: إنه بالإضافة إلى نفسه الضعيفة كان خاضعا لتأثير المجتمع الذي كان يشجعه على السير في هذا الطريق الشائك • فقد اضطرت ظروف مادية قاسية ونفس منحلسة — ضميقة إلى اتخاذ الشعر السخيف حرفة للارتزاق • ووسيلة سهلة لنيل الحظوة والجاه عند ذوي السلطان •

(١) الامتاع والموانسة ج ١ ص ١٣٨ •

ولقد عبر الشاعر عن ذلك في شعره أصدق تعبير عند ما قال :
لَوْ جَدَّ شَعْرِي رَأَيْتَ فِيهِ • كَوَاكِبَ اللَّيْلِ كَيْفَ تَسْرِي
وَأَنَا هَزْلُهُ مُجَسِّسُونَ • يَمْشِي بِهِ فِي الْمَاشِ أَمْرِي (١)

.....

قد كان الرجل يحرف النماذج الشعرية الماثرة وكان في استطاعته أن يجاريها وينسج على منوالها ، بل ويتفوق على أقرانه فيها ولكنه كان يتجاملها عن عمد ومعارضها معارضة سخيرة وهزل لانه وجد البضاعة الجيدة لا تروج في هذا الزمان ولذلك أثر السخف عن رضا وارتياح ، وما أصدق قول أبي حيان وقد سئل عنه " اذا جد أقمى ، واذا هزل حكى الأقمى " (٢)

ومنا على هذا التحليل نجد ابن حجاج يلون شعره بالقاذورات
محرف في تلك الاصباغ حيناً ومقتصد أحياناً • • ولست أدري كيف كان
المجتمع يستمع هذا الشعر الفاحش ؟ وكيف كان يتقبل هذه النماذج
القدرة ؟ •

ومن شعره في هذا السبيل قصيدة فاحشة تفيض بالقاذورات بحث
بها الشاعر إلى أحد أصدقائه وهو أبو أحمد بن ثوبة حين تناول دواء
مسهلاً فقد أخذ يذكر أثر الدواء السيئ في بدنه وفراشه وهي قصيدة
طويلة قدرة الألفاظ ، منتنة الممانى ومظلمها :

(١) البيتية ح ٣ ص ٢٢ •

(٢) الامتاع والموانسة ح ١ ص ١٣٨ •

يَا أَيُّهَا أَحْمَدُ بِنَفْسِي أَقْدِيهِ —
لَكَ وَأَهْلِي مِنْ سَائِرِ الْأَسْوَءِ (١)

وليست المناسبة وحدها هي التي أوجت إليه بهذا المزاج السخيف
ولكن الدارس لشعره يجد أنه كان يعمد إلى ذلك في جميع الأوقات وجميع
مختلف المستويات الاجتماعية فقد روى الثعالبي : أنه اتخذ دعوة كهنة في
أيام عز الدولة ودعا إليه أقواما شتى من رجال الدولة ثم أنشد قصيدة أسوأ
من سابقتها يتهدد بها الذين يتخلفون عن دعوته ومظلمها :

قُلْ لِلْأَمِيرِ الْمُرْتَجِسِ * مَنْ جَاءَ مِثْلِي فَقَدْ نَجَا (٢)

وأشوأ منها بكثير قصيدة طافحة بالقاذورات هجا بها أحد أعدائه ومظلمها :

وَلَقَدْ عَهْدْتُكَ تَشْتَهِي * قُرْبِي وَتَسْتَدْعِي حُضُورِي (٣)

وشيوع مثل هذه القاذورات في قسم كبير من شعره ورواج ذلك الشعر
في المجتمع أكبر دليل على فساد الآذواق وانحطاط الأخلاق في ذلك
المصر .

ولم تكن القاذورات وحدها هي المحور الذي يدور حوله شعر ابن
حجاج وإنما كان يلونه بأصباغ أخرى من الشعر الفاحش الذي شاع في جزء

(١) البيهقي ج ٣ ص ٢٩ .

(٢) نفسه ج ٣ ص ٣٦ .

(٣) نفسه ج ٣ ص ٣٠ .

كبير من نتاجه ومختاراته قد أكثر الشاعر من ذكر المصريات والسوءات بالفاظ صريحة دون كناية أو تورية ، وهذا اللون كان يبروفا في شعر السابقين إلا أنهم لم يبرفوا فيه اسرافه فقد أباح لنفسه في هذا الصدد أن يصوغ أشمارا في غاية الفحش والمجون واستغله في شعره استغلالا سيئا . . .
فمثلا : إذا سقطت امرأة من فوق السطح فماتت لم يوح اليه شيطانه في تلك المناسبة الحزينة الجادة إلا بأبيات فاحشة زعم فيها أن تلك المرأة التمهية قد رمت بنفسها من شاهق طمعا في شمة جنسية . . . وأن موتها كان بسبب الطمع الذي يودي بحياة صاحبه ويورد دائما موارد القهالة . . .
وأن مثلها في ذلك مثل شاة أشعب التي شاهدت قوس قزح فظنته حبل قت فأهوت إليه من عل فاندقت عنقها (١) .

ويبلغ ذروة السخف والخلاعة حينما يعقد موازنة بين المصريات الجنسية مفضلا بعضها على بعض في قصيدة طويلة مطلعها :

سَرَى مُتَعَرِّضًا طَيْفَ الْخَيْالِ « فَتَوَفَّ لَا مَحَالَةَ بِالْمُحَالِ (٢)

والواقع أن أكثر شعر ابن حجاج مما تعرف عن ذكره الألسنة ولكن على الرغم من ذلك لا سبيل إلى انكار أنه كانت له طريقة خاصة في المجنون اشتهر بها وتميز بها عن سابقه .

ولا سبيل إلى انكار أن ألفاظه — على الرغم من فحشه — كانت تتميز بالسلامة والمذوبة والجمال خاصة في مقطوعاته التي كانت تسير على النمط

(١) البيتة ج ٣ ص ٤١ .

(٢) البيتة ج ٣ ص ٦١ .

المصرى السلام .. والتي لم تكن تخلو غالبا من المجون البرىء ولنقرأ
له هذه المقطوعة الرقيقة المايثة التى كتبها إلى الأمير عز الدولة البهيى
وقد رأى كلابه تأكل لحوم الجداء لندرك صدق ما نقول :

رَأَيْتُ كِلَابَ مَوْلَانَا وَقَوَّفًا
ورابضة على ظهير الطريق
فمن ورد له ذنب طویل
يعقفه وسهل سوب خلقى
تَفَنَّدَى بِالْجِدَا قَوَّوْدَتْ أَنْتَى
وَحَقَّ اللَّهُ خُرُكُوشِ مَلُوقِى
فيا مولاى راقنى بكلب
لأكن كَلَّيَوْمَ مَعَ رَفِيقِى
أَرَى الْقَصَابَ قَدْ أَضْحَى عَدُوًى
لِشُرْمِ الْهَخِ وَالْمُلْحَى صَدِيقِى
جَفَانِى اللَّحْمُ وَهُوَ شَقِيقُ رُوحِى
فمن يمدى على ذاك الشقيق
كان اللحم فى صوم النصارى
توهمنى ابن عم الجاثليق (١)
...

ومن ذلك نستطيع أن ندرك لماذا كان أهل عصره يمدونه — على
الرغم من فحشه — شاعرا كبيرا ..

(١) البيتية ج ٣ ص ٥٠ .

وأما ابن سكرة الهاشمي فقد كان كما وصفه الثعالبي " شاعرا
متسم الباع في أنواع الإبداع فائقا في قول الملح والظرف ، أحد الفحول
الأفراد جاز في ميدان المجون والسخف ما أراد (١) .

يقال : إن ديوان شعره يرمى على خمسين ألف بيت من الشعر
منها في قينة سوداء يقال لها خمرة أكثر من عشرة آلاف بيت وكانت
عرضة نوادره وملحه وكان يعشقها في شبابه ثم حصلت بينهما جفوة
فقلها وأعرض عنها ، وتحول ما بينهما إلى عداوة شديدة وفي نزوة من
نزوات غضبه حلف بطلاق امرأته - وكانت ابنة عمه - ألا يخلو بيباض
يوم من سواد شعر فيها ولما شعرت امرأته بالقصة كانت كل يوم إذا
انفلتت من صلاة الصبح تجيئه بالدواة والقرطاس وتلزم مصلاها (٢) لتزوم
الفرج غير الكريم فلا تفارقه ما لم يقرض ولو بيتا في هجائها .

وقد يحب الباحث حين يشاهد أحد أهل البيت وقد انغمس في
تيار المجون وصار علما من أعلامه . . . ولعل ذلك راجع - في رأي -
إلى تدور مكانة أهل البيت السياسية وشموخهم بالياس وخيبة الأمل بعد
أن سيطر الموالى من الفرس على السلطة الحقيقية في فارس والمراق في
ذلك العصر كما أن ظروف الشاعر المادية لم تكن طيبة فقد كان - كما
يبدو - فقيرا بائسا مضيقا عليه في الرزق ، ويدل على ذلك قوله :

قل للرئيس الذي أنامله * مهسوط بالأسوال مخرقة

(١) اليتيمة ج ٣ ص ٣ .

(٢) نفسه ٣ : ٣

حَلَّتْ لِيَ الْمَيْتَةُ الَّتِي حُرِّمَتْ
فَكَيْفَ تَنْبُو نَفْسِي عَنِ الصَّدَقَةِ (١)

وقوله في موضع آخر :

جَنَى نَسَبِي عَلَى وَدَدِ رَزَقِي
وَأَتَكَلَّنِي مِنَ الدُّنْيَا نَصِيبي (٢)

...

وكان شرف نسبه كان حائلا بينه وبين التكالب على المدوحين شأن
غيره من شعراء المجون وهذا ما سبب له الفقر والحرمان فضلا عن ذلك
كان الشاعر - كما يبدو - ضعيف الدين ، مزعزع العقيدة لديه استمداد
شخصي للمجون ، ويدل على ذلك قوله :

وَلَسْتُ بِمُضْمِرٍ نُسُكٍ * كَلَّا وَلَا بِمُفْهِمٍ
وَلَوْ أَسَامُ بِدِيْنِي * لَيْمَتُّهُ بِرَغِيْفٍ (٣)

...

وهما يكن من شيء فقد انغمس في هذا المستنقع وصار بطلا من
أبطاله الهارزين وله في خمرة وغيرها من القيان والفلمان شعر فاحش يذو
تدري الأقلام عن كتابته والألسنة عن روايته ، ولا ريب أن من يقرأ هذه
النماذج الفاضحة وما شاكلها من أدب المجون يجد أنها تدل بوضوح على
نزعة إباحية قوية كانت قد تملك المجتمع في هذا العصر فاندلج الشعراء
تحت تأثيرها في هذا الفحش الفاجر ..

-
- (١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢١ .
(٢) نفسه ج ٣ ص ٢٠ .
(٣) نفسه ج ٣ ص ١٩ .

صوئيد هذه النزعة الإباحية في بلاد فارس ما أثر عن إيران القديمة
من نقوش حائطية تحوى كثيرا من مناظر الحب ورسوم الرجال والنساء فى
مواقف قد تصل إلى حد كبير من الإباحية على حيطان القصور وجدران
الحمامات (١) .

ولعل هذا ما يؤكده ما ذهبت إليه من أن أدب المجون كان غريبا
عن البيئة العربية التى تنفر بطبيعتها من الانحلال وتميل إلى الوقار
والمفظة .

وسهما يكن من أمر ابن سكرة وسهما قيل عن فحشه وجونه فقد كان
يختلف عن زميله ابن حجاج فى أمرين هامين :

أولهما : أنه لم يكن يلون شعره بالقاذورات والأوساخ — كما كان
يفعل ابن حجاج . . . وإنما اقتصر مجونه على الأدب الفاحش
المكشوف .

وثانيهما : أنه لم يقف كل نشاطه الأدبى على الشعر الماجن ولم يسرف فيه
كأبن حجاج . . وإنما كانت له أغراض أدبية أخرى غير المجون
كالغزل الرقيق الخالى من الفحش وكالزهد والتضرع . .

صدد وأن الشاعر كان يحاكى أبا نواس حينما لجأ إلى الزهد فى
أواخر عمره فقد روى الثعالبي له مقطوعة فى الزهد يلوم فيها نفسه على

(١) الفنون الإيرانية للدكتور زكى حسن ص ٦٢ .

المجون ويطلب منها أن تشوب إلى رشدها وأن ترجع عن غيها ، وأن
تتذكر الموت والهلى وأن تعد الزاد ليوم الحساب إذ يقول :

مُحَدُّ مَا أَعَدَدْتَ لِلْمَوْتِ وَالْهَلَى
وَالْمَلِكِينَ الْوَاقِفِينَ عَلَى الْقَبْرِ
وَأَنْتَ مُصَرٌّ لَا تُرَاجِعُ تَوْبَةً
وَلَا تَرْعَوِي عَمَّا يُذَمُّ مِنَ الْأَمْرِ
تَبَيَّتْ عَلَى خَيْرِ تَعَاقُرٍ دَيْنَهَا
وَتَصَبَّحَ مُخْمَرًا مَرِيضًا مِنَ الْخَمْرِ
سَيَاتِيكَ يَوْمَ لَا تُحَاوِلُ دَفْنَهِ
قَدَّمَ لَهُ زَادًا إِلَى الْهَيْبَةِ وَالْحَصْرِ (١)

...

ولعل ابن سكرة كان مؤمنا صادق الإيمان ولكن الخمر كانت
تفسد عليه دينه وتضمف إيمانه فكان إذا أفاق حسن إيمانه ورجع إلى ربه وإذا
سكر عربد وفجر ونسى دينه وربه .

وسهما يكن من شيء فقد كان ابن سكرة مثل ابن حجاج — ماجنا
خليعا . . . وكان شعرهما العاجن يمثل ظاهرة اجتماعية خطيرة . . . ورواج
ذلك الشعر الفاحش في الأوساط الاجتماعية أكبر دليل على فساد
الأذواق وانحلال المجتمع في ذلك العصر .

((الفصل الخامس))

:: مظاهر الفقر والجحمان وأثرها على أدب اليتيم ::

:: مظاهر الفقر والحرمان وأثرها في أدب اليتيمة ::



كان للتفاوت الطبقي في المجتمع ، سوء الأوضاع الاقتصادية في ذلك العصر أثرهما الواضح في انقسام المجتمعين العراقي والفارسي إلى طبقتين متباينتين : تنعم إحداهما بما لذ وطاب من طيبات الحياة وتميش في ترف ورخاء وهي طبقة الحكام من خلفاء وأمراء ووزراء وقواد وتميش الأخرى في فقر مدقع ، وهو من شديد وهي : طبقة المحكومين الذين قسا عليهم الزمن ، وطحنهم المصائب وأنهكتهم الضرائب والحروب .

ولقد عبر ابن لنكك البصري عن أحوال هذه الطبقة وتبرمها بالحياة أصدق تعبير عندما قال :

تَحْنُ وَاللَّهِ فِي زَمَانٍ غَشِيمٍ * لَوْرَائِنَا فِي النَّامِ فَرَعْنَا
يَصْبَحُ النَّاسُ فِيهِ مِنْ سُوءِ حَالٍ
حق من مات منهم أن يهنأ (١)

وكفى أن أذكر أن كثيرا من أفضل العلماء والأدباء والفلاسفة كانوا لا يجدون ما يحفظ الرقيق ويقيم الأود والجائتم الحاجة إلى سؤال الناس وإراقة ماء الوجوه من أجل القوت حتى إن أبا حيان التوحيدي الفيلسوف الكبير والأديب الواسع الإطلاع بلغ به السخط والتبرم من الحياة والأحياء أنه أحرق كتبه في نهاية حياته فلما عدل في ذلك قال : رَأَيْتُ

(١) اليتيمة ح ٢ ص ٣٢٢ .

فقدت ولدًا نجيبًا ، وصديقًا حبيبًا ، وصاحبًا قريبًا ، وتابعًا أديبًا ،
ورئيسًا منيبًا فشق على أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ويدنسون عرضي
إذا نظروا فيها .. وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لي
من أحدهم وداد ، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ ، ولقد
اضطرت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في
الصحراء وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة وإلى بيع الدين بالمروءة

وإذا كان هذا شأن الفلاسفة والادباء • فما بالنا بالسوقة ،
والعامة .. الذين لا شك أن ظروفهم كانت أقسى ، وأحوالهم المادية
كانت أسوأ .. ولقد كانت الكوارث تعصف بهم والأمراض تفك بهم
وقضى على معظم الجوع ، وديح الزمان الهذاني يصير أحوال الرعية فسي
بمض المدن ضمن رسالة استغاثه وجهها إلى أحد الكبراء فيقول :

فيهم فنت الأمراض الحادة ، فخبطت عشواء ، وأفت رجالا ثم
جد الفلاء ، وفقد الطمام ، ووقع الموت العام ، فن الناس من لم يطعم
أسبوعا حتى هلك جوعا ، ومنهم من تبلغ بالميتة إلى يومنا هذا ، وهو
ينتظر نحه ليلحق صحبه ، ومنهم من لا يجد القوت والدرهم على كفه
حتى يموت ، والباقون أحياء كأنهم أموات ، ترعد فرائصهم من هذا ،
البواثق وابن هول السلطان أعظم وأظم ، وأمر المطالبات أكبر وأهم (٢) .

ولا شك أن هذه الصورة الكريهة التي رسمها بديح الزمان لهذه

(١) الحضارة والاسلام لمتز ج ١ ص ٤٤٨ .

(٢) رسائل الهذاني ص ١٢٢ .

المدينة الهائنة تدل بوضوح على الحالة الاجتماعية التمه التي وصل
إليها معظم المحكومين آنذاك ..

ولقد كان لهذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة .. ظاهرة القهر
والحرمان - صدى عميق في أدب اليتيمة تجلى بصورة واضحة في أدب
الكديّة والاستجداء أو الأدب الساساني كما كانوا يطلقون عليه كما تجلى
كذلك في أدب الشكوى والحرمان وهو ذلك اللون الذي أكثر فيه أصحابه
من شكوى الزمن وذم الدهر ووصف مظاهر الفقر والموز والثروة والسخط
والتبرم من الأوضاع القائمة والحديث عن الفشل والإخفاق ، والشمسور
باليأس والإحباط وما تحدثه هذه الأمور في نفس صاحبها من جزع ونقمة
وسرارة .

أما الادب الساساني فهو ذلك النوع من الأدب الذي يصور التشبث
بأسباب الحياة والتحايل على كسب القوت بكل وسيلة ممكنة .

إنه ذلك اللون الذي يصور حياة طائفة من المجتمع قسا عليها
الزمن وتنكرت لها المنون ففشلت في الحصول على القوت بالوسائل المشروعة
من تجارة وصناعة وزراعة وغيرها من وسائل الرزق المباح فالتجذت من
الكديّة والتسول طريقة لكسب المال والحصول على القوت ، وفي سبيل
الغنى السريع والثراء الفاحش الرخيص ، لجأوا إلى شتى الطرق وثفنوا في
الحيل ونصب الشباك للحصول على المال ، وأمعنوا في ذلك حتى فقدوا
الكثير من الصفات الإنسانية الكريمة ..

ولا أزم أن حرفة التمول كانت وليدة القرن الرابع الهجرى
وإنما هى قديمة عند العرب وغيرهم . . . قدم الفقر والثنى فقد روى
أنه قيل للحطيثة : أوصى للمساكين بشئ فقال : أوصيهم بالمسألة
ما عاشوا فإنها تجارة لن تبور (١) .

واقده كان الجاحظ أول كاتب عباسى تحدث عن موضوع الكدية
إذ كتب عن أصناف المكدين وما يعتازون به ويحتالون وقدس علينا كثيرا
من أخبارهم ونوادرهم (٢) .

وفى أوائل القرن الرابع تحدث عنهم البيهقى حديثا طويلا
وتوسع فى الكلام عن أصنافهم وطبقاتهم وأعمالهم وحيلهم ونوادرهم (٣) .

ولكن الجديد فى القرن الرابع هو شيوع هذه الحرفة وانتشارها
وتعدد أصحابها وكثرتهم . وتنوع أصنافهم فكان منهم الشعراء والكتاب
والخطباء والأشراف وغيرهم وكانوا يجهون البلاد ويطوفون بالأقاليم
ويتفننون فى اختراع الحيل للحصول على المال وقد أطلق عليهم لفظ
الماسانيين " أو " بنى ساسان " نسبة إلى رجل يقال له : ساسان ،
وقد اختلفت الآراء وتضاربت الأقوال فى أصل هذا الرجل الذى تنسب إليه
هذه الطائفة .

فمن قائل : إنه ساسان بن أسفنديار الذى كان من جد يثـ

(١) المحاسن والمساوى للبيهقى ص ٢٩٣ .

(٢) البخل ص ٤٧ وما بعدها .

(٣) المحاسن والمساوى للبيهقى ص ٢٢٢ .

أنه لما حضرت أباء الوفاة فوض أمر الحكم لابنته ، فأدفع ساسان من ذلك واشترى غنما وجعل يرعاها فَمَمَّرَ بانه راعى الغنم فقبل ساسان الراعى وساسان الكردى ونسب إليه كل من تكدى .

وقيل كان ساسان ملكا من ملوك المعجم حاربه دَارَآ ملك الفُرس ونهب كل ما كان له واستولى على ملكه فصار رجلا فقيرا يتردد في الأحياء ويستمطى فحرب به المثل . وقيل : إنه كان رجلا فقيرا بصيرا في استمطاء الناس والاحتياال فحبوا إليه (١) .

وكل هذه الأقوال إفتراضات قد تكون صحيحة ولكنى أميل إلى رأى الإمام محمد عده في هذا الأمر حيث يرى في رحمه الله - أن الساسانيين أو بنى ساسان وما شاكل ذلك من الألفاظ المشيرة بالتحقير لساسان إنما جاءت بعد زوال الدولة الساسانية التى أسسها أردشير بن بابك ، فلما محقها الإسلام وقى من أطرافها أفراد سقطوا من حساب قيان المسلمين الأولين فكانوا يطردهم من مكان إلى مكان ويمروهم بعنوان آبائهم فحمد أن كانت نسبتهم إلى ساسان نسبة مجد وحسب صارت نسبة قذف وسب .

وكان في اشهار هذا الاسم بالتحقير غاية سياسية فضلا عما تطمع إليه نفس الغالب من إذلال المغلوب وهى ألا يبقى لدولة الساسانيين ذكر في لسان ولا أثر في جنان يبنى عن سلطانها أو رفعة شأنها ، وإذا خطر أمرها بالبال فلا يخطر إلا مع لازمه الجديد وهو السفالة والدناءة . .

(١) ظهر الاسلام ج ١ ص ١٤٢ .

ثم نسي ذلك بمرور الأيام ، وفقى اللفظ مستعملا في الشحاذين وهم أدنى طبقة من الناس (١) .

وقد ورد ذكر الساسانيين في شعر الأحنف المكبرى وأبي دلف الخزرجي . وهما من شعراء البتيمة كما ورد ذكرهم في مقامات هديع الزمان الهمداني .

وللحيرى مقامة سماها " المقامة الساسانية " نسبة إلى هذه الطائفة وقد أوضح فيها كثيرا من البواعث الدافعة إلى التسول قال :
" سمعت أن المعاش إماره وتجارة وزراعة وصناعة فارست هذه الأربع لأنظر أيها أرفق وأنفع فما أحدثت فيها معيشة ، ولا استرعىست عيشة .

أما فرص الولايات وخلص الإمارات فلضنات الأحلام .
وأما بضائع التجارات ، فمعرضة للمخاطرات ، وما أشبهها بالطيور الطائرات .

وأما اتخاذ الضياع والتصدى للإزدراع فضيحة للأعراض وقبيح عاتقة عن الارتكاض قلما خلا ربها من إندال أورزق روح بال . وأما حرف أولى الصناعات فقير فاضلة عن الأقوات ، ولا نافعة في جميع الأوقات ولم أر ما هو بارد الممنم لذيد المطعم وأنى المكسب صافى المشرب إلا

(١) شرح مقامات الهمداني ص ٩٧ .

الحرفة التي وضع ساسان أساسها وأضر في الخاقين نارها ، وأضح
لهن غبراء نيرانها إذا كانت المنجر الذي لا يبور والمنهل الذي لا يفر
وكان أهلها أعز قبيل وأسعد جيل لا يرهقهم من حيف ولا يقلقهم من
سيف ، ولا يرهبون من برق ورعد ولا يحفظون بمن قام وقعد ، أينما
سقطوا لقطوا وحينما انخرطوا خرطوا لا يتخذون أوطانا ولا يتقون سلطاناً^(١) .

ولقد كان لظاهرة التسول في المجتمع وانتشارها على هذا النحو
أثرها المباشر في ظهور لون من الأدب جديد ليس له نظير في غير
بيئة العراق وفارس وهو الأدب الساساني . . . كما هيأت الفرصة لظهور
شاعرين كبيرين من شعراء اليتيمة صورا في شعرهما آلام هذه الطائفة من
بنى ساسان وأساليب معيشتها وفنون حياتها وعاداتها وتقاليدها
والفاظها الخاصة بها .

وهذان الشاعران هما : الأحنف المكبرى وأبو دلف
الخرزجسي .

والأحنف المكبرى هو : أبو الحسن عقيل بن محمد المكبرى وصفه
الشمالي بأنه " شاعر المكدين وظهرتهم وطيح الجلة والتفصيل منهم^(٢) " .
وكان صاحب بن عباد معجبا به وشمره فقال عنه " هو فرد ساسان اليوم
بمدينة السلام ، وحسن الطريقة في الشعر " .^(٣)

(١) ظهر الاسلام ج ١ ص ١٤٢ .

(٢) اليتيمة ج ٢ ص ١٠٤ .

(٣) نفسه ج ٣ ص ١٠٤ .

وقد أكثر المكبري من وصفه وتصوير آلامه في مقطوعات
شعرية مؤثرة كقوله :

عُشْتُ فِي ذِلَّةٍ وَقَلَّةٍ مَالٍ * واغترابٍ فِي مَعْشَرٍ أَنْذَالٍ
بِالْأَمَانِيِّ أَقُولُ لَا بِالْمَعَانِيِّ * فَنَذَائِي حَلَاوَةُ الْأَمَالِ
لِي رِزْقٌ يَقُولُ بِالْوَقْفِ فِي الرَّأْيِ * يَرْجُلِي تَقُولُ يَا لِإِعْشِيرَتِي (١)

....

ولم يلبس به الهوس والتماسة أنه كان يرى " أن الحشرات الخيرة
كالمنكبوت والخنفساء أسعد منه حظا ، وأحسن حالا ، حيث إنها تتمتع
ببيت تـكـن فيه ، وألف تطيش إليه ، أما هو فلم يكن له مثلها ، فـلا سـكن
فيقول :

الْمَنْكَبُوتُ بَنَتْ بَيْتًا عَلَى وَهْنٍ
تَأْوِي إِلَيْهِ وَالِيٌ مِثْلُهُ وَطَنُ
وَالْخَنْفَسَاءُ لَهَا مِنْ جُنُحِهَا سَكَنُ
وَلَيْسَ لِي مِثْلُهَا إِلَّا الْفُؤَادُ لَا سَكَنُ (٢)

ويحدث في مقطوعة ثالثة عن طريقته في كسب الرزق ووسيلته في جلب المال
وحيلته التي يعتد بها عطف الناس فيقول :

قَدْ قَسَمَ اللَّهُ رِزْقِي فِي الْبَيَادِ فَسَا
يَكَادُ يُدْرِكُ إِلَّا بِالتَّخَارِيْقِ

(١) البيتية ح ٣ ص ١٠٥ .

(٢) نفسه ح ٣ ص ١٠٥ .

وَلَسْتُ مُكْتَسِبًا رِزْقًا يَغْتَفِسُ
 وَلَا بِشَيْءٍ وَلَكِنْ بِالتَّخَارِيصِ
 وَالنَّاسُ قَدْ عَلِمُوا أَنَّي أَخُو حَيْلٍ
 ظَلَمْتُ أَنْفَقُ إِلَّا فِي الرِّسَالَتِ (١)

...

وعلى الرغم من هذه الحياة التمسدة التي صورها المكبري في مقطوعاته
 الشعرية الهاكية ، كان محترزا بحرفته فخورا بنسبه متمسكا بصناعته وكان
 يرى أن بني ساسان أهل جد وسجد وسلمان فقول :

عَلَى أَنَّي يَحْمَدُ اللَّهَ فِي بَيْتٍ مِنَ الْمَجْدِ
 بِأَخَوَانِي بَنِي سَاسَا * نَ أَهْلِ الْجَدِّ وَالْحَقِّ
 لَهُمْ أَرْضُ خُرَاسَا * نَ قَاشَانِ إِلَى الْهِنْدِ
 إِلَى الرُّومِ إِلَى الزَّنْجِ * إِلَى الْبَلْخَارِ وَالْعَنْدِ
 إِذَا مَا أَعْيَزَ الطَّرِيقُ * عَلَى الطَّرَاقِ وَالْجُنْدِ
 حَذَارًا مِنْ أَعَادِيهِمْ * مِنَ الْأَعْرَابِ وَالْكَرْدِ
 قَطَعْنَا ذَلِكَ النَّهْجَ * بِلَا تَبِيٍّ وَلَا غَسِيدِ
 وَمِنْ خَافِ أَعَادِيهِ * بَنَا فِي التَّرْوَعِ يَسْتَمْدِي (٢)

.....

ومن يقرأ هذه الأبيات للشاعر يقع في دهشة وحيرة إذ كيف
 يفتخر الشاعر بحرفته وقومه من بني ساسان ويؤمن أنه من بيت ماجد عظيم
 الثراء عريض الجاه واسع النفوذ والسلطان .. مع أنه منذ قليل كان

(١) البيتة ح ٣ ص ١٠٥ .

(٢) نفسه ح ٣ ص ١٠٤ .

يرش نفسه ويندب حظه ويصور بؤسه وتماسه .

فهل كان الشاعر حقاً جاداً في هذا الفخر بيني ساسان ؟ وهل
كان سعيداً بانتسابه إلى هذه الطائفة ؟ أم أنه كان هازلاً عابثاً
لا معنى ما يقول ؟ .

يزعم بعض الباحثين ^(١) أن المكبري كان هازلاً ساخرًا وأنه ليس
من السذاجة بحيث يرى في حرفة التسول مجداً عريضاً يستحق أن يفخر به
إنسان خاصة : أنه كثيراً ما تحدث عن بؤسه وشقائه وتماسه . .

أما أنا فأخالفه في ذلك وأرى أن الشاعر لم يكن عابثاً ولا ساخرًا
وانما كان جاداً في فخره بيني ساسان وفي انتسابه إليهم . . للأسباب
الآتية :

أولاً : أن بني ساسان قد كثروا في هذا العصر كثرة هائلة وتمددت
أصنافهم فكان منهم الشعراء والكتاب والخطباء والأشراف حتى
إن أباء دلف الخزر جي قد جعل الخليفة المباسي المطيع
لله واحداً منهم فلا غرابة أن ينتسب الشاعر إليهم ولا غرابة
أن يفخر بهم ومحرقتهم بنير غضاة ولا حرج .

ثانياً : إن أفراد هذه الطائفة كانوا يعيشون في حرية وانطلاق
وينتقلون من مكان إلى آخر بلا عوائق أو قيود . . وكانوا

(١) محمود غناوى الزهيرى في كتابه الأدب في ظل بني بويه ص ٢١٦ .

يرون أنفسهم فوق القانون فلا يتمرضون للمصادرة أو السرقة ولا تفرض
عليهم ضرائب ولا تجبى منهم زكاة حتى إن الأضياء كانوا يحنون بهم في
وقت الخطر ويتحلون شخصياتهم إذا ما تعرضوا لكلمات اللصوص
وقطاع الطرق وهذا ما عناه الأحنف في قوله :

من خاف أعاديـــــــــــــــــه * بنا في السرور يستعدي
وإذا كان هذا شأنهم فلا مانع أن يفخر الشاعر بهم .

ثالثا : أن هذه الطائفة كانت قد قدت الكثير من آدميتها وكراسها
واستمرات الميئس السهل في ظل الكدية واستكانوا للمذلة
والهوان وكانوا ينظرون إلى غيرهم من أصحاب الحرف الأخرى
الشريفة نظرة عطف وإشفاق لأنهم كانوا يرون أنفسهم أسعد
حالا منهم وكانوا ينظرون إلى حرقهم على أنها المتجر الذي
لا يبور والمنهل الذي لا يخور وكان أهلها أعز قبيل وأسعد
جيل ، كما يقول الحميري في مقامه السابقة ..

من أجل ذلك لم يجد الشاعر قضاة في أن يفخر بهم وحرقهم
وإلى عهد قريب كانت جماعات الغجر * والأدبائية * يحترقون الكدية
وكانوا يجهون مدن مصر وقراها يخالون على الناس ومخرقون لهم ..
شأنهم في ذلك شأن بني ساسان القدامى .

ما أشك في أنهم من بقايا تلك الطائفة ولقد شاهدتهم يتباهون

بحرفهم ومعتزون بها ولا يرضون بها بديلا ينظرون إلى غيرهم من
الفلاحين والصناع والتجار نظرة عطف ورثاء ..

فلا عجب أن يفخر بهم الأحنف وغيره من شعراء الكندية ولا غرابة
أن يصادقهم الحكام في ذلك العصر كالصاحب بن عباد الذي كان يصادقهم
وينادى بهم ، ودينهم من مجلسه ، ومعرف لفتهم السرية ، وحفظها حفظا
عجيبا ، حتى إن الأحنف المكبرى ، وأبا دلف الخزرجي كانا من ندائه
القربين ..

أما أبو دلف الخزرجي فقد كان من أعظم الرحالة الجغرافيين
المسلمين على امتداد التاريخ خاصة في القرن الرابع ، كما أنه كان عالما
وطيبيا ، وكيمائيا ، و " جيولوجيا " من الطراز الأول ، كذلك كان مناديا
في الذروة وسجالا للملوك ينادى بهم وينال عندهم الخطوة والمكانة الرفيعة .

وهذا إلى أنه شاعر رفيع المنزلة بين الشعراء في عصره ، وعلم من أعلام
الشعر الساساني الذي كان له طرافه وروحه في أيامه ونموذج فني رفيع
للساسانية التي تتميز بالظرف ، وعلو الذوق ، وجمال الفكاكة وسرعة النكتة
ما حبه إلى الملوك وقرته إلى الوزراء (١) .

" واسم أبي دلف مسمّر بن مهليل ونسبته إلى الخزرج إحدى
القبيلتين الكبيرتين في المدينة ، وللخزرج في الإسلام والاسلام تاريخ
كبير خالد .. أما الينيمى فهو نسبة إلى مدينة " ينج المشهورة في

(١) الآداب العربية في العصر العباسي الثاني و ص ١٠٦ .

الحجاز ويوصف أبودلف أيضا باليهنسى وهو من الجزيرة العربية • عاش
القرن الرابع كله أو جلّه يجوب البلاد ويمدح الملوك وينادى الأمراء والوزراء
مطوّفاً في كل مكان من بخارى إلى الصين والهند • • ومن فارس إلى أرمينية
وأذربيجان وطبرستان ولاد الأكراد وصف كل ما يشاهده • ويدون كل
ما يلاحظه في دقة تامة وعناية بالتفاصيل كاملة مما أذهل المستشرقين
فكتبوا عنه أنه كان جغرافياً من الطراز الأول ومن أشهر الرحالة في القرن
الرابع (١) •

أما المصدر الذي ترجم لأبى دلف ترجمة أدبية فهو كتاب اليتيمة
الذي أرخ لأدباء هذا العصر فقال عنه الثعالبي : " شاعر كثير الملاح
والظرف • مشحون المدينة في الكدية خفق التسعين في الاطراب والافتراء
مركوب الأسفار الصماب • ضرب صفحة المحراب بالجواب في خدمة العلوم
والآداب وفي تدويحه البلاد وكان يشتاب حضرة الصاحب ويكثر القيام عنده
ويكثر سواد غاشيته ويرفق بخدمته ويرتقى في جملة ويتزود من كبه ففى
أسفاره فتجوى مجوى المظاتيح في قضاء أو طاره (٢) •

وفى شعر أبى دلف ما يدل على كثرة أسفاره وتجاربه وتطوافه في
البلاد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب كقوله :

أَلَا إِنِّي حَلَبْتُ الدَّهْمَ • تَرَى مِنْ شَطْرِ إِلَى شَطْرِ
وَجِئْتُ الْأَرْضَ حَتَّى صِرْتُ • تَفِي التَّطَوُّافِ كَالْخَضِرِ
وَالْفُورَةِ فِي سِي الْحَرِّ • فَعَالُ النَّارِ فِي السَّبْرِ

(١) المصدر السابق ص ١٠٤ •

(٢) اليتيمة ج ٣ ص ٣٢١ •

فَمَعْصُومٌ مِنْهُ لِلْخَسِيرِ * وَمَعْصُومٌ مِنْهُ لِلشَّرِّ (١)

.....

وترجع شهرة أبي دلف الأدبية إلى تلك القصيدة الرائية الشهيرة
التي عارض فيها دالية الأحنف المكي والى تَمَرَّ فباسم القصيدة
السانية * *

وقد رواها الثعالبي في اليتيمة وهي طويلة جدا فاختار الثعالبي
منها ما يقرب من مائتي بيت ، بدأها الشاعر بأبيات رقيقة شروح فيها
آلامه وآلام اخوانه من بني ساسان وما يلقونه من جهد وشقة ففى
أسفارهم واغترابهم ثم عقب على ذلك بأبيات في الفخر على طريقة الأحنف
في الدالية ثم أسهب بعد ذلك في بيان أنواع المكدين وفنون حيلهم
وأساليبهم في سبيل الحصول على المال وكيفية ابتزازه من الناس .

وقد كان هؤلاء الشحاذون يطوفون في الآفاق ، ويجولون فى
البلدان وتنقلون في القرى والأرياف يستجدون ويخالون على الناس
ويصلون منهم الأموال ..

وقد كشف أبو دلف في هذه القصيدة عن الكثير من أساليبهم وحيلهم
ووسائلهم في سلب المال ، كما ذكر الكثير من مصطلحاتهم الخاصة التى
لا يفتن إليها سواهم .. وقد قام الثعالبي بشرحها شرحا وافيا شائها
وكشف الحجاب عن مآليقها وأسرارها ولولا ذلك لما فهمنا عنها شيئا .

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٤٢ .

وهذه القصيدة تجمع ما تفرق من اصطلاحات الساسانيين ولا يقارنها
في هذا السبيل أثر أدبي آخر إلا مقامات الهميد وقد أعلن أبو دلف
في هذه القصيدة أنه شخصا من زمرة الساسانيين كما حشر معه كثيرا من
الشعراء والأشراف والبلغ في ذلك حتى جمل الخليفة الساسي المطيع
لله من جملتهم

يقول أبو دلف في مقدمة هذه القصيدة :

جَفُونٌ دَمَعَهَا يَجْجِرِي * لِيُطَوِّلَ الصَّدَّ وَالْهَجْرَ
وَقَلْبٌ تَرَكَ الْوَجْدَ * بِهِ جَمْرًا عَلَى جَمْرٍ
لَقَدْ دُفَّتْ الْهَيَّوَى طَمَعِي مِنْ حُدُودِ مَنْ مُرَّرَ
وَمَنْ كَانَ مِنَ الْأَحْزَارِ * رِيَّاتُهُ سَلَوَةُ الْحَرِّ
وَلَا سِيمَا وَفِي الْفُرَيْدِ * لِيَأْذِي أَكْثَرَ الْعَمْرِ
تَمَرَّتْ كَفْصُنَ الْهَبَا * نِ بَيْنَ الرُّوقِ وَالْخَضِرِ
وَشَاهَدَتْ أَعَاجِيَتَنَا * وَالْوَانِيَا مِنَ الدَّهْرِ
فَطَابَتْ بِالنَّوَى نَفْسِي * عَلَى الْإِسْكَافِ وَالْفَطْرِ (١)

.....

ومعد هذه المقدمة الرقيقة يورد موضع افتخاره كما فعل الأحنف
الْمَكْبَرِي في الدالية فيقول :

عَلَى أَنِّي مِنَ الْقَوْمِ الْبِ * جِبَاهِ لَيْلٍ بَيْنِي الْفَرَّ
بَنِي سَاسَانَ وَالْحَامِي الْ * حَتَّى فِي مَالِكِ الْمَصْرِ

(١) البيت ح ٣ ص ١٢٣ .

تَغَرَّبْنَا إِلَى أَنَا * تَنَامِنَا إِلَى شَهْرِ
 فَظَلَّ الْبَتَيْنُ يَرْمِينَا * تَوَى بَطْنًا إِلَى ظَهْرِ
 كَمَا قَدْ تَفَعَّلُ الرَّيْحُ * يَكُوبُ الرَّمْلُ فِي الْبَرِّ
 فَحَنُّ النَّاسِ كُلِّ النَّاسِ * فِي الْبَرِّ وَفِي الْبَحْرِ
 أَخَذْنَا جَزِيَةَ الْخَلْقِ * مِنَ الصَّيْنِ إِلَى مِصْرَ
 إِلَى طَنْجَةَ بَلِّ فِي كُلِّ أَرْضٍ خَيْلَنَا تَسْبِرُ
 إِذَا ضَاقَ بِنَا قُطْرُ * نَزَلَ عَنْهُ إِلَى قُطْرِ
 لَنَا الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا * مِنَ الْإِسْلَامِ وَالْكَفْرِ
 فَخَصَّافُ عَلَى الثَّلْجِ * وَنَشْتُو بِلَدِ الثَّمَرِ (١)

.....

ثم يأخذ بعد ذلك في سرد أصناف المكدين وبيان حيلهم
 وكايدهم وطريقة ابتزازهم للمال ، ويكشف الكثير من أسرار صناعاتهم وذكر
 كثيرا من مصطلحاتهم السرية الخاصة التي لا يفطن إليها أحد سواهم .

وقد قام الثعالبي بشرح هذه المصطلحات وأوضح الكثير من
 مغالقتها والغاها ولولا ذلك لما عرفنا عنها شيئا .

يقول أبو دلف مينا أصناف المكدين وطريقة احتيالهم :
 مَنَا الْكَاغُ وَالْكَاغَةُ * وَالشَّيْشَقُ فِي النَّحْرِ (٢)

(١) اليتيمة ح ٣ ص ٢٢٤ .

(٢) الكاغ والكاغة : التجائن والتجانة .

الشيشق : الحدايد والتماويد التي يملقونها على أنفسهم .

- (١) مَنْ دَرَزَ أَوْ حَسَرَ * تَرَأَوْ كَزَّ بِالْغُفْرِ
(٢) مَنْ دَرَعَ أَوْ قَشَّ * أَوْ دَمَعَ فِي الْفَرِّ
(٣) مَنْ رَمَى أَوْ كَبَسَ أَوْ ظَمَسَ فِي الْفَجْرِ
(٤) مَنَّاكِلَ قَنَاقٍ * عَلَى الْإِنْجِيلِ وَالذِّكْرِ
(٥) مَنَّاكِلَ مُسْتَمَشِي * مِنَ التَّمَّارَةِ الْكُذْرِ
(٦) مَنْ شَدَّ فِي الْقَوْلِ * وَمَنْ رَمَدَ فِي الْقَصْرِ

- (١) كَزَزَ : إذا دار على المكك والدروب وسخر بالنساء .
حَزَزَ : إذا كتب التماهد والأخراز .
كَزَّ : إذا أقام في المجلس والكوز : هو الذي يقوم في مجالس القصص فيأمر القاص أصحابه بأعطائه ثم إذا تفرقوا تقاسموا .
(٢) دَرَعَ : إذا جاء الهراس وطلب قصعة من الهريسة فإذا أعطاه أياها لحسها .
قَشَّ : إذا مشى وعينه إلى الأرض لطلب القطع .
دَمَعَ : إذا بكى في الأسواق عند البرد حتى يمحى .
(٣) رَمَى : إذا طاف على حوانيت الباعة فأخذ من هنا جوزه ومن هنا نمره .
كَبَسَ : إذا دار فان رأى رجلا حل سفجته كبسه وأخذ منه قطعة .
ظَمَسَ : إذا خرج إلى الكدية بفلس .
(٤) الْقَنَاقُ : الذي يقرأ التوراة والإنجيل ويوهم أنه كان يهوديا أو نصرانيا فأسلم .
(٥) مُسْتَمَشِي : قوم يدورون على أبواب الدور فيما بين العشائين ، ويقولون — رحم الله — من شمس التريب ونمرون بذلك حتى يأخذوا من كل دار كسرة ويرجموا بها .
(٦) مَنْ شَدَّ : قوم يكون معهم دفاطر حديث يرونها ويشددون على الناصر في اللواط وشرب الخمر .
الْقَصْرُ : هو الأتون يدخله الواحد من القوم فيطرح نفسه في الرماد .
يوهم أنه آوى إليه من شدة البرد وعدم الملبوس .

- (١) مَنْ قَنُونِ أَوْ بَنُونِ أَوْ طَيْنِ بِالشَّمْرِ
 (٢) مَنَّا مُنْقَدِ الطَّيْنِ * وَأَصْحَابُ اللَّحَى الْحُمَرِ
 (٣) وَمَنْ شَقَفَ بِالمَاءِ * وَمَنْ شَقَفَ بِالْجَمْرِ
 (٤) مَنَّا النَّائِحُ الْمُهْكِ * وَمِنَّا الْبَنَشِيدُ الْمُطْرِى
 (٥) وَمَنْ ضَرَبَ فِي حُتَبٍ * عَلَقَ وَأَيْسَى بِكُـرِ

- (١) قَنُونٌ : المقتنون : هو الذى يقول : كان أبى نصرانيا * وأمسى
 يهودية وأن النبى صلى الله عليه وسلم جاءنى فى النوم
 وقال : لا تغتر بدين أبوك وأتبع ملتى فأسلمت *
 بَنُونٌ : إذا انتسب إلى البانوانية وهم الشطار وقال : كنت محبوسا
 فاحتلت بكذا حتى خرجت *
 طَيْنٌ : إذا طين وجهه وساعديه بطين الحبرة وروى الأشعار على
 رؤوس الأشهاد فى الأسواق *
 (٢) مُنْقَدِ الطَّيْنِ : قوم يخضعون لحاكم بالحنا ويدعون أنهم شيعة
 يحملون السبح والألواح من الطين ويؤمنون أنها من قبر
 الحسين بن على رضى الله عنهما فيتخفون بها الشيعة *
 (٣) الشَّقَفُ : هو الذى يأخذ ماء النوشادر فيكتب بها الرقاق ويتركها بين
 يديه فإذا مر به الأبله قال له : جوب بختك وخذ رقعة من
 هذه ثم يعطيه إياها فيقذفها فى النار فيظهر المكتوب أسود
 وقد يعمل هذا الجضم ماء العفص فإذا غسنى ماء الزاج
 خرج أسود وقال للرقعة الشقيقة *
 (٤) النَّائِحُ الْمُهْكِ : قوم ينوحون على الحسين بن على وروون الأشعار فى
 فضائله ومراثيه رضى الله عنه *
 (٥) مَنْ ضَرَبَ فِي حُبِّ الخ : قوم يحضرون الأسواق فيقف واحد جانبا وروى
 فضائل أبى بكر رضى الله عنه ويقف الآخر جانبا وروى فضائل
 على رضى الله عنه فلا يفوتهما درهم الناصبى والشيمى ثم
 يتقاسمان الدراهم *

وَمَنْ يَرَوِي الْأَسَانِيدَ * وَحَقَّقُوا كُلَّ قِطْعَةٍ (١)
وَمَنْ يَكْحَلُ مِنْ مَشْمُومٍ * حَرَضَ بِمَعْنَاهُ تَجَرَّى (٢)
وَفِي الْمَقْرِيفِ مَنَّاكُفٌ كُلُّ جَهَارٍ أَخِي الْخَسِيرِ (٣)

* * *

وعلى هذا النحو يصيب أبو دلف في سرد أصناف المكدين ويمسح
في تعداد حروفهم ويبان حولهم وأساليبهم في جمع المال وابتزازهم .

وكان في كل ذلك يستخدم لغة خاصة لا يفهمها إلا الصماليك من
بنى سامان . . وهذه اللغة السرية كانت تعرف " بمناكاة بنى سامان " .
وقد روى الثعالبى " أن صاحب ابن عماد كان يحفظ هذه اللغة حفظا
عجيبا ومعه من أبي دلف وفور حظه منها وكانا يتجاذبان أهدابهما
مجرمان فيما لا يفتن له حاضرهما ولما أتته أبو دلف بهذه القصيدة ،
" اهتز ونشط لهما وأجزل صلتهم عليهما (٤) "

-
- (١) ومن يروى الأسانيد الخ : قوم يروون الأحاديث على قوارع الطريق .
(٢) ومن يكحل الخ : هو الذى معه قطنه مشمومة في الزيت يمرها على
عنقه لتدفع بهاخذ في شكايته حاله واستعراض الناس في مسأله ،
وذكر قصته وأنه قطع عليه الطريق أو غصب ماله .
(٣) كل جهار : هو الذى يقف في المقام قائما أو قاعدا ولا يهرجه حتى
يأخذ ما يريد . . .
(٤) الهتمة ح ٣ ص ٣٢٢ .

وقد توسع أبودلف في مفهوم الكدية والمكدين في هذه القصيدة
بحيث جعل منهم الشمراء والأشراف والخلفاء قال :

وَمِنَّا شُمَرَاءُ الْأَرَضِ * فِي أَهْلِ الْبَدْرِ وَالْحَضَرِ
وَمِنَّا سَائِرُ الْأَنْصَارِ * وَالْأَشْرَافِ مِنْ فِئْرِ
وَمِنَّا قَتَمُ الدِّينِ الْإِلَّ * مُطِيعُ الشَّائِخِ الذَّكْرِ
يُكْتَدَى مِنْ مُعَزِّ الدَّوْ * لَعِ الْخُبْرَ عَلَى قَدَرِ (١)

.....

وهذا أبو دلف كان جادا في حشر الخليقة العباسي المطيع
لله من جملة الساسانيين لا ساخرا ولا متندرا كما يقول الثعالبي : فالقصر
والحرمان وسوا الأوضاع الإقتصادية قد دفعت كثيرا من الأشراف والشمراء
والكتاب وحتى بعض الخلفاء إلى الاستجداء وطلب العطاء ..

فهذا الخليفة القاهر شوهد بعد أن خُلِعَ وَسِيلَ وهو واقف بجمع
العنصر يطلب الصدقة من الناس لولا أن رآه بعض الهاشميين فنعمه من
ذلك وأعطاه خمسمائة درهم (٢) .

وهذا ابن حجاج الشاعر العاجن الذي كان محتسبا على مدينته
بغداد في القرن الرابع يملأ شعره بالفاظ المكدين ومعانيهم كقوله :

يَا سَادَتِي قُولِي مَيْثَتِي * فِي مِثْلِ صُورَةِ حَسَنِي
لَمْ يَبْقَ فِي الْخُرْجِ شَيْءٌ * أَنَاذَنُونَ بِشَيْئِي (٣)

(١) البيهقي ج ٣ ص ٢٣٦ .

(٢) الفخرى في الآداب السلطانية ص ٢٤٩ .

(٣) البيهقي ج ٣ ص ٤٩ .

وهذا ابن سكرة الهاشمي لم يمنعه عرف أصله وكرم نسبه من

أن يقول :

قُلْ لِلرَّئِيسِ الَّذِي أَنَا بِأَمْلِكُهُ
بِهِسْوَطَةٌ بِالنِّسْوَالِ مُنْخَرِقَةٌ
حَلَّتْ لِي الْهَيْئَةُ الَّتِي حُرِمْتُ
فَكَفَّ تَنْهَبُوا نَفْسِي عَنِ الصَّدَقَةِ (١)

...

وسهما يكن من أمر فان هذه النماذج المتعددة من الأدب الساساني
تُعدُّ صورة صادقة للحياة الاجتماعية والاقتصادية القاسية التي كانت طائفة
ضخمة من طوائف المجتمع تحياها نتيجة للظلم الاجتماعي والتفاوت الطبقي

وان القصيدة الساسانية لَتَمَدُّ بحق وثيقة تاريخية واجتماعية على
درجة كبيرة من الأهمية لدراسة حياة الشحاذين والمتسولين ومعرفة حيلهم
وتقاليدهم بصورة خاصة كما أنها تَمَدُّ من أفضل المصادر التي تلقى الأضواء على
أحوال العصر الاجتماعي ولا يماثلها في هذا الشأن أثر أدبي آخر .

(١) البيتية ج ٣ ص ٢١ .

وقيل أن أنفخ من دراسة الأدب الساساني الذي رواه الثعالبي
وخرج لأدبائه وسجل نماذج في اليتيمة ينهى أن يشير إلى الصلة
القائمة بين هذا الأدب وبين مقامات البديع .

ولا أريد هنا أن أتمرض لدراسة المقامات دراسة تاريخية اجتماعية
أدبية شاملة فذلك أمر خارج عن نطاق البحث لمهين :
الأول : أن بديع الزمان ألف معظم مقاماته بنيسابور في خراسان .
وخراسان ليست داخلية في نطاق البحث .

وثانيا : لأن مصدر البحث هو كتاب "اليتيمة" والثعالبي في اليتيمة
لم يتكلم عن المقامات وإنما أشار إليها إشارة عابرة أثناء ترجمته
للبيديع عندما قال : وأملى - البيديع - أربعمائة مقامة في
الكدية وغيرها (١) .

ومن هنا كانت الصلة بين اللونين : فالشعر الساساني قائم على
الكُدَيَّة والمقامات معظمها يقوم على الكدية كذلك وما أشك في أن البيديع
قد تأثر بشخصية أبي دلف الخزرجي ومقصده الساسانية الطويلة فسمى
الكدية .

والدارس لشخصية أبي دلف الخزرجي كما صورها الثعالبي في اليتيمة
وشخصية أبي الفتح الاسكندري كما صورها البيديع في المقامات يلاحظ أن

(١) اليتيمة ج ٤ ص ٢٤١ .

الشخصيتين كانتا متطابقتين تمام التطابق ، فكلاهما كان شاعرا عالما
فقيها ذا عقل راجح وبيان خلاب ، وكلاهما كان جوالا طاف بالبلاد
من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب وكلاهما كان ذا حيلة ودهاء
عظيم ..

ولا أتجاوز الصواب إذا جزمت - كما جزم بعض الاساتذة - بأن
أبا الفتح الإسكندري بطل المقامات هو نفسه أبو دلف الخزرجي صاحب
القصيدة الساسانية السابقة ، وليس بعميد أن يكون الهمداني قد جعل
من شخصيتي دلف الخزرجي - وهو من أهل عصره وأستاذه - بطلا
لمقاماته وكفى عنه بأبي الفتح من باب التعمية والتعمية وقد كشف الثعالبي
- نفسه - عن هذه الحقيقة من غير قصد عندما قال أثناء ترجمته لأبي
دلف " وأنشدني بديع الزمان لأبي دلف ونسبه في بعض المقامات إلى
أبي الفتح الإسكندري :

وَحَكَ هَذَا الزَّمَانُ زُورُ
فَلَا يَفْرَنْتُكَ الْمُرُورُ
زَوْقٌ وَخَيْرٌ وَكُلٌّ وَأَطْبَقُ
وَأَتَرِقُ وَطَلِيقٌ لِمَنْ يَمُرُورُ
لَا تَلْتَرُمْ حَالِيَةً وَلَكِنْ
دُرُ بِاللَّيَالِي كَمَا تَدُرُ (١)

...

(١) اليتيمة ج ٣ ص ٣٢٣ •

فهذا النص يدل على أن الهمداني كان راوية لشعر أبي دلف
ينشده في المحافل والمقتديات هرويه للمؤلفين والأدباء . . . وورود
هذا الشعر نفسه في بعض المقامات على لسان أبي الفتح الإسكندري
يدل على أن شخصية أبي دلف الخزرجي وشخصية أبي الفتح الإسكندري
يظل المقامات كانتا مترابطتين في ذهن البديع ترابطا عجيبا، والذي
جزم بذلك من قبلي هو الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي عندما قال ^(١) :
" رأيي الذي أذهب إليه اليوم هو أن أبا الفتح إنما هو شخصية تاريخية
معروفة وهي أبو دلف الخزرجي وحده . "

وليس هذا كل ما لاحظته من صلة أو تأثير بين الأدب الساساني
ومجموع مقامات البديع فإن من يقرأ المقامة الرصافية للبديع يشعر أنه نشر
فيها قصيدة أبي دلف الساسانية . .

وفضلا عن ذلك فقد سمي البديع إحدى مقاماته باسم المقامة
الساسانية نسبة إلى هذه الطائفة التي تحدث عنها أبو دلف في قصيدته
ما يدعم الصلة القائمة بين المملوكين .

وهذا مما يؤكد القول بأن شخصية أبي دلف وما جاء في قصيدته
الساسانية عن أصناف المكدين وميان حيلهم ومسايلهم ومصطلحاتهم كانوا
من الموامل المباشرة التي ألهمت البديع فن المقامات .

ومعد أن فرغت من دراسة الأدب الساساني : وهو الشق

(١) الآداب العربية في العصر العباسي الثاني ص ١٠٠ للدكتور
خفاجة .

الأول من أدب الفقر والحرمان سأحدث عن الشق الثاني من هذا الأدب وهو : أدب الشكوى من الزمن والثورة على الأوضاع وتصوير المصائب والنكبات ووصف مظاهر الفقر والفاقة ، وقد كثرت نماذج هذا اللون من الأدب في اليتيمة نتيجة لما أصاب الناس في هذا العصر من ضروب المحن والنكبات فطبعته حياتهم بطابع الحزن والكآبة وتولد في نفوسهم الحقد والمرارة .

يكفى أن أشتهد بنص واحد لأبي حيان التوحيدي شيخ الفلاسفة في هذا العصر لتصرف إلى أي حد وصلت حالة معظم الرعية في هذا الزمان .

يقول أبو حيان في رسالة وجهها إلى أبي الوفاء المهندس بمصر فيها بؤسه وفاقة ويطلب فيها معونته :

• خلصني أيها الرجل من التكلف أنقذني من ليمس الفقر أطلقني من قيد الضر ، اشتري بالأحسان ، اكفني مشقة الشتاء والمشياء .. إلى متى الكسيرة اليابسة ، والبقيلة الذائبة ، والقبيص المروق ؟ .

إلى متى التادم بالخبز والزيتون ؟ قد والله بهج الخلق ، وتغير الخلق ، الله الله في أمري ، أجبرني فاني مكسور ، اسقني فاني صد أغنى فاني ملهوف (١) .

هذه الحياة الكثيرة التي سيطرت على الناس في هذه الحقبة قد

(١) الإمتاع والمؤانسة ج ٣ ص ٢٢٦ .

تجبت شمرا غائيا حزينا لعله أروع ما قيل من الشعر في هذا المصر
لأنه يمتاز بالصدق والأصالة والتعبير عما يختلج في النفس من مرارة وما
يضطرب في القلب من حزن وكآبة ..

إنه شمرا إنساني عالى خالد طالما بقى على وجه الأرض ظلم
واستغلال وفقر وحرمان ..

ذلك لأن المعانى التى تناولها هذا الشعر ممان مشتركة في كل
زمان ومكان ، لأنها تمير عن مشاعر الطبقة المغلوبة أصدق تعبیر ..

لقد أكثر شمراء هذه الحقبة من وصف الهويين والحرمان وتصوير
مظاهر الفقر والطاقة ، وعبروا عن آلامهم وأحزانهم في صدق واخلاص ..

ولكنهم في ثورتهم ونقمتهم وسخطتهم تجاهلوا السبب المباشر في
تماسكهم وهو ظلم الحكام .. الذين استأثروا بطبقات الدنيا دونهم ،
تركوهم غريسة سهلة للفقر والجهل والمرض ، فصبوا جام غضبهم على
الزمن والدهر والدنيا وحركة الكواكب والأفلاك لأنهم كانوا لعجز من أن
يواجهوا الحكام بحقيقة آلامهم وموأسهم ..

ولعل الشاعر محمد بن محمد المعروف بابن لنكك البصرى كان
من أكثر شمراء اليتيمة نقمة على الزمن وسخطا على الدهر لاغداقه على
الحقى والجهال وتحامله على أمثاله من العقلاء العلماء الأفاضل .. وقد
قال عنه الثعالبي :-

* كانت حرفة الأدب تسه وتجسه صفحة الفضل تدركه فتخذه
ونفسه ترفعه ودهره يضمه (١) .

وقد روى له شعرا كثيرا يفهم حرنا وحرارة ، ويقطر لوعة وأسى ..
ومن ذلك قوله يندب حظاء ويَحْتَلُّ الدهر مسئولية تماسه :

إِنَّ أَصْحَتَ هَمِي فِي الْأَفْئِقِ عَالِيَةً
فَإِنْ حَقَلَسِي يَهْطُنِ الْأَرْضُ مُلْتَمِيقُ
كم يفعل الدهر بي مالا أتربسه
وكم يُعَيِّسُ زَمَانُ جَائِرٍ حَنِيقُ
كم نفخة لى على الأيام من ضَجِيرِ
تَكَادُ مِنْ حَرِّهَا الْأَيَّامُ تَحْتَرِقُ (٢)

وقوله في موضع آخر :
جَارَ الزَّمَانُ عَلَيْنَا فِي تَصَرُّفِهِ
وَأَيُّ دَهْرٍ عَلَى الْأَحْرَارِ لَمْ يَجْرِ
عِنْدِي مِنَ الدَّهْرِ مَا لَوْ أَنَّ أَيْتَرَهُ
يُلْقِي عَلَى الْفَلَكَ الدَّوَارَ لَسَمَّ يَدْرُ (٣)

.....

ولقد كان ابن لنكك يرى عن قصد أو عن جهل أن الزمن هو السبب
المباشر في تماسه ونحسه نصب عليه جام غضبه وسلد عليه سهام حقد
وهبطه هبطاً مرا كقوله :

-
- (١) البيتة حد ٢ ص ٣٢٠ .
(٢) نفسه حد ٢ ص ٣٢٣ .
(٣) نفسه حد ٢ ص ٣٢٢ .

نَحْنُ وَاللَّهِ فِي زَمَانٍ غُضِّبَ
 لَوْ رَأَيْنَاهُ فِي الْمَنَامِ فَرَعْنَاهُ
 يَصْبِحُ النَّاسُ فِيهِ مِنْ سُوءِ حَالٍ
 حَقٌّ مِنْ مَاتَ مِنْهُمْ أَنْ يَهْنَأَ (١)

...

وفي مقطوعة أخرى يسخر من الزمن وتهيه بالجنون وصفه
 بالجهل والطيش والعمى فيقول :

هَذَا زَمَانٌ أَلْبَسَ الْأَحْمَرَ * تَرَارَ ذَلَالَتَهُنَّ
 لَسْتُ بِعِنْدِي بِزَمَانٍ * إِنَّمَا أَنْتَ زَمَانٌ
 كَيْفَ تَرْجُو مِنْكَ خَيْرًا * وَالْمُلَا فِيكَ مَهَانٌ
 أَجُونُ مَا قَرَأُ * مِنْكَ يَهُدُّوْا أَمْ مُجَانِبٌ (٢)

....

وكما هجا زمانه ، وحقق عليه ، صلب لعنته على الناس جميعا ولم
 يسل من لسانه الوجها ، والشعراء ، والمأمة لأنهم مسئولون جميعا عن بؤسه
 ومأساته وعدم احترامه وتقدير غيره عليه .

ومن ذلك قوله يهجو وجوه بلدته ورواسها وصفهم بالجهل
 والحق وصفهم باللوؤم والذعة ..

لِمَنْتُمْ جَمِيعًا مِنْ وُجُوهِ لَيْلِيَّةٍ
 تَكْفِكُمْ جَهْلٌ وَلَوْمْ فَافْطَلَا

(١) البيت ح ٢ ص ٣٢٢ .

(٢) نفسه ح ٢ ص ٣٢١ .

أَرَأَيْتُمْ تَعْبُدُونَ اللَّاتِ وَالْعِزَّىٰ
أَرَأَيْتُمْ يَتَّخِذُونَ الْآلِهَةَ آلِهَةً (١)

ثم يشرح عليهم ويرد عليهم بفتح الصفات في قوله :
هِيَ الْأَخْرَارُ وَأَنْقَرَضُوا مَسَادًا
وَيَخْلَفَنِي الزَّمَانُ عَلَىٰ عُلُوجِ
وَقَالُوا قَدْ كَرِهْتَ الْبَيْتَ جَدًّا
قُلْتُ لَقَدْ قَائِدَةٌ الْخُرُوجِ
لَمَنِ الْقَىٰ إِذَا أَبْصَرْتُ فِيهِمْ
فَرُودًا رَاكِبِينَ عَلَى السُّرُوجِ
نَهَان مَرْ فِيهِ الْجُودُ حَتَّى
تَمَالَى الْجُودُ فِي أَعْلَى السُّرُوجِ (٢)

....

أما الشعراء فقد كان يرى نفسه أفضل منهم وأحقّ منهم بالرزق الوافر
والحياة الكريمة .. فثار عليهم وهجاهم هجاءً مرّاً خاصة أولئك الذين
أوتوا حظاً من الغنى والنعيم ومعد الصيت كالشعبي وأبي رباح وأبي
الليثاء وغيرهم .

وقد روى له الثعالبى شعراً كثيراً في هجاء هؤلاء وغيرهم من
شعراء عصره ..
كقوله عن الشعبي :

(١) البيهقي ج ١ ص ٣٢٤ .

(٢) نفسه ج ٢ ص ٣٢٣ .

قَوْلَا لَا أَهْلَ زَمَانٍ لَا خَلْقَ لَهُنَّ
 ضَلُّوا عَنِ الرَّشِيدِ مِنْ جَهْلِ بِهِمْ وَعَمُوا
 أَعْطَيْنَاهُمُ الْمُتَنَبِّئِينَ فَوْقَ مُنْتَبِئِهِ
 فَزُوجُوهُ يُرَغِّمُ أُنْهَاتِكُمْ
 لَكِنَّ بَغْدَادَ جَدَّ النَّبِيِّتْ مَآكِبَهَا
 نَعَالُهُمْ فِي قَفَا السَّقَا تَزْدَحِيمُ (١)

...

أما هجوه لابي ريش وابي اللهدام والرملي وغيرهم فهو هجاء
 فاحش قبيح يمدد القلم عن كتابته واللسان عن روايته ..

ولم يعلم من لسانه أحد حتى العامة والسوقة فقال فيهم :
 لَا تَخَذَعَكَ اللَّحَى وَلَا الصُّمُورُ
 ثَمَّةَ أَغْشَارٍ مَنْ تَرَى بِقَرَرٍ
 تَرَاهُمْ كَالسَّحَابِ مُتَشِيرًا
 وَلَيْسَ فِيهِمْ لِطَالِبٍ مَطَرٌ
 فَيَسْجُرُ السُّرُوبُ مِنْهُمْ مَثَلُ
 لَهُ زَوَاهٍ مَا لَيْسَ شَرُّ (٢)

...

ولا شك أن شعور ابن لنكك بالظلم وإحساسه بالمرارة وسوء
 الحظ الذي لازمه .. مع وفور عقله وسعة علمه كانت السبب المباشر في
 نفقته وشورته على الزمان وشبره بأهله نصب جام حقد عليهم جميعا .

(١) نفسه ج ١ ص ١٠٠ .

(٢) نفسه ج ٢ ص ٣٢٣ .

أما ابنه إبراهيم - وكان شاعرا مثله - فقد ورث عنه الفضل
والإخلاق والتعاسة والشمر بالحقد والمرارة .. نصب نغمته على أهل
عصره كابيه ..

وإذا كان ابن لنكك قد زعم أن تسعة أعشار الناس بقر .. فإن
ابنه إبراهيم قد وصل بتلك النسبة إلى نتيجة الطبعية وهي درجة الكمال
فزعم أنهم جميعا بقر .. ودعا إلى الانتفاع بهم في حرث الأرض واستخراج
ما في بطونهم من كنوز مدفونة قال :

لَا تَصْلُحِ الْأَرْضُ وَلَا تَسْتَوِي * إِلَّا بِكُمْ يَا بَقَرِ الْعَالَمِ
مَنْ قَالَ لِلْحَرْثِ خُلِقْتُمْ فَلَسَمَ * يَكْذِبٌ عَلَيْكُمْ . لَا . وَلَمْ يَأْتِ
مَا أَنْتُمْ عَارٌّ عَلَى آدَمَ * لِأَنْكُمْ فُسِرُ بَنِي آدَمَ (١)

* * *

وإذا كان ابن لنكك وابنه قد سخطا على الأوضاع الفاسدة ففى
إقليم العراق فإن لهما نظيرين آخرين فى إقليم فارس فهناك فى أقصى
الشرق من بلاد فارس عرف محمد بن عبد العزيز الطوسى بالبوسوس
والتعاسة والشمر بالظلم والحرمان والاحساس بالفضل والمرارة ..

وقد روى الشعالي له قصيدة طويلة ترمى على أربعمائة بيت فى
وصف حاله وعدم استقراره وثورته على الأوضاع وتنقله فى الدنيا
والهذاهب والصناعات يقول فى مطلعها :

(١) البنية ح ٢ ص ٣٣٣ .

الْحَدُّ لِلَّهِ لَيْسَ لِي بَحْثُ * وَلَا ثِيَابٌ يَضُمُّهَا تَحْتُ
 سَيَّانَ بَيْتِي لِمَنْ تَأَمَّلَهُ * وَالْمَهْمَةُ الصَّحَّانُ وَالْمَرْتُ
 أَمِنْتُ فِي بَيْتِي اللَّصُوصِ فَمَا * لِلَّهِ فِيهِ فَتَوُّقٌ وَلَا تَحْتُ
 فَتَزَلُّ مُخْلِقٌ بِلَا حَرَسٍ * صَغُرَ مِنَ الصَّغْرِ حَيْثَا دُرْتُ
 إِبْرَيْقَى الْكَوْزِ إِنْ غَسَلْتُ يَدِي * وَالطِّينَ سُمْدِي وَدَارِي الطَّسْتُ

.....

ومعد أن صر بؤسه في هذه المقدمة أخذ يتحدث عن سوء طالع
 يذكر تنقله في المذاهب والحرف والبلدان دون جدوى فيقول :

سَلَكْتُ فِي مَذْهَبِ التَّصَوُّفِ تَتْمِيماً
 مَا فُكِّمَ لِلذِّهْنِ بِسُوءِ قَصْرِ
 سَوَّيْتُ سَجْدَةً يَوْمِي وَاحِفَةً
 سَتَّ سِتّاً لَا قَدْ كُنْتُ طَوَّلْتُ
 وَفِي مَقَامِ الْخَلِيلِ قُمْتُ كَمَا
 قَامَ لِأَنْتَى بِهِ تَبَرَّكْتُ
 وَقُلْتُ إِنِّي أَحْرَمْتُ مِنْ بَلَدِي
 وَفِي حَرَامِي إِنْ كُنْتُ أَحْرَمْتُ
 ثُمَّ كُتِبَ الْمَطْوِيُّ حَتَّى يَتَدَبَّرَ
 رَى بَيْنَ الرُّؤُوسِ الْفَسْكَ
 حَتَّى إِذَا رَمَسْتَ عَرَسِي عَلَى
 بَنُوكَ عَمْتُ الْمُنَى وَطَلَقْتُ

وفى منى من التراب فكم
دَرَيْتُهُ مَسْرَةً وَفَرَّ بَلُسْتُ
يا لَيْتَ شِعْرِي لَمَّا بَدَأَ يُقَسِّمُ الْأَرْضَ
زَاقَ فِي آتَى مَطْبُوقِي كُنْتُ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ قَاسِمِ الرِّزْقِ فِي الْخَلْقِ
فِي كَمَا اخْتَارَ لَا كَمَا اخْتَرْتُ (١)
...

ولا شك أن هذه القصيدة كانت تحفة أدبية قيمة وشيقة اجتماعية
طريفة والأبيات التي رواها الثعالبي منها تؤكد ذلك فلا عجب أن يقول
عن صاحبها إنه كان أحد شياطين الإنس ..

وإذا كان هذا الشاعر قد حمد الله مقسم الأرزاق على الرغم من
هويته وتعاونه وسوء حظه فإن لدته أبا الحسن محمدا الأنوفى -
المقيم بأقليم فارس أيضا - قد سخط على الأوضاع ونهرم بالخلع
والخالق والمهاد بالله تعالى وقال قصيدة طويلة تدل على ضعف
إيمانه ورقة دينه ، وتكشف عن وساوسه وشكوكه .

وهو يعلن فيها أنه سوف لا يصلح لله أبدا ما دام فقيرا لا يملك
فقر من الأرض .. فإن وسع الله عليه في الرزق وأصبح غنيا فلا بأس
أن يصلح ويتوب وكان الفقر وسوء الحال كانا سببا في فساد عقيدته

(١) البيتة ح ٣ ص ٣٩٠ .

وسوء أدبه وهي قصيدة كلها ثورة وتبرد • ولولا •• دلالتها
الاجتماعية لما ذكرتها في هذا المقام ••

يقول فيها — وأستغفر الله من كتابتها :

تَلُومُ عَلَى تَرْكِ الصَّلَاةِ حَلِيمَتِي
قُلْتُ أَغْرَى عَنْ نَظَرِي أَنْتِ طَالِقُ
فَوَاللَّهِ لَا صَلَّيْتُ لِلَّهِ مُطِيعًا
يَصِلُنِي لَهُ الشَّيْخُ الْجَلِيلُ وَفَائِقُ
وَنَاشُ وَكَشَاشُ وَكَهْشَاشُ بِمَدِّهِ
وَنَصْرُ بْنُ مَلِكٍ وَالشَّيْخُ الْبَطَارِقُ
وَصَاحِبُ جَيْشِ الْمَشْرِقِينَ الَّذِي لَهُ
سَرَادِيبُ مَالٍ حَشَوَهَا مُضَاهِيَقُ
وَلَا عَجَبَ إِنْ كَانَ نُوحٌ مُصَلِّيًا
لَأَنَّ لَهُ قَسْرًا تَدِينُ الْفَارِقُ
لِمَاذَا أَصَلَّى ؟ أَتَيْنَ بَايَ وَتَزَلِي
وَأَيْنَ خِيُولِي وَالْحُلَى وَالنَّاطِقُ
وَأَيْنَ تَعْمِيدِي كَالْبَدْرِ وَجُوهُهُمْ
وَأَيْنَ جَوَارِي الْحِمَانِ الْعَوَاتِقُ
أَصْلِي وَلَا فِتْرَ مِنَ الْأَرْضِ يَحْضِبُونِي
عَلَيْهِ يَمِينِي إِنَّمَا لَنَا فَيْقُ
تَرَكْتُ صَلَاتِي لِلَّذِينَ ذَبَرْتَهُمْ
فَنَنْ كَاطَ فَعَلِي فَهُوَ أَحَقُّ مَا يَفِيَقُ

يَمْحُى إِنَّ طَلَّ اللَّهُ وَسَّعَ لَمْ أَرَلْ
أُصَلِّيَ لَهُ مَا لَاحَ فِي الْجَوِّ بَارِقُ
فَإِنَّ صَلَاةَ السَّيِّءِ الْحَالِ كُلِّهَا
مَخَارِقُ لَيْسَتْ تَحْتَهُنَّ حَقَائِقُ (١)
.....

ومهما يكن من أمر فقد كان للظلم الاجتماعى والثغرات الطبقيّة
وقدان المدالة الاجتماعية وسوء توزيع الدخل أثرهما المباشر فى ظهور
أدب الحرمان الذى يصور جانبها هاما من جوانب الحياة الاجتماعية فى
أقليم فارس والمراق فى هذا العصر ..

(تم بحمد الله)

(١) الهتمة ج ٤ ص ١٤٦ .

:: الخاتمة ::

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . أحمد . - تعالى - على ما أولانى من جميل آلائه . وأشكر . على ما واتانى من جزيل نعمائه . وأصلى وأسلم على أكرم خلقه . وخاتم رسله . وأمينه على وحيه . وعلى آله وصحبه . ومن سار على دربهم ، إلى يوم الدين " محمد .

فهذه دراسة للحالة الاجتماعية فى العراق وفارس فى القسرين الرابع الهجرى وأثرها فى أدب اليتيم للشمالي " أتقدم بها إلى كل هيئة اللغة العربية المريقة ، سائلا المولى - جل وعلا - أن تحظى بالقبول لدى أعضاء اللجنة الموقرة .

ولقد كان من أسباب اختياري لهذا الموضوع ، أن دراسة الحالة الاجتماعية لآية بيته أو مجمع تدكس بصورة واضحة مدى نهضة هذه البيئة أو ذلك المجمع . ولهذا عدت إلى دراسة الحالة الاجتماعية فى القرن الرابع لأن هذه الحقبة من أزهى عصور الدولة المباسية ، وأكثرها حضارة غير أننى اقتصر على إقليم العراق وفارس لأنهما كانا يمثلان قلب الدولة المباسية فى ذلك العصر .

ولقد قمت من خلال تلك الدراسة بتسجيل الوقائع ، والظواهر الاجتماعية تسجيلاً شاملاً . . حتى أتمكن من إعطاء صورة واضحة عن طبيعة هذين الإقليمين فى القرن الرابع . .

ولما كان الأدب في جلته ^{ثُمَّ} ظلَّ لأحوال المجتمع في أمة
بيئة أو عصر تعرفت إلى أثر الحياة الاجتماعية في هذين الإقليمين على أدب
" البتية " لأنها تمثل أدب القرن الرابع الهجري كما أثبت ذلك في دراستي
لها ..

ولقد سرت في تلك الدراسة على خطة منهجية واضحة حيث قسمت
الموضوع إلى أربعة أبواب رئيسة ، يشتمل كل باب منها على خمسة فصول
فتمت فصول هذا البحث عشرين فصلا ..

وقد تحدثت في الباب الأول عن " المجتمعين المراتقي والفارسي
في القرن الرابع " وقسمت حديثي فيه إلى خمسة فصول ..

الفصل الأول : أغردته للمناصر البشرية التي يتألف منها المجتمع
المراتقي الفارسي - آنذاك - تلك العناصر التي تكونت من استتراج
العرب والفرس والترك والرقيق ، تحدثت عن الصراع بين هذه العناصر
من أجل النفوذ والسلطة والسيطرة على الخلفاء ، وذكرت جانبها من
الحروب والصراعات التي قامت بينها ، والتي كانت سببا مباشرا في
إرهاق الدولة ، واستنزاف مواردها الاقتصادية ، ثم بينت أثر هذه
العناصر في الحياة الاجتماعية وتوصلت من وراء ذلك إلى نتيجة هامة :
هي " أن العرب كانوا مغلوبين على أمرهم في هذه البلاد ، ولكنهم
على الرغم من ذلك ظلوا محافظين على عاداتهم وتقاليدهم ، وقفوا
موقفا معاديا للفساد ، والزندقة ، والإلحاد ، والشموية التي كانت
تشكل خطرا كبيرا على العرب والمسلمين .

أما الفرس فقد كان لهم تأثير فعال في الحياة الاجتماعية تجلى في بناء القصور ، والمساجد وزخرفتها بفاخر الأثاث والرياش ، كما تجلى في إحياء مجالس الطرب والفناء ، وفي تنوع أدوات الطعام والشراب وفي تلمين ملابس الرجال والنساء وفي إحياء بعض العادات الفارسية الدارسة ، وكان للترك تأثير سيء في الحياة الاجتماعية حيث كثرت في عهدهم الفوضى ، والاضطرابات ، ومصادرة الأموال ، والمهث بمصالح الرعيمة ..

أما الرقيق فكان أثره لا يقل سوءاً عن أثر الترك ، فقد أدى التوسع في اقتناء الجوارى إلى انتشار الفساد في المجتمع ، وضمف الثقة بين الأزواج ، حيث عرفت بعض الجوارى بالخلاعة والمجون ، والانحراف عن تعاليم الإسلام ، ومبادئ القيمة ..

وسبب اقتناء الخلمان ، وانتشارهم ظهر لون جديد في الأدب العربي لم يكن معروفاً من قبل وهو الغزل بالمذكر

وأفردت الفصل الثاني للحديث عن " الطبقات الاجتماعية " وذكرت أن المجتمع في ذلك الحين كان ينقسم إلى طبقتين جدد متباينتين : إحداهما تحيا في ترف وندخ ، ولهو ولعب ، وهي طبقة الحكام من خلفاء ، وأمراء ، ووزراء ..

على حين تدهش الأخرى في فقر مدقع ، وبؤس شديد ، وهى
طبقة المحكومين من تجار ، وصناع ، وزراع ، وعضو العلماء والأدباء

ولقد كان لهذا التفاوت الطبقي أسوأ الأثر في الحياة الاجتماعية
فقد غم الجهل والمرض ، وانتشر الفقر والبؤس ، وشاعت الفوضى والفساد
وراج السحر والدجل والسمومة بين أفراد الطبقات الدنيا في المجتمع
أما الأغنياء فقد شاع بينهم الانحلال والفساد ، وكثر الفسق والمجون
بسبب الترف الفاحش والفراغ القاتل ، والقلق الميت ..

وبالإضافة الى هذه الآثار الاجتماعية الضارة كان لترف الحكام
بعض الآثار الحضارية النافعة مثل : الآثار من بناء المساجد والقصور ،
والتفنن في صناعة الخز والديباج ، والبراعة في عمل الزرابي والسجاد ،
والنقش على الذهب والفضة وذلك كله يمتدّ مظهرًا من مظاهر التقدم والرقى
في ذلك العصر .

* * *

وفي الفصل الثالث تحدثت عن الطوائف الدينية في فارس والمصر
وهي : الشيعة ، وأهل السنة ، وأهل الذمة ، والصائبة .

فكلمت بالتفصيل عن الشيعة ، وأهل السنة وصورت جانبًا من
الصراع المذهبي بينهما في القرن الرابع وبينت أثره في الحياتين الاجتماعية
والاقتصادية .

ثم تحدثت عن أهل الذمة من اليهود والنصارى ، وذكرت أنهم كانوا يتمتعون بكثير من صروب التسامح الدينى فى ظل الإسلام ، كما كانت تربطهم بالمسلمين أوثق الروابط الاجتماعية فى القرن الرابع .

وكان لديارات النصارى المنتشرة فى فارس والعراق أسوأ الأثر فى حياة المجتمع حيث كانت مقصدا لأهل البطالة ، ووطنا لذوى الخلاعة . وصاروا لأرباب الفسق والمجون بما كان يوجد فيها من خمور معتقة وجوار حسان ، وظلمان مخنثين . .

أما الصابئة فقد عاملهم المسلمون كأهل الذمة ، وأعطوهم الأمان كأهل الكتاب ، ولم يكن لهم نشاط ملحوظ كاليهود والنصارى ، وذلك راجع إلى قلة عددهم من ناحية ، وإلى سريه تعاليمهم من ناحية أخرى . .

* * *

وفى الفصل الرابع تحدثت عن " الأعياد والمواسم والمواكب " فتكلمت بإسهاب عن أعياد المسلمين ومواكبهم ، وأعياد الفرس ومواسمهم وأعياد أهل الذمة ودياراتهم ، وبينت أثر ذلك كله فى الحياة الاجتماعية وانتهيت إلى نتائج هامة أجعلها فيما يلى :

أولا : كان لهذه الاحتفالات المتجددة على مدار السنة آثار اقتصادية ضارة حيث كانت تنفق فيها أموال طائلة يتحمل عبئها الطبقات الكادحة مما أدى إلى انتشار الهوس والتخلف فى المجتمع . .

ثانيا : وإلى جانب ذلك كان لهذه الاعياد والمواسم بعض الآثار
الحضارية النافمة .

ذلك أن التقاء المسلمين في شتى المناسبات كان له أثر واضح
في تعارفهم واتحادهم ، كما كان للصدقات — التي كان الأغنياء ينفقونها
على فقراء المسلمين طوال شهر رمضان المبارك وكثرة لحوم الأضاحي
التي كانوا يوزعونها على المساكين في عيد الأضحي — أكبر الأثر في
اسعاد هذه الطبقات الكادحة وتخفيف حدة الفقر لديهم وفضلا عن ذلك
كان لإشراف الحكومة المركزية في بغداد على مكعب الحاج أثره في
تمظيم حرمان الله ، وإحلال الأمن في ربوع البلاد والمحافظة على
هبة المسلمين ورفع شأنهم بين الأمم .

وأما الفصل الخامس فقد تحدث فيه عن الفناء والموسيقى ، وذكرت
أطوارها التاريخية عند العرب منذ الجاهلية وحتى العصر المباسسي
ثم تحدث عن الفناء في العصر المباسي وشرحت أسباب رقيه وازدهاره
وهمت أثر ذلك في الحياة الاجتماعية ، وتوصلت من وراء ذلك إلى أن انتشار
الفناء بين المجتمع المباسي كان له أسوأ الأثر على الأخلاق العامة
حيث كانت الجوارى المننيات يظهرن أمام الرجال ، ويغنين غالبا بشعر
ماجن خليج ما أشاع الفسوق والانحلال في المجتمع كما كان لهذه الموجة

من الفناء آثار سيئة على الخلفاء أنفسهم حيث كانوا ينصرفون إلى عالم
اللهو والطرب ، ويتركون أمور الرعية لغيرهم فضاقت مكانتهم ، وتضعف
نفوذهم وخضعوا لسيطرة الموالى من الترك والفرس ..

وإلى جانب ذلك كان للفناء والموسيقى أثر لا ينكر في الفاظ الشعر
ومعانيه ، وأوزانه وموسيقاه ..

* * *

أما الباب الثانى فقد خصصته للحديث عن " أبى منصور
الشمالي وكتابه اليتيمة " وقسمته إلى خمسة فصول على نحو ما فعلت في
الباب الأول ..

وقد تحدثت في الفصل الأول منه عن " نشأة الشمالي وأخلاقه
ومكانته بين أدباء عصره " وذكرت أنه ولد في مدينة نهمابور سنة خمسين
وثلاثمائة بعد الهجرة باتفاق المؤرخين .. وتكلمت عن أسرته ، وصانعيها
ومكانتها الاجتماعية ، ورجحت بالأدلة أنها كانت أسرة فارسية معربة ،
ثم تحدثت عن حياة الشمالي الأولى وتنقله في الحرف والأعمال ، وأقباله
على طلب العلم والدراسة كما تحدثت عن صفاته وأخلاقه ، وأمانته العلمية
ومكانته الأدبية ثم سردت آراء المؤرخين في تاريخ وفاته ورجحت أنها
كانت سنة تسع وعشرين وأربعمائة بعد الهجرة وذلك عكس ما ذهب إليه
كثير من المؤرخين من أن وفاته كانت سنة ثلاثين وأربعمائة هجرية .

* * *

وفي الفصل الثاني تحدثت عن "ثقافته ومولفاته" فتكلمت عن مصادر إلهامه ، وأساتذته ، وبينت أثر ذلك في تكوينه العلمي ، وتنوع ثقافته .

ثم تعرضت لأثاره ومولفاته ، واستطعت أن أجمع أسماها من بطون الكتب ، وأمهات المراجع ، وهي كثيرة ومتنوعة تهو على المائة وقد أشرت إلى أن معظم هذه النقائص قد ضاع مع الزمن وأصبح أثرا بعد عين والذي سلم منها يشهد للرجل بالتفوق ، والنهوض وقد بينت أن بعض كتبه التي نشرت مستقلة ، هي في حقيقة الأمر أجزاء من كتبه الكبيرة ، كما ذكرت أن بعض كتبه قد ذكرت مكررة بأسما مختلفة لسمى واحد ، وأوضحت أن بعض المؤرخين قد نسبوا لأبي منصور كتبا ليست له ، ومضهم قد نسب بعض كتبه إلى غيره ، وقد بينت ذلك كله بالتفصيل والدراسة المدعومة بالبراهين .

* * *

أما الفصل الثالث فقد تحدثت فيه عن "التهمة" وذكرت السبب في هذه التسمية ، ورجحت أن يكون الثعالبي قصد من وراء ذلك إلى أن كتابه كالدرة الهمية التي تميزت بكثير من الخصائص والصفات فهو فريد في باب لا نظير له في كتب الأدب والتراجم .

وقمت بعد ذلك بالتمريف بها ، وبيان نوعها ، وأثبتت بالأدلة أنها كتاب : أدب ، ونقد ، وتراجم ، وتاريخ ، وحضارة . . وبينت

الغرض من تأليفها وهو : حرص الثمالي على تدوين محاسن أهل عصره
في ديوان يخلد آثارهم ويحفظها من الضياع . .

ثم تكلمت عن منهجه فيها ، وخصائصه ، وبينت أنه منهج مستقيم
في جلته حيث قسم الشعراء على أساس الأقاليم بل على أساس المبدأ
إيماناً منه بأثر البيئة في النتاج الأدبي ، وذلك كان أول من طبق
نظرية الاقليمية في الادب تطبيقاً عملياً ، وإن كان الصواب قد جابهه في
بعض الأحيان حينما وضع شعراء الشام ومصر ، والمغرب ، والاندلس في
باب واحد مع اختلاف البيئات ، وتباعد الأقاليم .

وقد تحدثت في الفصل الرابع عن أمرين يتعلقان " باليتيمة " :

- أحدهما : مدى تمثيل اليتيمة لأدب القرن الرابع الهجري .
- وثانيهما : تأثيرها بالمؤلفات السابقة ، وأثرها في اللاحقة .

وذكرت فيها يتعلق بالامر الأول أن أبا منصور استطاع أن يترجم في
يتيمته لخمسة وثلاثين وأربعمئة شاعر وكاتب من أنحاء العالم الإسلامي .
— آنذاك — وأن يخلد تاريخهم ، ويحفظ آثارهم من الضياع كما أشرت
إلى أن دواوين الشعراء التي وصلت إلينا من ذلك العصر محدودة جداً
ومعظم الشعراء الذين خلدهم الثمالي في يتيمته لم تنصنا دواوينهم
ولولا اليتيمة لما عرفنا شيئاً عنهم ، ولما سمعنا حتى عن أسمائهم ، ونسأ
على ذلك خرجت بنتيجة اطمأن إليها قلبي واستراح لها فؤادي وهي :

أن اليتيمة تمثل أدب القرن الرابع الهجرى وأنها تعد صورة صادقة
للحياة الأدبية والاجتماعية فى ذلك العصر .

* * *

أما فيما يتعلق بالأمر الثانى من هذا الفصل فقد ذكرت أن
الممالى ليس مبتكرا لهذه الطريقة فى التأليف . وهى التى تمنى بأديب
عصر من العصور ، وتدوين آثارهم ، فقد سبقه إلى ذلك بعض المؤلفين
فى هذا الفن أمثال : محمد بن سلام الجصحنى فى كتابه " طبقات
الشمر " وابن قتيبة فى كتابه " الشمر والشمر " وهارون بن على
النجم فى كتابه " البارع فى أخبار الشمر " ، وعبد الله بن المعتز فى
كتاب " طبقات الشمر " المحدثين .

أما الكتب التى ألفت بعد اليتيمة وتأثرت بها وحذت حذوها
فأهمها ما يلى :

- ١ — دمية القصر ، وعصرة أهل المصر " لأبى الحسن الباهرزى المتوفى
سنة ٤٦٧ هـ .
- ٢ — " وشاح الدمية " لأبى الحسن على بن زيد البيهقى المتوفى سنة
٥٦٨ هـ .
- ٣ — " زينة الدهر ، فى لطائف شمر " المصر " لأبى الممالى محمد
ابن على الخطيرى المتوفى سنة ٥٦٨ هـ .

٤ - " خريدة القصر " وجريدة أهل مصر " للحماد الكاتب الاصفهاني
المتوفى سنة ٥٩٢ .

وما زالت هذه السلسلة تتوالى على مر العصور ، وتماقب السنين
حتى نهاية القرن الثالث عشر للهجرة . . أما القرن الرابع عشر الذي فيه
فلم يؤلف فيه كتاب على غرار السلسلة السابقة وظاية ما ألف فيه : مجاميع
اقتصرت على شمراة قطر واحد قلما تتعداه إلى قطر سواه .

وأما الفصل الخامس قد خصصته ، لآراء النقاد في اليتيمة ،
وذكرت أن النقاد القدامى منذ عصر الثعالبي وحتى مطلع القرن الرابع عشر
بعمد الهجرة - الذي نحن فيه - قد أجمعوا على أن كتاب اليتيمة
أكبر كتب الثعالبي حجما ، وأجلها قدرا ، وأعظمها نفعا وأشادوا بها
إشادة بالغة فهي التي أتاحت لصاحبها هذه الشهرة الواسعة ، وجعلت
حديثه سر الأدياء على مر العصور .

أما نقادنا المحدثون الذين تعرضوا لكتاب اليتيمة بالدراسة
والتحليل فقد كانوا أكثر موضوعية من السابقين . فأظهروا آراءهم فيها
بكل وضوح . . . وساتعرض هنا لسرد آرائهم بإيجاز ثم أتوم بمناقشتها
والرد عليها :

ومن أشهرهم الدكتور : زكي مبارك في كتابه " النثر الفني في
القرن الرابع الهجري . . . " قد أثنى على الثعالبي في اليتيمة ثناء عظما . .

ولكنه أخذ عليه فيها : الإسراف في إطراء من يشدث عنهم —
الشعراء والكتاب ، واغفاله لتواريخ الوفيات ..

وقد قمت بمناقشة هذا الرأي والرد عليه فذكرت أن سبب اطرائه
للأدباء يرجع إلى شخصية الثعالبي وطبيعة تكوينه فقد كان الرجل شديد
التواضع ، عظيم الحياء . كثير المجاملة وعلى الرغم من ذلك كان حريصا
على إيضاح خصائص من يترجم لهم من الأدباء — مع اطرائه لهم —
وأما اغفاله للوفيات أحيانا — فقد كان الرجل يركز على المختارات
الأدبية الجيدة قبل أن يركز على تفاصيل حياة المترجم لهم وكان ينظر إلى
الهيئة على أنها كتاب أدب لا كتاب تاريخ ..

أما الدكتور : طه حسين في تقديمه لكتاب " الذخيرة " لابن
بسام فقد عقد موازنة بين ابن بسام والثعالبي .. واعترف بفضل الثعالبي
على ابن بسام في المنهج والطريقة والأسلوب .. ولكنه بعد ذلك
تحامل على الثعالبي وفضل عليه ابن بسام لانه — أي ابن بسام — كان
أفقه من الثعالبي بالحياة الأدبية في إقليم من الأقاليم وما ينتج فيه من
أدب فهو قد لاحظ مجاورة المسلمين في الأندلس لأعدائهم من الفرنجة
وتأثير هذا الجوار فيما كان للمسلمين من شعر ونثر .

ونعى الدكتور طه : أن الثعالبي كان أسبق من ابن بسام في
هذا الأمر .. والدليل على ذلك تفضيله لشعراء الشام على شعراء
المراق لقرب أهل الشام من خطط العرب وسلامة ألسنتهم من الفساد
المازى لآلسنة أهل المراق لمجاورة الفرس والنبط .. فهو قد فطن إلى

ما كان من اختلاط أهل العراق بالمجم وأثر ذلك في نتاجهم الأدبي
وما كان ابن بسام إلا مقلدا له في تلك الناحية ..

ومعيب الأستاذ : أحمد أمين على الشمالي " في ظهرا الإسلام " .
احتفاله بالهدية اللفظي أكثر من عنايته بالتحليل النفسي .

وليت شعري كيف يدالب الأستاذ أحمد أمين الشمالي في القرن
الرابع الهجري أن يتبع منهج التحليل النفسي في دراسته للشخصيات
الأدبية مع أن هذا المنهج الفلسفي لم يعرف إلا في العصر الحديث .

وصى الأستاذ : الصاوي في تقديمه للتيمة أن الشمالي نفس
مختاراته الشعرية قد أغرط كثيرا في الفحش والمجون .

وأنا وإن كنت أعتقد أن الشمالي قد أغرط حقيقة في هذا الأمر
كما يقول الأستاذ : الصاوي أرى أنه كان ناقلا أميناً لتراث عصره ،
وسجلا صادقا لظواهره الاجتماعية ولو أنه أغفل المجون كما فعل غيره من
كتاب عصره لكان كتابه ناقصا بهتورا لا يمثل عصره أصدق تمثيل ..

أما شيخنا المرحوم الشيخ محي الدين عبد الحميد في تقديمه
للتيمة أيضا فمعيب على الشمالي : العصبية لشعراء الشام وتفضيلهم على
سائر شعراء الأقاليم ، والعصبية للشعراء من الملوك والحكام ، والثناء
عليهم أوغر الثناء ..

وأنا • أعتقد أن الثعالبى كان محققا فى تفضيله شعراء الشام
على غيرهم لأنهم حافظوا على طريقة العرب القدامى فى نثر الشعر من
الجزالة فى الأسلوب والفخامة فى التركيب والحمد عن الفحش والمجون
والإشادة بالبطولة فى الحروب والمحافظة على الوزن والقافية ••

وأما عصيته للشعراء من الحكام فلنا مع أستاذنا الشيخ محى الدين
فى أن هذا عيب كبير لأن الثعالبى قد أفرط فى مجاملتهم ومدهحهم
والثناء عليهم أوفر الثناء •

والكتاب بعد ذلك كله يعد أفضل مصدر لدراسة الحالة الاجتماعية
والأدبية فى القرن الرابع الهجرى • ولا يقاربه فى هذه الناحية أثر أدبى
آخر ••

وفى الباب الثالث تحدثت عن • آثار الاجناس البشرية • والطوائف
الدينية فى أدب اليتيمة •• وقسمته إلى خمسة فصول على غرار ما فعلت فى
الباين الأول والثانى ••

وقد أفردت الفصل الاول منه للحديث عن • الروح الفارسية وأثرها •
فى أدب اليتيمة •• فتكلمت عن الفرس من بنى بويه • واستيلائهم على فارس
والمراق فى القرن الرابع • وصورت جانباً من استبدادهم وطفيانهم •
وسيطرتهم على الخلطاء • وتحاولهم على العرب • عاداتهم وتقاليدهم

ونشرهم الطقوس الفارسية الدارسة ، وصنفهم المجمع بصفة فارسية
خالصة . .

ثم بينت أثر ذلك كله في أدب تلك الحقبة وتصلت إلى أن
الدارس لكتاب " اليتيمة " الذي ألف في ذلك العصر يلمس فيه أثر الروح
الفارسية بكل الوضوح .

يلمس في هذا الملق المبالغ فيه في شعر المديح والثناء ويجد
في هذا الفلو الفاحش في تمجيد الملوك وتقديس الحكام وفي الاكثار من
شعر التهنئة بالأعياد الفارسية كالنيروز والمهرجان ويحس به في هذه
الكثرة الهائلة من الألفاظ الفارسية التي انتشرت في شعر اليتيمة .

وشعر به أخيرا في هذه الأمثال الفارسية المعربة التي تمير عن
أفكار الفرس ، وتصور نفسياتهم وأخلاقهم أصدق تصوير .

وتحدثت في الفصل الثاني عن " أثر الحياة العربية في أدب
اليتيمة " وذكرت أن بعض العرب الذين عاشوا في العراق وفارس آنذاك
قد تمردوا على الفرس ، وتبرموا بماداتهم ، وتقاليدهم ، وتمسكوا
بمروءتهم وتحصروا لبني جنسهم ، ورفضوا في اصرار هذه الحياة الناعمة
الماجنة في ظل السيطرة الفارسية . .

ومن هؤلاء الثائرين شاعر عربي غير هو أبو الحسن محمد بن
الحسين الموسوي الملقب بالشريف الرضي الذي عاش في بغداد في القرن

الرابح الهجوى وآله ما صار اليه أمر العرب في تلك البلاد على أيدي
الفرس ، فراح يعتز بمرسته ، ويتغنى بمآثر آبائه وأجداده ، وشيئ
بما كان لهم من عزة ومجدة ..

وقد تجلت الروح العربية عند الشريف في ضيقه بالحياة البغدادية
وتبرمه بالسيطرة الفارسية ، وارتسمت على صفح شعره في التهنية لوالده
بالاعهاد الإسلامية ، وفي شكوى الدهر ، والتمرد على الأوضاع القائمة ..

وكان شعره في أكثر أغراضه يعبر عما يجيش في صدر العرب من
آلام وأحزان ، وما يخلج في نفوسهم من آمال وأحلام ..

ولم يكن الشريف الرضى — وحده — هو الشاعر الذي يعبر عن
الروح العربية في هذه البلاد .. وإنما كان مثله في ذلك أخوه أبو
القاسم علي بن الحسين الملقب بالشريف المرتضى الذي كان كأخيه الرضى
يشمر بالغيرة في المجمع السراقي ، وحين دأبوا إلى منبت الآباء
والأجداد في الجزيرة ، وتحرق شوقا إلى مواطنهم الغالية وكان كأخيه
الرضى يحشق البدويات ويشبب بهن في شعره ، ويفضلهن على المراقيات
والفارسيات اللاتي أصدتهن الحضارة وسيطرت عليهن الروح الفارسية ..
وعبر عن ذلك كله في شعره أصدق تعبير .

وإذا ما تركنا إقليم المراق وذهبنا إلى فارس وجدنا هناك في
أقصى الشرق .. أديبا عربيا مسلما تصدى بقلمه للدفاع عن المروية
والسخرية من عادات الفرس وتقاليدهم ذلكم الأديب هو بديع الزمان

المهمداني . . . الذي كتب رسالة طويلة في معنى " السَّدَقُ " نقلها
الشعالب في اليتيمة وقد جاء فيها :

" إن عهد القود لميد إفك ، وإن شعار النار لشعار شرك ،
وما أنزل الله " بالسَّدَقُ " سلطاناً ، ولا شرف تَبْرُوزاً ولا مَهْرَجَاناً وإنما
صب الله سيوف الحرب على رؤوس الصَّحْم لما كره من أديانها ، وصُفِط
من نيرانها ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم حين مقت أفعالهم (١) "

وهما يكن من شئ " قد كانت هذه الأصوات الحرة الثائرة .
صدى للثورة العربية المضادة للروح الفارسية التي سيطرت على
المجتمعين العراقي والفارسي آنذاك وكانت تصفه بصفة فارسية
خالصة . .

* * *

أما الفصل الثالث فقد تحدث فيه عن " الرقيق وآثاره في أدب
اليتيمة " فتكلمت بالتفصيل عن الرقيق وتجارته وأنواعه ، وأعماله ، وتهاغت
الناس على شرائه ، وأثره في الحياة الاجتماعية والسياسية .

ثم بينت أثره في أدب اليتيمة ، وذكرت أن ذلك الأثر قد تجلّى في
كثرة المقطوعات الشعرية التي قيلت في وصف الجوارى ، والتغنى بجمالهن
والتغزل فيهن غزلاً عفيفاً وغير عفيف . .

(١) اليتيمة (٢٤ ، ٢٥)

ثم تعرضت لظاهرة الغزل بالذكر . فحدثت عن أصل هذا الداء ،
وبينت أسبابه . . . وموقف الشعراء منه منذ عصر أبي نواس ، وحتى القرن
الرابع وتوصلت إلى أمر هام وهو أن الغزل بالذكر يكثر كثيرا في اليتيمة
مع أن معظم المقطوعات الشعرية التي تحمل سمات الغزل بالذكر من
حيث الشكل هي في حقيقة الأمر ليست منه ، ذلك أن ضمائر الذكر
أبهر وأخف من ضمائر المؤنث ، وليس بعيد أن يكون هؤلاء الشعراء
قد استخدموا ضمائر الذكر مع أنهم في الواقع كانوا يوجهون شعرهم إلى
محبوبات لا إلى محشوقين ، وتلك عادة قديمة في الشعر العربي فقد كان
الشعراء قديما يذكرون ليلي وسلمى وسعدى وزينب وغيرهن من الأسماء
الطيمة في موازين الشعر العربي ، وإن كانوا يقصدون أشخاصا غيرهن .

وقديما قال الهمذاني :

وَسَمَّيْتَهَا مِنْ خَشْيَةِ النَّاسِ زَيْنَبًا

وَكَمْ سَتَرْتُ حُبًّا عَنِ النَّاسِ زَيْنَبُ

ثم قمت بتقسيم الشعراء في ذلك العصر إلى صنفين : صنف كان
ماجنا خليعا ، وهو هؤلاء كانوا يتخللون بالذكر غزلا حقيقيا مقصودا
مصدره الحب ودافعه الانحلال والشذوذ ، ومن هؤلاء الواساني ،
وابن لنكك وابن حجاج ، وابن سكرة ، وغيرهم من ذوي السيرة المخنة . .

وصنف آخر كان يطور هذا الباب من قبيل التقليد والمحاكاة
متخذ منه وسيلة للتصرف في فنون القول وترويض الذهن على الإبداع ،
وكان شعرهم في هذا الباب ضربا من الدعابة والتعليق ، ولونا من ألوان

الترف الفكرى والعقلى .. أكثر منه مفاخرات حقيقية مصدرها العيب
والمجون وهو لا كانوا كثيرين وكان معظمهم من الحكام والعلماء والقضاء
ضربت الأمثلة على ذلك كله من أدب " البيتية " شعرا ونثرا ..

* * *

وأفردت الفصل الرابع للحديث عن " أثر التشيع فى أدب البيتية " .
فحدثت عن جماعة الشيعة فى ذلك العصر ، وعلاقتهم بالحكام من بنى بويه
وصورت جانبها من الصراع المذهبى بينهم وبين أهل السنة ثم تكلمت بالتفصيل
عن أدبائهم فى فارس والمراق أمثال : صاحب والخوارزمى وأبى بكر
الخالدى ، والخزاز البلدى وغيرهم . وضربت الأمثلة على تشييعهم من
أدب البيتية ، وانتهيت من تلك الدراسة إلى النتائج الآتية :

أولا : أن الثمالى قد تجاهل كثيرا من الأدب الشيعى فى عصره
ولم يسجله فى بيتيته حتى بنى بنفسه عن الصراع المذهبى
الذى اشتد أواره فى ذلك العصر بين الشيعة وأهل السنة . خاصة
أنه قضى شطرا من حياته فى ظلال الدولة السامانية وهى سنية ، وشطرا
آخر فى ظلال الدولة الغزنوية وهى سنية كذلك / فكان طبيعيا أن يتجنب
التورط فى مثل هذه المسائل حتى لا يقع تحت طائلة العقاب من حكامه
السنيين .

ثانيا : كان البكاء والتحسر على ما أصاب أهل البيت من محسن
ومصائب على يد بنى أمية وبنى العباس سمة بارزة من سمات
الأدب الشيعى من الناحية الموضوعية .

ثالثا : امتاز الأدب الشيمى بسهولة الألفاظ ، ووضوح المبارات
وسلامة الحجة ، والحمد عن التكلف والغموض ، كما خلا
- أو كاد - من المحسنات الديدمية ، والصور البهائية ، والخيال
المجح .

وذلك راجع إلى صدق الشمو ، وحرارة العاطفة ، والدفاع عن
الحق بالأدلة والبراهين المنطقية .

* * *

وأما الفصل الخامس فقد تحدث فيه عن " أهل الذمة وأثرهم
في أدب " اليتيمة " فكلمت عن اليهود والنصارى في فارس والعراق ،
وكانتهم الاجتماعية وعلاقتهم بالمسلمين ، وبيان أثرهم في أدب اليتيمة ،
وانتهيت إلى النتيجة الآتية :

لقد كان لاختلاط النصارى بالمسلمين في ذلك المصراثر واضح
في أدب اليتيمة فثرت فيها المقطوعات الشعرية ، التي تصور عاداتهم
وتقاليدهم ، أو تصف دياراتهم ومعابدهم ، أو تعكس العلاقات الاجتماعية
بينهم وبين المسلمين ، ولقد ضربت الأمثلة على ذلك من أدب اليتيمة .

أما أثر اليهود في الحياة الاجتماعية والأدبية فقد كان محدودا
إذا قيس بأثر النصارى ، ويندر أن نجد شاعرا عربيا وصف بيومهم
ومعابدهم أو صور عاداتهم وتقاليدهم ، وأغلب الظن أن ذلك راجع

إلى عزلة اليهود وانطوائهم ، وسرية تعاليمهم ، وخوفهم من الناس
والتمالي عليهم ، وذلك عكس ما كان عليه النصارى ..

أما الباب الرابع والآخر فقد تحدثت فيه عن "التفاوت الطبقي
في المجتمع وأثره في أدب اليتيمة" ..

وقمت بتقسيمه إلى خمسة فصول على غرار ما فعلت في الأبواب
الثلاثة السابقة ..

وقد أفردت الفصل الأول منه " لطبقة الحكام وأثرها في الأدب " .
تكلمت بأسهاب عن مراكز الأدب في فارس والعراق - آنذاك - وجهود
الحكام في خدمة الأدب ، وتشجيع الأدباء ، وتوصلت من وراء ذلك إلى
النتائج الآتية :

أولا : لم تعد بغداد في ذلك العصر هي العاصمة الوحيدة التي
تهفو إليها قلوب الأدباء كما كانت عليه طوال القرنين الثاني
والثالث بعد الهجرة ، بل زاحمتها وطفئت عليها عواصم أخرى
كالري ، وشيراز ، ونيسابور .

ثانيا : لقد تناقص الحكام في هذه الحواضر تنافسا عجيبا في تشجيع
الأدباء والحدب عليهم ، ولم يكن مرجع ذلك في رأيي

هو حب العلم للمعلم ، أو اكرام الادباء للادب ذاته ، وانما كان مرجعه
... بالاضافة إلى ذلك - هو : حاجة هؤلاء الحكام إلى الادباء في السلم
والحرب وطمعهم في القصائد الشارقات التي تعلو قلوبهم ، وترفع
شانهم ، وإلى الرسائل الهلينة التي تنوب عن الكنائس في عرك أديب المعاصي
واستصلاح أمره وهذا هو السر في اسناد المناصب الإدارية الكبرى في
فارس والعراق إلى كبار الكتاب ، وفحول الشعراء ، أمثال : ابن السكيت
والصاحب المصلي ، والصابي ، وعبد العزيز بن يوسف وغيرهم .

ثالثا : لقد فتح أمراء بني بويه ووزراؤهم في فارس والعراق قصورهم
للادباء ، وحولوها إلى مراكز للثقافة والمعرفة فأقبل
الادباء عليهم من كل صوب ، وأخذوا يتنافسون في الإجابة
والإبداع ، فازدهرت الحركة الأدبية من أجل ذلك ازدهارا
لم تعرفه هذه البلاد من قبل ولا من بعد ، وكثر عدد الشعراء والكتاب
كثرة بالغة ، يشهد بذلك كتاب " اليتيمة " الذي ألف في ذلك العصر
والذي أرخ لمعظم أدباء تلك الحقبة .

وأفردت الفصل الثاني للحديث عن " ترف الحكام وأثره في أدب
اليتيمة " فحدثت بإسهاب عن هذا الترف ، وبينت صورته ومظاهره ،
وشرحت أسبابه ونتائجه ، واستشهدت على ذلك بأشقة تاريخية وأدبية
ثم تكلمت عن أثر الترف في أدب اليتيمة من حيث الشكل والمضمون ودعمت
ذلك بنصوص شعرية ونثرية لأدباء اليتيمة المترفين .. وتوصلت من وراء
ذلك إلى نتيجة هامة وهي :

أن ترف الحكام في فارس والمراق ، وأنقهم في طعامهم وشرابهم
وسائر أمورهم . قد انعكس أثره في آدابهم ، وظهر بصورة واضحة في
وصف ما يقدم إليهم من ألوان الطعام والشراب ، وأنواع الفاكهة والحلوى
وما تقع عليه أعينهم من مظاهر الحضارة . . . كما كان لذلك الترف في
المعيشة أثره الواضح في التألق في الأسلوب والزخرفة اللفظية ،
والإكثار من الصور البيانية ، والجرح إلى المبالغة .

وأخيرا كان للتكلف في أساليب المعيشة بين الطبقة المترفة أثره
الواضح في رواج أدب الأخريات ، والجوى وراء المظاهر الكاذبة خاضعون
في ذلك لظروف حياتهم الاجتماعية ، ومستجيبين لمؤثراتها ودواعيها

وفي الفصل الثالث تحدث عن الفناء وأثره في أدب اليتيمة ،
فشرحت أسباب رقيه ، وعوامل ازدهاره في فارس ، والمراق وبنيت بإسهاب
آثاره في أدب اليتيمة ، واستشهدت على ذلك بكثير من الأمثلة الشعرية
والنثرية ، وتوصلت من وراء تلك الدراسة إلى نتيجة هامة . وهي : أن
انتشار الفناء وازدهاره في ذلك العصر كان له أثر واضح في أدب اليتيمة
تجلى في وصف مجالي الفناء والطرب وتصوير أدوات الموسيقى وآلاتها ،
والحديث عن المنين والمنيات ، كما تجلى في نمو مقطوعات الشعر
النثائي ، وتمددتها في اليتيمة وفصلا عن ذلك كان له أثره الواضح في
الفاظ الشعر ومعانيه وموسيقاه الداخلية والخارجية ، حيث حرص الشعراء

على اختيار الفاظهم وتنقيتها من الشوائب ، فجاءت غاية في رقة
الأسلوب ، وجمال المبارة وجودة المعنى ، وحنن الجرس ، وروعة
النظم . .

كما عزفوا عن البحور الطويلة التي تصلح للمضبوطات الجادة ،
وهدوا إلى النظم على البحور القصيرة والمجزوءة والمولدة التي تصلح
للغناء ، إرضاءً لاذواق المغنين والمستمعين على حد سواء .

وأفردت الفصل الرابع للحديث عن " المجون وأثره في أدب الهيمية " .
فكلمت عن ظاهرة المجون ، وذكرت أطوارها في المجتمع العربي وبينت
أسبابها ودوافعها ، وعوامل انتشارها في القرن الرابع ، وأوضحت آثارها
الاجتماعية والخلقية .

ثم تحدثت عن أثر المجون في أدب الهيمية ، واستشهدت على ذلك
بالمديد من الأمثلة الشعرية والنثرية . . وقمت بتقسيم المجون إلى
نوعين :

أحدهما : بهاج لا يؤذى الشاعر ، ولا يחדش الحياء ، وهو كثير في
أدب المترفين من الأدباء كابن العميد ، والصاحب ،
والمهلبى . . وهؤلاء كانوا لا يقصدون من وراءه إلا
الدعابة والتسلية ، وتزجية وقت الفراغ .

وأما الآخر : فهو فاحش بذي يندى له الجبين ، وتقشعر منه
الأيذان وهو ذلك الذي يقوم على وصف المورات والسورات

والمناحش والمقادر .. وهذا اللون من المجون اشتهر به شاعران من شعراء العراق في القرن الرابع لم يدانتهما فيه أحد من قبل ولا من بعد وهما : أبو عهد الله الحسين بن أحمد بن حجاج ، وأبو الحسن محمد بن سكرة الهاشمي وقد خرجت من تلك الدراسة بالنتائج الآتية :

أولا : أن التفاوت الطبقي في المجتمع وسوء توزيع الدخل بين الطبقات كان من أهم العوامل التي أدت إلى انتشار المجون واستفحال أمره في المجتمع لان الفراغ القاتل يدفع الأغنياء إلى العبث وكثرة الأموال في أيديهم تجرهم نحو الفساد ، كما أن الفقر المدقع قد ينزل بأصحابه إلى درجة التضحية بالكرامة في سبيل القوت .

ثانيا : لا ينبغي أن نعيب الشعالي على تسجيل تلك النماذج الفاحشة من الشعر والنثر في كتابه لأنه كان ناقلا أميناً لأحداث عصره وسجلا صادقا لظواهره الاجتماعية .. فهو يقرر ما هو كائن لا ما ينبغي أن يكون ..

ثالثا : أن ابن حجاج وابن سكرة حينما جرفهما تيار المجون إنما كانا خاضعين لظروف خارجية ، وعوامل اجتماعية واقتصادية بالإضافة إلى استمداهما الشخصي للخوض في ذلك المستنقع الأسنى .. بدليل انتشار شعرهما لدى الخاصة والعامة ، ورواج ذلك الشعر الداعر في الأوساط الاجتماعية المختلفة أكبر دليل على فساد الأذواق وانحطاط الأخلاق وانحلال المجتمع في ذلك العصر .

وأما الفصل الخامس والأخير فقد تحدثت فيه عن مظاهر القصر
والحرمان وأثرهما في أدب اليتيمة * فتكلمت عن ظاهرة الفقر في المجتمع
ومنت أسبابها ودوافعها وتحدثت عن مظاهرها وانتشارها ، واستشهدت
على ذلك بنصوص تاريخية وأدبية وذكرت أن هذه الظاهرة كان لها
صدى في أدب اليتيمة تجلى في ظهور لؤنين من الأدب يمثلونها أصدق
تمثيل :

- أحدهما : أدب الكدية والاستجداء أو " الأدب الساساني " .
والثاني : أدب البؤس والحرمان والثورة على الأوضاع القائمة .

وسلط الضوء على هذين اللؤنين وضربت عليها العديد من الأمثلة
الشعرية والنثرية * وتوصلت من وراء ذلك إلى النتائج الآتية :

أولا : أن ظهور هذين اللؤنين من الأدب في فارس والمراق كان
صدى مباشرا للتفاوت الطبقي ، والظلم الاجتماعي ، وسوء
توزيع الدخل وفقدان العدالة الاجتماعية بين أفراد
المجتمع .

ثانيا : أن الأدب الساساني الذي ورد ذكره في اليتيمة في الأندلس
المكبرى ، وأبي دلف الخزرجي وابن حجاج ، وابن سكرة
كان ملهما للبديع في عمل مقاماته الشهيرة .

ثالثا : أن قصيدة أبي دلف الخزرجي الرائية المعروفة بالقصيدة
الساسانية تعد وثيقة تاريخية ، واجتماعية على درجة كبيرة من

الأهمية ، لدراسة حياة الشحاذين ، والمتسولين ، ومعرفة
حيلهم ، وأساليبهم وبيان طرائقهم ، ووسائلهم ، فسى
كسب الرزق ، كما أنها تُعَدُّ من أفضل المصادر التى كانت
تلقى الضوء على أحوال العصر الاجتماعية ، ولا يقارنها فسى
هذا الشأن أثر أدبى آخر ..

رابعاً : بعد أن درست شخصية أبى دلف الخزرجى كما صورها
الشعالي فى يتيته ، وشخصية أبى الفتح الإسكندرى كما
رسمها الهذانى فى مقاماته ، وجدت أن الشخصيتين
متطابقتين تطابقاً تاماً ، وتوصلت إلى أن شخصية أبى الفتح
الإسكندرى بطل مقامات الهديج ليست شخصية خيالية كما قرر
ذلك معظم الباحثين ، وإنما هى شخصية حقيقية ، كان لها
دور بارز فى الحياة الاجتماعية والأدبية فى القرن الرابع ،
وهى شخصية أبى دلف الخزرجى صديق الهذانىسى ،
وأستاذه ، واستشهدت على ذلك بالشواهد التى تؤكد
هذا الرأى وتدعمه ..

وقد وجدت بعد هذا الكشف أن الاستاذ الدكتور محمد عبدالمنعم
خفاجى قد وصل إلى هذه الحقيقة .. لكننى لم أطلع على ما كتب الا بعد
ما رأيت .

"محمد" فلقده كان للجهد الجهار الذى بذله فضيلة الاستاذ
الدكتور : محمد السلام سرحان المشرف على هذه الرسالة ، أكبر الأثر فسى
اخراجها على هذه الصورة ..

فلقد عكف فضيلته على مراجعتها مثنى وثلاث ورباع .. وما زال
يخلصها من العيوب ، وينقيها من الشوائب ، ويقومها من الهنات حتى
غدت للعين قرة ، وللنفس مسرة ، فجزاء الله عنى وعن طلابه خير
الجزاء ..

ولا يفوتنى كذلك فى هذا المقام أن أتقدم بحظيم شكرى وامتنانى
للاستاذين الفاضلين أعضاء اللجنة الموقرة :

١ - الأستاذ الدكتور :

٢ - والأستاذ الدكتور :

على قبولهما الاشتراك فى مناقشة هذه الرسالة ، وعلى ما انتقا من
جهد فى قراءتها ، والحكم عليها ..

أسأل الله تعالى أن ينفعنى بأفكارهما السليمة ، وآرائهما
السديدة وتوجيهاتهما الصائبة ..

• وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنهب •

الباحث

رمضان سنة ١٣٩٦ هـ - أغسطس سنة ١٩٧٩ م

المصادر والمراجع

أولا : المراجع العربية القديمة :

- ١ - ابن الاثير : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني الملقب
بـمزد الدين المتوفى سنة ٦٣٠ هـ .
" الكامل في التاريخ " عشرة أجزاء (١٣٤٨ هـ) .
- ٢ - ابن الاثير : ضياء الدين أبو الفتح نصر الله محمد بن محمد الشيباني
" المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر " ط : النهضة
بالفجالة - مصر سنة ١٩٥٧ .
- ٣ - ابن الانباري : أبو البركات محمد الرحمن بن محمد الانباري المتوفى
سنة ٥٧٧ هـ .
" نزهة الالهة ، في طبقات الادباء " ط دار المعارف بمصر .
- ٤ - ابن بسام : أبو الحسن علي بن بسام المتوفى سنة ٥٤٢ هـ .
(الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) ط لجنة التأليف
والترجمة والنشر .
- ٥ - ابن بطلان : أبو الحسن المختار بن الحسن بن محمد بن سعدون
ابن الطبيب البغدادي المتوفى سنة ٤٥٥ هـ .
" شرى الرقيق ، وتقليب المعبد " رسالة حققها عبد السلام
هارون ونشرها ضمن مجموعة رسائل باسم " نوادر المخطوطات
ط : لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٣٧٣ هـ .
١٩٥٤ م .

٦ — ابن تغرى بردى : أبو المحاسن جمال الدين بن تغرى بردى

المتوفى سنة ٨٧٤ هـ

• النجوم الزاهرة فى تاريخ مصر والقاهرة " ط : دار

الكتب المصرية — القاهرة — ١٣٤٨ هـ — ١٩٢٩ م •

٧ — ابن الجراح : محمد بن داود بن الجراح المتوفى سنة ٢١٦ هـ

" الورقة فى أخبار الشعراء " ط : دار المعارف بمصر

تحقيق : عبد الوهاب عزام •

٨ — ابن الجوزى : أبو الفرج عبد الرحمن بن على المتوفى سنة ٥١٧ هـ

١ — " تلييس إبليس " أو " قه العلم والعلماء " إدارة

الطباعة المنيرية — القاهرة •

ب — " ذم الهوى " تحقيق مصطفى عبد الواحد ط :

المعاصرة بمصر سنة ١٣٨١ هـ — ١٩٦٣ م •

ج — " المنتظم فى تاريخ الملوك والامم " ط : دار

المعارف المثمانية •

٩ — ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن على بن حوقل النصيبى المتوفى

سنة ٣٦٢ هـ •

• " صورة الأرض " ط بيروت •

١٠ — ابن خرداذبة : أبى القاسم عبد الله بن عبد الله المتوفى سنة ٣٠٥ هـ

• " المسالك والممالك " ط ليدن سنة ١٣٠٩ هـ •

- ١١- ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر
المتوفى سنة ٦٨١ هـ .
"وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" ط السعادة بمصر
سنة ١٩٤١ تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد .
- ١٢- ابن الطقطقي : محمد بن علي بن طباطبا المتوفى سنة ٧٠٦ هـ
"الفخرى في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية"
ط : المعارف بمصر سنة ١٩٢٣ م وط : الموسوعات بهاب
الشمري بمصر سنة ١٣٠٧ هـ .
- ١٣- ابن عبد ربه : أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي المتوفى
سنة ٣٢٧ هـ .
"المقد الفريد" ط : القاهرة سنة ١٩٤٠ م .
- ١٤- ابن الجوزي : غفرلوس المالطي المتوفى سنة ٦٨٥ هـ
"تاريخ مختصر الدول" ط بيروت ١٩٥٨ م
- ١٥- ابن الصماد : أبو الفلاح عبد الحي بن الصماد الحنبلي المتوفى سنة
١٠٨٩ هـ .
"شذرات الذهب ، في أخبار من ذهب" .
- ١٦- ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ
"الشمر والشمرات" ط ليدن سنة ١٩٠٢ م
- ١٧- ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي
المتوفى سنة ٧٧٤ هـ .
"الهداية والنهاية في التاريخ" مطبعة كردستان مصر .

- ١٨ — ابن المحتر : عبد الله بن المتوكل بن الممتصم بن هارون الرشيد
المتوفى سنة ٢٩٦ هـ .
"طبقات الشعراء" ط دار المعارف بمصر تحقيق : عبد
الستار أحمد فراج .
- ١٩ — ابن النديم : محمد بن اسحاق
"الفهرست" ط الاستقامة بمصر .
- ٢٠ — ابن البهارية : نظام الدين أبو يملى محمد بن أحمد المباسمى
الهاشمى المتوفى سنة ٥٠٤ هـ .
"الصادح والهاغم" تحقيق : عزت المطار — القاهرة
سنة ١٩٣٦ م .
- ٢١ — أبو الفدا : اسماعيل بن علي بن محمد المتوفى سنة ٧٣٢ هـ
"المختصر فى أخبار البشر" ط بيروت .
- ٢٢ — أبو نواس : الحسن بن هانى بن عبد الاول بن الصباح الحكمسى
المتوفى سنة ١٩٨ هـ .
"ديوان أبى نواس" .
- ٢٣ — أبو يوسف : القاضى أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم صاحب أبى حنيفة
"الخراج" ط بولاق بمصر سنة ١٣٠٢ .
- ٢٤ — الباخوزى : أبو الحسن على بن الحسن الباخوزى المتوفى سنة ٤٦٧ هـ
"دمية القصر وعصرة أهل المصر" تحقيق سامى مكى
المانى .

- ٢٥ — البحتري : الوليد بن عبادة الطائي المتوفى سنة ٢٤٨ هـ
" ديوان البحتري " ط بيروت سنة ١٩٦٦ م .
- ٢٦ — الهندادى : عبد القادر بن عمر الهندادى المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ
" خزانة الأدب ، ولب لباب العرب " ط . يولاق .
- ٢٧ — الهلادري : أبو المباس أحمد بن يحيى بن جابر المتوفى سنة ٢٧٩ هـ
" فتح البلدان " نشره رضوان محمد رضوان " ط المطبعة
المصرية بالازهر بمصر سنة ١٣٥٠ .
- ٢٨ — البيرونى : أبو الريحان محمد بن أحمد المتوفى سنة ٤٤٠ هـ
" الآثار الباقية عن القرون الخالية " تحقيق ادوارد سخرية
سنة ١٩٢٣ م .
- ٢٩ — البيهقي : ابراهيم بن محمد المتوفى سنة ٣٢٠ هـ .
" المحاسن والمساوى " ط بيروت سنة ١٣٨٠ هـ
- ٣٠ — التنوخى : أبو على المحسن بن على القاضى التنوخى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ
أ — " الفرج بعد الغدة " ط . دار الطباعة المحمدية ،
القاهرة سنة ١٣٧٥ هـ .
ب — " مشوار المحاضرة ، وأخبار المذاكرة " ط المفهد
بدمشق .
- ٣١ — التوحيدى : أبو حيان على بن محمد بن المباس التوحيدى المتوفى
سنة ٤٠٠ هـ .
" الامتاع والموانسة " تحقيق : أحمد أمين ، وأحمد الزين
ط : دار مكتبة الحياة ، بيروت .

٣٢ — الثعالبي : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي

المتوفى سنة ٤٢٩ هـ .

أ — التمثيل والمحاضرة " تحقيق عبد الفتاح الحلوط .

طه الحلبي بمصر ١٣٨١ هـ — ١٩٦١ م .

ب — ثمار القلوب في المضاف والمنسوب " تحقيق محمد

أبو الفضل إبراهيم طه . دار نهضة مصر ١٣٨٤ هـ —

١٩٦٥ م .

ج — " فقه اللغة وسر العربية " ط الحلبي بمصر ١٣٧٥ هـ

١٩٣٨ م .

د — " لاقياس " ط بغداد .

هـ — لطائف المعارف " تحقيق إبراهيم الأبياري ، وحسن

كامل الصيرفي طه . دار احياء الكتاب العربي —

القاهرة .

و — " من غاب عنه المطرب " ط بيروت ١٣٠٩ هـ

ز — " نشر النظم وحل المقيد " المطبعة الادبية بمصر

سنة ١٣١٢ هـ

ح — يتيمة الدهر في محاسن أهل مصر " مطبعة الصاوي

بمصر ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٤ م .

ط — " يتيمة اليتيمة " أو " تنة اليتيمة " ط طهران سنة

١٣٥٢ هـ نشر عباس اقبال .

٣٣ — الجاحظ : عمرو بن بحر بن محبوب المتوفى سنة ٢٥٥ هـ

أ — " البخلاء " تحقيق طه الحاجري ط دار المعارف .

القاهرة — ١٩٦٣ م .

- ب — " البيان والتبيين " تحقيق عبد السلام هارون
ط : لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٦٠م
- ج — " ثلاث رسائل للجاحظ " نشر يوشع فكل —
المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٨٢ هـ
- د — " الحيوان " تحقيق عبد السلام هارون ط لجنة
التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٠م .
- هـ — " رسائل الجاحظ " ط . التقدم — القاهرة سنة
١٢٣٤ هـ .
- و — " التاج في أخلاق الملوك " تحقيق أحمد زكي
باشا . المطبعة الأميرية القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ
- ٣٤ — الجرجاني : أبوبكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني
المتوفى سنة ٤٧١ هـ .
- أ — " أسرار البلاغة " الطبعة الثالثة .
- ب — " دلائل الإعجاز " مطبعة المنار سنة ١٣٣١ هـ
- ٣٥ — الجرجاني : علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني المتوفى سنة
٣٦٦ هـ .
- " الوساطة بين المتنبى وخصومه " ط الحلبي بمصر —
الطبعة الثانية سنة ١٩٥١م
- ٣٦ — الجصّي : أبو عبد الله محمد بن سلام الجصّي المتوفى سنة ٢٣٢ هـ
" طبقات الشعراء " ط ليدن سنة ١٩١٣م .
- ٣٧ — حاجي خليفة (كاتب جلي)
" كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون " ط السعادة بمصر

- ٣٨ - الحصرى : أبو اسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الحصرى المتوفى سنة ٤٥٣ هـ .
(زهر الآداب و ثمر الآلهاب) تحقيق على محمد البخارى
ط الحلبي بصر سنة ١٩٥٣ م .
- ٣٩ - الخطيب البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ
" تاريخ بغداد " ط . السعادة بمصر .
- ٤٠ - الذهبي : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤٨ هـ
" المبرق في خبر من غير " ط الكويت ١٩٦٠ م .
- ٤١ - الزوزنى : أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزنى .
" شرح المملكات السبع " مطبعة صبيح بمصر سنة ١٩٦٠ م
- ٤٢ - السبكي : تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي
" طبقات الشافعية الكبرى " ط الحسينية بمصر .
- ٤٣ - السمعاني : أبو محمد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي المتوفى
سنة ٥٦٢ هـ " كتاب الانساب " ط ليدن ١٩١٢ م .
- ٤٤ - السيوطي : جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن ابن أبي بكر المتوفى
سنة ٩١١ هـ .
" تاريخ الخلفاء " تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد
ط السعادة بمصر .
- ٤٥ - الشافعي : أبو الحسن علي بن محمد المعروف بالشافعي المتوفى
سنة ٣٨٨ هـ

"كتاب الديارات" تحقيق كوركيس عواد ط بغداد
سنة ١٩٦٦ م .

٤٦ - الصابي : أبو الحسن الهلال بن المحسن بن إبراهيم الصابي
المتوفى سنة ٤٤٨ هـ .

أ - "تحفة الامراء في تاريخ الوزراء" جمعة ميخائيل
عواد ط بغداد سنة ١٣٦٢ هـ .

ب - "رسوم دار الخلافة" تحقيق ميخائيل عواد ط
بغداد سنة ١٣٦٢ هـ .

ج - "الوزراء" تحقيق عبد الستار أحمد فراج ط .
احياء الكتب العربية سنة ١٩٥٨ م .

٤٧ - الاصفهاني : عماد الدين محمد بن الكاتب الاصفهاني المتوفى سنة
٥٩٢ هـ .

"خريدة القصر ، وجريدة المصر" تحقيق عمر الدسوقي

٤٨ - الاصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين الاموي المتوفى سنة ٣٥٦ هـ
"الأغاني" ط : دار الكتب وط . الساسي بمصر .

٤٩ - الصولي : أبو بكر محمد بن يحيى المتوفى سنة ٣٣٥ هـ .
"الأوراق" ط . الحلبي سنة ١٩٥٨ م

٥٠ - الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير المتوفى سنة ٣١٠ هـ
"تاريخ الامم والملوك" ط الاستقامة بمصر .

٥١ - المباسي : عبد الرحيم بن أحمد المباسي المتوفى سنة ٩٦٣ هـ
"معاهد التنصيص على شواهد التلخيص" ط السعادة بمصر

- ٥٢ - الفزالي : أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الفزالي المتوفى سنة ٥٥٥ هـ .
" احياء علوم الدين " ط الحلبي بمصر .
- ٥٣ - القلقشندي : أبو المباس أحمد القلقشندي .
" صبح الاعشى فى صناعة الانشا " ط المعادة بمصر
سنة ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٨ م .
- ٥٤ - الكازرونى : ظهر الدين أبو الحسن على بن محمد المتوفى سنة ٦٩٧ هـ
" مقامه فى قواعد بغداد فى الدولة المباسية "
تحقيق : كوركيس عواد ، ويخايل عواد ط الارشاد ، بغداد
سنة ١٩٦٢ م .
- ٥٥ - الكلبى : محمد بن شاكربن أحمد المتوفى سنة ٧٦٤ هـ
" فوات الوفيات " تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد
ط . المعادة بمصر سنة ١٩٥١ م .
- ٥٦ - كشاجم : أبو الفتح محمود بن الحسين بن السندى بن شاهك المتوفى
سنة ٣٦٠ هـ .
" أدب النديم " ط بولاق بمصر .
- ٥٧ - السمعودى : أبو الحسن على بن أبي الحسن بن على المتوفى سنة ٣٤٦ هـ
" مروج الذهب وسعدن الجواهر فى التاريخ " المطبعة
البهية - القاهرة سنة ١٩٣٨ م .
- ٥٨ - مسكويه : أبو على أحمد بن محمد المتوفى سنة ٤٥١ هـ .
" تجارب الامم " ط ليدن سنة ١٨٧٤ م .

- ٥٩ - المقدسي : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي البشاري
المتوفى سنة ٣٧٥ هـ .
" أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " طليدن سنة ١٩٠٦ م
- ٦٠ - النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٧٣٢ هـ
" نهاية الأرب في فنون الأدب " طدار الكتب المصرية
القاهرة سنة ١٩٤٩ .
- ٦١ - الهمداني : أبو الفضل أحمد بن الحسين بديع الزمان الهمداني
المتوفى سنة ٣٩٨ هـ .
" مقامات الهمداني " تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد
ط المعاهد بصر سنة ١٩٢٣ م .
- ٦٢ - الوشاء : أبو الطيب محمد بن اسحاق بن يحيى المتوفى سنة ٣٢٥ هـ
" الموشى " ١٩٦٥ م .
- ٦٣ - اليافعي : أبو عبد الله بن أحمد بن علي بن سليمان اليافعي
المتوفى سنة ٧٦٨ هـ .
" مرآة الجنان ، وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من
حوادث الزمان " ط بيروت - الطبعة الأولى .
- ٦٤ - ياقوت : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي
الرومي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ .
" معجم البلدان " ط السعادة بمصر .

ثانيا : المراجع العربية الحديثة :

- ١ - ابراهيم أبو الخشب (دكتور) .
" تاريخ الادب العربي في العصر النحاسي الثاني - ط
دار الفكر العربي بمصر .
- ٢ - أحمد أحمد بدوي (دكتور)
أ - " القاضي الجرجاني " نوايح الفكر العربي . ط دار
المعارف بمصر .
ب - " عهد القاهرة الجرجاني " - أعلام العرب - ط .
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر .
- ٣ - أحمد الاسكندري ومصطفى عناني " الوسيط في الادب العربي
وتاريخه ط دار المعارف بمصر .
- ٤ - أحمد أمين (دكتور)
أ - " فجر الاسلام " ط بيروت سنة ١٩٦٩م
ب - " ضحى الاسلام ط - مكتبة النهضة بمصر .
ج - " ظهر الاسلام - ط بيروت .
- ٥ - أحمد الشعراوي " الادب العربي في ظلال القوميات " ط - الازهر
سنة ١٩٥٣م .
- ٦ - أحمد شلبي (دكتور)
" كيف تكتب بحثا أو رسالة " ط النهضة بمصر سنة ١٩٧٦
٧ - الهارودي : محمود سامي الهارودي .
" ديوان الهارودي " مطبعة الجريدة بمصر .

- ٨ — بدوى طبانة (دكتور)
"الصاحب بن عباد الوزير العالم" (أعلام العرب)
٩ — جورجى زيدان
أ — تاريخ آداب اللغة العربية "ط — الهلال بمصر
سنة ١٩١٢م
ب — "تاريخ التمدن الاسلامى" الهلال بمصر سنة
١٩٣١م
١٠ — حسن ابراهيم حسن (دكتور)
"تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى
١١ — الرافعى : مصطفى صادق الرافعى
أ — "تاريخ آداب العرب" ط — الاستقامة — القاهرة
ب — حضارة العرب فى العصور الاسلامية الزاهرة ط — لبنان
١٢ — زكى مبارك "دكتور"
أ — النشر الفنى فى القرن الرابع الهجرى "ط دار الكتب
المصرية
ب — "جناية أحمد أمين على الادب العربى" ط — بيروت
١٣ — سيد قطب
"النقد الادبى أصوله ومناهجه ط الثانية سنة ١٩٥٤م
١٤ — سيد نوفل (دكتور)
"شعر الطبيعة فى الادب العربى" ط مصر سنة ١٩٤٥م

١٥ - شوقي ضيف (دكتور)

أ - "تاريخ الادب العربي - العصر المباسي الثاني"

ط دار المعارف بمصر •

ب - "الفن ومذاهبه في الشعر العربي" ط - دار

المعارف بمصر •

ج - "الفن ومذاهبه في النثر العربي" ط - دار

المعارف بمصر •

د - "المقامة" ط دار المعارف بمصر الطبعة الثانية

١٦ - شفيق جبري

"أبو الفرج الاصبهاني" نوايغ الفكر العربي ط - دار

المعارف بمصر •

١٧ - طه حسين (دكتور)

أ - "حديث الاربعاء" ط - دار المعارف بمصر •

ب - "خصام ونقد" ط - بيروت •

١٨ - عبد السلام أبو النجا سرحان (دكتور)

"رشفات من رحيق الادب" الطبعة الثانية سنة ١٩٦٥م

١٩ - عبد الفتاح محمد الحلو

"أبو منصور الثعالبي وآثاره الادبية" (رسالة ماجستير)

٢٠ - علي محمد موسى

"ثقافة الثعالبي وأثرها في نقد المتنبي" (رسالة

ماجستير) •

- ٢١ - محمد جمال سرور
" تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق "
- ٢٢ - محمد زغلول سلام (دكتور)
١ - " ابن قتيبة " - نوابغ الفكر العربي ط ٠ دار
المعارف بمصر
ب - " تاريخ النقد العربي " ط دار المعارف بمصر
- ٢٣ - محمد مروحان " دكتور
" نسمات من عبر الادب " ط ٠ دار الطباعة المحمدية
بالازهر بالقاهرة ط الثانية ٠
- ٢٤ - محمد عبد الجواد الاصمى ٠
" اهل الفرج الاصبهاني وكتابه الاغانى ط - دار المعارف
بمصر ٠
- ٢٥ - محمد عبد العزيز الكفراوي (دكتور)
١ - " تاريخ الشعر العربي ج ٢ و ٣ " مطبعة النهضة
بمصر ٠
ب - " الشعر العربي بين الجمود والتطور " مطبعة
النهضة بمصر ٠
- ٢٦ - محمد عبد المنعم خفاجه (دكتور)
١ - الآداب العربية في العصر العباسي الثاني ط -
الازهر بمصر ٠
ب - " دراسات في تاريخ الادب العربي " بالاشتراك مع
الدكتور عبد الرحمن عثمان ٠

- ٢٧ - محمد كامل حسن (دكتور)
" في أدب مصر الفاطمية " ط دار الفكر العربي بمصر
- ٢٨ - محمد مصطفى هداره (دكتور)
٣ اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري
ط - دار المعارف بمصر الطبعة الثانية .
- ٢٩ - محمود غاوى الزميرى
" الأدب في ظل بني بويه " ط الامانة بمصر .
- ٣٠ - مصطفى محمد الشكعة (دكتور)
١ - " فنون الشعر في مجمع الحمدانيين " ط - مكتبة
الانجلو بمصر .
ب - " بديع الزمان الهمداني " ط - مصر .

.....

ثالثا : المراجع الأجنبية المترجمة :

- ١ - آدم مثر " الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى "
ترجمة محمد عبد الهادى أبوريدة ، ط ١ - لجنسة
التأليف والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٩٥٧ •
- ٢ - براون : ادوارد جوانفيل براون
" تاريخ الادب فى ايران من الفودوسى الى السمدى ،
ترجمة الدكتور ابراهيم الشواربى ط ١ - السعادة بمصر سنة
١٩٥٤ •
- ٣ - بنيامين : بنيامين بن بونه التطيلي الاندلسى المتوفى سنة ٥٦٩ هـ
" رحلة بنيامين " ترجمها عن الاصل المجرى وعلق حواشيها
وكتب ملحقاتها عزرا جدار - الطبعة الشرقية ببغداد
سنة ١٣٦٤ هجرى •
- ٤ - زهيرى هونكه : " شمس العرب تسطع على الغرب " ط بيروت ،
ترجمة فاروق ببيضون وكمال دسوقي •

المقدمة : ١

الباب الأول

" المجتمعان العراقي والفارسي في القرن الرابع الهجري "

الفصل الأول :

- " سكان فارس والعراق " ٢
أ - المنصر المصري ٣
ب - المنصر الفارسي ٨
ج - المنصر التركي ١٢
د - منصر الرقيق ١٧

الفصل الثاني :

- " طبقات المجتمع " ٢٢

الفصل الثالث :

- " الدوافع الدينية " ٢٧
أ - الشيعة وأهل السنة ٣٨
ب - أهل الذمة ٤٢
ج - الصابئة ٤٨

الفصل الرابع :

- " الاعياد والمواسم والمواكب " ٥٢

الفصل الخامس :

- " الفناء والموسيقى " ٦٥
أ - الفناء في العصر الجاهلي ٦٦
ب - الفناء في العصر الأموي ٦٨

الصفحة

الموضوع

- ج - الدنيا في مصر المباشرة ٧٠
د - مجالس الطرب والفن ٧٣

الباب الثاني

" أبو منصور الثعالبي وكتابه اليتيمة "

الفصل الأول :

- ج - حياة الثعالبي ٧٨
أ - مولده ونشأته ٧٩
ب - أخلاقه ٨٥
ج - منزله بين الأدباء ٨٨

الفصل الثاني :

" ثقافته ومؤلفاته "

- أ - مصادر الهامة وثقافته ٩٣
ب - آثاره ومؤلفاته ٩٩

الفصل الثالث :

" اليتيمة "

- أ - التعريف بها ١١٣
ب - الدافع الى تأليفها ١١٥
ج - منهج الثعالبي وخصائصه فيها ١١٩

الفصل الرابع :

" اليتيمة "

- أ - مدى تمثيلها لأدب القرن الرابع الهجري ١٢٨
ب - تأثيرها بالمؤلفات السابقة ١٣٣
ج - أثرها في الكتب اللاحقة ١٣٧

الفصل الخامس:

" اليتيمة في ميزان النقد "

- ١ - آراء النقاد القدامى في اليتيمة ١٤٤
- ٢ - آراء النقاد المحدثين في اليتيمة ١٤٥
- أ - رأى الدكتور زكى مبارك ومناقشته ١٤٥
- ب - رأى الدكتور محمد مندور ومناقشته والرد عليه ١٤٨
- ج - رأى الدكتور طه حسين ومناقشته والرد عليه ١٥٤
- د - رأى الاستاذ أحمد أمين ومناقشته ١٥٢
- هـ - رأى الاستاذ محمد اسماعيل الصاوى ١٥٢
- و - رأى الاستاذ محمد محى الدين عبدالحميد ومناقشته ١٥٨

الباب الثالث

" آثار الاجناس البشرية والطوائف الدينية فى "

أدب اليتيمة "

الفصل الأول :

- الرج الفارسية فى أدب اليتيمة ١٦٣

الفصل الثانى :

- أثر الحياة العربية فى أدب اليتيمة ١٨٩

الفصل الثالث :

- الرفيق وآثاره فى أدب اليتيمة ٢١١

الفصل الرابع :

- صدى التشيع فى اليتيمة ٢٣٥

الفصل الخامس :

- آثار أهل الذمة فى اليتيمة ٢٥٨

الباب الرابع

"التفاوت الطبقي في المجتمع وأثره في اليتيمة"

الفصل الأول :

موقف الحكام من الأدب ٢٧٣

الفصل الثاني :

تurf الحكام وأثره في أدب اليتيمة ٢٩١

الفصل الثالث :

أثر الخناء والطرب في أدب اليتيمة ٣٢٥

الفصل الرابع :

المجون وأثره في اليتيمة ٣٥٦

الفصل الخامس :

مظاهر الفقر والحرمان في أدب اليتيمة ٣٨٨

الخلاصة ٤٢٤

المصادر والمراجع ٤٥٢